فائق بطي

الوجدان

مذكرات

المـــــؤلـــــف : فائق بطي
عنوان الكتـــاب : الوجدان
الـنـاشـــــــــر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٥

الحقوق محفوظة

Author: Fayeq Batty
Title: The Conscience
Al- Mada P.C.
First Edition : Octobre 2005

Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

فائق بطي

الوجدان

الجزء الاول

الفصل الأول
الاجتهاد

مع فجر ذلك اليوم.. ولد في عائلة صحفية معروفة في بيت كبير يقع في مدخل شارع الزهاوي بمنطقة الاعظمية. كانت بغداد آنذاك تمتد في جانب الرصافة لنهر دجلة من الاعظمية الى الباب الشرقي عبر باب المعظم. على الجانب الآخر من نهر دجلة العظيم، يمتد (الكرخ) الذي اشتهر عبر سنوات طوال بالكرخ الغاضب ضد الدخلاء في بقعة جميلة ضمت دار (المختار)، وهي الكنية التي كانت تطلق على مقر السفارة البريطانية. وعلى بعد امتار من (مختار ذاك الصوب) تقبع دار (السيد) المأمونة، كما كان يحلو للمالك رئيس وزراء العراق المزمن في العهد الملكي، نوري السعيد، ان يصف داره الفخم.

شهدت بغداد في السنوات الست الأولى لطفولته ثلاثة احداث هامة لم يفقه شيئا منها، ولا يذكر انه تلقى جوابا لتساؤلاته العفوية عنها: موت الملك غازي بحادث سيارة غامض، انقلاب بكر صدقي العسكري، والحرب العالمية الثانية. لماذا اهمل الوالد تلقينه بعض الاسطر ليرد على تساؤلات اترابه في روضة (الامير فيصل) بالوزيرية حول صاحب الصورة التي حملها معه ذات صباح وهو في طريقه الى الروضة. قال لهم ان أباه نشر الصورة في صحيفته لأنه يحب صاحبها ومعجب به. لو كان ابوه قد حذره بأن حمل تلك الصورة (جريمة) حتى لو قام بها طفل بريء، لوفر عليه صفعة قوية تلقاها من الست (فهيمة) المديرة وهي تلعن (هتلر) وأبا حامل الصورة. كانت تلك اول (جريمة) سياسية يرتكبها.

تدخل الوالد اثر هذه الحادثة لإنقاذه، فأدخله مدرسة النجاح الابتدائية الكائنة في منطقة السنك. مدرسة نموذجية يديرها معلم لبناني اسمه (فؤاد قومي) اعجب به منذ

اليوم الاول في المدرسة لآناقته وقوة شخصيته وحبه الشديد للتلاميذ. كان الاسبوع الأول في تلك المدرسة حدثا جديدا في حياة الطفولة. كل شيء جديد.. وجوه التلاميذ والمدرسين، وجوه الناس الطيبين الذين يقابلهم في الطريق.. الدفاتر الحلوة والاقلام الملونة.. واخيرا، الواجب المدرسي اليومي.

كان ينهض مبكرا فرحا نشطا في كل صباح. يرتدي ملابسه بسرعة ويتناول فطوره المحبب جدا (القيمر والدبس) مع خبز التنور الحار، ليلحق بأخيه (سامي) الذي ينتظره في رأس الشارع ليلحق بالباص الخشبي الذي يمر كل نصف ساعة، ويحتل المقعد الامامي بجانب السائق. كان سامي حريصا على الجلوس معه في ذلك المقعد لسببين: الاول، تعلقه الشديد به بحيث يود ان يكون معه في البيت وفي الصف، وفي الطريق الى المدرسة. السبب الثاني، هو رغبة الطفلين في مراقبة الطريق الطويل ومشاهدة المناظر بوضوح منذ انطلاقة الباص قي شارع الامام الأعظم ومرورا بباب المعظم فشارع الرشيد حتى رأس الدربونة في السنك، لعلهما يظفران بشيء جديد.

تعلق بالمدرسة وبالمدرسين. احبها بشدة وكره البيت بشدة ايضا. ان لحظة العودة عصر كل يوم هي من اقسى اللحظات في حياته حين يشعر بأنه سوف يجد البيت خاليا من ساكنيه - بيت كبير وواسع ارعبته دوما برودته وتعدد غرفه وخلوه من حديقة او فسحة تساعده على قضاء الوقت قبل عودة الأب من عمله في الصحيفة، والأم من زيارات (القبول) التي تجمع نساء المحلة طيلة ايام الأسبوع، وقبل ان يعود (بديع) من مدرسته كانوا يعودون وكأنهم على موعد محدد. يتوافدون الواحد بعد الآخر كل خمس دقائق، وما ان يلتم شمل العائلة، حتى تبدأ مخاوفه من جديد مع تباشير الظلام. يكرر لعنته للمهندس الذي صمم واشرف على بناء هذا البيت فجعله قلعة تردد اصداء ساكنيها ان سكتوا، وحرمه من حديقة تمتص غضبه وتبدد مخاوفه. كان البيت بالنسبة له سجنا رهيبا، لأنه كان يحب الانطلاق ويعشق المساحات الرحبة، مما دفعه الى الهروب من البيت وقضاء الليالي في دار جده الكائنة في الوزيرية. ان حديقة تلك الدار تشبه الى حد كبير مزرعة مصغرة تحتوي على كل شيء يجتذب الطفل، وفي مقدمتها اشجار الفاكهة والتوت الابيض مثل قناديل فضية.

تتواصل الايام مسرعة وهو يتقدم اترابه في الدراسة. حياة مملة مقرفة لم يعرف

سعادة الطفولة فيها بسبب انشغال الوالد بالصحافة والسياسة، وتعلق الوالدة بمجموعات (القبولات). انكب على التهام دروسه وحفظ الكراريس التي يكتبها اكثر من مرة. هدوء البيت يزعجه ويرعبه. خلو الشارع وسكون الجيران يضيفان الى ضجره هما جديدا.

وفجأة، صحا على ضجة في الشارع.. مظاهرات صاخبة في شارع الامام الاعظم تسير باتجاه البلاط الملكي تعكر ذلك الهدوء، وصيحات تشق عنان السماء. منعته الوالدة من الخروج الى الشارع، بينما راح الوالد يدير قرص المذياع على محطة بغداد وهي تردد الاناشيد الوطنية الحماسية. عرف في تلك اللحظة الجواب على تساؤلاته العفوية حول مقتل ملك، وفشل انقلاب عسكري.. ادرك ان هناك حربا يشنها عدو متغطرس ضد شعبه وبلاده. سأل الوالد عن سبب الحرب، فقال: ان الانكليز يعتدون على القوات الوطنية في الشعيبة وسن الذبان والحبانية. ببراءة الطفولة، طلب منه اشراكه في الحرب ليقاتل المدعو (ابو حنيك) كلوب باشا. الا ان الوالد كان ينشر الحبور في نفسه الفتية القلقة بالتأكيد على حتمية الظفر في نهاية المطاف.

انطلق الى الشارع بعد ان سمع هدير الطائرات وهتافات المتظاهرين تبدد السكون، مستفسرا من احدهم عما يجري، فأدرك ان (الطيور السوداء) المحلقة في سماء الوطن هي انكليزية وليست عراقية. خاب ظنه، وقفل راجعا الى البيت وهو يتمتم بعبارات مخنوقة (طيارات انكليز) وما ان لمحه الوالد، حتى احتضنه والدموع تنهمر من عينيه قائلا: كل شيء انتهى يا ولدي. كانت تلك انتفاضة آيار ١٩٤١، او كما يسميها العراقيون: حركة مايس.

مائة يوم في صيف ذلك العام سحقها في مطبعة جريدة (البلاد). يذهب بصحبة الوالد كل صباح ويعود في الظهيرة محملا بالمجلات والصحف المصرية. يباشر مهمته بعد الغداء في تصفحها ورقة ورقة، واقفا عند كل صورة ملونة او نكتة طريفة، ولم يدر في خلده ان هذا التعلق الشديد بالصحف والمجلات العربية سوف يجعله يوما يتعامل مع الحرف المقروء والصورة المطبوعة كما يتعامل البائع مع المشتري.

ذات مساء، وافراد العائلة يتناولون العشاء، الفاصوليا اليابسة التي احبها كما يحبها جميع افراد العوائل العراقية، ترامت الى اذنه طرقات خفيفة على الباب. قفز مسرعا اليه ليرى مفوض الشرطة (قاسم) بقامته الفارهة مبتسما، فيبادره بالسؤال:

- بابا موجود ؟

نادى على الوالد ووقف مشدوها الى جانبه يسترق السمع الى حديثهما .

قال قاسم:

- مساء الخير استاذنا .

- اهلا وسهلا، خير ان شاء الله؟

تعثرت الكلمات على لسان المفوض وهو يواصل حديثه:

- العفو مولانا ، مدير موقف السراي يطلب حضورك .

- ما الخبر يا قاسم، استفسار ام ... ؟

كان المفوض قاسم يدرك جيدا ما وراء الاكمة، وما يعني السراي بالنسبة للوالد، فقال بكلمات تكاد ان تسمع:

- اعتقد انه أمر هام ومستعجل .

- اذن، امهلني دقيقتين لارتدي ملابسي .

لحقت بالوالد الأم المسكينة التي اعتادت مثل هذه المواقف، واعدت لها (العدة): وسادة وبطانية سلمتها امانة بيد المفوض وهي تقول له: روح ان شاء الله ربي ينتقم من نوري السعيد وبطانته .

رد عليها قاسم:

- والله خاتون هذه اوامر .. الله كريم.

كان (الفرسان) الاربعة الذين يفتخر بهم الوالد قد تجمهروا في (هول) الدار مشدوهين، يرتجفون من منظر مفوض الشرطة العملاق ومن منظر السيارة السوداء الجاثمة امام الباب، حين خرج الوالد مودعا والدموع لا تجرأ على السقوط من عينيه . التفت الى الوالدة وقال:

- لا اوصيك بهم، قد تكون هذه المرة اطول من المرات السابقة .

سأل الأم المسكينة عما يجري، فقالت بأن الحكومة تريد استجواب الأب حول ما ينشره في (البلاد) وانه سوف يعود بعد ساعة او ساعتين . قال في نفسه: ما دام الأمر لا يتطلب سوى ساعتين، فلم القلق؟ لكن سرعان ما غلبه النعاس، ولم يفق من نومه الا في الصباح الباكر . سأل (بديع) عن الوالد، فقال بأنه سافر الى العمارة بمهمة صحفية!

وطالت هذه المهمة. كان الوالد في الحقيقة معتقلا سياسيا هناك ضمن المئات من الوطنيين. عطّلت الحكومة صحيفة البلاد. باعت الأم المسكينة كل ما تملك من (صيغتها) ذهبا كان ام فضة لتشبع بطون الاولاد الفارغة الذين كانوا يتناولون وجبة واحدة من الطعام في اليوم، ويتذوقون طعم اللحم مرة واحدة في الاسبوع.

عرف في تلك الايام السوداء، ما هو الاستعمار وما هي الثورة: الاستعمار هو المسؤول عما جرى للوالد وللمئات من المعتقلين وراء الاسلاك الشائكة في مدينة العمارة. والثورة تعني، عودة الوالد اليهم وعودة الخبز واللحم والمجلات الملونة. واصبحت لعبة الحرب ضد الاستعمار، لعبته المفضلة مع (سامي) لا يضاهيها سوى صيد الطيور والعصافير و(قرقشة) لحمها.

كان يجمع اعواد الكبريت وعلب السجائر الفارغة، ويسرق ازرار القمصان من الوالدة، ليشكل منها جنودا وعربات ودبابات، فتخوض قوات الطرفين المعارك تلو المعارك حتى تنتهي اللعبة في نهاية المطاف بانتصار القوات الوطنية على قوات الاستعمار، لتقوم بعدها القوات العراقية بتطهير مدينة العمارة من الاعداء واطلاق سراح الوالد.

كانت تلك الخيالات تسيطر على عقله وتفكيره. اما (بديع) و (كمال) فكانا يقضيان الوقت بنوع آخر من " الملاعيب " لأنهما يكبرانه و(سامي) بثلاث واربع سنوات. يلهو بديع مع اولاد الجيران، زهير قصير، خلوق امين زكي ورمزي ناظم واولاد سامي شوكت، بجمع (الدعبل) وبألوانه الزاهية ومحاولة الظفر بأكبر عدد ممكن من (الدعابل) حتى استطاع ان يجمع ما يقرب من ثلاثمائة دعبلة استقرت في جراب خاص بغرفته. اما (كمال) فكان خاسرا كلَّ يوم تقريبا لكل ما جمعه من " جعوب " محلة شارع الزهاوي بعد ان صرف الوقت في تطعيمها بالرصاص لتكون اثقل وزنا في اصطياد " جعوب " عامل حيدر سليمان ويوسف جرجيس حمد.

* * *

رن جرس الهاتف في الدار.. رفع كمال السماعة، فصرخ مسقطا اياها من يده:

– يريدون منا ان نستمع الى نشرة الاخبار الساعة الثامنة.

سألته الوالدة بكل برود:

- من قال هذا الكلام؟

- حسن، صديق بابا ويقول بأن اذاعة بغداد سوف تذيع اسماء المعتقلين المفرج عنهم بعد نصف ساعة.

التصق جميع افراد العائلة بجهاز الراديو ومعهم (شريف) موزع الجريدة الامين الذي تحول بعد تعطيلها الى المساعدة في شؤون البيت والحراسة، يرقبون اللحظة التي سيذيع فيها (مجيد) نشرة الأخبار. يعلن المذيع الارادة الملكية باطلاق سراح المعتقلين السياسيين. تتوالى الاسماء التي شملها القرار وتصل الى الرقم ٥٢, تنهض الوالدة المسكينة وهي تتمتم بعبارات مخنوقة: لقد كذب علينا الانذال. لحظة عصيبة تمر، يصرخ (شريف):

- مبروك عمه، عمي رقمه ٥٥ .

امتلأت الدار بالمهنئين من الاقارب والجيران. الكل فرح مسبشر بالخبر، بالرغم من انهم كانوا في " قطيعة " شبه تامة طيلة اشهر اعتقال الوالد. الا ان السبب كان مبررا ومعروفا.. الخوف من بطش الحكومة بالمتعاطفين مع ازلام هتلر، كما كان يحلو لصحف نوري السعيد من دمغ كل وطني ومعارض للسلطة، بالنازية، حتى تحوّل الشيوعيون وانصار الديمقراطية بقدرة قادر الى نازيين، بينما معارك ستالينغراد دائرة على اشدها، وجيوش هتلر على ابواب موسكو.

مع عودة الوالد من المعتقل، اعاد اصدار صحيفته (البلاد) . ومع تلك العودة الحميدة، اصبح اكثر فضولا من السابق، حيث بات يسأل ويستفسر عن كل شاردة وواردة. كان يلتصق بالوالد ولا يتركه لحظة منذ عودته الى الدار حتى يودعه الفراش. ترى هل كانة التصاقه به رغبة في التعلم منه، او للاحتماء به، او لربما الخوف عليه من بطش الاعداء.. ومع ذلك، كان الوالد يبتهج لتعلقه به، ويطرب لمتابعته له ويطمئن اليه اكثر فاكثر. بدأ يهتم به دون اخوته. لعله كان قد صمم على ان يورثه ما يملك من الذخيرة الوطنية، خاصة بعد ان شعر بابتعاد الاولاد عن السياسة والصحافة. لقد اصبح الوالد مثالا له بعد ان عرف عنه الكثير من سيرة حياته.

عرف بأنه ولد في بيئة متوسطة الحال في الموصل، وان اباه (أي جده) كان حائكا لا يكاد ان يسد رمق اطفاله الصغار، وقد اخذ عنه من الاخلاق والعادات: الصدق

والامانة وحسن المعاملة مع الناس والصراحة والقنوع. اضاف اليها وهو في سن الخامسة عشرة بعد وفاة والده الخصال الاخرى كالاعتماد على النفس من اجل اعالة اسرة متكونة من الوالدة وشقيقين وشقيقتين هو اكبرهم سنا، والجرأة في اتخاذ القرار في الوقت المناسب.

كما عرف من الحكايات التي كان يرويها له في بعض الحالات التي يكون فيها مطمئنا الى ان ما يزرعه في نفس الابن الرابع ستثمر خصالا، تماما كما اراد ان تكون تلك الخصال لدى " الفرسان الاربعة " متساوية، او هكذا طمن النفس بما يشتهيه في تربية صالحة لفلذات كبده.

عرف ان والده كان يقضي فترة الصباح والضحى في السنوات الاولى لطفولته وتلمذته مع اترابه الصغار في مراقبة الزائرين من المتعبدين الذين يقصدون بيت الله واكثرهم من العجائز والشيوخ، وقليل من الشبان. وفي الظهيرة يتوجه الى دار جدته كل يوم لوجود اخت عجوز لها كانت تحبه كثيرا وتعمل كل ما في وسعها لأيناسه. فتروي له حكايات غريبة معظمها خرافية لكنه كان مغرما بتلك الحكايات وطالما طلب اليها اعادة بعضها مثنى وثلاث. ولو كانت خالته هذه متعلمة، واعتاضت عن هذه الحكايات بقصص تاريخية وحكايات ادبية لأغنت قريحته الفتية من المعرفة، بالرغم من انها احتلت مكانها عندما بدأ حياته الادبية والصحفية وهو في السابعة عشرة من عمره.

وظهرا يعود الوالد طارقا الى البيت، والحر قد بلغ شدته، يهرع الى (السرداب) ويقضي سحابة الهاجرة باللعب ببناء بيوت صغيرة، او الاستئناس بمشاهدة الطيور الجميلة وافراخها وكيف تبيض البيض وتحتضنها وتفقؤها فتخرج صغارها وتحميها. وطالما وقف على حراسة اعشاش هذه الطيور مخافة ان تهجم عليها القطط والسنانير فيؤدي واجب الكشافة يوم لم يكن تعرف في العراق اساليب الكشافة.

ومن عجيب امر والده في الصغر والحداثة، انه كان لا يميل الى البلولة حتى في اطول انهار الصيف على شدة حره الذي يولد ارتخاءا في الجسم. وهذه كانت احدى العادات المضرة به، والتي ورثها عنه في الصغر وما تزال حتى الآن، سوى ان عادة الوالد كانت قد تولدت لديه بسبب مرض شديد كان قد اصابه في طفولته مما سبب له

تلك البلولة اللعينة، والتي بدأ يشعر بنتائجها حينما صار يضني جسمه العمل اليومي ولم يستطع ظهرا أن يقيل ولو ساعةً واحدة.

كما كان فخورا بوالده عندما حدثه ذات يوم بأنه اضطر بعد وفاة ابيه ان يغادر الموصل الى بغداد حيث اخذ يشتغل بالتدريس تارة وبالشؤون الصحفية تارة اخرى وفي تحصيله العالي من الثقافة، كي يجمع بين اعالة الاسرة في الموصل، والتزود بالعلم والمعرفة، حتى بلغ به العمل المضني دورا دفعه الى التوقف عن الدراسة مدة من الزمن. الا انه واصل كفاحه وتخرج من دار المعلمين ومن ثم من كلية الحقوق واحتل مكانة مرموقة في الادب والصحافة وهوفي سن الخامسة والعشرين.

وهكذا نشأ الوالد، نشأة عصامية، كان لها بطبيعة الحال ان تعكس صورتها على تربية الاولاد.

* * *

دامت تلك الصداقة بينه وبين الوالد في مطلع الاربعينيات عامين...

عاد الى الدار فرحا بشهادة البكلوريا الابتدائية، ابتسم الوالد وطلب منه ان يجلب له فنجان قهوة الى مكتبه على غير عادته. نظر اليه واحس بأن هناك أمرا يود مصارحته به قبل غيره من الاولاد. ابتسم ثانية وقال:

- هل ترغب بالسفر الى مصر؟

كانت في الحقيقة مفاجأة لم يتوقعها، رغم انه كان يعرف مصر من خلال المجلات العديدة التي يطالعها باستمرار، فقال له:

- لماذا يا والدي؟

- لأني اود ان اصحبكم انت واخوتك معي الى القاهرة.

- ولماذا القاهرة بالذات؟

- لأني احبها، ولي اصدقاء اعزاء هناك في ارض الكنانة.

ظن للوهلة الاولى ان السفر سيكون لقضاء اجازة العطلة الصيفية، ففرح جدا. الا ان السفر كان طويلا.

تم كل شيء بسرعة. الكتب شحنت بصناديق حديدية الى القاهرة. اثاث الدار كان نصيبها المزاد العلني. الدار بيعت وسلمت الى وزارة المعارف. السفر طويل، والمهمة ليست سهلة.. انها الهجرة.

عشر على السبب مساء الخامس من ايلول ١٩٤٦ في شقة جميلة تقع في شارع عبد الخالق ثروت في وسط القاهرة، عندما قال له الوالد:

- الوضع في العراق لا يطاق.

تعثرت الكلمات على لسانه بشيء من الحذر:

- ولكن وضعنا هنا ليس افضل.

اجاب الوالد بعد ان استنشق نفسا عميقا ينم عن ألم مكبوت في اعماق نفسه:

- الخبز. .الحرية. .الكرامة. . كلها ضاعت في العراق يا ولدي العزيز.

رد عليه بوجل:

- وهل سنبقى هنا مدة طويلة؟

سكت الوالد. . وكف هو عن الاستفسار.

جرت الأمور ببساطة رغم ان الحياة في القاهرة كانت جديدة في كل شيء. المدرسة ثانوية تابعة الى جامعة امريكية والدراسة صعبة باللغة الانكليزية. الوالد يرغب ان يتعلم الاولاد اللغة الانكليزية ويتقنوها قراءة وكتابة ليتسع فكرهم اكثر ويستوعبوا الثقافة الاجنبية، فاذا ما تبع احدهم خطاه في عالم الصحافة او السياسة، يكون اساسه اقوى وامتن كما تساعده اللغة في الحصول على الشهادة العليا التي كان يتمناها لأولاده الاربعة بعد ان فشل هو في الحصول عليها وسكب من اجلها لأول مرة دموعه الحارة في غرفته الخاصة منفردا وحده في محلة (جديد حسن باشا) يوم سافرت اول بعثة علمية لدولة العراق الحديثة الى بيروت وكان مرشحا لعضويتها، وقد ألح عليه آنذاك للالتحاق بالبعثة، معاون مدير المعارف العام ١٩٢٢ وبحضور الدكتور امين باشا المعلوف. الا انه تخلف عن الالتحاق بها بسبب اعالته لأسرته التي تركها ابوه امانة في عنقه بعد رحيله عن الموصل.

تابع الأب مهنته الشاقة في رحلة البحث عن المتاعب. التحق محررا للشؤون العربية في جريدة (الاسبوع) لصاحبها جلال الدين الحمامصي، ورئيسا للقسم العربي في جريدة (الأهرام) اليومية. ومن على منبر زاويته " دنيا العرب في اسبوع " تلقى ابنه دروس الوطنية العربية. تعلم ان وطنه كل دنيا العرب وليس العراق فقط. مدينته القاهرة مثلما هي بغداد وان تبدلت اللهجة والظروف والوجوه. بدأ يحس بعروبته فكرا

وسياسة ومعايشة. تفجرت احاسيسه مع تفجيرات القنابل التي عمّت شوارع القاهرة ضد السلطة العميلة للأجنبي.

كان معجبا بالقاهرة. مدينة جميلة وواسعة. في بغداد، كان يظن ان كل مدن العالم لابد ان تكون شبيهة بها. لكنه وجد القاهرة مدينة حلوة في كل شيء. شوارعها وعماراتها الشاهقة. دور السينما جميلة وعديدة. لم يكن يعرف في بغداد سوى سينما الزوراء والوطني وغازي في باب الشرقي. المخازن كبيرة وفخمة. انه يحب الحلوى والشوكالاته التي افتقدها في بغداد كما افتقد اشياء محببة كثيرة تسبح في خيال الطفل، فتحرمه من لذة ان هو صحا على حلم لا يتحقق.

ذات مساء، دوى صوت انفجار شديد اهتزت له العمارة. ركض الى شرفة الشقة فوجد ألسنة النار تتصاعد من البار الذي يحتل الطابق الأرضي. كان يعرف ان هذا البار الليلي يرتاده الجنود والضباط الانكليز. لقد ضربه الوطنيون المصريون بالقنابل. مع الضربة الاولى، اكتض الشارع بالمئات من المتظاهرين وهم يرفعون الشعارات ويرددون الهتافات ضد الملك فاروق والاستعمار الانكليزي ويطالبون بالجلاء. تذكر تلك الهتافات في شوارع بغداد عام ١٩٤١. أيقن ان الاستعمار في مصر هو نفسه ذلك الاستعمار في العراق. في كلا القطرين العربيين، يقبع ملك يحرسه جيش اجنبي ويدير شؤونه السياسية نفر من المنتفعين (العملاء) هم ابناء الطبقة الرجعية. ردد مع نفسه: اذن، الموت للاستعمار، وليسقط الخونة الرجعيون هنا في القاهرة وهناك في بغداد.

* * *

بدأت الحياة الجديدة في القاهرة تدخل مرحلة صعبة. الوالد سئم فكرة الابتعاد عن الوطن، خصوصا ان الوضع السياسي في العراق لم يكن سيئا او ارهابيا يستوجب الهجرة. الصعوبات المالية جراء تعطيل جريدة (البلاد) والفلوس التي جلبها من بغداد وهي حصيلة بيع الدار والاثاث بدأت تنضب. الراتب في " الأهرام " لا يكفي ايجار الشقة. الحالة النفسية التي اعقبت المهاترة الصحفية مع كامل الجادرجي راحت تضغط بنتائجها على سمعته السياسية. اجور دراسة الاولاد عالية.

اما هو، فكان عليه ان يقف الى جانب والده. الم يصارحه بالحقائق في بغداد قبل الهجرة، فلماذا لا يصارحه هو بالحقائق ليخفف عنه ازماته.

قال للوالد:

– الم تقل لي بأن الخبز والكرامة ضاعت في العراق؟

– . . .

سكت لحظات، ثم اردف بالقول:

– هل فكرت بالهجرة الوقتية ام الدائمة؟

صحا الوالد على عبارة دائمة، فصرخ بصوت مبحوح:

– لا، لم أقلْ ابدا هجرة بلا عودة.

– اذن، لماذا بعت البيت والاثاث ان كانت النية محددة بفترة زمنية؟

ارتبك الوالد لأول وهلة، لكنه فطن الى الدوافع التي كانت وراء القرار بالهجرة مقنعا نفسه قبل غيره بأن الهروب المؤقت من وضع سياسي مائع كان كافيا لتبرير "الهزيمة" وهو الذي لم تهزه او تفت في عضده السجون والإبعاد والاعتقال في ظروف اشد قسوة وقمعا، فقال بعصبية:

– كيف نسافر ونحن لا نملك اجور تذكرة سفر واحدة؟

– وماذا بشأن الجريدة؟

– الوارد ضعيف جدا، فاضطررت إلى بيع البيت، ولو كنت امتلك مكائن طبع الجريدة، لأقدمت على بيعها ايضا. اصدرت خلال عشرين عاما عدة صحف دون ان استطيع شراء حروف لواحدة منها، بينما غيري، ومنهم شريكي السابق في اصدار "الأخبار" عام ١٩٢٨، جبران ملكون، يمتلك مطبعة كبيرة وهو امي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

كان الوالد عصبي المزاج، قوي الاحساس، لا يدخن ولا يتعاطى المشروبات الروحية. يتناول القهوة نادرا ويكره الشاي ويمج الحليب كما يمج الدواء. لا يرتاح للمديح، وان مدحه احد الأصدقاء، يحمر وجهه خجلا وتواضعا. لن تخفف من عصبيته، الا الاقرار بصواب ما يقول في بدء الحديث، اذ سرعان ما يعترف بخطأه، ان كان بالفعل على خطأ، بعد ان تهدأ العاصفة، مع عبارة الأسف والاعتذار.

اعتذر بصوت اهدأ، قال:

– انا لا املك شيئا حتى الآن سوى ايماني بقوميتي، ولا تعجب فكل المخلصين لوطنهم دائما لا يملكون شيئا سوى الايمان.

قبل ان يسترسل الوالد بموعظة جديدة، قاطعه بالقول:

- لماذا اوقفت اصدار الجريدة؟

نظر عبر النافذة، وبألم شديد، اجاب:

- لأن القراء انفكوا عنها بعد نشر مقالاتي الآخيرة، وبدأ عمك (سليم) يشكو الخسارة، فنصحني بايقاف اصدارها قبل فوات الاوان، خصوصا اني بعيد عنها في ديار الغربة.

- وماذا بشأن مقالاتك الآخيرة وانت ما تزال تكتب باستمرار منذ قدومنا الى القاهرة؟

مدّ الوالد ذراعه حتى لامست اصابعه مجموعة قصاصات مستقرة في ركن فوق طاولة الكتابة، سحبها وسلمها اليه مشيرا عليه بقراءة مقال بتوقيع (ك) في جريدة "الأهالي" ومن ثم قراءة ردوده على المقال الذي تهجم فيه الكاتب على الصحفي الهارب من الوطن.

كان المقال الذي اثار اعصابه بعنوان " ... في المرآة " بقلم (ك) وقد ظنه (كامل الجادرجي) رئيس الحزب الوطني الديمقراطي ورئيس تحرير الجريدة الفعلي، وفيه يهاجمه بشدة ويصفه بالانهزامي والسياسي الموسمي الذي ترك وطنه هاربا من مسؤوليته في تلك الظروف التي يحتاجها الوطن بعد استحصال القوى والاحزاب حرياتها واصدرت صحفها المركزية. كان متألما من لغة المقال والمضمون الكاذب لحقيقة اوضاعه في السابق، وقد عرف عنه نائبا معارضا في دورات مجلس النواب، وصحفيا جريئا قارع النظام الملكي ورموزه سنوات طوالاً، قادته مقالاته الى السجن اكثر من مرة والنفي الى شمال العراق والاعتقال في العمارة لسنة كاملة في ١٩٤٢ .

دفعته تلك المقالة الى استرجاع ماضيه وهو يشكو الغربة والعوز في مصر، بينما بعض الساسة يسرحون ويمرحون في المنعطفات الموسمية ويتوارون عن الانظار في المحن والمصاعب الحقيقية. فرفد جريدته (البلاد) بسلسلة من المقالات تحت عنوان " شعوذة كامل افندي بالحوادث والارقام "، توقف عن الاستمرار فيها بعد المقال السابع نتيجة تدخلات الاصدقاء ورجالات الاحزاب والطلب اليه بالكف عن الاتهامات التي لن يستفيد منها الا اعدائهما. وتبين لاحقا بعد عودته الى بغداد بأشهر، ان (ك) لم يكن

(ابو رفعت) بل (كامل قزانجي) الذي كانت تجمعه وصاحب (البلاد) صداقة ومودة طويلة جدا.

اراد ان يقف على اسرار في حياة والده، الشخصية والادبية والسياسية، بعد ان بات قريبا جدا منه وبدأ يشعر بارتياحه للاحاديث والمواضيع التي يثيرها في جلسات عائلية او ثنائية، فقال له بتودد بعد ان انتهى من قراءة مقالات الرد على (ك) :

- هل تحدثني يا والدي عن اوضاعك وشعورك وانت نزيل سجون عدوكما المشترك، انت والجادرجي، نوري السعيد؟

ارتاح الوالد لاهتمام الفارس الرابع دون الفرسان الآخرين الذين انشغلوا بمباهج القاهرة وحسناوات الاسكندرية وطنطا والمنصورة. راح يحدثه عن المرة الاولى التي دخل فيها باب السجن عام ١٩٣١ قال:

دخلت سجن بغداد المركزي باسما معتقدا اني سوف لا اختلف عنكم بشيء. لكن عندما خلعوا عني ثيابي والبسوني لباس السجن، شعرت في الحال بحنين خفي ادركت للفور انه حنين الى الانطلاق. بقيت يومين مضطرب البال، شارد الفكر، اذ سمعت صهيل الخيل في الاصطبل المجاور، فقلت في نفسي انها حرة تصهل في الخلاء الطلق. كان همي الاكبر في الايام الاولى في سجني، ذلك المحيا البسام لفلذة كبدي (بديع) وكان حينذال طفلا زاحفا لا يعرف سوى النطق ببعض الكلمات.

توقف عن الكلام.

استهوته تلك الذكريات، فسأل والده:

- كيف كنت تقضي يومك في السجن؟

اجاب:

اقضي الصباح في حلاقة ذقني وتسريح شعري بدون فرشاة طبعا، واتناول فطوري البسيط، ثم ابدأ بالمطالعة حتى الظهر. بعد الغداء، استأنف المطالعة حتى الرابعة، ثم اتنزه قليلا في حديقة السجن وكانت غرفة الاعدام مخيفة وهي تتوسط الحديقة. وفي المساء انام مبكرا.

راح يفكر قليلا وهو يسترجع تاريخ نفيه الى الشمال، فأردف قائلا:

اعتقلت مع المرحوم فهمي المدرس في آذار ١٩٣٢ بسبب ما نشرناه في جريدتي

حول الحكم القائم، ونفينا الى الشمال بين اربيل وكركوك وكويسنجق لمدة ستة اشهر. في هذه المرة، كان يحزنني الألم لما يقاسونه، الزوجة والطفلان (بديع وكمال) وعمرهما حينذاك اربع سنوات وثلاث. الا ان مدة النفي لم تكن ستة اشهر، بل اطلق سراحنا بعد تطبيق قانون العشائر.

سأله بتعجب:

- ماذا تقصد يا أبي بقانون العشائر؟

ضحك وهو يستطرد بموقف الشيخ حسن السهيل، الذي هو كبير رؤساء عشيرة بني تميم من آل شمر، وله نفوذ واسع بين اوساط المسؤولين في الدولة. وكان صديقا حميما لي ولفهمي المدرس. لما علم بما حدث، طالب وزير الداخلية باعادة كل منا الى العشيرة واجراء محاكمتنا وفق قانون العشائر ساري المفعول آنذاك باعتبارنا من عشيرته. ولما سألت المدرس عن معنى ذلك، قال، سوف يطلق سراحنا لأنك " تميمي " يا ابا بديع بكفالة الشيخ حسن السهيل.

* * *

٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨

صدرت صحف الصباح: الأهرام والمصري وهي تحمل في صدر صفحاتها الاولى العناوين البارزة: وثبة شعبية في العراق - سقوط عشرات القتلى ومئات الجرحى - هروب رئيس الوزراء متخفيا - الفوضى تعم البلاد.

توسل إلى الوالد ان يلازمه الدار لتتبع اخبار الثورة في الوطن وقد ظن ان ما يحدث الآن في بغداد هو نفس ما حدث في آيار ١٩٤١. ان الثورة جاءت لتنقذ البلاد. الم يهاجر بسبب ضياع الخبز والحرية والكرامة؟ الجماهير في بغداد تهتف وتطالب: رفض معاهدة بورتسموث والغاء معاهدة ١٩٣٠ - توفير الخبز والكساء بأسعار معتدلة - اطلاق الحريات الديمقراطية - اسقاط وزارة صالح جبر - حل المجلس النيابي واجراء انتخابات حرة لضمان تحقيق اهداف الشعب.

في المساء، افهمه الوالد ان ما يجري في العراق لا يتعدى سوى حركة رفع خلالها الشعب مطالب محددة وليست ثورة كما تخيّل وتوهم. انها وثبة ضد معاهدة جديدة

يريد الانكليز فرضها على الشعب لربط البلد بعجلة الاستعمار الجديد بعد انتهاء عهد الكولونيالية.

اضاف الى معلوماته دروسا جديدة في الوطنية العربية: في العراق معاهدة ١٩٣٠ التي يراد لها ان تستمر، والشعب العراقي يطالب بحرية الكلام والنشر وتأليف الجمعيات، ويطالب بحرية الانتخابات لمجيء ممثلين يدافعون عن حقوقه. وفي مصر ايضا يطالب الشعب بالغاء معاهدة ١٩٣٦ وجلاء الانكليز عن ارض الكنانة، واطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسيين، وتشكيل الجمعيات والاحزاب السياسية، واجراء انتخابات حرة.

انطبعت احداث وثبة كانون ٤٨ في ذهنه. حفظ اسماء من ساهم فيها ومن سقط شهيدا؛ شمران علوان، قيس الآلوسي وجعفر الجواهري. لعن اسماء الحكام: نوري السعيد، صالح جبر ومحمد الصدر (ردناك عون طلعت النا فرعون) واخيرا مطالب الحريات الديمقراطية والانتخابات الحرة المفقودة.

لم يكن قد استوعب الاحداث الجديدة ورموزها وأسماءها، حتى فوجيء بحدث جديد، هو الحرب العربية لتحرير فلسطين. كان قد قرأ شيئا بسيطا عن تاريخ فلسطين. كل الذي يعرفه ان الوطن العربي يعاني وطأة الاحتلال الاجنبي: الانكليز يحتلون مصر والعراق والاردن. سوريا تحت الاحتلال الفرنسي. الجزائر تحت الاحتلال القسري الفرنسي. ليبيا تحتلها الجيوش الايطالية والمغرب يحتله الاسبان. ولكن فلسطين تختلف. انها ليست محتلة من الانكليز فحسب، بل يهددها خطر يسمونه السرطان الصهيوني، بعد ظفر اليهود بوعد بلفور من الانكليز. عرف ان للعرب عدوا آخر الى جانب الاستعمار، هو الصهيونية العالمية.

كانت مجلة " المصور " المصرية قد نشرت خارطة كبيرة لفلسطين باقسامها الادارية ومدنها وطرق مواصلاتها، فأغرته بمتابعة سير المعارك. علقها على جدار غرفته كما يعلق الطفل صورة والده متيما به وهو ينظر اليه كلما لسعه الخوف ليحتمي بقوة الرجل الذي انجبه وعليه واجب حمايته. أحس وهو يحتمي بالوطن الأم الذي يصارع العدوان، أنه ذلك الطفل نفسه الذي كان يتابع معاركه الخيالية مع أعداءِ ابيه الانكليز في العراق. انه هنا يتابع معارك حقيقية يسمع اخبارها كل يوم.

رسم اعلام الجيوش العربية، وما اكثرها، المشاركة في حرب التحرير. راح يثبت هذه الاعلام الصغيرة فوق المدن العريقة ـ وفي معركة كبيرة ـ وهي تتحرر: القدس وفوقها علم الاردن. نابلس وطولكرم وجنين، مثلث الرعب يرفرف فوق ترابها العلم العراقي. صفد وطبريا ومشمار هايرلدن يرتفع على هضابها علم سوريا. اما غزة واشدود ورفح والفالوجا والنقب، فقد رفعت علم مصر العزيزة.

اهتز وانتشى لانتصارات الجيوش العربية.. كان متأثرا بأفكار والده لأنه معجب به وبشخصيته، فتجسدت الافكار القومية في ذهنه الفتي، وهو يرى صورتها رائعة في زحف عربي لتحرير ارض فلسطين. لم يكن وحده الذي تأثر بأفكار والده، بل اخوته الثلاثة. اثنان منهما، بديع وكمال، يعبران عن قوميتهما بالتطوع في فرق الانقاذ المصرية. يحثان الخطى مع طالب فلسطيني زميل لهما، معين بسيسو، الى محطة باب الحديد ليلحقوا بالقطار المتجه الى فلسطين مع مئات المتطوعين من الشباب المصري والعربي. لم تحط اقدامهم ارض الرصيف رقم (١) في المحطة، حتى انهال عليهم المصريون بالضرب المبرح، وبالعصي والركلات وهم يهتفون: الله اكبر.. يهود.. يهود.

كان بديع وكمال يشبهان الاجانب بلون بشرتهما وزرقة العينين وشعرهما الاصفر الطويل. انهما يبدوان من " الخواجات " بنظر المصريين السمر والسود. وما اكثر الاجانب الذين يعيشون في القاهرة والاسكندرية، منهم القبارصة واليونانيون والطليان، وبالطبع اليهود. ربما نسي او تناسى المصريون، فلم يعرفوا بأن هناك قبائل عربية في الجزيرة وبلاد الشام تشتهر بجمال رجالاتها، حيث يتغزل بهم الشعراء قديما وحديثا. ومن بين هذه العشائر الاصيلة، قبيلة بني تميم وافخاذ اخرى من آل شمر في العراق وسوريا.

وبدلا من ان يتجه المتطوعون الثلاثة الى فلسطين لمقاتلة الصهاينة، اتجهوا الى مستشفى " القصر العيني " في القاهرة تحت حماية وحراسة البوليس الحربي، واستقروا في قسم الطوارىء لمعالجتهم من الاصابات والجروح التي نالت من اجسادهم على يد اخوانهم من متطوعي " الاخوان ".

كانت تلك الحادثة، اول صدمة للعائلة في ارض الكنانة. تقبل عن طيب خاطر

اعتذار المسؤولين، وواصل متابعته على الخارطة لمعارك التحرير ضد العدو المتغطرس.

كان يصفق كلما وجد الاعلام العربية تكثر ووطنه الكبير يمتد ويمتد ويكبر، ويهتف من اعماق قلبه: الموت لعصابات شتيرن وارغون زفاي والهاجانا. فرح واستبشر بهذه الانتصارات العربية وقد قارب النصر على مشارف تل ابيب، لكنه كان خائفا من شيء واحد فقط؛ هل ننجح في قهر العدو في فلسطين والوطن العربي الكبير يحتله اكثر من جيش استعماري؟ لم تترك الاحداث لأحلام الطفل ان تكتمل، وهو يواصل لعبته المفضلة دوما، المشاركة في تمثيلية معركة التحرير، حين هجم الغول الاجنبي وهشم كل اللعب والدمى وصرخ في وجهه: كفى عبثا بالدمى، لقد حرمه الغول من اللعب وانهى لعبته مع الجيوش العربية؛ حين كفّت المدافع عن الزمجرة، واعلنت الهدنة بين الفرقاء.

* * *

وضعت الحرب العربية - الاسرائيلية اوزارها.. بادره الوالد بالقول:

- اسمع يا ولدي. لقد تغيرت الظروف السياسية الآن وخاصة في العراق، ويطالب الوطنيون المعارضون للنظام بعودتي الى الوطن وخوض الانتخابات البرلمانية، فان نجحت، فالعودة ستكون من نصيبكم، وان فشلت، فالبقاء بالقاهرة افضل.

اعتراه الشعور بالخوف.. تردد لحظات قبل ان يرد على والده، ثم قال:

- يا والدي انا خائف من العودة.

- لماذا يا ولدي؟

- لأن الامور لم تتغير، واننا نخسر كل شيء في بغداد او في القاهرة وحتى اليوم في فلسطين.

احس الوالد، بقلب الرجل، في صوته المرتجف، رنة الخوف والتخاذل، فالتفت اليه قائلا بلهجة قاسية:

- لا تدع اليأس يتسرب الى قلبك يا ولدي. اننا ما نزال نخوض المعارك على كل الجبهات ولا بد ان ننتصر يوما.

وجد في نبرات صوت الوالد القوة والثقة بالنصر. احتضن شقيقته الرضيع (ايزيس) التي ولدت بالقاهرة قبل اسابيع، متأملا وجهها البريء، فعادت به الذكرى

الى يوم ميلادها: ان الثقة بالنصر هي التي كانت وراء رفض الوالد اقتراح احد الأصدقاء، وهو عادل عوني، صاحب جريدة (الحوادث) البغدادية، تسميتها ب(هاجر)، وقد اسماها ايزيس تيمنا بمصر.

بعد اشهر، صدق حدس الوالد. فاز في الانتخابات نائبا عن لواء بغداد. عادت العائلة من ارض الكنانة في اواخر شهر ايلول ١٩٤٨ .

التحق مع (سامي) في كلية بغداد الواقعة في منطقة من اجمل مناطق بغداد تدعى " الصليخ "، مقنعا نفسه بأن تكون هذه الخاتمة نهاية المطاف للمشاكل التي فتح عينيه عليها مبكرا.

انتقلت العائلة الى دار جديدة في منطقة الكرادة الشرقية. كانت بغداد قد اتسعت خلال السنوات الماضية وامتدت اطرافها الى مناطق المسبح والكرادة والزوية وعرصات الهندية. بيوت متفرقة هنا وهناك. قصور عالية ذات جنائن واسعة. لقد عوضت الحديقة الواسعة للدار الجديدة الحرمان في قلعة شارع الزهاوي.

في كلية بغداد، تناسى احداث السياسة و (مرض) الصحافة. انغمر في همة ونشاط بالفعاليات الرياضية، بينما الوالد يرقبه بحذر، خوفا من ان يضيع الأمل في اختيار الوريث، خاصة ان عمر الولد قد تجاوز الخامسة عشر. اراد ان يشده اليه اكثر، فراح يتعلل الفرص ليدعوه الى مجلسه، ويلح ويصر على ان يحضر الى غرفة الضيوف أو إلى مكتبته كلما زاره احد الاصدقاء من السياسيين او الادباء.. مع تلك الاحاديث، كان يلتقط تاريخ الحاضر، وتعلق في مخيلته اسماؤه ورموزه. طلب باستمرار ان يملي عليه بعض المقالات السياسية او الادبية. عندما سأله عن السبب، قال ان وقته لا يتسع للكتابة، وان طريقة الاملاء تختصر الكثير منه. ومع ذلك، كان يملي عليه بطريقة متأنية تجعله يستوعب ما يملي عليه. كان يتوقف عن الكلام لحظة، وينشغل بقراءة قصاصة ورق، او مراجعة فقرة من كتاب، او الرجوع الى المصحف الشريف، قبل ان يعود الى الاسترسال في الاملاء.

وصفه احد الكتاب عندما برز في سوح الأدب والكتابة، بأنه لا يتقيد في الكتابة بمكان. يطالع في اي مكان اتفق له ولو كان في مجلس انس، وربما يطالع في وقت الغذاء. ومن عادته ان يضع خطا احمر تحت الاعلام واسماء الكتب اثناء القراءة. اول

باب يقرأه في المجلات، وصف ونقد الاصدارات الحديثة. يستعد للموضوعات الطويلة الدقيقة بمراجعة الاسفار والآثار المتعلقة بالبحث ويدوّن رؤوس اقلام للموضوع. اما في الموضوعات الادبية التي تتطلب عواطف واحساسات، فيتحين له ما يحقق صفاء الذهن وجمام المخيلة.

راح والده يعير اهتماما اكبر بثقافته الادبية. بدأ في صيف ذلك العام باختيار بعض الكتب الادبية لمطالعتها، منها كتب المازني، ايليا ابو ماضي، جبران خليل جبران، مي، العقاد، وولي الدين يكن. لم يفته ان يدس في يده كذلك، صحيفة البلاد كل يوم وهو يشير اليه بمطالعة هذا الخبر او ذاك المقال.

اما هو، فقد كان يرغب بشدة ان يختار بنفسه الكتب وخصوصا السياسية منها. كانت هناك رموز واسماء جديدة يسمعها لأول مرة: الاشتراكية، الشيوعية، الثورة الحمراء والبولشفية. لم تكن تلك الرموز مجرد اسماء بل مشانق شاهدها بنفسه. رأى في المرة الاولى قبل خمس سنوات، انسانا يتدلى من حبل مربوط في عنقه، وتذكر كيف كان في طفولته قد مارس لعبة شنق القطط فوق سطح الدار في شارع الزهاوي، لا بدافع القتل، بل بهدف القصاص منها بعد ان تنال من طيوره واحدا او اكثر. لم ينم تلك الليلة لبشاعة المنظر. ان المشنوق انسان وليس قطة. خفف الوالد من هول الصدمة عندما اخبره بان ذلك المجرم المتأرجح على المشنقة يستحق الاعدام لأنه اطلق الرصاص على وزير الداخلية (رستم حيدر) فقتله. اما الآن، وبعد سنوات، فانه يشاهد اكثر من مشنقة في ساحات بغداد العامة يتدلى من حبالها اكثر من انسان. لم يقل الوالد في هذه المناسبة بأن الذين يشنقون هم قتلة، بل انهم شيوعيون. آنذاك، ايقن وادرك الاسماء الكبيرة: (فهد) ورفيقيه (حازم) و (صارم).. فراح يبحث عن كنه الأمر.

كان في تلك السنة قد بلغ سن التمرد من اجل استجلاء الامور. اخذ يقرأ في جريدة البلاد وغيرها من الصحف لعله يظفر بشيء عما اسموه بالخطر الاحمر.

صحيفة الوالد وصحف بغداد الاخرى تتحدث عن الخطر وعن الشيوعية. كان يبحث عن كل ذلك، بينما الوالد يريد منه ان يقرأ الكتب الادبية فقط. استنجد بالاقرباء، منهم الاديب والقاص، فكانوا ينهرونه ويكيلون له الشتائم. حتى أخوه سامي الذي كان قريبا من افكاره وتطلعاته، نهره ذات يوم وهو يستفسر منه عن ذلك (البعبع) وطلب منه ان يكف عن الركض وراء "المصائب".

دفعه البحث والفضول اكثر من مرة، الى ان يدخل في نقاش حاد مع مدرسيه من رجال الدين الامريكان المبشرين، حول الخالق والطبيعة بحكم انتمائه الديني، ولكنه كان متمردا على تلك " التبشيرات "٠ احس لأول مرة ايضا انه يطلب الكثير من اولئك الرجال الذين جاءوا ليبشروا بالدين كملجأ ان حادوا عنه سقطوا، وان التزموا نصوص الكتب الدينية، عاشوا مؤمنين بالدنيا الآخرة٠ كان يصطدم في نقاشاته بعبارة " هنا يكمن الايمان "٠

كان يريد ان يعرف اكثر من " الايمان "٠

لم يسعفه ايضا اي جواب عن تساؤلاته٠٠ فقرر ان يقرأ اكثر ليجد عبر قناعاته الشخصية كل الحقائق٠

* * *

انتقل مع مطلع العام الدراسي الجديد الى " الثانوية الشرقية " في منطقة الكرادة الشرقية القريبة الى داره، ليلتحق في القسم الادبي بعد نجاحه في الدراسة المتوسطة٠ لم يكن في كلية بغداد قسم أدبي، فاضطر إلى الانتقال الى الثانية٠ في هذه المدرسة، خاض اول تجربة صحفية على يد مدرس العلوم الطبيعية (نجيب خضر)، عندما اناط به مسؤولية اصدار نشرة علمية باسم " المنهل "٠ شعر بسعادة لا توصف وهو يتصفح العدد البكر الصادر عن مطبعة " المعارف " الكائنة في شارع المتنبي ببغداد٠ في هذا العدد، نشر اول مقال يكتبه عن " الطاقة الذرية "٠ ترى هل شعر والده نفس الشعور وهو يقرأ اول مقال له في مجلة النادي العلمي في الموصل يوم ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩١٩ بعنوان " بين الحقيقة والخيال "؟ لربما، ولكن والده لم يذيل المقال باسمه، بل حمل توقيع (محب للسلام) وكان حبه بالاساس للقلم لأنه " طرز تاريخ امتي وبلادي واعلمتنا بسحر بابل وحكمة فارس وعظمة آشور ومجد العرب٠٠٠" اما هو، فوقع اسمه الثلاثي ليرضي غروره بأن هذا الشبل من ذاك الأسد٠

في العدد الثاني والآخير، من " المنهل " كتب مقالا آخر عن " علم النفس وتطوره"٠

توقفت المجلة بسبب عدم وجود المخصصات من وزارة المعارف٠٠ فحزن لذلك المصير٠

في تلك الايام من عام ١٩٥١، تفجرت بغداد بمظاهرات صاخبة تأييدا لنضال الشعب الجزائري في سبيل حريته واستقلاله الوطني. وجد نفسه يخوض تجربة من نوع آخر، حين اشترك في مظاهرة صغيرة اخترقت شارع اصفر بالكرادة الشرقية قبل وصولها الى الشارع العام.

من جديد،.. تتردى الاوضاع السياسية في الوطن. قرر الوالد ايقاف اصدار صحيفته (البلاد) والسفر الى القاهرة ثانية، لا لجوءا بل لاستلام منصبه كمستشار صحفي في السفارة العراقية.

* * *

كان له لقاء دون معرفة سابقة، مع تاجر صغير في محلة الشورجة، اسمه (هادي منصور). تعرف عليه عن طريق زميل في المدرسة، فتوثقت العلاقة بينهما بعد ان عرفه وطنيا من (الجماعة) الذين بحث عنهم طويلا وهم يحملون فوق اكتافهم عبء " الأمور " التي يبحث عنها.

لم ينس دروسه.. ولم ينس هادي وهو يقوم بتوزيع المناشير المعادية للحكومة في طرقات الشورجة ودرابين السنك وشارع الملك غازي. كان يقوم بتوزيعها بكل دقة وامانة وحذر شديد حسب الخطة المرسومة له. انه يشارك في عمل سياسي سري وخطير. فجأة، يقرر مضاعفة النشاط بالتوغل سرا الى شوارع وازقة الكرادة الشرقية حيث اخذت تلك الشوارع تتعرف على تلك المناشير في نفس الوقت الذي كان فيه السكان يقرأون صحف الصباح.

في العطلة الصيفية، اقتحم بعد اجتيازه امتحانات الدراسة الثانوية، ميدان الكتابة الصحفية العلنية. كتب عدة مقالات عن الشاعر احمد الصافي النجفي وعاتكة وهبي الخزرجي، نازك الملائكة ومحمد كرد علي. كان الوالد يشجعه على الكتابة الادبية ايمانا منه بأن الكتابة الادبية في بدء الامر سوف تصقل موهبة الكاتب وتقوي لغته قبل الولوج في معترك العمل الصحفي السياسي. كان يذيل مقالاته باسمه الصريح رغم نصيحة الوالد له بعدم النشر العلني لمدة معينة حتى يتعرف القارىء على الكاتب فيبحث عن صاحبه. قال له الوالد، بأن المقال الناجح يفرض نفسه على القارىء.

* * *

في ذلك الجو الجديد، عرف للمرة الاولى الحب.. وكعادة المراهقين او بحكم ظروف البيئة والمجتمع، عرف الحب مع بنت الجيران، كما عرف طريقه مع اترابه في ثانوية " التفيض " التي انتقل اليها، الى النساء في البيوت السرية المزروعة بين مناطق البتاوين والقصر الابيض وفي محلة السنك.

مارس اللمسات البريئة مع بنت الجيران، وهي تصغره بسنتين. يرقب دقات قلبها تمتزج بدقات قلبه. رجفة بعد رجفة، تتقاطعها آهات ساخنة سرعان ما تتحول الى حركات عنيفة طبيعية حين يرتشف اوترتشف هي منه قبلة تعصرها شفتان عطشى متوحشة لم تعرف بالتأكيد مذاق القبلة كما يعرفها عاشقان او حبيبان اكبر منهما سنا وتجربة في عالم الجنس والتجانس. لهذا السبب، ذاب ذلك الحب المراهق على فراش نساء البتاوين عندما تكررت الزيارات واصبحت عادة في كل مساء خميس.

كان الخميس الاول اللعين بداية المشوار السهل مع " المحرمات " عرفا وقانونا، لكنه مشوار يَلِجُ بدايتَه كل شاب في اي مجتمع بدوي او حضاري.. اذ يتساوى نزق الشباب في ساحة الطبيعة بين الشرق والغرب. دخل هذا المشوار جسورا متباهيا، وكأنه الوحيد الذي يدخل تلك التجربة، مغرورا بشبابه وقوة عضلاته وبما يملكه من رصيد في الفتوة والرياضة، فاصطدم بواقع مر، حوّل تلك الجسارة الى صراع ثأر لرجولة ملثومة في عصر ذلك اليوم، ليصول في الاسابيع اللاحقة ويجول بعد نجاحه في الامتحان على يد ضحاياه من " المتعبات " من نساء حكمت عليهن ظروف المجتمع القاسية بأقذر الاحكام الاجتماعية.

دخل دار (...) بدون استئذان، فكل تلك الدور كانت مباحة ومفتوحة لكل طارق يحمل في جيب سرواله نصف دينار.

بحلق في وجوه متألمة لنساء مجهولات الاسم العلني الا من هوية عراقية.. بدرية، كريمة، خنجة، و" باجي " بدور أم ادور. كشفت بدور عن اسنان امامية مشوهة ومطعمة باصفرار الذهب وهي تنطق اسم خنجة وتشير عليها بايماءة من رأسها الصغير المكور لمرافقة الزبون الجديد الذي يدخل الدار للمرة الاولى. قامت خنجة تتمايل بمشيتها المصطنعة والمغلفة باغراءات اللحوم الموزعة على جسدها الابيض الرنان، ومشى خلفها يرقب كل هزة من اللحم المترهل غير المتجانس. سحبته الى داخل غرفة انزوى

في ركن منها سرير قديم وبجانبه ابريق ماء عتيق يتدلى من السرير " شرشف " متوسخ، وعلى النافذة ستارة حمراء ممزقة. القت خنجة جثتها على السرير وكشفت عن شيء جديد لم يألفه قبل هذه اللحظة. وقف مشدوها متسمرا متهيبا من المنظر. صرخت بصوت عال:

- ماذا تنتظر؟

تلعثم واضطرب ورد عليها بعلامة خجل واضحة على وجهه الأحمر:

- ماذا تريدين مني ان افعل؟

قهقهت باستهزاء يستحقه على سؤاله السخيف، قالت:

- عيني، افعل كما يفعل كل الرجال .. او انك ...

- ...

- ما عندي وقت، الدقائق محسوبة عليّ.

- ...

- استعجل عيني والا فالاجرة مستحقة حتى لو كنت باكرا!

نطقت الكلمة الاخيرة وهي تستعجله ليكشف بدوره عن " عورته " ثم تركته يغرق وحيدا دون عناء.. فقرر ان ينتقم لرجولته. اسرع خطاه في الاسابيع اللاحقة متنقلا من دار الى دار قبل ان يترك ضحاياه لزبائن جدد ويكف عن عادته دون ارادته.

* * *

مطلع شهر تشرين اول (اكتوبر) ١٩٥٢

التحق في كلية الآداب طالبا في قسم اللغة الانكليزية. كانت الكلية تحتل بناية في مدخل شارع غازي بالقرب من باب المعظم. تعرف مع الايام الاولى على جعفر علي، سلافة الجحاوي، حامد حمادي، سافرة جميل حافظ، بلقيس شرارة وجلال حمودي. توثقت علاقته بجلال دون سواه لأنه وجد فيه مناضلا يسلمه (الامانة) التي كان يستلمها من هادي منصور قبل عام وهو يتسابق مع الزمن في حارات وازقة منطقة الفضل الضيقة بعيدا عن عيون الشرطة. ان عبارات جلال وتحذيراته قبل كل جولة من العمل: اياك ان تقع فريسة سهلة بيد الكلاب السائبة من شرطة التحقيقات

الجنائية، ترن في اذنه مع كل منشور يدسه تحت هذا الباب او ذاك. ادرك ما كان يعنيه بتلك العبارة لأنه بدأ يقرأ تلك الاشارات في النشرات السرية قبل توزيعها.

في تلك الايام الحبلى بالمفاجآت.. كانت بغداد تغلي غضبا ضد السلطات الحاكمة التي ملأت السجون بالوطنيين كجزء من حملة واسعة في سبيل امرار مشروع "حلف الدفاع عن الشرق الأوسط" مع تركيا والباكستان. قرأ في احدى الصحف اليومية المعروفة بارتباطها بنوري السعيد، مقالا يؤكد فيه كاتبه ضرورة "ملء الفراغ في المنطقة" وذلك بدخول العراق حلفا عسكريا مع جيرانه للوقوف بوجه الخطر الشيوعي "الموهوم".

جاء (جلال) صباح يوم مشحون بالتوتر السياسي، ودس في يده نشرة يطلع عليها للمرة الاولى. انزوى جانبا في ركن من اركان حديقة كلية الآداب وراح يتصفح بسرعة النشرة لعله يظفر بشيء. لفتت نظره فقرة بخط واضح على غير ما هو مألوف في طباعة النشرات السرية المطبوعة بآلة الرونيو في المطابع السرية جاء فيها: "اننا نلمس بوادر انتفاضة شعبية للتطويح بالحكم الرجعي المتهرّىء من اجل انتزاع حقوق الشعب وتحقيق الحريات الديمقراطية بالقوة."

نادى على جلال، وكان منهمكا بتوزيع نشرات سرية اخرى وقال له:

- ما الخبر يا جلال؟

اجابه وكأنه يتوقع منه هذا السؤال:

- غدا سوف تخرج مظاهرات في الشارع.

- لماذا؟

- من اجل مطالب محددة.

- وهل تستحق هذه المطالب مظاهرات؟

ابتسم جلال لسؤاله الذي ينم عن بساطة في فهم امور والاعيب سلطة بغداد، قال:

- انها البداية..

ابتعد عنه بضع خطوات، ثم التفت الي جلال ثانية وقال:

- وما هو المطلوب مني؟

- مكانك امام الباب الرئيسي لقاعة الملك فيصل في باب المعظم القريبة من الكلية.

لم ينطق بحرف آخر. شعر بالاختناق وبثقل يجثم على صدره. حدق جلال في وجهه بانتظار رد الفعل منه. ابتسم وقال له:

- هل ترغب بالاشتراك في المظاهرة؟

- . . . .

في اليوم التالي الموعود، لم يتجه الى الكلية بل وجد نفسه ملتصقا بالباب الحديدي لقاعة الملك فيصل. نظر الى الناس وكأنه يخاطب بعضهم ويدعوهم الى الوقوف معه استعدادا للمعركة، او هكذا ظن دون ان يستطيع بالسر الذي كتمه منذ الأمس في ان يكون هو الداعي. فجأة، صفق احد المارة، واذا بالعشرات تتجمع خلف شعار ابيض رفعه جلال بسرعة البرق: " لا انتخابات والاحرار في السجون - نطالب بانتخابات حرة مباشرة ". شقت المظاهرة طريقها باتجاه المستشفى حيث يرقد هناك الطالب في كلية الصيدلة (منعم ابراهيم) يئن من جراحه التي اصيب بها على يد رجال جهاز بهجت العطية، سفاح مديرية التحقيقات الجنائية (الأمن العامة).

تتعالى الهتافات: نريد القصاص من الشرطة. . .

وصدق جلال حين قال له انها البداية.

ففي اليوم التالي، خرج مع الزملاء الذين احبهم من باب كلية الآداب باتجاه منطقة الفضل حيث تحولت تجمعات الطلبة من كلية التجارة والاقتصاد وكلية الحقوق الى مظاهرة كبيرة شارك فيها العمال والكسبة، وشقت طريقها الى امام رغم الطوق المضروب حولها من قبل الشرطة السرية والعلنية وتناثر القنابل المسيلة للدموع التي اخمدت دخانها النسوة الشعبيات، ام شريف وام حسين وام حمدي وهن يجلبن الماء من بيوتهن في قدور الفافون. في شارع غازي، رفع المتظاهرون لافتات جديدة: " نطالب بمحاكمة سفاكي دماء الشعب - تسقط البرلمانات المزيفة - يسقط الحكم الدكتاتوري البوليسي - نريد خبزا وعملا - يسقط مشروع الدفاع المشترك ".

من شارع غازي، تكبر المظاهرة وتتسع في شارع الامين. ومع صيحات (عدوية) فوق جسر (مود)، هيا يا شباب نجدد الوثبة (وثبة كانون ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث)، يتجمع المتظاهرون ويلتقون مع العمال في جانب الكرخ. وما ان ينفض يده من (جلال) امام مبنى السفارة البريطانية، حتى وجد نفسه ملقى على الارض

والدماء تنزف من فمه وجبينه. ان عصا الشرطي نالت من رأسه. ركض جلال نحوه ورفعه عن الارض ثم سلمه بيد السائق (مجيد) وهو يسرع بسيارته صوب دار العمة في الاورفه لية بباب الشرقي. لم يكن في الدار سوى العمة (فضيلة) التي اسرعت الخطى نحوه مولولة. تركه مجيد وهو يصرخ:

- عمه، اعتني به.. الأجرة على حسابي اليوم.

في بيت العمة، كانت (فيروز)، بنت الجيران، تباشر مهامها في تضميد جراحه. لم يخطر بباله آنذاك، ان هذه الفتاة الرقيقة ستعالج جراحات قلبه في الايام اللاحقة.

توافد الأهل والاصدقاء على الدار في المساء. طلب منه الوالد ان يمكث هناك ولا يعود الى البيت لفترة من الزمن. عندما سأله عن السبب، قال:

- لا اريدك ان تقع في يد شرطة بهجت العطية.

تساءل وقد تملكه شعور مختلط من العواطف والشجاعة:

- الجيران هنا من الجلاوزة اياهم.

ضحك (ابو فاروق) زوج العمة وتمتم بلهجته المصرية:

- الأب شرطي سري، لكن الاولاد من جماعتك.

في اليوم التالي، كان كل شيء قد انتهى. لقد افلتت القضية من يد السلطة. استعان الوصي على العرش (الأمير عبد الآله) بالجيش، وتم تأليف حكومة عسكرية برئاسة الفريق نور الدين محمود الذي قام بدوره المرسوم، واعلن الاحكام العرفية في البلاد.

ان الانتفاضة الشعبية قد خمدت.. لكن جمر الثورة ظل يتأجج تحت السطح.

* * *

عاد بعد اسبوع الى الكلية وارتبط بالعمل السياسي اكثر من السابق. وجد في فيروز، البلسم الشافي الذي خفف عنه لوعة الدراسة. فتاة دافئة وحلوة منحته كل ما تستطيع الانثى ان تمنحه لرجل متمرد ثائر. الا انه رغم تلك الحاجة، كان يعيش في دوامة تتقاذفه فيها تيارات متصارعة. الوالد يريد ويلح على تلقينه دروس الصحافة والكتابة باستمرار في مجالات الأدب. الاصدقاء والاقارب يريدون منه ان يبتعد عن السياسة. الاساتذة بدأوا يضغطون بقوة عليه بمواد التدريس المكثفة، خصوصا بسبب

قرب الامتحانات. نداءات القلب الملحة بلقاء فيروز عصر كل يوم هنا وهناك في اماكن بعيدة عن عيون الشرطة والرقباء، تطربه وتخفف عنه الكثير من التفكير والحيرة.

كانت في العراق في تلك الحقبة من التاريخ، ظاهرة انسلاخ المئات من اولاد "الذوات" (الشخصيات اللامعة في المجتمع) عن طبقاتهم الاجتماعية وانخراطهم في حركة اليسار العراقي حيث انتظموا في صفوف الحركة الديمقراطية عبر الحزب الوطني الديمقراطي والغالبية العظمى التحقت بصفوف الحزب الشيوعي العراقي تمردا على الواقع الفاسد الذي كانت تلك البيوتات الاجتماعية جزءا منه، بالاخص الوزراء والشخصيات من ذوي المراتب والوظائف العليا في اجهزة الدولة.

كما برزت تلك الظاهرة واضحة خارج البلاد حين انخرط معظم طلاب بعثات الدراسات الجامعية في اوروبا وامريكا والدول العربية في تنظيمي اتحاد الطلبة العام والشبيبة الديمقراطية وهما تنظيمان يشكلان القاعدة الجماهيرية الواسعة للحركة السياسية الديمقراطية. كانت النسبة التي يشكلها هؤلاء الطلبة، قياسا الى التيارات الاخرى، خصوصا التيار القومي، بحدود ثمانين في المائة من مجموع الطلاب الدارسين في المعاهد والكليات داخل وخارج العراق.

في نشرة شهر نيسان ١٩٥٣ من ادبيات الحركة الثورية.. قرأ تحذيرا حول قرار مجلس وزراء نوري السعيد بسوق طلبة الكليات والمعاهد الى معسكرات تدريب الزامي ابان العطلة الصيفية في منطقة سكرين بكردستان العراق. كان القرار المذكور محاولة قسرية من قبل السلطة لابعاد الطلبة عن الشعب وعزلهم في اقصى الشمال، وحرمانهم من المشاركة الفعلية في حركة المقاومة الوطنية التي بدأت تنمو وتتسع. كانت الحكومة الرجعية في سباق مع الزمن لتجريد الشعب من طليعة واعية صدامية تحتفظ بتجارب نضالية غنية وتختزن طاقات لا تنضب من الايمان في مقارعة كل مشاريع الاستعمار والاذناب من الحكام الخونة. لقد استلزم العمل الطلابي آنذاك المبادرة الفورية لمقاومة واحباط تلك السياسة، والاسراع بتقديم المذكرات الجماعية استنكارا لمثل ذلك العمل القسري.

امتلأ غبطة وهو يتسلم العريضة المخصصة لطلاب كلية الآداب. لم يتركه جلال وحيدا في مثل هذه المهمة بعد ان ترامت الى ذهنه من قبل مخابرات الحركة الوطنية

معلومات عن وجود فئة من الطلاب ستسارع الى مقاومة هذا العمل. وفي لحظة، انقض عليه احد وكلاء الادارة الطالب (محمد) لانتزاع العريضة من يده، الا ان جلال عاجله بقبضة شديدة المفعول، طرحته ارضا والدماء تنزف من فمه. اشار جلال عليه بضرورة ترك الكلية بسرعة من اجل الحفاظ على الاوراق والنشرات الاخرى. نفذ التعليمات وعاد بحذر وتوجس الى داره في الكرادة الشرقية.

في صباح اليوم التالي، دلف الى الكلية، وقد سلّح نفسه باليقظة، للرد على اي عمل استفزازي، حين اشار عليه ساعي الكلية الامين (صبحي داود) بأن يذهب توا الى غرفة العميد الدكتور (عبد العزيز الدوري). سأله عن السبب، فمط شفتيه مستغربا هو الآخر وقال:

- لقد جاء العميد مبكرا على غير عادته هذا اليوم ومعه شخصية كبيرة.

ابتسم برقة للساعي صبحي وقال له مازحا:

- من اين عرفت يا ذكي وتعرفت على الشخصيات الكبيرة؟

مط شفتيه مرة اخرى، وحرك يده باتجاه غرفة العميد وقال:

- والله من هيبته!

- يعني...

- اكيد واحد من الحكومة.

ترك صبحي يمطمط شفاهه، واتجه على الفور الى غرفة الدوري. لم تكن تلك الشخصية التي دخلت مع العميد، بالكبيرة كما تخيل الساعي البسيط، بل كان زميل الدكتور، عميد كلية الحقوق. اختلس عبد العزيز نظرة خاطفة بعد ان وقعت عيناه على الطالب القادم من " الشارع " ، وبادره بالقول بأسلوب استفزازي:

- اين بقية العصابة؟

صعق في بادىء الامر لهذا الاسلوب واهتز بدنه لا خوفا او وجلا، بل استهجانا، فأجابه:

- ماذا تقصد يا دكتور؟

رد عليه دون ان يرفع بصره:

- عصابة الأمس؟

ثم راح العميد يكمل حديثه مع عميد كلية الحقوق الزائر ذلك اليوم، وقال له:

- تصور يا ابا مجيد ان هذا الطالب الواقف امامنا هو ابن صديقنا (...) ولكن شتان ما بين الاثنين مع الأسف.

التفت الى اليسار حيث يقف " المتهم "، وقال بصوت عال جدا:

- انت عنصر مشاغب ومحرض.

لم يتمالك نفسه من اعتداء الدوري عليه وتهجمه غير المبرر، فعلا صوته هو الآخر ورد عليه بقوة:

- انا طالب وطني ومخلص ادافع عن حقي وحقوق زملائي.

احتد العميد اكثر وقال:

- بلا وطني .. بلا بطيخ.. اترك الغرفة فورا يا فوضوي.

تردد في بادىء الامر ولكنه وجد نفسه في موقع لا يسمح له برد الصاع صاعين، فاذعن لأمره واوماً برأسه، بينما واصل الدوري زعيقه:

- والله لولا صداقتي لوالدك، لطردتك الآن من الكلية. هذا آخر انذار لك.

صمم على الانتقام من العميد وامثاله من شرطة الثقافة. لم يسمع من قبل كلمة فوضوي.. اعتاد ان يقرأ مفردات السلطة عن المخربين ومثيري الشغب وحملة المبادىء الهدامة على حد زعم ابواق الحكومة. الا ان فارس النظام المثقف اضاف الى قاموس "السب الوطني " تعريفا جديدا لكل من يعارض او يقاوم نظام الحكم.

لم تمض على حادثة العميد اسابيع، حتى اضاف مأثرة جديدة في سجل كلية "الدوري". في امتحانات نهاية السنة الدراسية، اصطدم مع رئيس قسم اللغة الانكليزية، مستر (ستيوارت) عندما سأله في قاعة الامتحان عن كلمة لم يفطن الى معناها، فقامت الدنيا وقعدت.

انتفض الاستاذ الانكليزي من مكانه وكأن عقربا لدغه وصرخ في وجهه:

- انت بالذات لا يحق لك ان تسأل. انت طالب مشاغب وفوضوي.

عادت به الذكرى الى ما حدث في غرفة عميد الكلية قبل ايام. انتفض بدوره من مكانه كردة فعل مطلوبة في مثل هذه المواقف، بعد ان صعد الدم الى رأسه، وقدحه بعبارة الغضب:

- انتم جميعكم شرطة.

ببرود الانكليز، رد عليه:

- ماذا تقصد بالشرطة؟

علا صوته اكثر بحيث جعل رؤوس الطلبة تدور في اتجاهين، وصرخ:

- انتم تتآمرون علينا.

وبحركة سريعة لا ارادية، جعلت كراس الامتحان يحلق ويستقر امام رئيس القسم، مسرعا الخطى الى خارج القاعة وهو يدمدم مع نفسه: جواسيس خونة وشرطة ثقافة جهلة.

اعيد في صباح اليوم الثاني وفي غرفة العميد الدوري، سيناريو المسرحية من جديد. كان الدكتور يغلي كقدر ماء على النار، وحبات العرق تضع بصماتها على قميصه الوردي، وشعيرات ما تبقى من شعره يداعبها هواء المروحة السقفية، وما ان لمحه حتى هاج وماج وصرخ بقوة:

- كيف تتحدى رئيس قسم في كليتي؟ اخرج من الغرفة.. انت مفصول.

غاب مسرعا الى خارج الغرفة وهو يشكره على تلك المكرمة. ترى ماذا كان يتوقع من عمل " بطولي " في نظره، اقل من الطرد ؟

عند باب الكلية .. صافحه الزملاء كل حسب دوره ومكانته عنده. خرج من باب " الآداب " بلا عودة.

خسر الدراسة، ومع ذلك، جرى تقييد اسمه مع الطلبة الذين شملهم قانون التجنيد القسري في شمال الوطن. لم يلتحق بمعسكر " سكرين " بل في معسكر الرشيد ببغداد عن طريق الوالد. انه صديق الجميع الذي يمتلك النفوذ السياسي والشخصي في مجالات واسعة.

مرت الاسابيع الاولى وهو يوزع اوقاته بين التدريب العسكري ولقاءاته بفيروز في دور السينما او في جنائن بغداد الجديدة، وقضاء المساء في صحيفة والده. فجأة قرر ان يتمرد. تمرد على كل شيء.. قال مع نفسه: لن اكمل التدريب العسكري. تناسى، ولربما عن غير قصد، بأن قرار التمرد هذه المرة يختلف عن قرار تمرده في كلية الآداب. انها العسكرية وقوانينها الصارمة. لم يكن يعير لمثل تلك القوانين أيَّ اهتمام؛

فالمؤسستان بالنسبة له سجن كبير يقف على باب كل منهما شرطي: في كلية الآداب، يقف باهتمام شرطي مثقف. امام بوابة المعسكر، يقف شرطي زيّن صدره بنوط الشجاعة الممنوح له من قبل النظام الرجعي تكريما لبطولاته ضد ابناء الشعب. صمم على التمرد، فلم يلتحق بالمعسكر في اليوم الثاني مقنعا النفس بالقول: ليكن ما يكون..

قدموه للمحاكمة العسكرية في مديرية الادارة في وزارة الدفاع بتهمة التمرد والهروب من الجيش. حاول اقناعهم بأنه ينوي السفر الى الخارج لتكملة دراسته، فلم تسعفه الحجة. تدخل الوالد كالعادة في مثل هذه المواقف الحرجة فأنقذه من الورطة. الغوا قرار التجريم وسلموه بيده مكفولا.

في طريق عودتهما الى الدار، قال الوالد:

- يجب ان تسافر الى الخارج.

- - لماذا يا والدي؟

- في بغداد ستواجه مصاعب اكثر، فأنت الآن تحت مراقبة السلطة. اذهب الى القاهرة وادرس الصحافة هناك.

حاول اقناع والده بالعدول عن تلك الفكرة، لكن الوالد اصر على رأيه. تحجج برغبته في دراسة القانون، فلم يفلح، بل اخذ في الاعداد للأمر.

بعد ايام قليلة على تمرده، اعلن راديو بغداد في ١٨ ايلول ١٩٥٣ الارادة الملكية بتشكيل وزارة الدكتور فاضل الجمالي الاولى. اسندت وزارة الدولة لشؤون الدعاية والصحافة الى الوالد. اهتز بدنه، وعقدت الدهشة لسانه وهو يشاهد اخوته فرحين بالخبر. نظر الى والده وراح يتساءل مع نفسه: ترى لماذا لم يحدثني في هذا الموضوع وقد اعتاد على مصارحتي والحوار معي في كثير من الامور. اليست مهانة للوالد ان يقبل المشاركة في الحكم بعد هذه السنوات من الكفاح في سوح المعارضة الوطنية؟ أحس بعظم الاهانة. اما والده، فقد حاول تبرير موقف القبول بالوعود التي حصل عليها من الجمالي في كون الوزارة الجديدة هي انتقالية وجاءت لتوفير الاجواء لحياة ديمقراطية وانتخابات حرة.

غضب وهو يقول للوالد:

- هذا غير معقول يا أبي.

- ولم لا يا ابني؟

- لأنك وطني ونظام الحكم لا يمكن ان يكون وطنيا مهما تغيرت وجوه قادته. انه نظام معاد للشعب.

اطرق الوالد برأسه برهة، ثم خنقته العبارة حين قال:

- الوزراء الخمسة المعارضون معي اتفقوا على انتهاج الطريق الوطني.

كان قد قرأ قبل ايام في احدى النشرات السرية، ان السلطات الحاكمة اقدمت على قتل العديد من السجناء السياسيين في مذبحتي سجن بغداد المركزي في ١٨ حزيران وسجن الكوت في ٢٤ آب و٣ ايلول، ذهب ضحيتها ثمانية سجناء شيوعيين في بغداد وعشرة في الكوت. انتهز هذه الاخبار ليكمل حديثه مع الوالد. قال له:

- انها لعبة سياسية.. ارجوك ان ترحم ماضيك الحافل وتحمي سمعتك وشرفك الوطني وتدافع عن الشعب الذي احبك معارضا وطنيا وقادك الى كرسي البرلمان اكثر من عشرين سنة. ارجوك ارفض الوزارة.

سكت الوالد.. فسكت بدوره متألما.

راح يستعرض شريط حياة هذا الأب المكافح الذي ضحى بالكثير من راحته وماله وسعادته، وهو يقف امام ابنه اليوم لا يقوى على مصارحته، وانما يخفي وراء تنازله عن تاريخه الوطني الطويل حقيقة مؤلمة لقبوله المنصب الوزاري.. اهي الحاجة المادية، ام الطموح المعنوي؟!

كان هذا الأب زاهدا بالحياة، عاش اعواما وهو يشكوالفاقة والخصاصة، معوزا مدينا لأصدقائه في سبيل ان تعيش العائلة، وان تستمر جريدة (البلاد) في الصدور. في نفس الوقت، كان غنيا بسمعته واخلاقه الحميدة وعلما بارزا في دنيا السياسة والصحافة والادب لا في العراق فحسب، بل في العالم العربي. وعندما فشل في العراق وهو يشهد الكثير من الصحفيين والادباء يتسلقون سلالم الغنى والنعيم، حاول ان يجرب حظه في مصر بعد اقامة قصيرة عام ١٩٤٦ كمهاجر سئم المعيشة في وطنه واتجه صوب معارفه في القاهرة.

أسس هناك شركة عربية كبرى بأسم " دار العالم العربي للطباعة والنشر ". اراد عن هذه الدار ان يصدر مجلة كبرى ويطبع كتبا عربية ادبية وسياسية تتناول شتى

الامور المتعلقة بالعالم العربي. وضع مع شريكيه من المؤسسين، احدهما (محمود عزمي) البنود المتعلقة بالشركة ودعا الى اكتتاب عام لجمع الاسهم في البلاد العربية. الا ان (عزمي) أخلّ بالشروط بعد شهرين من تأسيس الشركة، فاضطر الى التوقف عن تنفيذ المشروع الكبير، الذي لو كتب له النجاح، لأصبح من كبريات شركات العالم العربي للطباعة والنشر. كانت لضياع اول فرصة له للتعامل التجاري، صدمة جعلته يبتعد عن ولوج هذا الطريق الجديد عليه والى ابد.

بعد عودته من مصر بعد وثبة كانون ١٩٤٨ وفوزه بالانتخابات النيابية، بقي يعتاش على راتبه فترة من الزمن، انضم الى حزب الاستقلال القومي عام ١٩٥٣ واعاد اصدار جريدته مجددا حتى قدم استقالته مع نواب المعارضة السبعة والثلاثين آنذاك احتجاجا على سياسة الحكومة المعادية للشعب. ولما قرر حزب الاستقلال خوض الانتخابات ثانية، أصر على عدم الدخول، غير ان اقطاب الحزب اصروا على موقفهم مما حدا به الى تقديم استقالته من الحزب بعد يوم من ترشيح اعضاء الاستقلال انفسهم للانتخابات التكميلية. وبقي خارج المجلس النيابي مدة من الزمن لا عمل له بعد تعطيل (البلاد) مرة اخرى، وكان مورد العيش الوحيد الذي يسد رمق عائلته الكبيرة، هو ما يحصل عليه من مهنة المحاماة التي زاولها للمرة الاولى منذ تخرجه من كلية الحقوق في العشرينيات.

ازدادت حالته هذه الى ركود في اعماله وقلة في مورد معيشته، خصوصا بعد ان وقع له حادث مؤسف في شارع الرشيد، ادى الى كسر في ساقه الذي اقعده الفراش مدة طويلة. كانت بحق محنة مرّ بها افراد العائلة وهم يقاسون صنوف الحرمان، بينما (بديع) و(كمال) يدرسان في مصر وهما بامس الحاجة الى المال، فكان الوالد يستدين الكثير لسد نفقات دراستهما ولمواصلة المعيشة في بغداد، حتى اثقلته الديون وارهقته.

تذكر " الفارس " الرابع كل هذه الاحداث وهو ينظر الى والده يعصره الألم، يتصفح جريدة (الحياد) لصاحبها (صادق البصام) ويقف عند هذه الكلمات:

" .. كان الاتيان للمنصب الوزاري، اول مسمار دق في نعش الوزارة الجمالية، وقدر الناس ان هذا " المستوزر " سوف يعجل في نهايتها بخلق المتاعب الكثيرة، والتصرفات المحزنة، فحبب لرئيسه وزملائه اضطهاد الصحافة الحرة، والاعتماد على

اشباه الاطفال في الدعاية للوزارة، وجند العشرات بل المئات من المرتزقة العاطلين في جهاز الدعاية، واغدق عليهم اموال الشعب باسراف وتبذير، ثم كانت الدعاية اضحوكة العقلاء لما سادها من اسفاف وتطاول ان جاز صدوره من الشوارع والازقة، فإنه لايجوز صدوره من دائرة رسمية فرض فيها تثقيف الرأي العام وتوجيهه...." واختتم كاتب المقال قوله: " واليوم قد مات (...) موتا سياسيا.."

عاد يسأل نفسه: هل حقا كان العوز، هو الدافع الحقيقي وراء قبول الوالد منصب وزير الدولة لشؤون الدعاية والصحافة؟

في الحقيقة، كان استيزار أبيه، سببا له في الهروب من بغداد وقبوله مرغما الدراسة في الخارج لأنه لم يستطع تحمل ذلك المصاب، فترك وراءه كل الاصدقاء الطيبين ورفاق الدرب، واسرعت خطاه الى مطار بغداد حيث كانت الطائرة (الميمونة) في انتظاره.

* * *

جلس في الطائرة المحلقة بين بغداد والقاهرة يجول ببصره في السماء الزرقاء الصافية، حيث شاهد الظلال واضحة على النافذة.. كلية الآداب بمن فيها من طلبة، والفرّاش الطيب (صبحي) وقهوة العم (كوركيس) في نادي الكلية. تذكر سافرة وبلقيس وجلال وكل الناس الطيبين الذين عرفهم. عادت به الذكريات الى (هادي) وايام توزيع المنشورات السرية في طرقات الشورجة. تألم وهو يتذكر الليالي التي امضاها مع (فيروز) في جنائن بغداد الجديدة. حزّ في نفسه ان يعيد الى الذاكرة امارات الحزن تطبع بصماتها على وجه الوالد المتعب وهو يتحدث معه بصراحة ويعارضه في قبول الوزارة. اشتاق الى الوالدة والى اخته الصغيرة (ايزيس) التي كان يلاطفها ويلعب معها، والآن هي تفتقده بالتأكيد كما يفتقدها بشدة وجسده معلق بين السماء والارض.

اهتز بدنه في الطائرة عندما دخلت اجواء المطبات الهوائية، مع اهتزازه باعاصير كل تلك الذكريات، فلم يتمالك نفسه في صد او ايقاف الدموع المتساقطة من مقلتيه، بل تركها تنساب دافئة على الخدين، وشعر بيد (سامي) تمسك بيده اليسرى وهو الآخر يحاول بصعوبة ان يحبس الدمع، فقال بصوت حنون:

- لا تدع الحزن يقهرك يا اخي العزيز.

في القسم الداخلي للجامعة الامريكية بالقاهرة، نسي الألم والحزن.

* * *

بانت في الأفق السياسي تباشير وضع جديد في العراق يتلخص في محاولات النظام الدخول في مرحلة الاحلاف العسكرية، وبالتحديد، الحلف التركي- الباكستاني. استطلعت صحيفة (المصري) الناطقة بلسان حزب الوفد المعارض، آراء الطلبة العرب، وكان هو أَحَدَ مَنْ يدين ويهاجم تلك المحاولات رغم وجود والده وزيرا في حكومة فاضل الجمالي.

لم يعتذر من الوالد بعد ان اعادت صحف بغداد نشر كلمته في (المصري) تحت عنوان: نجل وزير الدعاية يهاجم والده. انه يؤدي واجبه الوطني تجاه تلك القضية الخطيرة. انه ضد الاحلاف العدوانية. الم يقل له الوالد بأن الوزارة سوف توفر اجواء الحرية لأبناء الشعب. انه يعشق الحرية ويتمسك بحبه لها وبكل العاشقين للحرية والمدافعين عنها.

قدم فاضل الجمالي استقالة حكومته الى الوصي على العرش على اثر المقاومة الجماهيرية لسياسته. احس برغبة شديدة في الكتابة الى الوالد من اجل التخفيف عن الصدمة بعد ان خدعته الظروف. تريث قليلا، ثم امسك بالقلم وكتب رسالة رقيقة مقتضبة. قال:

" وانا على ثقة من ان سياسة " قص الجناحين " لن تنطلي عليك في المرة القادمة. لقد نجح نوري السعيد ومن هم على شاكلته في قص جناحيك، ثم رميك وحيدا عاجزا لا تقوى على الطيران. سامحني يا والدي على لغتي، فأنا احبك ابا وطنيا ومثالا حسنا ..."

بعد اسابيع، عادت المياه الى مجاريها بينهما. اعاد الوالد اصدار صحيفته بثوب جديد. كان وحيدا في هذه الفترة: غادره الاولاد ولم يبق الى جانبه سوى الشقيقة الصغيرة. بديع يعمل في مؤسسة تابعة للأمم المتحدة ببيروت. كمال في ليبيا يشتغل خبيرا في التمور. هو وسامي في القاهرة يواصلان الدراسة الجامعية.

رغم وحدته.. كان يكتب اليه باستمرار ويدس توجيهاته بين رسالة واخرى. كتب يوما يقول:

" آمل انك بعد ان نجحت وخطوت هذه الخطوة تسير الى الامام بقدم ثابتة وبعزم حديدي لتصل الى هدفك الاسمى، ان تكون صحفيا ناجحا، وحبذا ان تجعل همك ان تكتب وتؤلف باللغة الانكليزية لتربح رزقا فياضا، فإن مقالة واحدة في مجلة باللغة الانكليزية يوازي عائدها اي كتاب في اللغة العربية. هكذا قال امين الريحاني لكاظم الصلح في بيروت. ولا تزال هذه القاعدة، والشرق العربي لا يغني الكاتب بالعربية..."

وفي يوم آخر، كتب له يشكو من الإرهاق في صحيفته ويحثه على الاسراع في الحصول على الشهادة ليستلم العمل بدلا منه، ثم قال:

" اسأل الله ان يحقق آمالي العظيمة فيك ولا سيما انك ستمتهن الكتابة والتآليف والصحافة. وبهذه المناسبة اود ان تضع نصب عينيك حاجتك الماسة الى اتقان اللغة الانكليزية لكي تتابع الحركة الثقافية في العالم، واذا تعلمت لغة اخرى اجنبية كالفرنسية مثلا، تعظم ثقافتك.."

كان تواقا الى معرفة اتجاهات الابن السياسية بعد ان اطمأن الى تطلعاته المهنية، وعمل جاهدا لدفعه اكثر في اختيار طريق الصحافة وامتهان الكتابة الادبية. لم يدرك آنذاك بأن السياسة بدأت تسيطر على تفكير الشاب وجعلته بل اجبرته على اختيار طريق يختلف في الاساس عن الطريق الذي اختاره الوالد وسلكه طيلة حياته السياسية.

فهل هي " الصدفة " وراء اعتناقه عقيدة تختلف عن عقيدة والده، ام انها كانت بالفعل جزءا من ظاهرة ذلك الانسلاخ في حياة الشباب العراقي بعامة؟

كانت الكتب العلمية والفكرية الوافدة بصعوبة الى العراق، والتي يتناقلها الشباب بسرية تامة عن طريق الاصدقاء، هي القنوات الحية التي اوصلت المتمردين منهم الى الحقائق، وانارت السبيل للراغبين منهم الانتهال من ينبوعها، حتى اذا ما استوعب احدهم الف باء " النظرية "، وجد نفسه يخوض صراعا مستمرا مع واقعه الاجتماعي.

وهكذا وجد نفسه في اول الطريق..

في كانون الثاني ١٩٥٤، جرت في الجامعة الانتخابات الطلابية لاختيار ممثلي

الصفوف في مجلس الطلبة. اختاره الزملاء في المرحلة الدراسية الاولى، وتسمى وفق برامج الدراسة للجامعات الامريكية بمرحلة (الفرشمان) ليكون ممثلا لهم في المجلس المذكور.

في الاجتماع الاول بعد فوزه بالانتخابات، تعرف على ممثلي المراحل الدراسية الاخرى، فكانوا في الحقيقة، ممثلي حركات سياسية اكثر من كونهم طلاب جامعة فقط. كان في بغداد يعرف تمثيلا لأحزاب سياسية لها برامج اقتصادية - اجتماعية تختلف من موقع طبقي الى آخر: الديمقراطيون وحزبهم (الوطني الديمقراطي) وزعيمهم كامل الجادرجي. القوميون وحزبهم (الاستقلال) برئاسة محمد مهدي كبة. الرجعيون واقطاب السلطة موزعون على حزبي (الاتحاد الدستوري) لنوري السعيد، و (الأمة الاشتراكي) لرئيسه صالح جبر. اما اليوم، وهو في جامعة امريكية تضم المئات من الطلبة العرب، فقد تعرف على حزب سياسي جديد اسمه (حزب البعث العربي الاشتراكي) لميشيل عفلق، وقد مثله في المجلس (فاروق قدومي)، الفلسطيني والانسان الهادىء الخجول صديق الطلبة العرب من مختلف الانتماءات السياسية، المحبوب من قبل كل من عرفه عن كثب. كما سمع لأول مرة (الحزب القومي الاجتماعي السوري) سوري الجنسية، ويمثله (صديق كنج)الشاب الأنيق والجاف الذي لم يصادق الا قلة من الطلبة. كان متعاليا مدعيا الثقافة، ومستغلا مكانة عائلته المعروفة في سوريا ليشتري اصوات "المغفلين" من ادعياء السياسة.

بدأت متاعبه وهو يخوض اول تجربة ديمقراطية، مع اولئك (الممثلين) منذ اليوم الاول في اللقاء. لّوح لهم بالاستقالة اذا هم اصروا على صياغة بيان سياسي في تأييد جمال عبد الناصر في اعقاب الخلاف مع الرئيس محمد نجيب. ولوّح لهم بالاستقالة ثانية ان هم اصروا على طريقة الانتخاب العلني لرئيس المجلس بدلا من الاقتراع السري. كان الثلاثة، فاروق وصديق و(سليم نصار) من انصار مدرسة سياسية واحدة تتقاذفها صراعات زعامة اكثر من صراعات مبدئية، اذ ان البعثيين والقوميين العرب والناصريين ينتمون الى فكر قومي عربي. اما هو، فكان ديمقراطيا، فكرا ومعايشة.

لم تثمر جهوده للتوفيق بين اعضاء المجلس في اثناء كل نقاش مهما بدا تافها، فقرر الاستقالة، وراح يبحث عن علاقات جديدة قد تؤطرها المحبة والاخاء من اجل

اهداف طلابية مشتركة. عقد العزم على لم شمل الطلبة العراقيين في مصر. اتفقت وجهة نظره مع الصديق (محمد حسين الملا) الطالب الكردي في كلية الزراعة بجامعة القاهرة. عقدا لقاءا في " عوامته " الراسية في نهر النيل بالزمالك وقررا تأسيس رابطة طلابية على غرار الروابط الطلابية العربية.

استغل صداقات (الملا) الواسعة في جامعة القاهرة وعلاقاته بالطلبة العراقيين الذين وجدوا في الملا خير عون لهم، لما عرف عنه من طيبة متناهية وكرم واخلاق عالية، اضافت امكاناته المالية مركز قوة له. فقد كان ابن اقطاعي كردي كبير في اربيل، لكن الابن، تقدمي النشأة.

اجريا اتصالات سريعة مع عدد من الطلاب في القاهرة والاسكندرية: محمد صبري، حسن حسين السلمان، هوشيار بابان، قيس الملي، حمزة النجار، صائب المدلل، وعشرات غيرهم. ضمت " عوامة " الملا هذه النخبة في اللقاء الاول. بعد اسبوع، كان الحضور ٢٧ طالبا. عند اجراء الانتخابات لأول هيئة ادارية، بلغت اصوات الحاضرين ٣٩، حيث اصبح الملا رئيسا للرابطة وهوسكرتيرا لها. بلغ عدد اعضاء فرعها في الاسكندرية ٢١ طالبا.

استقطع كل الطلبة من مخصصاتهم، منهم طلبة بعثات، ومنهم من يدرسون على نفقتهم الخاصة، استقطع كل طالب، مبلغ ثلاثة جنيهات، وكان معدل المخصصات آنذاك لا يتجاوز ٢٨ - ٣٠ جنيها شهريا للطالب الواحد. استأجروا شقة بمبلغ ١٨ جنيها، والباقي لشراء ادوات مطبخ وكراسي وطاولة وبعض الالعاب كالشطرنج والدونبلا. كانت الشقة قريبة من سكن معظم الطلبة وتقع في وسط القاهرة في حي بولاق الشعبي.

احست السفارة العراقية بما حدث، فمعظم الطلبة يدرسون على نفقة وزارة المعارف الا القلة، هو والملا وابن السلمان. طلبت دائرة الملحق الثقافي اللقاء برئيس الرابطة وسكرتيرها. تشاور الزملاء فيما بينهم، وقرروا الذهاب الى السفارة في حي الزمالك. بارك الملحق الثقافي مولد الرابطة، لكنه طلب افساح المجال لبقية الطلبة العراقيين الانضمام اليها شريطة ان تجري الانتخابات في دار السفارة. بعد اسبوعين، كان اعضاء الرابطة في بهو السفارة، وكانت هناك وجوه طلابية جديدة هم من طلاب جامعة الازهر.

طرحت في الاجتماع المذكور قائمتان: الاولى ضمت تشكيلة الهيئة الادارية المنتخبة، وقد طبعت على ورقة حمراء عن طريق الصدفة، والثانية لخمسة مرشحين عن الدائرة الثقافية، وطبعت على ورقة صفراء، وبالصدفة ايضا . جرى التصويت بحضور ضيف السفارة آنذاك، الدكتور عبد الرحمن البزاز . فازت القائمة الاولى بكل الاصوات عدا خمسة . ضحك البزاز وقال: اخيرا فازت (القائمة الحمراء) .

* * *

توثقت علاقته بحكم كونه سكرتيرا للرابطة، بالطلبة العرب داخل وخارج الجامعة . هل كان يخطر بباله ان البعض من اولئك الطلبة سوف تتصدر اسماؤهم يوما الصفحات الاولى لكبريات صحف العالم، وتلاحقهم وكالات الانباء العالمية في عواصم الغرب والشرق؟

كان من بينهم الطالب الاردني الذي زامله في مرحلة الثانوية التابعة للجامعة الامريكية في نهاية الاربعينيات، (حاكم الفائز) ابن العشائرالقادم من وسط بلاد الاردن . تكر الايام والعهود، فاذا به نزيل سجن دمشق بعد ان اصبح عضوا في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي - قيادة عفلق - بينما (فواز شرف) ابن الاسرة الهاشمية العريقة يصبح وزيرا للشباب في الاردن .وتلقفت سجون الاحتلال الاسرائيلي اكثر من مرة رفيقه (بشير البرغوتي) الذي اصبح رئيسا لتحرير صحيفة الطليعة في القدس، ثم سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي الفلسطيني. وتوطدت علاقته بالأخ (ياسر عرفات) وكان رئيسا لرابطة الطلبة الفلسطينيين، ومن الطلاب القلائل الذين كانوا يصادقون العراقيين بسبب انتماءاتهم الفكرية التي لا تتفق مع طروحاتهم العروبية الرافضة لكل حل لفلسطين غير العودة وتحرير كامل التراب الفلسطيني . وعقد صداقة حميمة مع (فاروق قدومي) المعروف آنذاك (ابو اللطف)، البعثي السابق، ومدير الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية المزمن. لقد سبقوا الزمن وهم يتحاورون في اكثر من مناسبة حول قضايا عربية وطنية وفي مقدمتها قضية فلسطين .

في الجامعة، ضمته حلقة مع (غالب هلسا) الروائي العربي المعروف، و(مازن الحسيني) عضو مجلس السلم العالمي والكاتب الفلسطيني صاحب كتاب " انت أسود " المترجم لقصص الكتاب الامريكيين المعروفين، و(بشير البرغوتي) الشخصية

الفلسطينية المعروفة. كانوا يجتمعون في كافتريا الجامعة وفي حدائقها اوقات الظهيرة وغيرها من متنزهات القاهرة ايام العطلة الاسبوعية. لم يقل له البرغوتي ان هذه الحلقة ذات خصوصية في بادىء الأمر. الا انه اكد بأن العلاقة لا تتعدى ان تكون علاقة ثقافة وفكر. فمازن الحسيني كان مشغولا بترجمة قصص جون شتاينبك، وغالب هلسا يطالع كتابا بعد آخر في الادب العالمي والروايات العربية الحديثة. بشير يكتب في السياسة ويحتفظ بما يكتب او لربما كان يرسل ما يكتبه الى القدس. اما هو، فكان مواظبا على مراسلة جريدة (البلاد) ويضع لمسات المقال الاول لمجلة (روز اليوسف).

هكذا بدأ الاربعة جلساتهم.. حوارات في الثقافة ومتابعات سياسية وقراءات في الكتب والمجلات المصرية والعربية. تطورت بعد اسابيع الاحاديث والمناقشات الى ندوات في النظرية العلمية يعدها في كل لقاء احدهم بعد الاتفاق على موضوع ما من جوانب تلك النظرية. كان هو قد استوعب البعض منها عندما كان في بغداد، ويقوم البرغوتي بالتعليق وهو يختتم الجلسة المخصصة لهذا العنوان او ذاك. وقبل نهاية النصف الاول من العام الدراسي، اخبرهم (بشير) بأن الحلقة تتوقف بسبب تعليمات صدرت له من جهة لم يكشف النقاب عنها، الا ان ذلك كان مفهوما لدى بقية الزملاء، وليذهب كل واحد منهم الى مجال عمله السياسي المعني.

حمل مقاله عن الاكراد والمسألة القومية في العراق، وذهب الى ادارة مجلة (روز اليوسف) القريبة من موقع الجامعة. دخل على (محمود امين العالم) دون موعد مسبق. وضع امام مدير التحرير المقال وقلبه يسرع في دقاته، فهو يقف امام كاتب ومثقف مصري كبير، بينما صاحب المقال ما يزال طالب جامعة وان جرّب حظه مرات في جريدة الوالد ونالت مقالاته الادبية رضى واستحسان القراء والادباء في العراق، لكن النشر في صحف ومجلات مصر ليس سهلا، خصوصا في مجلة (روز اليوسف) العريقة.

نظر محمود العالم اليه، والابتسامة على شفتيه، وقال:

- الأخ صحفي من العراق؟

- كلا.. طالب صحافة في الجامعة الامريكية.

سكت محمود برهة، وراح يشغل نفسه بمراجعة المقال، ولما رآه منتصبا ومتحديا، قال له:

- اترك الموضوع معي .. مع السلامة.

لم يجد المقال منشورا في اعداد المجلة لفترة اسبوعين. تألم لمصير المقال وللتعب المضاع. كتب مقالا آخر عن قومية الشركس في الاردن وارسله بالبريد المسجل حفاظا على ماء الوجه. مرّ اسبوع جديد، واذا بالمقال الاول ينشر كاملا، والمقال الثاني الطويل مبتورا. كفّ عن الالحاح وعاد الى الكتب الجامعية.

مع عودته، عادت بغداد الحالمة الى حالة الانتعاش السياسي في مقارعة المشاريع الاستعمارية في المنطقة العربية. كانت الاحزاب الوطنية قد توصلت الى اتفاق محدد لخوض الانتخابات الجديدة في آيار ١٩٥٤ واصدرت نداءات تطالب فيها اطلاق الحريات الديمقراطية والدفاع عن حرية الانتخاب والغاء معاهدة ١٩٣٠ وانهاء القواعد العسكرية ورفض التحالفات المشبوهة مع الدول الاستعمارية وغيرها من المطالب الوطنية.

نجح معارضون وطنيون في المعركة.. وخسر الوالد معركته لأول مرة في غضون عشرين عاما. تألم لتلك الخسارة، فكتب اليه من القاهرة:

" كنت آمل ان اجد اسمك بين مرشحي القوى الوطنية، ولكنني شعرت بالمرارة والحقد على اولئك الذين تسببوا في خسارتك.. على كل حال دع الايام تحكي ما يخبىء لنا المستقبل..."

* * *

مطلع عام ١٩٥٥

استطاعت ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ان تجعل القاهرة، قبلة للوطنيين والاحرار الهاربين من جحيم اوطانهم وهي ترزح تحت وطأة الارهاب والحكم الرجعي. فعقد الصداقات مع العديد من رجال الفكر والصحافة التقدميين العرب والمصريين. ومع تلك الصداقات الجديدة، ازدادت متاعبه مع اجهزة النظام السعيدي. جاء التحذير من بغداد على لسان الوالد وهو يتوسل اليه ان لا يعود الى بغداد، بل أن يسافرَ الى بيروت عند أخيه (بديع). تحدى تلك المصاعب، وبقي في القاهرة. لم يكن يشك يوما ان الوالد الذي يحبه سوف يبخل عليه بالدراهم او يتركه يتسكع في الشارع وحيدا، ان هو نفذ

تحذيره وتهديده بقسوة. انه يعرف الوالد جيدا.. يعرفه أبا رحوما، وانسانا عاطفيا لا يقوى على ايذاء نملة. يعمل ما في وسعه لراحة وسعادة اولاده، والا فكيف يتحمل كل تلك الاعباء الثقيلة والعوزالشديد وهو يصر على تعليم اولاده في الجامعات خارج البلاد. ان الوالد يبكي اذا انفعل بمنظر فقير او يتألم لمصاب في حادث او سمع عن حالات بؤس ومجاعة. هل يقوى على مشاهدة احد " فرسانه " جائعا او متألما؟

حلّ الصيف، وعاد جميع الطلاب العرب والعراقيين الى اوطانهم. لجأ الى الصديق الفلسطيني (حسن شبيب)، فاصطحبه الى ارملة سويسرية تقطن بمفردها في شقة بالزمالك. اتفقا على استئجار الغرفة اليتيمة بمقدار خمسة جنيهات كل اسبوعين لحين استلامه القروش من الوالد.

طالت الايام، ولم يستلم مليما واحدا من بغداد. تذكر الصديق (ابراهيم)، الرجل الطيب الذي كان يشتري منه السجائر والكماليات كل يوم. ابراهيم افندي، كما كان يحب ان يناديه الطلبة، يملك دكانا صغيرا في شارع سليمان باشا. ذهب اليه مهموما وهو باشد الحاجة الى المليم. لقد قطع الطريق مشيا على الاقدام لخلو جيبه من اجرة الترام او الباص. امام دكان ابراهيم، وقف خجولا وحبات العرق تتصبب من كل بقعة في جسده وقد بدا على ملامحه الاعياء. تجهم وجه ابراهيم وهو ينظر الى وضعه الغريب، فقال مستغربا:

- خير ان شاء الله يا ولدي؟

انكمش على نفسه، وتساقطت الدموع من عينيه. رد عليه بصعوبة:

- تعبان يا ابراهيم افندي.

كان قد وعد نفسه بأن يصارحه وان يترك خلفه الاحزان، فالحاجة اقوى من العواطف. نظر اليه بانكسار تماما، وتذكر قبل لحظات منظره وهو يمر على احد المطاعم، ويجد زبونا ضخم الجثة يتناول وجبة طعامه الدسم في الخارج، ويطيل النظر اليه كما ينظر الجائع الى قطعة لحمٍ في السوق، ولعابه يسيل جفافا، وراح يقص عليه مشكلته. لمس الألم والاستغراب باديين على وجه ابراهيم الذي طرق برأسه سارحا بضع ثوان، ثم قال:

- تعال معي الى البيت وقاسمني مع العائلة ما انعمه لنا الله.

لم يكن الشكر كافيا للتخفيف عن المصيبة التي حلّت به.. فراح يؤكد لابراهيم بأن المسألة ليست يوما او يومين، بل ابعد بكثير مما يتصوره. مد ابراهيم يده في جيب سرواله ولوّح له بورقة حمراء من فئة خمسة جنيهات. تلقف الورقة كأي طفل يختطف لعبة من يد طفل آخر وراح يبتعد وهو يلوح له شاكرا، يجتاز هذا الشارع وذاك المنعطف بتؤدة وصمت يشوبهما تيار من الفرح والغبطة، متجها الى صاحبه (محمود) صاحب دكان الفول المدمس الذي يعرفه بدوره زبونا دائما في منتصف كل شهر بعد ان تكف الملاليم الفائضة عن القرقعة في الجيب.

تدور الاحداث وهو يتنقل بين الزمالك ودكان ابراهيم افندي. ان ابراهيم انسان طيب يقدر ظروفه ويمد له يد المساعدة كلما احتاج الى الملاليم. دفعته تلك الثقة بالناس الى مصارحة (كاترين) السويسرية صاحبة الغرفة التي استأجرها دون ان يدفع لها مليما واحدا، بحقيقة وضعه. اطمأنت اليه كاترين بعد ان لمست منه الود والرقة في علاقة بدت للوهلة الاولى، عقدا بين مالك ومستأجر، بينما هي في جوهرها علاقة اتسمت بالتفاهم والتعاطف ودغدغة مشاعر كان هو بحاجة اليها تماما، كما كانت هي تحتاج تلك الصداقة وقد قاربت على مشارف الأربعين.. ارملة وحيدة تقضي الوقت منذ عودتها من السفارة مساء، في تبيان بختها بورق اللعب المتآكل من كثرة الاستعمال، بينما يجلس هو يراقبها ويداعب كلبها الصغير حتى تكل وتمل وتنسحب الى غرفتها، ويدلف هو الى غرفته اللصيقة بها.

تسرع الايام، وتتسابق الاحداث ..تتصارع الافكار في رأسه كما تتصارع في رأسها وهي تقترب منه اكثر بعد ان طوقهما الشوق من كل صوب، فيدخلان التجربة يوما بعد آخر وليلة بعد اخرى.. فكانت بحق علاقة احتاجت اليها كحاجته هو اليها، وكان الوقت الذي صرفاه والشوط الذي قطعاه في تلك العلاقة من اجمل الاوقات. بقي وفيا لتلك الرابطة حتى بعد ان شد الرحال وسكن مع (سامي) العائد من بغداد وهو محمل بالدراهم، وتفتح هي مسكنها وقلبها الكبير، فيسكنهما مطمئنا فرحا لمعرفة هذه الانسانة اللطيفة.

* * *

مطلع عام ١٩٥٦

عاد ثانية الى الجامعة الامريكية بعد ان تركها سنة كاملة طالبا في قسم الآداب بجامعة القاهرة. قرر هذه المرة ان ينتظم ويلتزم بالدوام في قسم الصحافة ليكمل مشوار الدراسة الذي بدأ منذ قدومه مصر. ان رغبة الوالد كانت تنحصر في تعليمه الفن الصحفي بعد طرده من كلية الآداب في بغداد. عليه ان يحترم تلك الارادة ويقتصد في تكاليف الدراسة والمعيشة الباهظة آنذاك ليخفف وطأة الظروف المالية السيئة التي تكتنف افراد الأسرة الكبيرة.

مع بدء الفصل الثاني من العام الدراسي، تعرف على (مها)، الفتاة الرقيقة المنحدرة من ريف مصر، والتي احتلت مقعدا مجاورا له في الصف عن طريق الصدفة، او هكذا خيّل له. كانت تلك الصدفة الجميلة وراء لقائهما في كافتريا الجامعة وللمرة الاولى ايضا. ربما كانت الصدفة وراء لقاء الاقصر واسوان بعيدا عن ضجيج القاهرة وصخب الجامعة. ففي تلك الرحلة الجامعية، شعرهو وهي بدقات القلب تربكهما في كل لقاء خططا له عن قصدٍ.

لم تكن (مها) تعرف عنه في تلك الايام الاولى اكثر من انه عراقي يهوى الصحافة وله ميول سياسية. اعجبت به منذ اول نظرة وهو يلج باب الصف المخصص لمادة الاخراج الصحفي حيث يبدو للوهلة الاولى غريبا عن بقية الطلاب العرب. راحت تبحث عن هويته جيدا. عندما امتدت بهما الايام، فادركت انها تجالس صحفيا مارس المهنة في جريدة والده بالعراق وانها تتحدث مع سياسي يعرف الكثير عن خبايا السياسة التي تجهلها رغم ان والدها كان احد ضحايا تلك السياسة، فشدّها الاعجاب اليه اكثر فاكثر وهي تسأل عن العراق واحوال العراق والسياسة المعلنة والخفية داخل وخارج العراق.

لقد تحول الاعجاب والاستئناس الى عشرة وصداقة بعد فترة قصيرة، تحول الى تعلق مفاجيء داهمها دون وعي، فكانت البداية لمشوار عاطفي طويل. وعندما عرفت منه قصة شقيقه (بديع)، عادت بها الذكريات الى ايام قصة الحب الكبير في نفس الجامعة في مطلع الخمسينيات بين اثنين من الطلاب، والذي تحوّل الى سبب من اسباب رفض اقاربها واصرارهم على منعها من دخول تلك الجامعة.

عاش بديع وزميلته (جلنار) احداث تلك القصة الرائعة اربع سنوات. انه عراقي، جميل الطلعة، طويل القامة، انيق وجذاب. (جلنار)، سمراء دافئة ذاتُ عينين داكنتين وشعر اسود جميل، تنم تقاطيع وجهها عن هوية مصرية عريقة. عرف طلبة السنوات الدراسية الأربع قصة حبهما الطويل عدا اهلهما في مصر والعراق. عندما قررا في نهاية السنة الرابعة الزواج، رغم معرفتهما بالظروف والتقاليد القاسية، رفض والدها (حسن الجداوي) المحامي المتنفذ في عهد الملك فاروق، ونجح في احتجاز بديع ثلاثة ايام في سجن الاجانب ومن ثم تسفيره الى خارج مصر بالقوة. الا ان الزواج تم بعد اسابيع في قبرص بالضد من ارادة العائلتين.

بدأت (مها) صراعا طويلا مع ذاتها. انها تجد نفسها وفجأة متعلقة بشقيق بديع وهي تعيش قصة حب مماثلة. انه عراقي وليس مصريا، تلفهما نفس الظروف والاعراف الضاغطة. فهل تكبح عواطفها قبل فوات الاوان؟

* * *

جلسا في ظهيرة يوم جميل من ايام ربيع مصر في شرفة فندق اسوان، يطيلان النظر الى بعضهما دون ان ينطقا بحرف واحد. طلبت منه مرارا ان يكف عن التدخين، فقد احرق خلال نصف ساعة كثيرا من التبغ. كان مرتبكا حين نهضت فجأة، فلحق بها والتحما مع بقية الطلبة. عندما عادا الى القاهرة، شهدت الجامعة اجمل قصة حب في سجل عشاقها.

كانت (مها) تضع على عينيها الخضراوين الجميلتين نظارة شمسية خفيفة اللون والشكل، وهي تحدق في عينيه طويلا دون ان تتكلم دقائق تلو الدقائق.. وكان هو كذلك يطيل النظر الى ما يختفي وراء العدستين، فيلمح بريقا من الحب والحنان يحلقان مع حلقات الدخان المنبعث من سجارتها، ليمتزج ويتعانق مع سحابة منبعثة من سيجارته، وهما يكظمان احلى العبارات وهي حبيسة قلبين عاهدا بعضهما على الوفاء دون ضجة وأن لايعكر نقاوة شعورهما عبث الصبيان او شهوة ولهان.

وتطول اللقاءات في الصفوف الدراسية، وفي كافيتريا الجامعة، او في حدائقها الموزعة هنا وهناك. لم يطلبا اكثر من قضاء دقائق هادئة وهما ينظران الى بعضهما ويكتفيان بالتعبير عما يجيش في صدرهما من حب نزيه صادق دفين، فيحترق قلبهما

بعد كل فراق، ويطربان في كل لقاء بعد اشتياق يقاس بساعات البعد المفروضة عليهما. في تلك اللقاءات السعيدة، لم يعترفا يوما لبعضهما، او ينطقا بما يحسان به. اما هو، فكل الذي كان يحسه ويضطرم في قلبه، هو ذلك الشعور القوي في حبها اكثر وحمايتها، كما كانت هي تتحسسه وتفخر به دون ان تبوح له بذلك.

جاء يوما الطالب (فواز شرف)، الأمير القادم من سلالة اشراف الاردن وطلب منه ان ينزويا في ركن هادىء من كافيتريا الجامعة. استغرب للوهلة الاولى من طلبه. الا ان استغرابه ازداد عندما خاطبه دون مقدمات وبلكنة عشائرية قريبة الى اللهجة العراقية وهو يقرن طلبه بلغة آمرة وكأنه يمتلك العراق كما كان أبوه الشريف شرف ايام زمان وصيا على عرش العراق، اثناء حركة آيار/مارس ١٩٤١ .

قال فواز بنبرة حادة:

- اترك (مها).

عقدت الدهشة لسانه وهو ينظر الى فواز الذي اضاف قبل ان ينتظر منه الجواب، بأنه جاد بما يقول. رمقه بنظرة امتزج فيها الغضب بالاستغراب، فرد عليه بعصبية:

- اي حق تمتلك بأن تخاطبني بهذه العنجهية؟

اردف الأمير قائلا:

- لأنني قررت الاقتران بها.

- ومن تكون انت؟

تراجع فواز خطوة الى الوراء، ثم رد عليه بالقول:

- سوف اذهب الى والدتها واطلب يدها رسميا.

لم يتمالك نفسه هذه المرة وقال له بصوت عال:

- لا انت ولا ابوك الشريف لكما الحق بفرض (الوصاية) على احد. اذهب واعمل ما تريد. ان (مها) حرة باتخاذ القرار بمحض ارادتها.

لم يكذّب فواز نفسه.. ذهب في اليوم ذاته الى والدتها، في وقت لم يكن هو بحاجة الى معرفة النتيجة، فهو على ثقة بأن (مها) تشاطره الرأي وان لم يفاتحها بما حدث بينه وبين فواز.

كانت (مها) تخشى كثيرا وتهاب شرور السياسة بسبب انغماسه في ذلك الجو

المشحون بالمخاطر. لكنها رغم ذلك، لم تمنعه يوما من ممارسة حقوقه ولعبته المفضلة منذ الطفولة. ان غريزة الطفولة عنده، كانت، وراء كل عمل قام به لتحطيم (الدمى). فما ذنبه ان تمسك بتلك الغريزة؟ تحملت (مها) عنه الكثير من مشاكل ومتطلبات الدراسة. كانت تستنسخ له المحاضرات في سبيل ان يتفرغ لأمور تحرير جريدة الجامعة، (القافلة) الاسبوعية بعد ان انيطت به رئاسة التحرير.

* * *

كان سعيدا راضيا بقسمته، فارادت الظروف ان تعاكسه قبل ان يحتاط للأمر.

في فجر العاشر من نيسان ١٩٥٦، كان الزائر شبحا جاء متسللا ليغتال سعادته.

قال (رفيق) نسيب (كمال):

- مات ابوك..

رمى جسده المطعون على السرير، لا يقوى على الحراك. جالت الافكار السوداء في خاطره وهو يتذكر في تلك اللحظة الأمانة التي وعده بها الوالد. سرت في عروقه رعشة الخوف حين تخيل جريدة (البلاد) وقد تركها صاحبها على غير عادته تضيع بين انامل العمال ويراع قلم فقد صاحبه.

لقد انتهى الآن كل شيء.

خبر النعي منشور في صحيفة (الاهرام) المصرية.

رفيق ونعي الاهرام اكدا له المصيبة.

سافر (سامي) الى بغداد في اليوم التالي ليشارك في مراسيم التشييع والتعازي. اما هو، فلم يكن بمقدوره السفر بسبب امر القاء القبض عليه من قبل التحقيقات الجنائية جراء نشاطه الطلابي والسياسي، كما كتب له الوالد قبل موته باسابيع قليلة. نصحه ابوه بعدم العودة الى بغداد لأي سبب كان لحين تبدل الظروف او السعي الى الغاء ذلك الأمر اللعين وللمرة الثانية منذ سفره الى القاهرة.

طلب من (سامي) ان يحكي له ما حصل للوالد. تساقطت الدموع من عيني سامي مع نبرات ما كان يرويه له عن الساعات الآخيرة التي سبقت الوفاة. قال سامي:

في صبيحة ذلك اليوم، نهض مبكرا كعادته واخذ يطالع في مكتبته حتى الساعة التاسعة. في التاسعة والنصف، اتصل بادارة الجريدة مستفسرا عن المحررين، لكنه

صعق عندما اخبره احد العمال بأن جميع المحررين غير موجودين في الجريدة، وكان الوقت متأخرا بالنسبة لدوامهم. بعدها اتصل بالسفير السوري واخذ منه موعدا لزيارته في العاشرة والنصف.

اخذ يستعد لمغادرة البيت، لكنه أحس بألم طفيف في معدته. اخبر الوالدة بأنه تعب والسبب يعود الى السهرة التي قضاها في دار (صالح جبر) مع الوفد البرلماني السوري وانه عاد الساعة الثانية عشرة بصحبة (يحيى قاسم) صاحب جريدة (الشعب) البغدادية. وعندما شعر بهذه الوعكة، طلبت الوالدة الطبيب، فرفض.

في غرفته بالطابق الثاني، استلقى على فراشه والساعة قد قاربت على العاشرة والدقيقة العاشرة. رنّ جرس الهاتف في الدار، وكان المتحدث احد الذين وعدهم بالانتظار في الجريدة. عندما صعدت الوالدة لتخبره بذلك، وجدته مستلقيا على الفراش وكفه تحت رأسه. ظنت الزوج ان النعاس قد ادركه، فارا د ان ينال منه دقائق. همّت ان توقظه، فمال على ظهره، دون حراك. صرخت مولولة بان الوالد قد مات. قال الدكتور (دي سوزا) والدكتور (ابراهيم الحيالي) ان الوفاة وقع بسبب انسداد في شرايين القلب.

هكذا رحل والده تاركا خلفه الجريدة التي عشقها منذ عددها الاول الصادر في تشرين ١٩٢٩، ومكتبة ضخمة وآثار عديدة في طريق الانجاز، مودعا زوجة وابنة صغيرة (ايزيس) ٨ سنوات، والتي كانت في المدرسة، تعيش لحظات كل يوم، عندما يصحبها الى حديقة الدار ويجمع لها باقة من الزهور منتظرا سيارة المدرسة، ولتطبع على خده قبلة الصباح قبل صعوده السيارة.

عاد الى الجامعة حزينا. خففت عنه (مها) هول الصدمة كما تعتاد الفتاة في مثل هذه الحالات ان تفعل. ضمته الى صدرها الدافىء وهي تمسح دموع الألم بمنديلها القرمزي. شعر بالحرارة تضطرم في داخله، فتقلصت عضلات وجهه عندما شاهد دموعها تتساقط بلا حساب. طأطأ رأسه وراح يتمتم بعبارات غير واضحة ولكنها صادقة: اغتالوه يا مها. لقد قتلوه في بغداد كما قتلوا اباك في القاهرة. كان شاهدا هو الآخر على اسلحة فاسدة من نوع آخر.

في الحفل التأبيني لأربعينيته، قرأوا في قاعة الملك فيصل التي شهدت تمرده قبل

اربع سنوات رثاء الأبن لأبيه: " ... لقد علمتني كل شيء في الحياة ولكنك لم تعلمني كيف ارثيك. اأرثيك كأبي ام ارثيك كأستاذي ام أرثي الصحافة والادب... وانا بين هذا وذاك، أرثي ابنك الذي فقدك وهو في منتصف الطريق .."

* * *

طوى اسابيع الحزن وراء الماضي، وعاد الى بغداد بعد ان نجحت " الوساطة " بالغاء التعقيبات القانونية بحقه.. عاد الى تلك الدار في الكرادة الشرقية حيث تركه الوالد خاليا موحشا الا من الذكريات. دلف الى مكتبته، فوجد الاوراق ما تزال حزينة. المصحف الشريف يفتقد من يجوده. دواوين الشعر صامتة، وبقايا مقال لم يكتمل. زاوية " في الاندية والمجالس " محاطة بشريط اسود. لقد تركت الوالدة كل شيء امانة للقادم من القاهرة. الكتب وقد علاها الغبار. نتاجات يراع لفها النسيان. مذكرات وكتب وذكريات مخطوطة تستصرخ من ينتشلها ويحميها من الضياع.

بدأ العمل الجاد في الجريدة مع (كمال) حارس الامانة. طبّق اسلوب التصميم الفني (الماكيت) لأول مرة في الصحافة. كانت البداية صعبة، لكن الجميع ساعدوه على تجاوز الماضي. صدق الوالد عندما قال بأن الصحافة فن وليست هواية فقط.

رغم انشغاله في الجريدة واصدار كتابه الأول بعنوان " أبي "، لم ينس ادبيات الحركة التي احبها، فعشق فيها الاخلاص. كان سعيدا وهو يطالع العدد الأول من (اتحاد الشعب) السرية في ٢٢ تموز ١٩٥٦ لتطوي فيه تاريخ نضال (القاعدة).

كان الشعار الوطني المطروح في تلك المرحلة هو: في سبيل الانسحاب من ميثاق بغداد واشاعة الحريات الديمقراطية وفي سبيل التحرر من نفوذ وسيطرة الاستعمار وشركاته وعملائه ..

في ٢٦ تموز/يوليو.. اهتز العالم لحدث عربي كبير. اصدر جمال عبد الناصر قرار ثورة ٢٣ يوليو التاريخي بتأميم قناة السويس. التقط محرر الشؤون الدولية في الجريدة (عبد الله الخياط) النص الكامل لخطاب ناصر وقرار التأميم. لبست (البلاد) ثوب العرس وهي تسير بفخر في شوارع بغداد وتدخل كل بيت سعيد. تأبط العدد العروس وهو يصعد سلالم الطائرة في طريقه الى القاهرة ليكون خير شاهد على وحدة الهدف والمصير للشعبين الشقيقين.

قبل ان يغادر الى القاهرة، حجز له في الصفحة الآخيرة من الجريدة زاوية " نحن والغد " وهي يوميات اسبوعية، دأب على الكتابة فيها بالتناوب الى جانبه، كل من: سلوى زكو، امجد حسين، عبد الواحد لؤلؤة، صالح سلمان وعبد اللطيف حبيب.

من القاهرة، كتب في الادب بعض المقالات قبل ان يقتحم باب الكتابة السياسية. نشر مقالا عن " مفهوم الأدب الشعبي "، " استعمال العامية في الآداب العربية " في شهر تموز. وكتب عن " النقد الأدبي وسايكولوجية الأسلوب " في شهر آب. ونشر مقالا عن " الواقعية في القصة " في ايلول. كما كتب لاحقا عن " لغة الأدب عند الأديب " و " الاختصاص في الأدب ".

في العام التالي، نشر مقالين نقديين، الواحد بعنوان " النقد الأدبي في الميزان " والآخر كان بعنوان " التجديد في الأدب العراقي الحديث ".

ابتعد عن المواصلة الأدبية لينغمس ويغرق في الكتابة السياسية، محررا ومراسلا.

وكم كان فرحا سعيدا وهو يستلم قصاصات الصحف العراقية من اخيه (كمال) وهي تتحدث عن كتابه " أبي " الصادر في تلك الفترة. كانت تلك الوريقات تتحدث عن قيمة الكتاب وجهد الكاتب. وكان هو بدوره يحتفظ بها كعادته في ارشفة كل مقالاته في اضبارة كبيرة، حيث يلصق المقالات على ورق صقيل ويؤرخها. فكيف الحال وصحف بغداد تكتب عنه؟

بدأ يقارن بين نفسه والوالد الذي كتبت عنه المجلات العربية كثيرا حين اصدر كتابه الثمين " الأدب العصري في العراق العربي ". فكلاهما اقتحما ميدان الكتابة وعمرهما لا يتجاوز الثالثة والعشرين. فهل يحقق الشهرة في هذا الميدان كتلك الشهرة التي يتمتع بها الوالد؟

ان ذلك الحلم، كان طموحه الكبير..

* * *

٢٩ تشرين اول ١٩٥٦

مع نسمات فجر ذلك اليوم البديع، دخل باب الجامعة مبكرا وفي يده صحيفة (الاهرام). القى تحية الصباح على (عم عبدو) ودلف الى كافيتيريا الجامعة حيث

اعتاد تناول الفطور فيها كل صباح. جلس يتصفح ويطالع عناوين الصفحة الاولى. كل شيء هادىء على الساحة العربية. مصر تعيش افراح التأميم. دخلت (مها) واحتلت مكانها المعتاد امامه. في اللحظة التي بدأ فيها ارتشاف قهوة الصباح، اقتحم (بشير البرغوتي) الباب وهو يصرخ: يا جماعة، غارة جوية. ترك كل شيء وهرع الى العم عبدو وتناول منه الراديو الترانسستر وهو ينطلق بصيحة (احمد سعيد): يا ابناء العروبة.. هبّوا للدفاع عن مصر العرب.. الموت للمعتدين.. عاشت مصر حرة.

وقف مشدوها امام الجماهير الطلابية وهي تحدق في السماء التي شوهت زرقتها وازعج صفاءها، ازيز الطائرات واصوات المدافع الهادرة. اصطحب معه (مها) الى مقر رابطة الطلبة العراقيين في بولاق. توافد البعض من الطلبة وتحلقوا حول المذياع وصوت المذيع يدعو ابناء العروبة الى الكفاح.. الى النضال.. من المحيط الى الخليج. نشيد " الله اكبر فوق كيد المعتدي " يهز المشاعر.

بدد الهدوء المطبق على جدار غرف الرابطة، عندما صرخ في وجوه الزملاء:

- ماذا ننتظر يا جماعة، ان باب التطوع مفتوح امامنا.

شعرت (مها) كما لو ان احدا قد هزها، فقالت بغضب:

- لماذا انت بالذات؟

التفت الى محمد الملا دون ان يجيب فتاته، وقال:

- يا زملاء، يجب ان نتطوع.. لنذهب الى معسكر بولاق.

نظرت اليه (مها) ثانية وهي تغالب دموعها، تتوسله ان يدع جانبا حماس العاطفة، وقالت:

- تريث واصبر حتى تنجلي الامور.

- يا حبيبتي، اليوم افضل من الغد.

طمأنها وطلب منها ان تذهب الى البيت.

امام باب معسكر بولاق، شاهد الاف الناس يقفون بطابور منتظم واصابعهم تشير الى الطائرات .اقتحم الصفوف مندفعا الى الجندي الواقف على البوابة. نشوة الفخر سبقته في الحديث. جمع انفاسه وقال:

- اريد التطوع.

- هل تجيد استعمال السلاح؟

اجاب بالايجاب، وكان كاذبا. انها المرة الاولى التي يكذب فيها دون خجل. ثم اختفى داخل المعسكر بين الاكداس البشرية.

الساعة تشير الى الثالثة ظهرا. دلف الى داخل المعسكر بخطوات مسرعة، الرائد المغوار (سيد طه) المعروف بضبع الفالوجا في حرب فلسطين. ضابط اسمر وقصير، ممتلىء القامة، يتمنطق بمسدس كبير، سوفييتي الصنع، من الاسلحة الجديدة التي تحصل عليها مصر بعد كسر الاحتكار للتسليح المصري. وبصوت (سيد طه) الجهوري، صرخ منفجرا كقنبلة موقوتة:

- اريد رجال حرب لا استعراض.

تعالت الاصوات من كل صوب: كلنا صواعق، كلنا جنود حرب.

زمجر وعربد وعلا صوته وهو ينظر الى هذه الجموع الثائرة:

- لا وقت للعواطف.. اريد فقط من يجيد منكم استعمال السلاح.

بدت الصورة تتوضح امامه اكثر وهو يستمع الى الضابط البطل الذي ارعب قوات الهاجانا في صحراء النقب عام ١٩٤٨ وصب غضبه بعد النكبة في ساحات قناة السويس مكيلا الضربات الموجعة لقوات الاحتلال الانكليزي. انها معركة حقيقية تختلف عن معارك علب السجائر واعواد الكبريت فوق سجاد وثير يفترش بلاط غرفته في شارع الزهاوي. انه يقف على تراب قدسه جده قبل أبيه. الرجال واقفون، لحما ودما، لا دمى تتقاذفها ايدي الصغار. قرر ان لا ينسحب. وجد نفسه يقف مع ٨٤ متطوعا فقط من مجموع الالف في طابور امام شباك صغير كشباك كشك لبيع السجائر في منصة الشارع، ليستلم بذلة الخاكي وفيها البقع الحمراء الداكنة والخيوط السوداء الخاصة برجال الصاعقة والمغاوير.

لم يذق طعم النوم او الراحة لمدة يومين. ان التدريبات التي مارسها فاقت بقوتها وتعدد تكتيكها كل التدريبات التي عرفها في معسكر الرشيد ببغداد. لم يحس بالوقت وهو يسرع. كانت مقاومته للجوع والعطش اشد من مقاومة الذئب لجوعه. لم يجد الخوف طريقه الى قلبه. شعر بقوة وبأس كلما تذكر ايام المقاومة في بغداد ضد المعاهدات وضد شرطة بهجت العطية. انه اليوم مغوار في كتيبة " الفدائيين العرب ".

في ليلة دون الليالي برودة، دخل على الخيمة التي كانت تضمه مع رفاق السلاح من فلسطين، الرائد طه، وكان هو يغط في سبات عميق بعد يوم متعب، وقد امتقع وجه الضابط وهو يلهث، وقال: تعالوا معي حالا لتنفيذ مهمة عاجلة. خطرت بباله للتو، ان العملية سوف تكون في بور سعيد بعد تعرضها للأنزال الجوي في الامس، او هكذا ساقه الخيال ايام اللعب البريء. صعد مع رفاقه الى سيارة " زيل " عسكرية كانت تقف امام باب المعسكر، يحدوه الامل بلقاء العدو الذي سمع وقرأ عنه في السابق وحسبه عملاقا لا يمكن قهره. بعد مسيرة طويلة، توقفت السيارة فجأة. ظن للوهلة الاولى انهم فوق ارض بور سعيد. ترجل بخطى مسرعة ليجد نفسه امام مقر جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وليس في مقر العمليات الفدائية. كانت التعليمات تقضي بحماية الاسلحة والذخيرة داخل البناء الكبير. لقد سحبت قيادة الجيش تلك الاسلحة الى داخل المدينة حفاظا عليها من التدمير في معسكرات العباسية ومنشية البكري. تسلم رشاش (كلاشنكوف) وثلاثة مخازن من الخرطوش، تساءل مع نفسه وهو يمسك بالسلاح إن كانت الحماية الداخلية من اختصاص المغاوير المدر، أم من اختصاص وواجبات قوى البوليس الحربي، أخذ مكانه المخصص في ساحة مبنى الرياضيين للتدرب على حرب العصابات، وأقنع النفس بأنَّ الواجبَ الوطني يقضي دوماً بضرورة تنفيذ الأوامر العسكرية. انها الحرب.

في الصباح، انسحبوا الى المعسكر بهدوء كما جاءوا اليه بهدوء. كانت اذاعة القاهرة وصوت العرب تبثان الاغاني الحماسية وتذيعان خبر الانذار السوفييتي الشهير بوقف العدوان على الشعب المصري. المذيع احمد سعيد يصف بطولات اهالي بور سعيد الصامدة بوجه الهجمة الشرسة لدول العدوان. صحف الصباح نشرت تحقيقا موسعا عن بطولة وفداء الضابط السوري (جول جمال) الذي فجّر نفسه مع طوربيده في اغراق بارجة فرنسية قبالة شواطىء الاسكندرية.

في الظهيرة، دخل الرائد (طه) الى المعسكر وهو يبتسم ويزف البشرى بقرار مجلس الامن الدولي بوقف اطلاق النار. صافحهم فردا فردا وقال: مبروك علينا، لقد انتصرنا. الشعب لا يمكن ان يقهر.

في المساء، خلع البزة العسكرية.. نكّس سلاحه، وطرق عائدا الى الجامعة للقاء (مها).

* * *

انتفضت بغداد من جديد اسنادا للشعب المصري في معركته ضد العدوان الثلاثي. عمّت بغداد ومدن العراق الاخرى مظاهرات صاخبة منددة بسياسة الحكومة المتعاونة مع الانكليز في جعل المطارات العراقية مرتعا للطائرات المعادية والمنطلقة لضرب مدن مصر. جاءت الانباء من بغداد تعلن عن اقدام الحكم على ارتكاب جريمة اعدام (علي الشيخ حمود) و(عطا مهدي الدباس) في مدينة الحي.

كان لابد من القيام بعمل ما، خصوصا بعد ان اصدرت طليعة الحركة الثورية في العراق، بيانا جديدا يختلف في لهجته واسلوبه عن كل ما نشر في الفترات السابقة حين اكد على " ان تيار الارهاب قد تصاعد الى درجة لم يسبق لها مثيل في البلاد وفرضت على الشعب معركة دموية رهيبة لابقائه مصفدا باغلال حلف بغداد وبضروب الاستغلال الاستعماري وكبح نضاله المشروع للتضافر مع الاقطار العربية في معركة الحرية والشرف ". كما اكد البيان على " تعديل في الصياغة التي تتعلق بطبيعة حركتنا التحررية بحيث تصبح - ذات طابع عنفي غالب - بدلا من - ذات طابع سلمي غالب. "

قرر ان يخوض المعركة في القاهرة. كتب عدة بيانات تحريضية بأسم " اتحاد الطلبة العام - فرع مصر " تفضح طبيعة الحكم الاسود في العراق، وقامت اذاعة محطة (صوت العرب) باذاعتها في برنامج " كفاح العرب " وبصوت المذيع احمد سعيد.

من دمشق.. توافد على القاهرة العشرات من الادباء والكتاب العراقيين والعرب. كانت لقاءاته منتظمة مع (غائب طعمة فرمان) ومتقطعة مع (عبد الوهاب البياتي) وموسمية مع كل من (عدنان الراوي) و (خالد الصانع)، كل حسب مكانته وموقعه في الحركة الوطنية والفكرية.

كان غائب طعمة كاتبا تقدميا لصيقا بالحركة اليسارية، متواضعا خجولا الى ابعد الحدود. نشأ في بيت صغير وفي عائلة كادحة، حيث ابوه عاملٌ بسيطٌ استطاع ان يصرف عليه ويدخله الكلية بالرغم من اصابة ولده بمرض السل واستئصال الجزء المصاب

من رئته. وكان محررا في جريدة (الاهالي) وقاصا مبدعا اصدر مجموعته الاولى "حصاد الرحى " في مطلع الخمسينيات. شملته الاجراءات التعسفية آنذاك واسقطت عنه الجنسية العراقية وهو في دمشق. شدّ الرحال الى القاهرة عام ١٩٥٧وحلّ ضيفا على الوطنيين من العراقيين والعرب.

اما صاحب ديوان " اباريق مهشمة " فكان هو الآخر من رواد مقهى " لوك " في ميدان سليمان باشا. كان الثلاثة، غائب وعبد الوهاب ورشدي العامل يتوافدون كل يوم الى حرم الجامعة الامريكية ليصطحبوه الى المقهى المذكور، فتكتمل الجلسة بحضور محمود امين العالم، لطفي الخولي، عدلي برسوم، محمد عودة، عبد الرحمن الخميسي، والشرقاوي، وغيرهم من مثقفي مصر التقدميين.

في المقهى، جاءه مسرعا محمد حسين الملا، واخبره بأن المذيع احمد سعيد رفض استلام بيانات الطلبة العراقيين، في نفس اللحظة التي اطل بها عدنان الراوي كعادته مبتسما وهو يطلب منه نتفا من اخبار الوطن. ايقن للتو السبب وراء رفض احمد سعيد للبيانات. التفت الى عدنان وقال له:

- هل قلت لأحمد سعيد شيئا عنا؟

- ماذا تقصد؟

- هويتنا مثلا..

اضطرب الراوي وهو يروي في حديثه كل يوم من اذاعة " صوت العرب " اخبار الوطن، فاراد احتكار المنبر هو و خالد الصانع وابعاد الآخرين، وراح يبحث عن حجة يدحرجها لتبرير فعلته، وعلا صوته وهو يقول:

- الاخبار والتعليق لا يتحملان تعدد المصادر!

احتد ورد عليه بامتعاض:

- لماذا تريد احتكار المنبر، وانت تعرف بأننا نزودك بالاخبار؟

نهض عدنان وترك المقهى، ولم يعد اليه ثانية.

* * *

مع بدء العام الدراسي..بدأت مرحلة جديدة من مراحل النضال في اعقاب انبثاق " جبهة الاتحاد الوطني " في نيسان ١٩٥٧ بين الحزب الوطني الديمقراطي والحزب

الشيوعي العراقي وحزب الاستقلال وحزب البعث العربي الاشتراكي وفق اهداف مشتركة منها، تنحية وزارة نوري السعيد وحل المجلس النيابي، والخروج من حلف بغداد، توحيد سياسة العراق مع البلاد العربية المتحررة، ومقاومة التدخل الاستعماري بشتى اشكاله ومصادره، انتهاج سياسة عربية مستقلة اساسها الحياد الايجابي، والعمل على اطلاق الحريات الديمقراطية الدستورية، الغاء الادارة العرفية واطلاق سراح السجناء السياسيين واعادة المدرسين والموظفين والطلاب المفصولين لأسباب سياسية.

ان تجربة الجبهة يجب ان تنجح وتثمر. يجب ان تبذل جهود استثنائية في امرار " التمارين " الفاعلة لتعميق العمل الجبهوي في كل مناسبة سياسية او غير سياسية.

في اليوم التالي، وفي مقهى (الاكسلسيور) المقابل لدائرة الاستعلامات المصرية، جلس مع (غازي العياش) الذي كان يعمل محررا في جريدة (البلاد)، ينتظران الموعد، وهو يضع على الورق امامه عشرة اسئلة مستوحاة من بنود الاتفاق الجبهوي في العراق. تم كل شيء حسب الاتفاق. ذهب غازي الى الموعد، وتسلل هو الى مقهى لوك وفي مخيلته الف والف فكرة حول الموضوع: كتابته باسلوب لبق لا يثير مشاكل بوجه الجريدة. اخراجه صحفيا لضمان تحقيق ضربة سياسية ناجحة.

كان الحديث آنذاك، وفي مثل تلك الظروف، هاما وصريحا. تحدث جمال عبد الناصر حديث الاخ والقائد لمسيرة وطنية. استغرقت منه كتابة نص الحديث اكثر من خمس ساعات. وضع له العناوين البارزة والفرعية ضمن ماكيت الصفحة الاولى، ثم نام نوما هادئا.

اقلعت الطائرة المصرية في الساعة الواحد ظهرا. كان (كمال) رئيس التحرير، ينتظر الحديث في مظروف كتب عليه: سري وشخصي. في نفس الوقت، كانت مطابع دار "الاهرام " بالقاهرة تخرج الحديث بصورة ناجحة. كان على ثقة تامة من ان نشر الحديث واذاعته من اذاعة القاهرة انما يشكل تحديا واضحا لحكومة بغداد لأن عبد الناصر كان يمثل تيارا وطنيا معاديا للاستعمار والرجعية في الوطن العربي. كما كان مدركا بأن الطرد البريدي الخاص الذاهب الى بغداد كان ملغوما سينفجر فوق رؤوس حكام بغداد.

في الصباح بعد نوم هادىء وعميق، وهو يتناول الفطور مع (غازي)، وقع بصره

على خبر تعطيل جريدتي (البلاد) و (اليقظة) لمدة ثلاثة اشهر. لم تكن مفاجأة له مثلما كانت لغازي، الا ان اسباب التعطيل كانت تافهة ومفضوحة. لم يجرؤ المسؤول عن التعطيل آنذاك على مصارحة رئيس التحرير. قال له شفهيا ان الوصي (عبد الآله) زعلان على الجريدة لأنها نشرت صورته لمناسبة عيد ميلاده على عمود واحد بينما عبد الناصر احتل اربعة اعمدة من الصفحة الاولى. القارىء العراقي كان اذكى من الحاكم الجاهل، فالتعطيل شمل ايضا جريدة (اليقظة) المسائية لأنها اعادت نشر الحديث بالكامل.

* * *

حطّت الطائرة العراقية بثقلها ظهيرة السابع من شباط ١٩٥٨ على ارض مطار بغداد. قبل ان يهبط منها، صعد على متنها مفوض الشرطة (حسن). نادى عليه من بين المسافرين، ثم اقتاده الى غرفة صغيرة داخل المبنى الرئيسي للمطار حيث كان من روادها ثلاثة مراتب من شرطة مديرية التحقيقات الجنائية. جلب احدهم حقيبة سفره واجرى فيها تفتيشا دقيقا فلم يعثروا على الممنوعات. هل يا ترى كانوا يبحثون عن كتب الشرقاوي والخميسي والتلمساني والعالم وخالد محمد خالد، ام انهم كانوا يبحثون عن منشور سياسي او كتابٍ ثوري؟ فشلوا في الاصطياد، ثم اقتادوه في سيارة " لاندروفر " الى المديرية العامة. تفحص وجوه اولئك الذين قرأ عنهم في النشرات السرية، فوجد حقيقتهم في سيماء وجوههم. بشرة صفراء تتم تقاطيعها المحفورة عن حقد دفين، وعيون مبحلقة كعيون الذئاب الكاسرة. المكان الذي يعيشون فيه تنبعث منه رائحة عفنة كريهة.الدهاليز، رطبة مظلمة.

تركوه في غرفة الادارة وحيدا اكثر من ساعتين. ترامت الى سمعه صيحات مكبوتة متقطعة، يعقبها انين يشبه صوت حمل مذبوح في رمقه الآخير. كان يسمع في الماضي نتفا عما يجري في اروقة ودهاليز هذا الباستيل وفي سراديبه النتنة وكأنها من قصص الخيال تشوبها المبالغة والاثارة. الا انها كانت حكايات بطولية، شخوصها مناضلون واحداثها تاريخية. اما الادوات، فكانت عبارة عن سياط، وقناني فارغة تدخل الاحشاء، وآلة تقلع الاظافر من قدم او كف، وسكين تسلخ اللحم البشري. حاول

ان يقتحم تلك الاسوار المحيطة بكل زنزانة، ليقف على حقيقة تلك الروايات، وليكون شاهدا على بطولات اولئك المناضلين الذين احبهم، فتذوق طعم الحرية من حرارة آهاتهم.

فجأة، دلف الى غرفته المعاون الجنائي (فائق)، من الشعبة الخاصة لمكافحة المبادىء الهدامة، الواردة في قاموس جنايات نوري السعيد وبطانته. خلفه، يتبختر العريف السري (جدعون)، خبيرَ المحاضر المزورة.

فتح العريف البائس دفتره الاصفر، وراح يخط محضر التحقيق بقلم رصاص. كانت العادة المتبعة في كتابة المحاضر، عدم استعمال اقلام الحبر غير القابلة للحك، كي يتسنى للمحققين اللعب في العبارات الواردة على لسان " المتهمين "، وفق متطلبات الأمر الواقع: التزوير والتحوير في الافادة - كيفما ارادوا.

احس في تلك اللحظة انه يقترب من التاريخ، شاهدا يضع بصماته فوق الوريقات الصفراء، يدين مزوريه. أعد للأمر حيطته:

قال المعاون فائق:

- اسمك؟

- فلان ابن فلان.

- شغلك؟

- طالب.

- عمرك ؟

- ٢٢ سنة.

- سكناك؟

- الكرادة الشرقية.

سكت المحقق برهة، ثم نظر اليه وقد انفرجت اساريره عن ابتسامة صفراء يشتهر بها اولئك المحققون. قال:

- كيف حضرت مهرجان الشبيبة في موسكو؟

- متى كان ذلك؟

- في شهر آب الماضي.

لم يتمالك نفسه، فبدرت منه قهقهة ارتاح لها وهو يشير على المعاون ان يطلع على جواز سفره بين يديه، وقال باستهزاء:

- ان تأشيرة الدخول والخروج من كمارك مطار بغداد واضحة التاريخ.

لمس الارتباك على وجه المحقق " الذكي " وهو يقلب اوراق الجواز، فاطمأن اكثر. عاد المعاون فائق يسأل:

- وماذا عن تنظيمك في القاهرة؟

- اي تنظيم تتحدث عنه؟

- ما يسمى برابطة الطلبة العراقيين.

ضحك مرة أخرى مسقطا ورقة اللعبة من يد المحقق،اجاب:

- انها رابطة طلابية، ألم تقل ذلك انت نفسك؟ انها ليست منظمة حزبية.

- نحن نعرف بأن كل تنظيم في الخارج هو تنظيم حزبي.

- انا لست واثقا مما تقول لأننا طلبة فقط.

سكت المعاون المحقق، وكف جدعون عن الكتابة، عندما دلف الى غرفة التحقيق (مالك)، الخبير المنهار بشؤون التنظيمات السرية. التفت اليه قائلا:

- انا اقرأ لك باستمرار، ابوك الله يرحمه كان وطنيا، اما انت، فمع الأسف.

نظر اليه باحتقار، فقد سبق له ان عرف كل شيء عن (مالك). قال:

- لن اسمح لك بمثل هذا الكلام، ولا حق لك انت بالذات ان تعطي رأيك بالوطنية وحملة لوائها.

اهتز بدنه، وارتعشت اوصاله وهو يسلمه ورقة ويطلب منه توقيعها. نظر اليه مجددا باحتقار وراح يقرأ مضمون وريقته: " يتهمني البعض باني من حملة المبادىء الهدامة، وبما اني مخلص لوطني ومليكي، اعلن براءتي من تلك المبادىء..."

طوى الورقة، سيئة الصيت، وسلمها بيد المعاون. قال له:

- انا مخلص لوطني فقط، اما مليكي، " فتشكم ".

صرخ (مالك) بغضب:

- هل انت شيوعي؟

- كلا.

- اذن وقّع وقل انا بريء من المبادىء الهدامة.

لم يلتفت اليه، ووجه سؤاله الى المعاون فائق:

- هل انت مستعد يا فلان كتابة براءة ان كنت شيوعيا؟

احمر وجه المعاون وبدا الارتباك واضحا عليه، وراحت الكلمات تتعثر على لسانه وهو ينظر الى (مالك سيف) الخبير بالبراءات، فعقدت المفاجأة لسانه.

استغل ضعف موقفهما، فاردف:

- كيف الحال ان كنت غير منتم الى الحزب؟

تبرع (مالك) بالاجابة محاولا انقاذ موقف المحقق المنهار، وقتم بعبارات ممسوخة وهو يتوجه الى باب الغرفة: نفس الاسطوانة.. الكل يقولون ذلك.

تصبب العرق على وجه المعاون وهو يمسك بالمحضر ليكتب فيه: " يرفض المتهم توقيع البراءة .. التفضل باجراء اللازم سيدي."

قاربت الساعة الثامنة والنصف مساء. لمح أخاه (كمال) بصحبة (غازي العياش) يتحدثان في الممر المقابل لغرفة التحقيق مع رجل آخر بدين ويشيران الى حيث يقف في الغرفة.

لحظات، دلف الى غرفة الادارة معاون جديد، قبيح البسمات والملامح أسمه (ستار) واشار اليه بترك الغرفة وهو يدمدم:

- لقد سلمت هذه المرة يا ابن (...) حاكم تحقيق الرصافة (الاورفه لي) قرر اطلاق سراحك بكفالة مائة دينار.

خارج مبنى المديرية، عانقه (كمال) وصافحه (غازي) دون ان يحدق في عينيه. ابتسم وقال لغازي: القاهرة مشتاقة اليك!

* * *

عاد ثانية الى الدراسة، وهو يتذكر ويستعيد شريط الاحداث الحاسمة في ذاكرته. ان جبهة الاتحاد الوطني في العراق بخير وهي تخطو خطوتها بثبات وثقة. الوضع الداخلي يهدد بالانفجار.. الانفجار السريع. لقد جعلته السنوات الخمس التي قضاها

في القاهرة شاهدا على التطورات المتلاحقة على الساحة العربية، ان يؤمن اكثر بحتمية التغيير القادم الى العراق.

* * *

في كل صباح، كانت تطل (مها)، وقبل ان تتخطى حدود الباب الحديدي الكبير للجامعة، تسرق النظر من خلف نظارتها بحثا عن مكان وجوده بين الطلبة، او لتتأكد ان كان قد سبقها في المجيء، فان افتقدته هنا او هناك، اسرعت الى الكافيتريا لتجده كالمعتاد في ركن محدد كما اعتاد على ذلك، يطالع في جريدة (الاهرام) وهو ينظر الى ساعته يتوسلها ان تحدد له دقيقة قدومها كما استقرعليها منذ اشهر، ويشربان سوية قهوة الصباح قبل بدء اليوم الدراسي. ادرك اصدقاؤهما معنى تلك اللقاءات، فباتوا يتحاشون الحديث معهما ويتركونهما ينعمان بالقليل من الوقت المتاح للمناجاة الصامتة في ظل حب مكتوم مثالي شدهما الى بعض وهما يحترقان للتعبير عنه، الا ان الظروف التي يعيشان في متاهاتها، جمّدت عواطفهما لئلا يفقدا اسمى معاني ذلك الحب الكبير.

استوعب ماذا تعني بيئة (مها) وتقاليد حياتها. انها من عائلة محافظة. اما بيئته وتقاليده، فكانت النقيض في حد المعقول. ولكن رغم قساوة تلك الظروف، فقد نجحا في صيانة حبهما عن وعي وادراك، مما جعل مثل ذلك الحب يكبر ويكبر ويتأجج في صدريهما اكثر فاكثر. انهما يلتقيان في الجامعة كل يوم، يتبادلان الاحاديث، يهتم كل واحد منهما بشؤون الآخر. يعملان في جريدة الجامعة الاسبوعية (القافلة) حيث كان يرأس تحرير القسم العربي فيها، وهي ترأس القسم الانكليزي.. وفي نهاية اليوم، يوصلها الى محطة " الاوتوبيس " ويعود الى الجامعة ثم الى سكناه فرحا منشرحا متشوقا لصباح جديد.

تمر الايام بسرعة.. لتنهي الفصل الاول من عام ١٩٥٧ .

انقضى الاسبوع من الفصل الجديد بهدوء الا من هفوات كلامية بسيطة عكّرت مزاجهما لدقائق معدودة. بدأ يلحظ على وجه (مها) تعابير حزينة لم يألفها في السابق. لم ترغب ان تبوح له بشيء، وهي تصارع نفسها، كما لم يرغب هو ان يلح في استفساراته بعد ان صدته مرة رغما عن ارادتها.

نظر اليها بشوق وحنين بعد ايام من صراعات الذات، وهما يشربان القهوة، وسألها:

- ماذا وراء سكوتك يا مها؟

لم تجبه، بل راحت تحدق في عينيه وهي تداعب سيجارتها بين انامِلها الناعمة، وهو يحترق لسماع ما كان مختبئا في صدرها، ثم نهضت مذعورة وكأنها صحت على صوت يناديها. تركته لأول مرة دون ان تنطق او تبتسم له، فشعر باختناق شديد جعله لا يقوى على النهوض واللحاق بها. ظل صامتا، وعندما همّ بالوقوف، لمحها قادمة اليه وهي مكتئبة.

جلست امامه وهي تطيل النظر اليه تتوسله ان ينصت الى ما ستقوله، فأدرك ان هناك بالفعل أمرا يخشى هو ان يسمعه، لا ان تقوله او تبوح به هي بالذات.

سحبت نفسا عميقا من سيجارتها وقالت:

- والدتي تريد..

سكتت ثم واصلت كلامها بشيء من العصبية:

- تصور.. لقد قرأت الفاتحة قبل ان تسألني عن رأيي.

صدمته كلمة " الفاتحة " فراح يسألها:

- ماذا تقولين يا مها؟

- الفاتحة.

- ماذا تعني؟

- الا تفهم ما تعني الفاتحة؟

اراد ان لايصدق، لكنها تعرف ماذا تقول. اما هو، فارا د ان يتغاضى عما تريد ان تقوله. قراءة الفاتحة تعني أمرا واحدا: قراءتها على الاموات.. سبقته الى القول قبل ان يواصل كلامه:

- تريد والدتي ان اتزوج (...).

صحا على عبارة " زواج " وتساءل مع نفسه: ايتطلب الاقدام على الزواج قراءة الفاتحة.. هل يا ترى تعني السورة المباركة بداية حياة ام نهايتها؟ اقتنع بأن السورة لا

بد ان تعني بأن وراء كل موت حياة جديدة، فهل تريد والدة (مها) ان تقضي على حياة انسان من اجل ان يحيا انسان آخر؟ اغمض عينيه لثوان، فقد بانت الصورة واضحة. كان مستعدا ان يعارك الحياة ويضحي بالكثير من اجل المبادىء والقيم ومن اجل ان يحافظ على الوجدان نقيا طاهرا. اما في تلك اللحظة، فقد اضحت المشاعر تتحكم فيها بضع كلمات قد تكون قاسية وقاطعة، او رحيمة مطمئنة ان هي صمدت بوجه ذلك الامتحان الصعب.

سأل مها بهدوء اعصاب:

- هل ستوافقين؟

اجابت بحزن:

- انا حائرة يا عزيزي. القرار ليس بيدي، وانت ادرى بالظروف والاعراف. لقد وعدت والدي وهو في رمقه الآخير ان اكون وفية لاسمه وان اطيع والدتي بكل قرار لأنها الوصية عليّ وعلى اخواتي.

علا صوته:

- ولكن هذا القرار خطير ويتعلق بمصيرك ومصير انسان يرتبط بك باواصر حب كبير مقدس.

خنقتها العبارات، وارتعشت شفاها بعد ان اصطبغت بلون اصفر، تلك الشفاه التي عشقها دون ان يجرأ يوما على لمسها ولو براحة يده، فلم تنطق الا عبارة واحدة لم يستطع ان يتبين معناها، فراح يسألها:

- ماذا تقولين؟

لم تجبه، بل نهضت واسرعت الخطى الى الخارج، وتسمّر هو في مكانه وراح يعيد الى ذاكرته ايام اللقاء الاول، مقنعا نفسه بان يوم غد سيحمل اليه اخبارا اجمل مما سمعه قبل لحظات، فغاب برهة ثم غادر الجامعة متجها الى شقته.

في المساء، تصارعت الافكار في رأسه، كما تصارعت في رأس (مها) قبل ان تتغير في اليوم التالي وتأتي الى الجامعة، وكأن شيئا لم يكن قد حدث بالأمس، واخبرته بأن موضوع الزواج قد تأجل!

* * *

ومرت الايام ..

قاربت السنة الدراسية على نهايتها. جاءته (مها) قبل الامتحانات بوقت قصير، واخبرته مرة أخرى بأن والدتها تصر على زواجها. نظر اليها وهي تغالب دموعها، فقالت له بصوت رخيم:

- ما رأيك؟

- ...

- لا اريد ان اخسرك.

- ...

حدق في وجهها جيدا، فلمس الحزن في عينيها، وادرك انهما يخوضان سوية تجربة قاسية. ان فقدان صديق عزيز بالنسبة اليه كان يعني الكثير، فكيف الحال اذا كان هذا العزيز حبيبا الى القلب؟

تركته يغرق ويتيه في الذكريات، فقد شلّت عباراتها وعواطفها لسانه، فجعلته لا يقوى على نطق ما يحس به، وقلبه تعصره مرارة الفراق ان كان نهاية المطاف لرحلة الحب. أحس بلوعة كاوية هدت بدنه اذ تحدث القلب، رافضا او متمردا.

في تلك الليلة، لم يذق طعم النوم. حطم الأرق اعصابه. فكر طويلا: الوالدة تنتظر عودته. الجريدة تحتاج جهوده، كذلك فكر في دراسته وهي تدخل طورا جديدا من التقدم التقني. الوطن يناديه وهو يئن تحت ضربات عدو لا يرحم. فهل تضيف (مها) الى همومه هما جديدا؟

تحدته في اليوم التالي بخاتم جميل وثمين يزّين اصبع العروس. غرزت في قلبه سكين الفصل بين الماضي والغد. تعثرت الكلمات على لسانه وهو ينطق:

- اخاتم الخطوبة هذا يا مها؟

اجابت وهي تمسح قطرة دمع سقطت ساخنة على خدها القرمزي.. تنهدت وقالت:

- لا اريد ان اتعذب اكثر.

اقفلت الجامعة ابوابها.

غادر الطلاب العرب القاهرة.
حضر حفل زفاف (مها) نزولا وطوعا لطلبها الخاص.
ودع حبه الجميل وهو يباركها الحدث السعيد.
قال لها عند الوداع: سوف لن انساك.

الفصل الثاني

الوعي

٧ حزيران ١٩٥٨

عاد الى بغداد محملا بالآمال. بدأ على الفور عمله في الجريدة، يحدوه الامل في تطبيق ما استوعبه من دراسته الاكاديمية بصورة جيدة تساعده على رفع مستوى (البلاد) كبداية لمرحلة جديدة من مراحل تطور الصحافة العراقية.

في زيارة خاطفة كعادته، للقيام ببعض الالتزامات العائلية، لمح في دار " الخالة " القريب الى منزله، شابة رقيقة جميلة قدموها له بصفتها احدى المعجبات بمقالاته الاسبوعية " نحن والغد " التي واظَبَ على كتابتها منذ منتصف١٩٥٦

ردت (سعاد) بخجل وقد اصطبغ وجهها بالحمرة:

- انا لي اهتمامات بالكتابة، ولهذا احتفظ ببعض من مقالاتك الحلوة.

- واي نوع من الكتابات يعجبك؟

ابتسمت ابتسامة لطيفة ما يزال يحبها حتى الآن، وقالت بتودد:

- السياسية والادبية.

ضحكت (بشرى) ضحكتها الاستدراكية واضافت:

- وكذلك تكتب الشعر.

- هل هذا صحيح يا سعاد؟

- محاولات بسيطة. هل تحب ان تقرأها؟

تناول تلك الوريقات وقرأ فيها نتفا نثرية. قال لها:

- بالرغم من اني اعشق الشعر ومن مريديه، لكني لست شاعرا.

وهكذا انتهى اللقاء الاول.

في ليلة ١٣/١٤ تموز، التقاها ثانية في حفل عائلي، وكان عائدا من عمله متعبا وهو يفكر بالمانشيت الكبير الذي سلمه الى الخطاط (صادق الصائغ): الرصاص يلعلع في شوارع بيروت.

جلس الى جانبها، ووجد نفسه على غير عادته يتكلم ويدخن كثيرا ويحتسي من الخمر ما طاب له، حتى امتد به الوقت الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل.

ثم عاد الى البيت.

استلقى على سريره فوق سطح البيت - كعادة اهل بغداد في موسم الصيف الحار واللاهب - بحلق في الفوانيس المعلقة بسماء بغداد ونجومها المتألقة، وهو ما يزال يفكر في المانشيت الذي سوف يتصدر عدد الغد: " الرصاص يلعلع في شوارع بيروت "، معجبا بكلمة يلعلع.. وبين الحلم واليقظة، ترامت الى سمعه اصوات اطلاقات نارية قادمة من بعيد. حاول ان يقنع نفسه بأن العقل الباطني قد اوحى له بالصوت، تماما كما اوحى بدوره لصادق الصائغ بالمعني من اختياره ذلك العنوان لخبر الغد. فجأة سمع صوتا يناديه. كان الصوت قادما من جهة الوالدة. نادى عليها مستفسرا، فقالت:

- انا خائفة يا ولدي.

- لماذا خائفة؟

- اصوات المدافع ولعلعة الرصاص.

- انه من خيالات الاحلام.

- لكنها الساعة الخامسة فجرا يابنيَّ.

انتفض من فراشه مذعورا. وقف بجانب سرير (سامي) الذي كان يغط في سبات عميق.. فكانت اصوات الاطلاقات ما تزال تغازل بعضها البعض من بعيد، بعيدا عن عيون الرقباء. اقنع الوالدة بأن تلك هي تمارين الفجر العسكرية، الا انه وقبل ان ينطق بالحرف الآخير، اهتزت في مكانه على اثر صوت شديد ايقظ (سامي) الذي لم تهزه يوما او تقلقه اشد الاصوات، فنهض بدوره وهو يصرخ: خير، ما هذا الصوت؟ للتو ادرك بأن ما يسمعه هو صوت الرصاص والقنابل. ان الرصاص يلعلع في سماء بغداد وليس في شوارع بيروت.

تسابقوا في النزول الى باحة الدار. الكل يريد ان يكون هو البشير مع المذياع الذي راح ينبعث منه صوت العقيد الركن (عبد السلام محمد عارف):

البيان رقم واحد . .

ضربت الوالدة كفا بكف وتمتمت بقلق:

- راحت بغداد . . سودة على نوري السعيد وابو نوري السعيد .

توسل اليها ان تنصت، او على الاقل أن تدعه ينصت الى المذياع وهو يعلن بحزم:

" بعد الاتكال على الله وبمؤازرة المخلصين من ابناء الشعب والقوات المسلحة، اقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصبها الاستعمار لحكم الشعب والتلاعب بمقدراته لمصلحتهم وفي سبيل المنافع الشخصية . ان الجيش هو منكم واليكم وقد قام بما تريدون وازال الطبقة الباغية التي استهترت بحقوق الشعب، فما عليكم الا ان تؤازروه، واعلموا ان الظفر لا يتم الا بترصينه والمحافظة عليه من مؤامرات الاستعمار واذنابه، وعليه فاننا نوجه اليكم نداءنا للقيام باخبار السلطات عن كل مفسد ومسيء وخائن لاستئصاله، ونطلب منكم ان تكونوا يدا واحدة للقضاء على هؤلاء والتخلص من شرهم .

. . . ان الحكم يجب ان يُعهد به الى حكومة تنبثق من الشعب وتعمل بوحي منه وهذا لا يتم الا بتأليف جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة وترتبط برباط الاخوة مع الدول العربية والاسلامية وتعمل بمبادىء الامم المتحدة وتلتزم بالعهود والمواثيق وفق مصلحة الوطن ومقررات مؤتمر باندونغ وعليه فان هذه الحكومة الوطنية تسمى منذ الآن (الجمهورية العراقية) . . ."

خطا سامي باتجاه الهاتف وراح يدير القرص على مسكني بديع وكمال مبشرا بالحدث العظيم .

كان (الفرسان الأربعة) يحتسون قهوة الصباح ويستمعون الى نداءات وبيانات الثورة الوليد، حين وصل بعض محرري الجريدة: شاكر اسماعيل، قاسم فخري، غازي العياش، والمحاسب الامين يوسف زكريا .

في الطريق الى مقر الجريدة . . كان (غازي) ما يزال يبكي . لم ينطق بحرف واحد رغم تعليقات (شاكر) الخفيفة ومرحه المعهود . لربما كان الفرح وراء اختناقه، وهو يعبر بالبكاء على احساس مكبوت، فرسم صليب الامل بصماته على وجهه الأسمر . لقد تسابقت الافكار والآراء وهو يضع في مخيلته اللمسات الاولى لمقال الثورة الاول .

كانت صيحات الجموع الهادرة في شارع الرشيد التليد تسبقه في العطاء للثورة. ان هذه الثورة اليوم بحاجة الى دم يحميها ويصونها قبل ان تكون صورة لكاتب او فنان يصبغ احداثها بالوان زاهية او قاتمة، فينصفها او يشوهها.

في محلة (جديد حسن باشا) كان في استقبال (الاعمدة) الاربعة بقية المحررين وعمال الجريدة: صالح سلمان، صادق الصائغ، عبد اللطيف حبيب ومفيد الجزائري. اذاعة بغداد ما تزال تذيع برقيات التأييد وتعزف المارشات العسكرية، فجعلته يثق بحتمية الانتصار رغم هروب نوري السعيد متنكرا بعباءة امرأة. كان واثقا من ان الجماهير الغاضبة التي شكلت باجسادها المحروقة بشمس تموز، سدا منيعا في الشارع، سوف تجعل من الثورة قلعة يصعب على الاعداء اختراقها ان حاول اولئك الاعداء وأدها وهي تدك قلاع كل الخونة في وزارة الدفاع او في "دار السيد المأمونة" وفي قصر الرحاب.

طلب منه (عبد اللطيف حبيب) وكان سكرتيرا للتحرير، ان يصاحبه في شارع الرشيد للوقوف على صورة صادقة لفرحة الشعب بثورته وتسجيل انطباعاتهما كوثائق لما يجري على يد الجماهير. كانت اذاعة بغداد تبث نداءات متكررة لابناء الشعب للحفاظ على الهدوء والسكينة.

امام بوابة وزارة الدفاع، حيث كان قائد الثورة عبد الكريم قاسم قد دخلها في الفجر الموعود، احتشدت كتل بشرية هائلة في انتظار بشائر ثورية على لسان "الزعيم" .. فجأة تصطدم سيارة عسكرية كبيرة بالسياج البشري وفي داخلها اقزام من رجالات العهد الملكي.. لحظات خاطفة، وجثث اولئك الركاب تتناثر في الشارع والجماهير تصرخ: هذا عبد الآله وهذا ابراهيم هاشم. لم يستطع الجنود انقاذهما من بين ايدي الجماهير الغاضبة.

في ساحة الامين، عبر جسر (مود) باتجاه الكرخ. شاهد جثة بيضاء متلامعة يكتنزها الشحم متدلية من شرفة احد الفنادق في مدخل جسر "ذاك الصوب" واحد المواطنين يطعنها بسكين كبيرة (بلطة) وهو يصرخ: قطعة لحم من جسد الخائن عبد الآله. بصق عليها .. لم يكن قد بقي من جسده سوى نصف ساق ويد مبتورة. التفت عبد اللطيف اليه وقال:

- منظر بشع، اليس كذلك.

طأطأ عبد اللطيف رأسه ، ثم عادا الى مقر الجريدة.

في الظهيرة، اعلن راديو بغداد نبأ اعلان منع التجول. عادت الجماهير من حيث انطلقت بعد ان قامت بتصفية الحساب مع رموز العهد المباد. لم تكن اعمال السحل في الشوارع لجثث عبد الآله ووزراء الاتحاد الهاشمي وعملاء حلف بغداد المقبور مستحبة، بقدر ما كانت اعمال انتقامية لجموع سحقها العذاب.

تدارس امر اصدار الجريدة، فقرر بقاء (صالح سلمان) و (صادق الصائغ) معه، الى جانب المنضد والطباع الماهر (ابو جان) اللبناني. ذهب الى مقر الاذاعة، حيث تتواجد اعداد من الضباط الاحرار والمنفذين للثورة، واستحصل منهم الموافقة على اصدار (البلاد). في المساء، تحوّل الاربعة الى خلية نحل تتسابق مع الزمن. كتب صالح سلمان وصفا كاملا لاحداث الثورة منذ ساعاتها الاولى حتى المساء. جمع صادق البيانات والنداءات الصادرة عن قيادة الثورة، بينما دبج هو المقال الافتتاحي ومقالا آخر عن مستلزمات نجاح وديمومة ثورة الجيش والشعب في انطلاقة التحرر والسيادة الوطنية. ملأت الاحداث وفرحة الجماهير، الصفحات الأربع للعدد البكر في العهد الجديد. لم يخلد للراحة او النوم الا بعد ان اكتحلت عيناه مع تباشير الفجر بالعدد الأول وفيه عناوين التاريخ الذي خطه صادق الصائغ : " الثورة " وقد احتل نصف الصفحة الاولى. "اعلان الجمهورية العراقية" و " عبد الناصر يهنيء شعب العراق".

كانت (البلاد) الجريدة الوحيدة التي صدرت يوم ١٤ تموز. وطبع منها ٤٥ الف نسخة، نفدت كلها في ساعات قليلة.

في صباح اليوم الثاني، كان احد ضيوف الجريدة، ضابط من الضباط الاحرار الشباب برتبة ملازم. سلمه صورا تجمع عبد الآله وفيصل ونوري السعيد في جلسات واجتماعات، وصورا اخرى لشخصيات مسؤولة في الدولة في اوضاع مزرية مع نساء الطبقة الفاسدة. طلب منه الضابط الحر نشر الصور في الجريدة، كجزء من مخلفات "قصر الرحاب". اعتذر عن نشرها وقال للضابط بأن الثورة جاءت لانتشال الوطن من الهوة التي اسقطه فيها نفر من الحكام الرجعيين، ولم تأت للانتقام من اشخاص فقط معروفين بسوء الاخلاق. ان الثورة اعمق في قيامها واهدافها من الانتقام الشخصي،

وهي اكبر من كل تلك التفاهات. اقتنع الضابط بكلامه وتقبل اعتذاره عن طيب خاطر.

تركه الضابط الى قلمه يحكي قصة الثورة " حصيلة كفاح مرير طويل "، في حلقات يومية.

واقتحم الجريدة بعد ساعات، ضابط آخر برتبة (مقدم) وناوله لوحة مطبوعة على ورق كارتون تحتوي على صور ١٣ ضابطا برتبهم العسكرية وتحت عنوان " اعضاء مجلس قيادة الثورة " واشار عليه بضرورة نشرها امانة للتاريخ. اتصل بالمقدم (سليم الفخري) في مقر الاذاعة بصفته اول رقيب عسكري للمطبوعات في عهد الثورة مستطلعا رأيه بالموضوع. اجابه بأن مفارز الانضباط العسكري تقوم بجمع تلك الاوراق في شارع المتنبي حيث جرى طبعها من قبل مطبعة (سلمان) ونصحه بعدم النشر او حتى الاشارة الى وجودها.

في مساء ١٥ تموز، لقي نوري السعيد مصرعه على يد عريف في القوة الجوية في منطقة البتاوين الشعبية. اطل الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد الثورة ورئيس الوزراء، من شرفة وزارة الدفاع على سيارة لاندروفر وفوقها جثة السعيد في ملابسه الداخلية، فالتفت الى مرافقه الامين (وصفي طاهر) وقال: الآن نجحت الثورة مائة بالمائة. طلب الزعيم من سكرتير مكتبه الخاص (سعيد الدوري) الاتصال بالجريدة لاجراء لقاء صحفي معه. هرع (غازي العياش) الى الوزارة ليظفر منه بأول حديث للرأي العام الداخلي والعربي عبر صفحات (البلاد).

تذكر ضربة (عبد الناصر) الصحفية قبل ثمانية اشهر فقط، فخطرت على باله ضربة اخرى. سافر (غازي) الى القاهرة.. لكن غيبته طالت هناك دون نتيجة. عاد بعدها خالي اليد. في المطار ذهب (كمال) لاستقباله، فكان المعاون (ستار) اسبق في القاء القبض عليه. لم تسعف كمال الحجة لأنقاذه، فالأمر لم يكن يتعلق بالجريدة، بل بأمن الثورة. لقد اسدل سجن (القلعة) في الموصل الستار على مسرحية كان (غازي) بطلها وكانت احداثها تدور بين اروقة السفارة المصرية ببغداد وصحيفة (الاخبار) القاهرية، وبين " دار المختار " المطلة على نهر دجلة، وانتهاء ببكاء وعويل غازي في عرصات الهندية.

كان غازي لا يتقن الكتابة الصحفية لغة واسلوبا، الا انه ولج باب الصحافة لأول مرة محررا في (البلاد) عن طريق الواسطة لدى مؤسسها في منتصف ١٩٥٤, شاب اسمر طويل، طموح، يدل مظهره عن طيبة وبساطة وحب الناس. خجول، او هكذا ظهر لمن عرفه آنذاك. كان يتقاضى في الجريدة راتبا شهريا مقداره ٣٠ دينارا، الا أنَّ ما كان يصرفه يبلغ المئات من الدنانير. عرفته الحانات والملاهي زبونا دائما بصحبة الزوار والضيوف مجهولي الهوية، الا له، ولأصحاب الشأن.

طيلة فترة اشتغاله بالصحافة، كان يدفع لمن يكتب له، وكان يستغل من قبل الاجهزة الحكومية بعد عام ١٩٦٣، وتكتب المعلومات والمقالات عبره في الطعن والتهجم على القوى المعارضة للحكومات المتعاقبة. اصبح مرافقا للصحفيين المصريين بعد ثورة الردة في شباط. واصبح مراسلا لمجلة "الأسبوع العربي" البيروتية التي كان نظام البعث يمولها لسنوات طويلة. تركها ليلتحق بمجلة (الدستور) اللبنانية، محققا طموحه ولكن عن غير جدارة، بل بأقلام صحفيين مجهولين للقراء. دفعه غروره ووصوليته الى ان يخصص المقالات التي تهاجم القوى الوطنية والثورية وتاريخها المجيد مكتوبة من قبل مدير الأمن العام وبخط يده، كلما لعبت سياسة البعث العفلقي دورها في الموازنة...

* * *

عاش احداث الثورة وتطوراتها المتلاحقة بحذر شديد.. ارتبك الناس الذين احبوها وهم يستمعون الى خطب وتصريحات عبد الكريم قاسم ونائبه عبد السلام عارف.. قائد الثورة يصرخ من شرفة وزارة الدفاع : "يا جنود الحرية والسلام"، ونائبه يخطب في جماهير الناصرية: "يا جنود العروبة والوحدة". زعيم الثورة يسكت، ونائبه يتكلم، كرسول للثورة في جنوب البلاد: "نريدها ثورة وحدوية اندماجية" .. "لا جون ولا جونبول، بل حسن وحسين". ويؤكد على ان الثورة هي ثورة ضد القصور .. "فلاعمارات ولا ثلاجات، بل هي من اجل الشعب ومن اجل اهالي الرمادي التي ذرت الرماد في عيون الاعداء".

ومع الايام الاولى، التف الشيوعيون والديمقراطيون حول الزعيم عبد الكريم قاسم، بينما احتضن البعثيون والقوميون عبد السلام عارف. المستقلون حائرون والرجعيون

جماعة العهد الملكي تراجعوا الى الخط الثاني تراجعا مصحوبا بالحذر والترقب. ارتفعت الشعارات في مسيرات الابتهاج والتأييد: "اتحاد فدرالي، صداقة سوفييتية"، و "وحدة وحدة عربية، لا شرقية ولا غربية".

انعكست تلك الصورة التي ظهرت في الشارع، على الحرف المقروء في الصحف ووسائل الاعلام الاخرى. بات متشائما وخائفا على مصير (الوليد) وهو يدخل شهره الثاني.

صدق حدسه في يوم من ايام شهر آب/اغسطس.. حين اقتحم (كمال) غرفته في ادارة التحرير، مصفر الوجه، وقد تعثرت الكلمات على لسانه، وهو يقول:

- لقد عطلوا الجريدة.

صعقته المفاجأة، وظن ان كمال يمزح، الا ان رئيس التحرير اكد ذلك واضاف بأن وزارة الداخلية طلبت حضوره هناك.

بعد اقل من ساعة، عاد كمال متألما بعد مقابلته وزير الداخلية العقيد الركن عبد السلام عارف. بسط امامه والمحررين عدد الجريدة وقال:

- ما هذا الكاريكاتير؟

- انه يمثل انطلاقة الشعب في ثورة تموز لتحطيم قيوده.

ثم راح يقنعه بوجهة نظره وهو يشير الى الكرات الحديدية السوداء التي تمثل حلف بغداد ومنطقة الاسترليني والمساعدات الامريكية والسجناء السياسيين.

رد عليه كمال وهو يعي ما يقوله:

- ولكن اين الشرح تحت الكاريكاتير؟

- الكاريكاتير واضح ولا يحتاج الى الشرح.

- انه في وسط عريضة الاكراد وقد اعتبره عبد السلام تحريضا مقصودا واشارة واضحة الى كون الشعب الكردي ما يزال مكبلا بالقيود في العراق.

نظر الى وجوه المحررين والعمال الذين وقفوا مشدوهين وهم يستمعون الى الحوار بين رئيس التحرير وبينه، ثم وجه كلامه الى الجميع وقال:

- يا للسخرية.. ما نزال في اربعينية الثورة.

نظر ثانية الى وجوه المحررين الذين احبهم واحترمهم، فلمس الحيرة تطبع بصماتها

على وجوههم.. صادق الصائغ، مفيد الجزائري، صالح سلمان، عبد اللطيف حبيب، سلوى زكو وشاكر اسماعيل، لا يقوون على الكلام. ان السبب وراء هذه الضجة المفتعلة التي يثيرها عبد السلام عارف ليس الكاريكاتير، بل ان الثورة باتت تسير في طريق آخر اخطر بكثير من "الزلة" الصحفية.

لحظات هدوء وترقب وكأنها تفصل مسافات طويلة بين كل واحد من اعمدة (البلاد)، كانوا قبل ساعات عصبة متماسكة تدق ارض دار الجريدة اصرارا على التحدي باقدام ثابتة لا تقبل ان تتزعزع عن المواقع التي يحتلونها.

امعن النظر في وجه صادق الصائغ، الشاب الوسيم الطموح، فوجده متفائلا تفصح قسمات وجهه عن ثقة بأن ما جرى بين رئيس التحرير ووزير الداخلية ما هو الا زوبعة في فنجان. لقد كان صادق، صادقا في شعوره وحدسه الى حد ما لأن الاجراء قد تم على يد عارف، لا على يد غيره من قادة الثورة.

استرق لمحة خاطفة الى الشاب النحيف الواقف الى يمين صادق، فاعتاده خجولا كعادته، مغمض العينين بايماءة تنم عن الرضى للكلام الذي قيل همسا والذي يصوغه الصادق، وهي ايماءة تعني القليل من (مفيد) في مثل هذه الظروف.

ووقع بصره على صالح سلمان، فوجده لا يكف عن تحريك رأسه يمينا وشمالا وهو يضغط باصابعه على سيجارته بعصبية مصطنعة، فعرف منه انه عاجز عن الكلام في تفسير ما جرى ولماذا...

اما شاكر اسماعيل، الاديب اللامع المنزوي تواضعا وراء ركن الرياضة في اكثر من جريدة ومنذ سنوات، وهو المعروف برشاقة قلمه ككاتب قصة قصيرة، فلم ينتظر دوره ضمن المراسيم المعتادة، بل استعد لمغادرة المكان وهو يمضغ عباراته محاولا ان لا تكون واضحة كعادته حين يريد ان يحتفظ بالمعنى لنفسه لئلا ينسب الخطأ اليه، وقال وهو على باب غرفة الاجتماع: والله نفس الاسطوانة أمس واليوم.

نادى على شاكر بعد ان غاب في العتمة، فطرق عائدا الى المجموعة وهو يبتسم خبثا. ان عباراته كانت واضحة ومسموعة، فأراد ان لا يكون على خطأ، فاستعد للطوارىء.

قال له:

- ماذا تقصد يا ابا شكرية؟

- استاذ، نفس العقلية.

توسل اليه ان يفصح اكثر، ادراكا منه بأن شاكر يلعب في الساحة السياسية افضل مائة مرة من اولئك الذين يلعبون بالكرة في الساحة بين هذا الفريق او ذاك.

قال شاكر:

- اتذكر يا استاذ حكاية مهرجان الشبيبة؟

- الاخير يا شاكر؟

- بالضبط.

- وما هو الرباط؟

- نفس العقلية. انهم يخشون ما بين سطور الكلمات.

راح شاكر يقص على المحررين حكايته مع اجهزة وزارة الداخلية قبل الثورة. قال:

نشرت وصفا جميلا لمباراة كرة القدم بين فريقي الشرطة والموانىء، ومن سوء حظي ان المباراة كانت قد تأجلت، غير ان المقال ظهر في صدر الصفحة الرياضية دون اية صورة للمباراة. استدعيت على عجل الى دائرة التحقيقات الجنائية في شارع النهر. قالوا لي: لقد كان وصفك للمباراة رائعا. الرياضة تعني السلام اليس كذلك؟ مع الصفعة الاولى، سأل احدهم: هل حضرت بالفعل الى الملعب ام حضرت مهرجانا للشباب والرياضة؟ ثم انهالت عليّ الاسئلة من كل صوب، وبرفقة كل جواب، صفعة تنهال على وجهي مقرونة بسيل من الشتائم. وعندما قلت لهم: ما هذا الذي تفعلونه، انبرى احدهم وهو معاون أمن، وقال: ماذا تقصد: "... وكانت السماء زرقاء صافية، والارض خضراء لامعة، والطيور تطير عاليا فوق ارض الملعب فارشة اجنحتها البيضاء، والملعب مزدحماً بالجماهير .. الكل فرح مستبشر..."

ثم سكت، وبعد ان دحرج ضحكته التي اشتهر بها شاكر اسماعيل، اردف:

كانت تهمتي اني شاركت في مهرجان الشبيبة العالمي وانقل للقراء وصفا لمراسيم الافتتاح. فالمستمسكات كانت عبارة عن تقرير ينص على ان مباراة كرة القدم كانت وهمية! اما الاثبات، فهو المهرجان. لعنة الله على الصدفة والكذبة في دنيا الصحافة.

ضحك الجميع .. قال مفيد:

- يعني ما بين سطور الكاريكاتير المنشور ما يثبت لعبد السلام عارف بأن الشعب الكردي ما يزال مكبلا بالقيود . اي مجرد اعتقاد شخصي كالمعاون الذكي آنذاك.

* * *

ترك بغداد بعد تلك الحادثة الى القاهرة لتكملة ما تبقى له من الدراسة وهي اربعة اشهر. كان يفكر بالايام الحبلى التي سبقت الميلاد . ترى، ماذا سيحدث للوليد ان فقد الابوة؟ انه الآن عائد من ارض الثورة. لقد سبق له ان قال لزميله (فؤاد حسن) مازحا قبل السفر الى بغداد في الصيف، انه سوف يعود الى بغداد ويقوم بثورة عارمة. لم يكن في الحقيقة يمزح بقدر ما كان مطمئنا، بأن الشعب العراقي قادر على اجراء التغيير. انه يتحدى الزمن. ماذا سيقول لزميله حسن وبقية الزملاء. هل كانت "نبوءة"؟

تمر الاسابيع الثلاثة على الدوام الجديد..

في يوم الاثنين بالذات، ناوله العم عبدو، بواب الجامعة برقية من (كمال) يخبره فيها بعودة الجريدة الى الصدور. دبّ فيه النشاط، وبدأ بتزويد (البلاد) بسيل من المقالات والتحقيقات الصحفية والعديد من المقابلات السياسية والادبية. كتب عن مدينة غزة الصامدة بوجه اسرائيل وعن القاهرة التي لم يقهرها احد. اجرى اول مقابلة صحفية مع رئيس حكومة الجزائر المؤقتة، فرحات عباس. حاور احسان عبد القدوس واحمد بهاء الدين ومصطفى امين.

ذهب الى بور سعيد مع وفد الصحفيين العرب لحضور احتفالات النصر والجلاء. كان يدّون انطباعاته وهو يستمع الى جمال عبد الناصر في خطابه الجديد، حين صحا فجأة من غيبوبة كانت قد انتابته عندما راح الرئيس المصري يهاجم بقوة الاحزاب السياسية في مصر وسوريا، ثم يعرج على العراق، ويهاجم ثورة تموز و(قاسم العراق). دهمه الخوف، وصرعه الألم، فطرق عائدا الى القاهرة.

في اليوم التالي، وجد نفسه في باحة الجامعة يطالع بنهم اخبار جريدة (الاهرام) وهي تصارع بعضها البعض وتتيه بين اكداس الحقائق والاكاذيب عن ثورة تموز

وقادتها. من بعيد، لمح الزملاء محمد ابو نوار، فاروق قدومي وبشار سردست يغذونَ الخطى نحوه. اعتقد في البداية انهم جاءوا اليه تحدوهم الرغبة في اجراء حوار سياسي حول تطور الاوضاع المستجدة داخل الوطن، خاصة، انهم يمثلون تيار حزب البعث لعفلق.

استل (بشار) ورقة من جيب سرواله الانيق، وسلمها بعصبية الى (محمد) مشيرا اليه بغمزة بطرف حاجبه، وقال:

- ماذا تقرأ؟

- اخبار الوطن يا بشار.

كانت كلماته حزينة، لكنها صادقة. اما ابو نوار، فقد تراشقت كلماته بغضب:

- اي وطن تتحدث عنه وقد سحقه المجرمون.

استنشق نفسا عميقا امتزج بحسرة مكبوتة، فخرجت العبارات متقطعة مرتجفة حائرة:

- ما هذا الكلام يا ابا جاسم؟

رد بشار بعصبية وعنجهية، لا يجيدها الا البعثيون والقوميون:

- اسكت.. انتم قتلة وخونة.

انتفض واقفا مشدوها ومستغربا الموقف، وقبل ان يبادر بالدفاعَ عن الثورة واصحابها، اخرج محمد الورقة ودفعها بوجهه متحديا وهو يصرخ:

- وقّع على هذا التأييد.

- ما هي المناسبة؟

- استنكارا لابعاد عبد السلام عارف من قيادة الثورة.

التقط الورقة من الارض، وراح يقرأ مضمونها بصوت هامس: "..واستنكر بشدة اعمال الزعيم الاحمر قاسم العراق واعلن تأييدي للرئيس البطل جمال عبد الناصر والوحدة الفورية..."

التفت الى المجموعة وقال بشيء من التروي والحذر:

- يا اخوان.. ان معلوماتكم خاطئة، فلا قاسم احمر ولا الثورة حمراء ولسنا ضد الوحدة.

لوّح بشار بقبضة في الهواء. حدق في وجه (محمد) والشر يتطاير من عينيه، فصرخ فاروق:

- المسألة جدية.. وقّع على الورقة والا...

لم يشعر بعدها الا والضربات تنهال عليه من كل اتجاه. صرخ في وجوههم من الألم:

- ما هكذا يا جماعة، عيب، نحن رفاق درب..

كان الألم النفسي اشد وقعا عليه من مفعول الصفعات والكدمات او الركلات. رأى في وجوههم الحانقة الماتوية الملامح، صورة الماضي وهو يستعيد بفخر منظر "الدونكي" وهي تنهال عليه بيد شرطي بغداد في ذاك الصوب، وما يتلقاه الآن باشمئزاز ضربات ضربات الاصدقاء والزملاء وهي تنال من جسده المتعب. حاول ان يتفادى بذراعه المصاب، صورة الماضي في حاضره المشؤوم وهويقاوم الاعتداء بلا جدوى. تركه "الابطال" القوميون وهم يسرعون الخطى الى خارج الجامعة، فغامت الرؤية. تمالك قواه ونهض باتجاه الشقة التي يسكنها والقريبة من الجامعة. كان يقتسم السكن مع (غسان الخضيري) ابن السفير العراقي في مصر قبل الثورة، والطالب الفلسطيني (جواد بركات). لمحه (غسان) وهو يدلف الى غرفته، فسأله مستغربا:

- خير يا ابا غائب.. ماذا حصل لك؟

- تعيش وتأخذ غيرها يا غسان.

- اذن عملوها معك؟

- ...

- اما انا، فقد وقّعت على الورقة وانا ممنون.

نظر الى ابن الخضيري مشفقا، حين جاء (جواد) يخاطبهما:

- هل تشربون القهوة يا جماعة؟

- احسنت يا جواد، مداخلتك جاءت في الوقت المناسب.

- ولو اخي.. الدنيا ما تزال بخير.

- خير يصيب كل الاحباب الطيبين ان شاء الله.

بعد القيلولة، كانت وجهته مقر رابطة الطلبة العراقيين. كانت خطاه تتثاقل تارة،

وتسرع تارة اخرى. بين كل خطوة، كان يكرر مع نفسه: انهم يلعبون بالنار ولا يعرفون ماذا يريدون ولا ما يفعلون.

تباحث مع الزملاء، ومنهم من اخذ نصيبه من مكارم الفرسان الصبيان، فالمح لهم بأن الوضع الحالي المستجد يتطلب من الجميع ان لا ينساقوا وراء الاستفزاز، بل عليهم ان يتحلوا بالصبر وضبط النفس ريثما تتضح هويات اعداء ثورة تموز الجدد.

طرق عائدا الى الشقة وهو يتحرق شوقا الى جرعة من الخمر قد تشفي غليله وتخفف عن مرارة ما حدث قبل سويعات.

اسعفه جواد بكأس، بينما وقف غسان متوترا يتحين فرصة ما لحديث جديد. لقد استجد بالفعل حادث طارىء خطير في نظرهم قبل لحظات. قال جواد بحذر مصطنع:

- متى قررت السفر؟

اجاب بهدوء بعد جرعة من خمر عبت جوفه المتيبس وهو يتحسس مواضع الألم والاورام في وجهه:

- بعد اسبوع تقريبا. هل هذا مهم؟

نظر غسان الى زميله، ثم تململ في كرسيه وكوب الشاي يرتجف بين اصابعه، وقال:

- جاء قبل لحظات اصحاب الجلاليب وهم يرتدون بدل الشغل، ويسألون عنك.

- وماذا يريدون اولاد الفعلة؟

- لا ندري. قلنا لهم بأنك في الاسكندرية.

- ولماذا تكذبون؟

- من الخوف، فانا بعيد كل البعد عن السياسة.

اضاف جواد بشيء من الوجل، فهو اكثر خجلا من زميله العراقي:

- يستحسن ان تسافر بالفعل الى الاسكندرية ومن هناك الى بلدك.

حاول ان يضحك، الا ان عضلات وجهه "المضعضعة" خذلته، ولكنه اجاب بسخرية:

- لا تخف يا فلان، المبلل لا يخاف من المطر.

كان غسان جالسا فوق سريره، يهتز بدنه المرتعب، وتكاد السبحة التي في يده ان تسقط من جديد، فقد فلتت من اصابعه المرتعشة مرات عديدة، وبصوت مبحوح، قال:

- انا لم يمسني المطر، ارجوك ساعدني، فأنا خائف، وأبي موظف دولة كبير.

تجاهل صرخاتهما ومخاوفهما. فقد مضى الاسبوع باسرع مما كانا يتوقعان. امسك بالشهادة وافلت من ايدي رجال المباحث المصرية ولحق بالطائرة العراقية (الميمونة) وهي تشد الرحال من مطار الماظة باتجاه بغداد. في المطار اطلق افكاره:

حان الوقت في ان يستلم الامانة التي وعده بها الوالد.

الظروف في العراق الآن تختلف عن السابق.

الوطن يمر بمرحلة ثورية من اجل بديل وطني.

الجريدة يتقاسمها اكثر من وريث.

الآراء التي يدين بها تختلف بالاساس عن آراء "الورثة".

انه يعرف ماذا يريد وما يريده منه الوطن.

كان مؤمنا بأن الضريبة التي سيدفعها لقاء عقيدته..

وتشبثه بالحرية التي يعشقها.. باهظة.

كان على استعداد لدفع اية ضريبة يطلبها الوطن.

فما مدى استعداد "الورثة" لدفع الثمن معه؟

في بغداد قالوا له بأن الوضع مستتب طالما أنَّ هناك اللجان الثورية لصيانة الجمهورية تتخندق في كل دائرة ومعمل ومؤسسة، وطلائع المقاومة الشعبية تفترش الساحات العامة ليل نهار، والمنظمات الجماهيرية للطلبة والشبيبة تتحشد وتتسلح بالوعي وتحقن الجماهير بمصل اليقظة والحذر. كل الذين عمل معهم في القاهرة اكدوا له بأن النظام الجديد قوي ومتين. الاصدقاء والرفاق اقسموا باغلظ الايمان بأن قوى الشعب المخلصة تمسك الثورة باسنانها. اما هو، فقد كان مدركا واثقا من شيء واحد فقط، هو "الايمان" الداعم "للوجدان" ، وان هذا الايمان سلاح ذو حدين: قوي راسخ متين، او ضعيف واهن مستكين.

امسك بالقلم مجددا.. وقبل ان يضع بصمات المقال الاول له بعد التحاقه بالجريدة، خاطبه متوسلا: لنجرب الحظ ايها القلم المسكين، فلنمتحن الايمان، وندغدغ الوجدان..

* * *

لم يأت ذلك الامتحان من خلال العمل الصحفي الذي يحبه، حين اراد ان يكون عبر سلسلة من المقالات عن "الثورة الوطنية الديمقراطية" وماذا نريد منها في اعقاب انتصارها، بل جاء دون ميعاد على لسان احد الضباط الوطنيين الذي جاءه الى ادارة الجريدة وطلب منه مرافقته الى ديوان الوزارة. قال له الضابط بأن الزعيم (فؤاد عارف) وزير الدولة يرغب مقابلته لأمر هام ومستعجل. اطمأن الى ان الاستدعاء "وزاري" وليس "أمني"، فطرب له واسرع الخطى الى اللقاء.

كان فؤاد عارف وزيرا بلا وزارة في مجال العلاقات، وهو من الضباط الاكراد القدامى المتخرج من الكلية العسكرية في اوائل الثلاثينيات. ولد في السليمانية وتنقل في وحدات الجيش منذ ان كان في الحرس الملكي مرافقا للملك غازي، حتى مرافقته لكبار رجال الدولة. شخصية محبوبة من قبل القوى الكردية والاحزاب الديمقراطية العراقية ومن قبل كبار ضباط الجيش العراقي. كان وطنيا عراقيا ومن الضباط الاحرار، واول وزير يتم الاتفاق عليه من قبل قيادة الثورة.

في غرفة الوزير بالسراي (القشلة)، كان الزعيم عارف بانتظاره، وما ان لمح قدومه، حتى سارع الى مصافحته بالرغم من عدم معرفته السابقة. ابتسم الوزير وقال:

- اهلا بابن (البلاد) العزيز.

انفرجت اساريره عن ابتسامة مماثلة ورد باحترام:

- اشكرك على الثقة برجال الصحافة.

استطرد الوزير:

- نحن معجبون بالجريدة قبل الثورة ونعتبرها لساننا.

اجابه بزهو وافتخار:

- هذا واجبنا، والثورة ثورتنا، ونحن جنودها.

قال الوزير:

- الزعيم عبد الكريم قاسم يريدك ملحقا صحفيا في بيروت.

شلّت المفاجأة شفتيه لصدمة لم يكن يتوقعها. انه لا يعرف الزعيم عبد الكريم شخصيا ولا حتى الوزير عارف.. رغم ذلك، وجد نفسه قريبا الى قلوب الضباط الاحرار، وشعر بأنه يمتلك الشجاعة السياسية والصحفية ليحاور ويجيب احد المسؤولين في حكومة الثورة. قال للوزير:

- لقد عدت من القاهرة قبل فترة قصيرة، وأريد أن أخدم وطني عن طريق العمل الصحفي.

خلع الزعيم فؤاد عارف نظارته الطبية، ورمقه بنظرة استغراب لجرأته في الجواب، فقال:

- الواجب الوطني لا يحدد بعمل وفق رغبة شخصية. الثورة فوق كل شيء.

اجابه بثقة:

- هذا جدا صحيح يا سيدي الوزير، لكني لست راغبا في التوظيف.

نهض الزعيم عارف من مكانه ووقف امام شباك الغرفة الكبير، موليا للزائر ظهره، ثم استطرد بالقول دون ان يلتفت الى الوراء:

- اذهب حالا الى مدير الدعاية (ذنون ايوب) وأكمل معاملة التعيين.

توقف لحظة شاردا عند سماعه صيغة الامر الصادر من الضابط المسؤول، ولم يتحرك من مكانه، بينما واصل الوزير كلامه:

- هذا امر وزاري، وانت معروف بمواقفك الوطنية، والا لما طلبنا منك ذلك.

لم يجد نفسه في اليوم التالي الا وهو في غرفة مدير الدعاية، وكان مع ذنون في الغرفة، (عبد القادر اسماعيل) رئيس تحرير جريدة (اتحاد الشعب) وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. كان يعرف عبد القادر من خلال لقاءات سريعة في الاجتماعات وفي المناسبات الوطنية. اما ذنون ايوب، فقد عرفه من خلال قصصه التي يقرأها وقد اعجب بها.

التفت مدير الدعاية الى عبد القادر وقال له:

- اقدم لك الملحق الصحفي الجديد في بيروت.

نهض عبد القادر واحتضنه وطبع قبلة على خده قائلا لذنون:

- اطمئن، ونعم الاختيار.

ابتسم بدوره لاستدراك اسماعيل، وخاطبه بتودد:

- تصور، يريدون انتشالي من ميدان الصحافة بالقوة.

تقوست عضلات وجه ذنون، وداعبت نظارته الطبية ارنبة انفه، فسارع الى القول:

- ولم لا، والعمل في بيروت يدخل ضمن اختصاصك الصحفي.

- ولكني لا ارغب بعمل صحفي روتيني، خصوصا بعد تأهلي الاكاديمي.

تدخل عبد القادر ليضع نهاية للنقاش، فقال:

- الوقت كاف للمستقبل.

ترك مبنى المديرية متجها الى مديرية التحقيقات الجنائية (الأمن العامة). حاول اقناع نفسه وهو يحدثها، إذا ما كانت الثورة بحاجة الى خدماته، فلابد ان يستجيب للأمر. دخل الى ذلك المبنى العتيق للمرة الثانية، بارادته في هذه المرة. انه مطمئن لما هو مقدم عليه. ان الهدف هو المصلحة العامة. قاده احد مراتب المديرية من تلك الوجوه القديمة الى غرفة واسعة يحتلها ضابط برتبة نقيب وهو من الضباط الاحرار.

قدم نفسه للضابط وسلمه مظروفا كتب عليه عبارة "شخصي وسري". وقف بانتظار رد الفعل من المسؤول الجديد الذي سيعتمد بالتأكيد على معلومات ما قبل الثورة. فض الضابط المظروف بسرعة، وبانت اساريره عن ابتسامة مطمئنة. نظر المسؤول اليه وقال:

- اهلا بالأخ العزيز. انا اعرفك من خلال ما تكتبه بالجريدة.

نادى الرئيس على الساعي المرابط امام غرفة المسؤول الأمني الجديد وطلب منه ان يجلب له "الاضبارة" السرية. الم يقل في قرارة نفسه بأن ادوات الثورة ستبقى نفسها وكأن ما جرى او يجري لا يتعدى سوى تبديل وجوه عتيقة بوجوه جديدة، ان كانت هناك وجوه جديدة.

راح الضابط يقص عليه بعض اسرار تحركات الضباط الاحرار، وكيف كان يعمل هو في احدى الخلايا في معسكر الوشاش. قطع عليه الساعي تلك الاسرار حين اطل بقامته الفارعة المخيفة وبيده الاضبارة المعنونة: (فاء) القاهرة - طالب من العناصر الهدامة - سري للغاية.

انشغل ضابط تموز بقراءة الاوراق، وما اكثرها، وهو بين الفينة والفينة ينظر الى المجرم الواقف امامه وقد حطت ابتسامة حلوة على شفتيه الناعمتين اللتين يطرزهما شارب اسود رفيع، ويطنطن بصوت خافت ولكنه كان مسموعا لصاحب الأمر، مستغربا من كل تلك التقارير والمقالات والافادات والهوامش المبعثرة هنا وهناك بخط احمر ووردي واخضر، بينما صاحب الاضبارة الخطيرة الواقف امام الضابط، يسترق

النظر الى تلك الوريقات بحذر، فيلمح قصاصة صفراء مخطوطة بارتباك وعبارات ركيكة غير منسقة، ادرك هوية صاحبها من خطوطها، فتساءل مع نفسه: من يا ترى حشر (غازي العياش) في اضبارته؟

عادت به الهواجس الى القاهرة والى حديث جمال عبد الناصر لجريدة (البلاد) وكيف القي القبض عليه في مطار بغداد مطلع شهر شباط ١٩٥٨ ... و ...فقاطعه صوت الضابط قائلا:

- استاذ.. ممنوع.

- عفوا، ما هو الممنوع؟

- الاطلاع على الوثائق.. انها سرية.

ابتسم ابتسامة ودودة واجاب:

- نحن نعيش في ايام ثورة.

- الثورة على الرأس والعين، لكن الظروف مهما تغيرت، فالوثائق تبقى سرية.

اجابه بشيء من السخرية:

- واذا كانت الوثائق مزورة؟

لم يتلق الجواب، بل استلم براءة الذمة ونظرات الضابط تفصح عن الجواب الصحيح في مثل هذه المواقف: اذا كان الوضع السياسي السابق كله مزورا، فهل تبقى مثل تلك الوريقات في معزل عن التزوير؟

طرق عائدا الى (ذنون) وهو يحمل معه "براءة الذمة" التي انتزعها من بين ايدي اناس لا ذمة لهم ولا شرف.. فاحاله الى وزارة المالية لاستكمال عملية استحداث درجة ملحق صحفي تتماشى مع تحصيله الجامعي. كانت تلك الخطوة هامة، ولربما كانت من حسن حظه، فحالت دون اتمام معاملة التعيين بسبب عدم مطابقة الدرجة لملاك السلك الدبلوماسي.

عاد للمرة الثالثة الى (ذنون) ليبشره بالمحذور، فاحاله الى الوزير الذي كان مطلعا على سير المعاملة، بينما كان هو مشمئزا من كل تلك الخطوات الروتينية. ما ان لمحه الوزير حتى قال له باستعجال ودون ان ينتظر منه نتيجة التحريات، عن الممكن في عالم الوظيفة، وماذا يرغب في الخارج؟

فرح وتألم لمطالعة الزعيم عارف في آن واحد. فرح لأنه ازاح عن كاهله وظيفة لم يرغب فيها. وتألم لأنه شعر بوقع الاهانة عليه في منحه وظيفة بديلة.

استدرك لقول الوزير، ورد عليه بتألم واضح:

- لم اطلب الوظيفة لا في بيروت ولا في غيرها من العواصم.

رد الوزير:

- لماذا؟

- لأني صحفي ممتهن والصحافة تسري دماؤها في عروقي.

- وما هو طلبك؟

- رئاسة تحرير (البلاد).

- هل يرغب اخوك كمال بالوظيفة؟

- هذا امر متروك له.

خلال ساعات معدودة.. تم كل شيء. استلم رئاسة تحرير الجريدة واستلم كمال الملحقية الصحفية في نيودلهي. كما استلم بديع وظيفته في السفارة العراقية في واشنطن.

* * *

ارسل في طلبه صبيحة ذلك اليوم الرائد (عبد الستار الجنابي) مرافق الحاكم العسكري العام (الزعيم احمد صالح العبدي)، وهو يحاول اكمال مقاله الذي كان يدعو فيه الجماهير الى اليقظة لحماية مكاسب الثورة وانجازاتها. ترك قلمه واتجه الى مبنى وزارة الدفاع الذي لم يكن يبعد عن الجريدة سوى عدة امتار. كان في غرفة المرافق، الصديق (يحيى ثنيان). استقبله الرائد عبد الستار بالوعيد والتهديد دون ان يعطيه اي مجال للسلام. انسكبت عبارات المرافق الخشنة غير المؤدبة والتي لا تليق بضابط في رتبته، انسكبت على قلبه الرقيق نارا وشعر بحرارة قوية كمن سكب ماء مغليا على جسمه، وكان حائرا بين الاثنين: المرافق الرائد، والصديق الشاهد.

استفسر بهدوء وهو لا يصدق ما يسمعه من ضابط في مركز هام:

- ما هذا الهجوم غير المبرر؟

زعق المرافق بصوت ينم عن حقد دفين:

- هل تريد ان تحرق البلد بالنار؟

ثم انهالت الشتائم من جديد مرفقة بتهديدات خطيرة. لم يبق في قاموس الشتيمة العراقي تعريف الا واستعمله هذا الضابط ضد رئيس تحرير جريدة يعتبرها عبد الكريم قاسم والضباط الاحرار لسان حالهم قبل وبعد الثورة.

دخل الحاكم العسكري غرفته قادما من غرفة الزعيم قاسم. هرع عبد الستار اليه بعد ان سمع وقع اقدام سيده ليكون باستقباله. لحظات، عاد مرافقه الامين واشار عليه بحركة من رأسه المكور الاملس للدخول الى الحاكم العسكري. توقع مزيدا من الشتائم والاتهامات وهو يدلف الى غرفة العبدي وعيون الصديق (ابو سها) تتوسله ان يقضم حنقه ويبرد اعصابه.. ان تهمة واحدة من تلك التهم التي اطلقها المرافق دون وعي واتزان، تكفي لإعدامه دون أسف. وما ان حطّ رحاله على سجاد الحاكم الوفير، حتى صرخ احمد صالح العبدي في وجهه:

- انت ابو جريدة البلاد؟

- لا شك في ذلك.

- لماذا تكتب عن كركوك؟

- حرصا على الثورة من الضياع.

بنفس الايقاع النغمي والعزف على القيثارة العسكرية، اردف الحاكم:

- ان من يدافع عن كركوك وينشر بيان المنظمات الديمقراطية ما هو الا مخرب وفوضوي.

يا لسخرية القدر.. تحوّل المدافعون عن كركوك الى فوضويين، واصبح العملاء شركاء في الثورة.

استدرك لقول العبدي، وقال:

- عفوا لو سمحت، فالبيان صادر عن منظمات شرعية وقد نشر في كل الصحف الشريفة.

- هذا غير مهم، انه آخر انذار لك.

ترك دائرة الحاكمية وهو يردد مع نفسه: لا .. لقد ضاعت الثورة.

في طريق عودته الى ادارة الجريدة، تذكر ما سمعه قبل يومين من (يوسف متي)

وهو يحاور رفيقه (عبد الرحيم شريف) في مسيرة نقابة الصحفيين لمناسبة الذكرى الاولى للثورة حين قال: سبحان مغير الاحوال يا رفيق، منذ متى والشرطة تهتف معنا مطالبة باشراك الحزب الشيوعي: اسألوا الشرطة ماذا تريد.. وطن حر وشعب سعيد و(الشرطة تطالب باشراك الحزب الشيوعي في الحكم.. عاش زعيمي عبد الكريمي.. حزب الشيوعي بالحكم.. مطلب عظيمي). الم يكونوا قبل اشهر يطاردوننا في الشوارع والازقة.. والله يا ابا رائد، راح تضيع الثورة.

وبالفعل، خاف على الثورة من الضياع. ان العبارات واحدة لم تتبدل، ولكن الاشخاص الذين ينطقون بها هم الذين يتبدلون في كل وقت وزمان، وفي كل دولة ومكان.

(لم تمض ثلاث سنوات حتى تحقق ما توقعه (ابو زيدون) و(ابو رائد).. ودفع ثمن ضياع الثورة اكثر من خمسة الاف وطني خلال اسبوع واحد في مسالخ الحرس القومي وقصر النهاية، كان احدهم، عبد الرحيم شريف.. الانسان المبدئي الذي حز في نفس كل من عرفه، ان يفقده وراح يلعن قاتله.

فبالرغم من برودة اعصابه، ونحول جسده بعد مدة قصيرة من اعتقاله، وخفوت صوته، وقلة كلامه في المناقشات والحوارات، الا انه اطلقها صرخة دوت اصداؤها كأمواج البحر المتقاذفة داخل مسلخ الفاشست: لن تنالوا مني قيد انملة ولن تنالوا من عزيمتنا وايماننا.. اننا اقوى من الموت.

اسقطوه ارضا.. لفظ انفاسه بعد ان سحق مجرم، برفسة من قدمه، ذلك الصدر الضعيف الحنون، وليتمزق قلبه الكبير داخل قفص تحطمت اضلعه، الا ان الفؤاد بقي ينبض بحب الحياة مع قلوب جديدة عشقت مبادىء (عبد الرحيم ورفاق عبد الرحيم).

* * *

كان عليه ان يحارب على جبهتين: في الجريدة مع رفاقه عبر طريق محفوف بالمخاطر من اجل ان تبقى الثورة امينة على اهدافها، وفي علاقته بسعاد من اجل ان تكون امينة على الرابطة بينهما. ان والدها من الضباط القدامى ولا يعترف بتلك الرابطة خصوصا انه لا يتفق معه في آرائه السياسية والفكرية.

لم يستكمل متطلبات الخطوبة، حتى دعي الى خدمة الاحتياط. قدم طلبا مشتركا

مع زميله (جلال الطالباني) المحرر في جريدة (خه بات) الناطقة باسم الحزب الديمقراطي الكردستاني - البارت - لاعفائهما من الخدمة العسكرية بسبب انخراطهما بالعمل الصحفي، فرفض طلبهما، وقادوهما الى معسكر الرشيد طلابا في الوجبة الثانية - الدورة ١٤- كلية الاحتياط.

قضى الليلة الاولى بعيدا عما يجري خارج الاسوار العالية، ونام نوما هادئا بعيدا عن ضجيج الشارع واصوات مكائن الطباعة ومشاكل المحررين في الجريدة. كانت (البلاد) ما تزال في مقرها القديم في محلة حسن جديد باشا القريب من ساحة شرطة السراي . اطمأن الى ان (سامي) الذي استلم الراية منه والذي انيطت رئاسة تحرير الجريدة به، سيكون بمستوى المسؤولية ويحافظ على "ديمقراطية" العمل داخل المؤسسة التي يحبها كحبه وعشقه للحرية والنظرية التي اهتدى اليها وهو ما يزال في ريعان شبابه.

مع تباشير الفجر، صحا على صوت النفير.. اخذ مكانه في الطابور الطويل حيث يقف الزعيم (صبري النعيمي) آمر كلية الاحتياط، مرحبا بالقادمين الجدد ومؤكدا على ضرورو الابتعاد عن السياسة حيث " لا فكر سياسي ولا تنظيم حزبي داخل المؤسسة العسكرية ".. قال بالحرف الواحد: اتركوا السياسة لأهل السياسة. استلم بعده آمر الدورة العقيد (سعيد الصقلي) الراية ويؤكد بدوره على ضرورة الابتعاد عن السياسة وشرورها . لم يستغرب اقوال الصقلي، فقد نقلوا هذا الضابط من الموصل الى بغداد ليلعب دوره المرسوم.

التفت الى صديقه الجار (صلاح الملاك) وهمس في اذنه:

- انها البداية يا صلاح.

- هذا ما كنا نسمعه قبل الثورة.

امسك البندقية، وصمم على ان لا يتمرد هذه المرة.. فخدمة علم تموز الوطني واجب مقدس. الشعب يعيش مرحلة ثورية رغم مكائد الاعداء القدامى والجدد . لقد استرخص كثيرون ارواحهم في معارك الأمس، ويجب استرخاصها اليوم من اجل حماية المكاسب: الجمهورية الفتية، الحريات الديمقراطية، حرية الصحافة والكلمة، التنظيم المهني والنقابي، الاصلاح الزراعي وغيرها من المكاسب.. ان كل ما كان يطلبه في

تلك الايام، ان لا ينقطع عن العمل الصحفي دفعته تلك الرغبة الى مفاتحة آمر الكلية للحصول على موافقته في الذهاب الى خارج الكلية كل يوم بعد انتهاء التدريبات العسكرية. اتفقت رغبته هذه مع موافقة الآمر، رغم ان القوانين العسكرية صارمة. فالزعيم النعيمي، عنصر ديمقراطي ومن محبي الزعيم عبد الكريم قاسم وجريدة (البلاد). طلب منه ان يأتيه بالجريدة كل صباح اثناء الدوام الرسمي.

في عصر يوم اعتيادي هادىء، كان يتداول مع (سامي) امور تطوير الجريدة، حين دخل البناية مسرعا المحرر (قاسم محمد فخري) وهو يلهث ويصرخ مبحوح الصوت:

- قتلوا الزعيم.

صاح منير رزوق من غرفته اللصيقة ببهو الطابق الاول:

- من قتله يا قاسم؟

- ضربوه بالرصاص في منطقة رأس القرية قبل دقائق.

تراكض المحررون والعمال وطوقوه مستفسرين عن الحادث، بينما راح قاسم يجيب بصعوبة ويبكي وهو يؤكد ان الزعيم عبد الكريم مات.

وقف حائرا بين مصدق ومكذب.. رغم هذا، كان راغبا في ان يموت الزعيم وان لا يموت. يريده ان يموت لأنه شهر السلاح بوجه القوى الديمقراطية واعلنها دكتاتورية فردية، مستغلا احداث كركوك الدامية في اثناء احتفالات الذكرى الاولى للثورة، تلك الاحداث التي دافع خلالها ابناء الشعب عن الجمهورية، ضد الاعيب وتحرشات شركات النفط. في نفس الوقت، لا يريده ان يموت دون وجود بديل، فيضيع ما تبقى من مكاسب الشعب. فقد بات الزعيم رمزا. فهو الذي اسس خلايا الضباط الاحرار، وكان واحدا من ابرز العناصر النظيفة والوطنية داخل الجيش، وقائدا عسكريا لم يرهبه الموت وهو يقاتل في حرب فلسطين، ومغامرا في العمليات العسكرية. خطط وقاد بنجاح الثورة التي اذهلت الانكليز والامريكان واسقطت من حساباتهم الكثير من الثقة بعملائهم وبصواب مخططاتهم و"سلامة" سياساتهم.

كان قاسم ضابطا بسيطا، رقيق القلب، أمينا، زاهدا في الحياة، نصيرا للفقراء، لم يستغل مركزه ولم يسمح لأهله واقاربه استغلال منصبه كقائد للبلاد. كانت طيبته ونياته الحسنة وثقته العمياء بالاصدقاء، ورأفته حتى باعدائه الى حد السذاجة، عاملا

رئيسيا في ضعف قيادته التي ادت الى تخبطه وتأرجحه وعدم ادراكه متطلبات المرحلة الديمقراطية الثورية بعد كنس العهد البائد.

في المساء، بانت صورة الموقف اوضح. خرجت الجماهير الى الشارع وهي تهتف: زعيمنا سلامات موتوا يا رجعية. حاول بعض العناصر القاء التهم جزافا على الشيوعيين او على حزب تودة الايراني، بينما كان الشيوعيون يجوبون الشوارع ويحرسون مؤسسات الدولة ضمن خطة طوارىء غير معلنة.

وقف في الطابق الاول لمبنى الجريدة المطل على باحة الدار، يتحدث الى المحررين الذين تجمعوا في الطابق الارضي، محاطين برجال الحماية المسلحين المناوبين مع غيرهم كل يوم، بعد ان قررت نقابات العمال حماية الصحف التقدمية ضد اعتداءات العصابات المنفلتة التي قامت بتحريضها العناصر المتآمرة من كل الاجناس والمشارف الرجعية، وقف يقول لهم بأن الوضع يتطلب يقظة اقوى من السابق، ولم ينس ان يؤكد لهم بأنه غير مرتاح لما سيتمخض عنه المستقبل.

قال منير رزوق، محرر الشؤون الخارجية:

- الوضع بات خطيرا.

وقال شاكر اسماعيل، المحرر الرياضي:

- ما العمل؟

لحق به وائل العاني المحرر لصفحة منوعات، وهو يسحبه من يده بعصبية، وقال:

- انتظر حتى تتكشف الأمور. نحن لا نعرف حتى هذه اللحظة من قام بالمحاولة؟

لم يطل الوقت على هذا التجمع للمحررين الذين شلّ الحادث نشاطهم، حتى دخل قاسم محمد فخري، محرر الشؤون المحلية، وفي يده صورة وزعتها دائرة الاستخبارات العسكرية تظهر فيها وجه قتيل قالت عنه انه من زمرة الاغتيال، وطلبت من الأهالي التعرف عليه واخبار الجهات المسؤولة عنه.

نظر صادق الصائغ الى الصورة وعلامات الاستغراب واضحة على وجهه، ثم صرخ: هذه صورة (عبد الوهاب الغريري).

قال لصادق:

- هل انت متأكد من التشخيص؟

- بكل تأكيد، فأنا اعرفه شخصيا وعملت معه في جريدة الحرية.

طلب منه ان يذهب الى وزارة الدفاع واطلاع المسؤولين على هوية القتيل. بعد اقل من ساعة، اذيعت من محطة بغداد تفاصيل المحاولة والحزب الذي يقف وراءها. اسقط ذلك البيان كل تلك الاشاعات، وقامت السلطات بالقاء القبض على افراد فرقة الاغتيال التابعة لحزب البعث العربي الاشتراكي.

بدأ على اثر هذه المحاولة، اصطفاف جديد للقوى السياسية.

* * *

٢٣ شباط ١٩٦٠

استقرت في الصباح نجمة خماسية على كتفي سترته العسكرية.. وفي المساء دخل العش الذهبي.

نهض من نومه، على صوت رنين الهاتف، ليتلقى اول أمر عسكري بتنسيبه الى الفرقة الاولى في الديوانية. اتصل بمديرية الادارة في وزارة الدفاع وافهم المسؤول هناك بأنه سبق وان نسب في بغداد. رفض المتحدث ان يناقشه، وكرر عليه الأمر الاداري العسكري.

دخل على قائد الفرقة (سيد حميد سيد حسين) او سيد حميد حصونة، كما يسميه الوطنيون بعد افتضاح امره في حملة الرجعية على العناصر الوطنية في الجيش. نظر القائد في القائمة الطويلة امامه، فوقع نظره على اسم الضابط الملازم الواقف امامه. انتفض من مقعده وبدا غولا يقترب من فريسته. زمجر بوجهه:

- انت ابو (البلاد)؟

- نعم سيدي، بلحمه ودمه.

تقلصت عضلات وجهه، فبدا قبيحا اكثر قبحا من حقيقته. علا صوته المكروه قائلا:

- تنسيبك في اقصى بقعة على ارض العراق.

- لماذا سيدي؟

- والله لو كانت حدود فرقتي من البصرة الى حدود تركيا، لارسلتك الى زاخو.

- ولكن ما السبب في ذلك؟

اجاب بحدة وبصوت مرتجف:

- لقد نشرت جريدتك تعليقا تعرضت فيه الى سمعتي الوطنية. فأن كنت انا حقا من "اولئك الذين يتسابقون للظفر بعلم الرجعية داخل القوات المسلحة"، فأنت ستكون من هؤلاء الذين يتسابقون للظفر باللحد في صحراء الشعيبة.

نفذ امر التنسيب، وشد الرحال الى البصرة، ومن هناك الى مقر الفوج الاول - اللواء العاشر، في صحراء الشعيبة.

في مقر الفوج، ادخلوه على العقيد (صالح امين) الذي شغل قبل فترة قصيرة، تنسيبا، آمرا للمقاومة الشعبية في لواء البصرة. رمقه الآمر بنظرة فاحصة من خلف نظارته السوداء، وقال بتودد:

- يا ابني، لا اريد مشاكل داخل وحدتي العسكرية، ولا مجال للسياسة هنا.

ادى التحية العسكرية واجاب:

- انا احترم الرتبة فوق كتفي والتزم بالانضباط.

انفرجت اسارير العقيد عن ابتسامة رقيقة، فبانت اسنانه التي نخرها التسوس. نادى على مساعد آمر الفوج وطلب منه تنسيب الملازم القادم من بغداد الى السرية الاولى بإمرة الرائد (صبيح شاكر البكر).

جلس هادئا في غرفة السرية بانتظار مراسيم التعارف، كما تخيل او توقع بحسن نية. الا ان تلك المراسيم كانت من نوع آخر. راح الرائد المحترم يكيل الشتائم الى كل ما هو خيّر وشريف دون ان يكون هناك اي سبب لذلك، سوى ان هدفه كان واضحا، استفزاز المعني. كظم غيظه على مضض منتظرا الفرصة لرد الصاع صاعين. جاءته الفرصة لوقف تمادي الرائد في تطاولاته المقصودة، حين غادر بقية ضباط السرية الغرفة. جلس بمواجهة البكر، وقال له:

- هل تعرفني؟

- انت الملازم الجديد المنسوب الى سريتي.

- وهل تجري مراسيم التعارف بين الضباط القدامى والجدد بهذا الاسلوب البذيء البعيد عن ابسط قواعد الاخلاق.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- انت ادرى بما اقصده، ولكني، قسما بالشرف الوطني، لولا هذه الملابس العسكرية، للقنتك درسا لن تنساه..

قاطعه مرتبكا وقد اصطبغ وجه الضابط باللون الاصفر، وقال:

- لم اقصد الاهانة، خصوصا اني اعتقد بانك غير منتم الى اية جهة سياسية.

علا صوته ورد بعصبية:

- سواء كنت سياسيا او غير ملتزم، فهل الاخلاق في معزل عن السياسة؟

ازداد ارتباك الرائد ولم يعرف كيف يخرج من ورطته، فسكت برهة ثم قال:

- ان سمعتك كانت قد سبقتك الى هنا، فرغبت التأكد من انتمائك.

- لكن هذا الشيء لا يهمك ولا يهم كل مؤسستك العسكرية.

نهض صبيح من مكانه ومد يده لمصافحته، واردف بالقول:

- العتب على التقارير يا اخ.

- الوجوه تفصح عن دواخلها.

رئيس عرفاء السرية، (احمد) المنقول من كركوك بعد حوادث تموز، كان له رأي آخر بالرائد صبيح ويكل ضباط الفوج. اطلعه على هوياتهم وهو يختزن في ذاكرته ما فيه الكفاية لاطلاع الضابط الجديد على ما يجب ان يعرفه. قال:

- الرائد صبيح موتور. العقيد فتحي رجعي. الرائد جميل تقدمي. الملازم فؤاد عنصر شريف. المقدم حسن انتهازي. نائب الضابط الحربي مجيد من الاستخبارات.

كان يستمع الى حديث ضابط الصف المخلص بشوق وحذر. ان (احمد) عسكري مخضرم شارك في احداث كركوك بدافع الحرص على الثورة من الضياع. كان من مجموعة العقيد داود الجنابي. تكر الايام، فيجد نفسه منقولا من وحدته في كردستان الى اقصى قرية في صحراء الجنوب. كان صوته الرجولي يمتزج بافكاره الخيرة المنسابة على بساط الحديث الصريح دون وجل. في نهاية التعريف، أكد له رأس العرفاء على ان الجماعة يحبونه.

قال له بتعجب:

- اية جماعة تقصد يا احمد؟

نظر احمد باستغراب بالرغم من انه يعرف الضابط الصحفي حق المعرفة، واجاب بتأن:

- الجماعة اياها . اقصد جماعتنا ، فنحن اصحاب قضية مشتركة .

ادرك اكثر من خلال كلماته الصادقة ونبرات صوته القوية المرنمة باهتزاز اوتار حنجرته، ما تعنيه العبارات العميقة . مد يده مصافحا وابتسامة الثقة بالغد تطبع بصماتها على شفتيه .

عاد يسأله عن المراتب داخل الفوج. ابتسم رأس العرفاء واستل نفسه من خواطره حيث لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال . استدرك بالقول:

- كلهم شرفاء . . اننا طيبون وشعبنا اصيل .

مرت الايام حلوة داخل اسوار المعسكر لا يعكرها ما يفسد الجو، حيث يقضي مدة "الاقامة الجبرية" - وقد اعتبرها كذلك - ولكنه ملّ تلك الخفارات اللعينة التي اثقلت كاهله . لم تكن الظروف معقدة لمثل تلك الخفارات او الحذر الزائد والتطير، ولم تكن مقررة بهذا الشكل الملح . كان يظن انها رقابة اكثرمن كونها خفارة . نادى على عريف الخفر تلك الليلة . سأل (حنون) بلهجة تخفف درجة الشك:

- لماذا تقف على باب غرفتي تاركا واجب الخفارة داخل العنابر ؟

اجاب العريف وهو يلتفت الى الوراء بحذر:

- لست وحيدا في مهمتي سيدي .

سكت حنون، كأنه يخشى من ان يبوح بسر الليل، ثم قال:

- نحن نقوم بحراستك كل ليلة سيدي .

- لماذا الحراسة ؟

- اسأل رئيس العرفاء احمد .

في صباح اليوم الآخر، سأل ضابط الصف الشجاع القادم من كردستان عما يقصده العريف حنون:

- ما هو السر في خفارات الحماية يا احمد ؟

- لأنك وحيد في هذه الصحراء . . والدنيا غير أمينة .

- هل تقصد ان المعسكر غير امين ؟

- انها الذئاب سيدي، فقد سبق لها ان افترست الملازم (نبيل) قبل شهرين.

احس بالدوار والاستفراغ.. اسرع في الاستفسار:

- الذئاب؟

...

لكن الملازم نبيل مات بالسكتة القلبية.

هذا ما اشاعوه سيدي.

اليست هي الحقيقة؟

كلا، لقد افترسته الذئاب الكاسرة داخل المعسكر، ولا نريد ضحية اخرى لإنسان نحبه.

لم يكن احمد يكذب.. فقد كانت تلك الفترة من اسوأ الفترات، حيث بدأت حوادث القتل والاغتيال السياسي تتكرر، وعدد الضحايا يزداد في كل مدينة وقرية.. في العشار والميمونة، في بغداد والرمادي، وفي اربيل والموصل. يتساقط المواطن وهو يحمل هويته الوطنية بين يديه.. لكن هوية القاتل مجهولة.

ويزداد عدد الشهداء وتتنوع الوان الهويات وهي مضرجة بالدم في ارياف الجنوب الخضراء وفوق ذرى كردستان الحبيبة.

في كل شهر يلتحق بالركب انسان جديد. في كل مقبرة يحفر لحد جديد. فوق كل قبر يرتفع علم وشعار.. مات (سوادي) وهو يهتف: وطن حر وشعب سعيد. صعد (غانم) سلم المشنقة وهو يردد: امة عربية واحدة. لفظ (جبار) انفاسه الاخيرة وهو يهمس في اذن السجان: فداك يا جمال. يسقط (خسرو) فوق صخرة كردية وفي يده غدارة "كلاشينكوف" وهو يصرخ: لبيك كردستان.

* * *

آذار/مارس ١٩٦١

ترك معسكر الشعيبة وهو يرتدي ملابسه المدنية وعاد الى زوجه وطفله الرضيع (رافد). وبعودته الى الجريدة، عادت اليه المشاكل مجددا. رفضت الاستخبارات العسكرية ومديرية الأمن العامة اعادة اسناد رئاسة تحرير الجريدة اليه كما تركها عند ادائه الخدمة العسكرية. قالوا له:

"بناء على مقتضيات المصلحة العامة، نرفض اسناد رئاسة تحرير جريدة البلاد اليك مرة ثانية." لم يستغرب ذلك الرفض، فالجماعات بدأت تساق الى المحاكم العرفية، تفترش الارض الكونكريتية في اقبية الأمن والسراي. انكفأت الثورة على بلاط وزارة الدفاع حيث يفترش ارض غرفته الزعيم عبد الكريم قاسم وينام ساعات قليلة جدا بعد عودته من جولاته التفقدية في احياء بغداد وخصوصا الاحياء الفقيرة. بدأت العناصر الرجعية والطفيلية والمصلحية تتبوأ مراكز حساسة في اجهزة الدولة وفق خطة مرسومة باحكام. الضباط الوطنيون والتقدميون يتشتتون في مناطق نائية ووفق قوائم التنقلات الادارية ليحل محلهم المشبوهون واعداء الثورة. الصحافة الديمقراطية تئن من ضربات قانون المطبوعات رجعي المفعول. الصحف الصفراء والمشبوهة (العهد الجديد)، (الشرق)، (الفجر الجديد)، (بغداد) و(الثورة) ترفع شعارات معاداة الشيوعية والديمقراطية بكل صلافة. انقلب المدافعون عن تموز الى عملاء خونة وفوضويين. بات الرجعيون والمتآمرون وايتام العهد الملكي اصحاب الحق في الثورة. الغوا المنظمات الجماهيرية وزوّروا انتخابات نقابات العمال والمنظمات المهنية. سلموا الجمعيات الفلاحية الى السراكيل بقيادة (عراك الزكم). عطلوا جريدة (اتحاد الشعب) وشوهوا الحياة الحزبية بخلق احزاب تابعة. لم يبق من مظاهر الديمقراطية الا (الاسم) في العلن. صرخ المخلصون بوجه قادة النظام: ما هكذا تحكمون يا من قلبتم كيان الاعداء بالامس القريب. انكم تسيرون في طريق محفوف بالمخاطر. الثورة في خطر...

بدأ يفكر، بعد ان تحدى السلطات الرافضة لطلبه، بتعيين نفسه مديرا لتحرير (البلاد)، بدون تدخل الوزارة المعنية لعدم وجود مثل هذا التنسيب في الصحافة العراقية آنذاك، بل اوجده هو ليتسنى له العمل خارج حكم قانون المطبوعات ومواده الالزامية، بدأ متوفز الاحاسيس يفكر بكل كلمة يكتبها بل ومع كل حديث او حوار مع اصدقاء تموز القدامى والجدد. لقد اصبحت مهنة الكتابة صعبة وخطيرة. الشعب صانع تموز يريد شيئا من حقه ان يحصل عليه، وقيادة النظام تريد شيئا آخر لا حق لها فيه. الجماهير صاحبة المصلحة تطالب بالحزم تجاه الاعداء... كل الاعداء، وعبد الكريم قاسم يرفع شعار "عفا الله عما سلف".

كان عليه ان يضع (الوجدان) فوق كل اعتبار وفي كل مناسبة.

جاء الصديق (حسين الهورماني) كما اعتاد ان يزوره مطلع كل شهر، فوجد حزينا متألما. سأله مستغربا عن وضعه غير المألوف:

- ماذا هناك؟
- لماذا عطّلوا الاتحاد؟
- المرحلة التي نمر بها تتطلب ذلك الاجراء.
- وشعار المشاركة بالحكم؟
- لقد ارعب الرجعية والبرجوازية الوطنية.
- يعني؟
- المرحلة التي نمر بها تتطلب ذلك.

لم يرض عن اجوبة الهورماني، فواجهه بالحقيقة. قال:

- بدأنا نفقد ونخسر الكثير.
- ...
- واصبحنا نتنازل عن الكثير من ...

قاطعه حسين وقال بعصبية:

نتنازل او لا نتنازل، الا اننا لانتنازل عن الثورة. نحن نمسك بها باسنانا!

خيم الهدوء على جو الغرفة..

اطال النظر في وجه الصديق، وكلمات منمقة تتراقص امام عينيه لمشروع مقال قفز الى رأسه، وكأنه يستوحي الافكار من نظرات (حسين) وهي تستصرخه بالهدوء وعدم التطرف والابتعاد عن "مرض الطفولة اليساري".. فوجد الكلمات حبيسة صدره وهي تدق ناقوسا في ذلك الرأس الصلب: "ان من مستلزمات نجاح وديمومة الثورة الوطنية الديمقراطية، مشاركة اوسع الجماهير في عملية التغيير الثوري.. و..."، فاوقفها (ابو علي) عند حدها وهو يودعه للقاء آخر.

تركه الصديق يتيه مع اوراقه واحزانه.. فمزق ما كتبه اكثر من مرة. ترك مقاله والقلم جانبا، وراح يتصفح مسودات كتابه الجديد عن تاريخ الصحافة العراقية، يحرق بنظرات غضب اسماء صحف ومجلات اختفت منذ عشرات السنين، واختفت معها الكثير من حقائق التاريخ.

فجأة يرن الهاتف، وتأتيه من بعيد شتيمة مقرفة اعتاد على سماع مثيلاتها مرات عديدة.اسكت "المتحدث" شاكرا شيمة ابطال المعارضة من صبيان السياسة. لم تهزه الشتائم او تفت في عضده او تزعزعه عن موقعه. لقد اعتاد المخلصون على سماع عبارات التدني الاخلاقي طيلة سنوات نضال مرت وكرت. ان هاتف الجريدة تحول الى وحدة قياسية تنبئه بدرجات الحرارة والبرودة وتقلبات الجو: الحرارة في القاهرة عالية. المناخ في بغداد غائم جزئيا. في كردستان هناك رياح وعواصف رعدية شديدة. رياح موسمية قادمة من دمشق.

في الكرخ، امطار.. وهدوء في الرصافة.

* * *

لم تكن البورجوازية الوطنية على استعداد لحل المسألة القومية الكردية حلا ديمقراطيا عادلا بالرغم من اعلان العفو العام عن قادة الحركة الكردية الذين كانوا يعيشون في المنفى بعد فشل ثورة الملا مصطفى البارازاني ابان الحكم الملكي، وعودة الملا واركان قيادته من الاتحاد السوفييتي الى العراق بعد الاطاحة بالملكية. لقد اطلقت بعض الاوساط شعار "الصهر القومي" في صحافة عبد الكريم قاسم، وبالذات جريدة (الثورة) لصاحبها يونس الطائي، وبقلم (كلوفيس مقصود)، تلك الدعوة العنصرية التي وقفت بوجهها قوى الشعب الديمقراطية العربية والكردية، وعرّتها بعض الصحف التقدمية، فاوقفتها عند حدها.

وكان لتحركات العناصر المستفيدة خارج وداخل سلطة تموز، وتوغلها في صفوف اجهزة الحكم الحساسة، اثرها ودورها الفعال في تعميق الخلافات بين عبد الكريم قاسم والقوى الوطنية والديمقراطية، وبالتالي بينه وبين الحركة الكردية. تلك الخلافات والممارسات التي ادت الى اندلاع الاقتتال بين الاخوة العرب والاكراد وضرب الوحدة الوطنية وشركة النضال المشترك بين الشعبين الشقيقين، في حين كانت القوى الديمقراطية المخلصة للثورة تؤكد على ضرورة تمتين وتعميق التضامن بين قوى الشعب بقوميتيه الرئيسيتين العربية والكردية وسائر الاقليات القومية الاخرى.

تجاه تلك المخاطر الجدية، رفعت القوى الديمقراطية والوطنية الحريصة على مسيرة تموز، شعار "السلم في كردستان". لعب الصحفيون الوطنيون دورا كبيرا في ترميم

الصدع، او محاولة ترميمه، والتثقيف باهمية الشعار لحماية المسيرة من مخاطر التآمر. كان ثمن ذلك الدور، الحكم على بعضهم بالسجن، ومنهم ثلاثة محررين في جريدة (البلاد): شمران الياسري، المعروف بأبي كاطع، صالح سلمان، وحميد رشيد. كما اختفى البعض الآخر ومنهم (فخري كريم) الذي التحق بالجريدة قبل فترة قصيرة.

زاره في تلك الظروف، صحفي شيوعي (عدنان البراك) الذي كانت تربطه بالصحف التقدمية والديمقراطية؛ صوت الاحرار، الثبات، الحضارة، ومجلة ١٤ تموز، علاقات واسعة، وطلب منه ان يكون اكثر حذرا في الكتابة عن المسألة الكردية خصوصا بعد ان لوّح عبد الكريم قاسم لمعارضيه بقانون المطبوعات الرجعي المفعول واتخاذه اجراءات ضد جريدة (الرأي العام) لصاحبها الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، والحكم على رئيس تحرير جريدة (صوت الاحرار) لصاحبها لطفي بكر صدقي، واعتقال المدير المسؤول لجريدة (اتحاد العمال) لسان الاتحاد العام لنقابات العمال.

في نفس الوقت، كان الحزب الشيوعي العراقي قد رفع شعار "تضامن - كفاح - تضامن" محذرا قيادة تموز -" من مغبة اتباع سياسة اللين مع اعداء الثورة واضطهاد العناصر الوطنية خصوصا بعد اصدار القانون رقم ٨٠ للاستثمار الوطني للنفط وتهديد الغرب بضرب المصالح الاقتصادية عن طريق ارباك عمليات التنمية. ان الهوية الوطنية لثورة تموز ما تزال امانة في عنق كل وطني لأنها ثورة وطنية معادية للاستعمار. الا ان طبيعة الحكم بدأت تتخذ طابع الفردية وحكم الفرد المطلق. ان غياب الديمقراطية في اعقاب ثورة وطنية ديمقراطية ما تزال تقطع اشواطا في مسيرة التغيير الثوري لبنية المجتمع من اجل بناء علاقات اجتماعية جديدة. ان غياب الديمقراطية هذا عامل مساعد على التآمر على الثورة والعكس هو الصحيح."

* * *

١٧ حزيران ١٩٦٢

درجة الحرارة لا تطاق حتى في المساء. استلقى على فراشه وراح يطيل النظر الى الفوانيس المعلقة في السماء الصافية لعلها تتجاوب معه وتبثه الاشواق متوسلة اليه ان

يخلد الى النوم بعد يوم عمل طويل. ما اجمل تلك الفوانيس وهي تومض في سواد ليل داكن العتمة، فتلقي بضوئها الخافت على محيا (سعاد) وهي تغط في نوم عميق، وتنّور وجه (رافد) وهو يبتسم بحلمه ابتسامة الطفولة البريئة، لعله يحلم بيوم افضل وبلعبة جديدة. اطال النظر الى (رافد) وراح يتساءل مع نفسه: هل يحلم الصغار كما يحلم الكبار؟

صمم على كبح جماح الارق اللعين والساعة تطوي عقارب الثانية بعد منتصف الليل. رن هاجس في صندوق رأسه رنة الناقوس في باحة دير مهجور، فانتفض مذعورا باتجاه تكية السطح، ونادى بصوت عال بعد ان لمح شبحا يقف على بوابة الحديقة الواسعة:

- من هناك؟

جاءه صوت يرتجف:

- انا علي عزاوي استاذ.

- خير يا علي، هل حصل مكروه للمكائن؟

- كلا استاذ.

- ومن معك يا علي؟

- رزاق وشمسي الطباع.

تعثرت خطاه وهو يسابق درجات السلالم للظفر بباب الحديقة وخلفه تتعثر خطوات الوالدة والزوج وكأنهما تسيران في منامهما دون وعي، وقبل ان يتجه الى باب الحديقة، سمع اسم (سامي). تصلبت ساقاه، فلم يعد يقوى على المشي. صرخ:

- هل مات؟

اجاب علي بسرعة:

- لا استاذ، اعتقلوه!

- من اعتقله؟

- رجال الأمن.

- متى؟

- قبل لحظات، تحروا الجريدة، بعد ان جلبوه من البيت، ثم اعتقلوه.

ارتدى ملابسه بسرعة وركب السيارة مع العمال باتجاه الجريدة.

كانت (البلاد) قد انتقلت من مكانها القديم في محلة جديد حسن باشا، الى شارع السعدون في ساحة عقبة بن نافع، مقابل السفارة الامريكية، وبجوار عمارة مبدر جاسم العملاقة. والمبنى لا يبعد عن عرصات الهندية في الكرادة - خارج - الا بضعة شوارع، حيث يسكن مع الوالدة والشقيقة (ايزيس). اما سامي، فكان هو الآخر قريب السكن في الكرادة ايضا.

وجد العمال خارج مبنى الجريدة بانتظاره. في الساحة الصغيرة امام الباب الرئيسي، شاهد صفيحة القمامة وقد تناثرت منها الاوساخ وعلب الاحبار واوراق الجريدة المطبوعة، وقد ظن ان كلاب وقطط المحلة قد عبثت بالمحتويات كعادتها، الا انه ما ان وصل الباب، حتى بادره الطباع الثاني (حسن) قائلا:

- استاذ.. شاهدتهم يجلبون براميل القمامة من خلف مبنى الجريدة..

قاطعه (علي عزاوي) وراح يقص عليه تفاصيل ما حدث دون ان ينسى دحرجة كلمة "اوباش" بين ترانيم حديثه. قال:

.. قرعوا الباب الرئيسي للمطبعة. اربعة مراتب يقودهم معاون اسمه (حاتم). توزعوا على غرف التحرير والمطبعة، وفجأة صرخ احدهم: سيدي وجدناها. انشغلوا بتفتيش "اللفافة" السوداء، واخرجوا منها بلطة كبيرة وسكاكين منقوشاً عليها حمامات بيضاء وكيساً يحتوي على مادة صفراء. ثم صرخ المعاون: الله اكبر، اسلحة وزرنيخ؟ اكيد مؤامرة. سألوا عن رئيس التحرير، غابوا ثم عادوا بعد نصف ساعة ومعهم اخوك سامي. اخذوا يصورون المبنى وصوره معنا، ثم اقتادوه في سيارة بيضاء تقف على بعد امتار من الجريدة، واختفوا.

انكب على الارض والتقط عينة من التراب الاصفر ثم طلب من احد العمال عود كبريت واشعل جزءا منه، فتكورت الحبات بسرعة تماما كما يتكور الطابوق في محارقه. ضحك علي وقال:

- يا للسخرية.. بس اغبياء بحق. هذه مهزلة.

اختنقت العبارات في فم مدير التحرير وهو يطلب من العمال ايقاف العمل في طبع الجريدة. ان القرارالذي اتخذه خطير في مثل تلك الظروف، لكنه صمم على تحدي السلطة ورجال الأمن ومديرهم العام (عبد المجيد جليل).

جلس في غرفته بالجريدة يتطلع عبر النافذة الى الفضاء والسماء تحيك خيوط الفجر الرمادية، وراح يرسم مع تبدل الوانها صورة اولئك الذين حبكوا خيوط قميصهم المهلهل، فزاده انبلاج الصبح الدافىء عنادا واصرارا على التحدي.

مع ساعات الصباح الاولى، شعر بقوة المغامرة وهو يرد عبر الاسلاك الهاتفية على القراء الذين افتقدوا جريدتهم ويطمنهم بأن الجريد بخير. سأله الرئيس (سعيد الدوري) السكرتير الصحفي لعبد الكريم قاسم عن سبب تأخر صدور (البلاد)، رد عليه بنبرة عتاب:

- ان حماة الأمن في البلاد قد اكتشفوا مؤامرة " بلادنا"!

استغرب السكرتير الصحفي لزعيم البلاد من حديثه ومن الحدث. لربما لم يكن على علم بتفاصيله وهو كغيره آخر من يعلم.. طلب منه المزيد من التفاصيل. احاله الى حماة الأمن مؤكدا على موقفه بضرورة اطلاق سراح رئيس التحرير فورا والا فإنه سيضطر الى كتابة بيانٍ شديد اللهجة وينشره في عدد الغد. قال الدوري:

- بكل تأكيد الزعيم لا يعرف بالموضوع!

سكت السكرتير الصحفي عندما لم يسمع مزيدا من صاحب الشأن. ثم اردف:

- ارجوك لا تقدم على اي عمل قبل ان اتصل بك.

طالت مدة الانتظار ثلاثة ايام، عصفت بما تبقى من أمل اطلاق سراح أخيه سامي. كانت جرائد (الشرق) و (العهد الجديد) و(الفجر الجديد) قد نشرت مانشيت وعناوين بارزة قالت فيها بأن قوى الأمن تمكنت من كبس دار البلاد والعثور على اسلحة ومتفجرات. كما تحدث تلك الصحف، والتحقت بها جريدة (بغداد) لصاحبها (محمد العاني)، تحدث اصحاب جريدة (البلاد) بنشر مقال يهاجمون فيه الملا مصطفى البارازاني و"عصابات التمرد" في الشمال! وعندما لم يرضخ اصحاب الجريدة للتهديد والابتزاز، اطلقوا سراح (سامي)، واطلق هو بدوره سراح الجريدة، وصدرت ثانية تعتذر للقراء عن هذا الخطأ "الفني"!

تعقدت الأمور اكثر نتيجة تخبط نظام الحكم في محاولة يائسة لمعالجة تدهور العلاقات بين قاسم والقوى الديمقراطية. وبدأت القوى المعارضة تضغط باتجاه مد جسور التعاون من جديد مع قاسم، ثم انطلاق الدعوة العلنية بحق العراق في استعادة

القضاء العراقي السليب (الكويت)، وما سببته تلك الدعوة من تنشيط التآمر والتعاون بين قوى الرجعية في دول الخليج للتخلص من خطر ثورة تموز وبالتنسيق مع دوائر واشنطن. لقد بدأت بوادر المؤامرة الرجعية تلوح في سيماء الوضع السياسي الداخلي، وبدأت عناصر الردة بالتحرك العلني لتقريب نهاية الحكم وفق تكتيك مبرمج، واستغلال بشع للاقتتال الجاري في ربوع كردستان.

كما حاولت القوى الرجعية المحلية عزل كل القوى والعناصر الوطنية الشريفة عن قائد الثورة، ليتسنى لها بعد هذا، توجيه ضربة مباغتة له وقلب نظام الحكم واعادة العراق الى حظيرة الاستعمار. لعبت مديرية الأمن العامة ومديرية الاستخبارات العسكرية بقيادة العقيد (محسن الرفيعي) دورا بارزا في تلك اللعبة والتآمر من خلال التستر على نشاطات العناصر المشبوهة بكل فصائلها، وملاحقة العناصر الوطنية المخلصة سواء في الجيش او في قطاعات الشعب المتنوعة، وزجها في السجون والمعتقلات. كما نجحت الاستخبارات العسكرية في ابعاد الضباط الوطنيين الى وحدات غير فاعلة خارج بغداد، وملء الشواغر بعناصر متآمرة لتكون قريبة من الاوضاع.

استدعت مديرية الأمن العامة (سامي) مرة ثانية بحجة استفسار.. فطالت غيبته هذه المرة اكثر من اسبوعين، احيل بعدها الى المجلس العرفي العسكري الاول، والحكم عليه بالسجن ١٨ شهرا بتهمة "ايواء مجرم". عاد كمال من الهند ليستلم رئاسة تحرير الجريدة من جديد.

اما هو، فقد كان يحز في نفسه ان يرى سامي وراء القضبان في سجن الرمادي. انها عقدة الذنب التي بدأ يشعر بها قبل وبعد كل زيارة للسجن. ترى ما هو ذنب سامي في موضوع لا ناقة له به ولا جمل. فسامي يسأله في كل لقاء:

- هل هناك أمل في اطلاق سراحي؟

- اعتقد.. فالجماعة يتوسطون.

تدمع عينا سامي ويبكي بحرقة وألم. وفي طريق عودته من الرمادي، يستعرض من جديد الشريط السينمائي لما حدث لأخيه، ويشعر باعتزاز لأن سامي تصرف بحكمة وشجاعة. لقد كانت التهمة الموجهة الى رئيس التحرير هي "ايواء مجرم" والمجرم

المزعوم هو (نصير النهر) المحرر الشاب في جريدة (البلاد). سأل المحامي (جميل دنو) في المحكمة التي استغرقت عشر دقائق:

- ما هي ادوات الجريمة؟
- انها في ملفات الأمن العامة.
- وما دخل (البلاد) بالملفات؟
- الا تفهم.. ايواء مجرم.

يصمت.. ان نصير النهر يجلس في تلك اللحظات في مكانه في الجريدة، يحرر ويكتب باسمه الصريح كل يوم. لكنهم يؤكدون ان نصيرا (مجرم).

٢٤ كانون الاول ١٩٦٢

ليلة عيد الميلاد..

اثمرت الوساطة في اطلاق سراح (سامي).

قال له العقيد (وصفي طاهر) المرافق الامين للزعيم عبد الكريم قاسم ان الزعيم يتحين فرصة مناسبة لاطلاق سراحه.

واكد له (رشيد مطلك) الصديق المقرب للزعيم والشخصية الوطنية المعروفة التي لعبت دور المندوب والرسول بين الحزب الشيوعي العراقي وقائد الثورة في التحضير والاعداد لها، بأن قاسم وعده باطلاق سراح أخيه قبل نهاية السنة.

صدق الاثنان.

كانت فرصة مناسبة.

وكانت السنة قد قاربت على نهايتها.

قضى سامي في سجن الرمادي ستة لشهر.

جاء سبب اطلاق السراح: الغاء ما تبقى من المحكومية لحسن السيرة والاخلاق!

تعانق الاخوة، واحتفلت (البلاد) بعودة احد فرسانها من سجن "الثورة"!

ارسل في طلبه في يوم اعتيادي من ايام الاسبوع، العم (فخري صفو النعيمي) والد الزوج الذي سبق له ان رفض الموافقة او يبارك الزواج، مؤكدا على اللقاء لأمر هام. ذهب اليه في ادارة معمل صناعات الحديد الواقع في منطقة تل محمد، حيث كان

مديرا له. وجد في غرفته العميد (محسن). طلب ابو سرمد ان يستمع باهتمام لما سيقوله رجل الاستخبارات دون اية مقاطعة. ان الرجل يقف على رأس دائرة خطيرة في "عرين الأسد" كما كان يحلو لصاحب جريدة (الثورة) يونس الطائي ان يكتب عن زعيمه بمناسبة او دونها. تحدث الرجل بصراحة وقال له بأن الشيوعيين يعدون العدة لقلب نظام الحكم، وان عبد الكريم قاسم سوف يوجه لهم ضربة قاضية، و...و... ولهذا السبب، اطلب من اصحاب جريدة البلاد ان ينتبهوا الى هذا الخطر. التفت رجل الاستخبارات الى فخري بعد ان احس بأنه يتحدث الى صحفي من محبي ومؤيدي تموز رغم ما يحدث من اخطاء او تقلبات في سياسة قيادة الثورة، وقال له:

- انا لولا ثقتي عالية به، لما حدثته بهذه الصراحة.

انكمش على نفسه وهو يتابع الحديث ولكنه استجمع قواه ورد على العميد:

- الا تعتقد بأنك تبالغ يا سيادة العميد. ان الشيوعيين لا يتآمرون على قاسم بل...

قاطعه بحدة، فلمس في نبرات صوته امرا خطيرا ينتظر الشعب وثورته، قال:

- ان الوضع الحالي اخطر بكثير مما تتصور.

خيم صمت مشوب بالتوتر، قطعه فخري المتخوف دوما من "المخاطر" حين قال بلهجة مرتجفة والدمع حبيس مقلتيه:

- انا خائف على مصير ابنتي وحفيدي رافد.

- ...

ترك المعمل مسرعا، وبدلا من ان يتجه الى الجريدة، عرج على دار (ابراهيم اليتيم) في عرصات الهندية. حدثه بقلق عن كل الذي سمعه قبل لحظات، وكان ابراهيم يبتسم وكأنه على دراية بالحديث. طمأنه بأن "الجماعة" يعرفون كل شيء ويرقبون الاحداث بيقظة وحذر. ثم قال:

- لنا خطة طوارىء والشعب رقيب على تحركات الاعداء.

طوى اسبوعين مضطربين وهو حائر بين ما سمعه من خطب للزعيم قاسم، وما يقرأه في الصحف، وما يشهده من تحركات مريبة بدأت تتخذ طابع العلنية اكثر من اي وقت مضى. لم يخف شكوكه وتخوفه، حين زاره في الجريدة الرفيق الصديق (عدنان البراك)

وهو يحذر من مؤامرة متوقعة، وقد بانت في الافق تباشيرها، وفي دهاليز القوى السوداء مخططها الاجرامي. قال للبراك:

- ان القانون رقم ٨٠ للاستثمار الوطني للنفط في خطر، وان قضاء الكويت (السليب) بدلا من استرجاعه بلواء من الجيش، بدأ يتآمر علينا...

* * *

٨ شباط ١٩٦٣

الساعة تشير الى التاسعة من صباح يوم الجمعة الحزين. ذهب الى مقر الجريدة لمراجعة وتصحيح مقاله الاسبوعي "حديث السبت" وبعنوان "رسالة عتاب الى الرئيس عبد الناصر". اخبره العامل (علي عزاوي)، بأن المقال لم ينضد بعد. لربما كان هذا التأخير من حسن حظه، كما تبين لاحقا. عاد الى دار الوالدة القريب من داره، لتناول قهوة الصباح المحببة اليه دائما.

في مدخل شارع عرصات الهندية الرئيسي من جانب منطقة المسبح، لمح سيارة "اوبل" صفراء تعترض السير في وضع يجلب الانتباه، وقد ترجل منها ثلاثة يعرفهم: منذر كبه، عادل سيد مهدي، ومنذر شماس، صديق الاقارب. اعتقد للوهلة الاولى ان السيارة عاطلة. اقترب منهم وعرض عليهم المساعدة. نهروه وشتموه وكانوا واثقين ان تلك الشتيمة هي ساعة الصفر عند افراد "الحرس القومي"، تماما كما كانت عملية اغتيال (جلال الاوقاتي) قائد القوة الجوية امام داره هي ساعة صفر الاجرام القادم بميعاد سر الليل، الذي حمل ساعات صفر لافراد مدنيين بلباس عسكري وضباط جيش من مختلف العناصر الحاقدة على مسيرة الثورة والقوى الديمقراطية واليسارية.

استغرقت عملية الذهاب الى الجريدة والعودة الى العرصات، ولحظات التقرب من سيارة "الاوبل" وتقديم المساعدة المقترحة، ثم التوجه الى دار الوالدة، ما يقرب العشرين دقيقة.. وقبل ان يترجل من سيارته، لمح سامي في وضع مرتبك وهو يشير بيده وبحركة غير متزنة، وينادي عليه بصوت ضائع:

- اسرع، انهم يذيعون البيان رقم واحد.

كان ما يزال بجانب السيارة، فعاجل سامي بالسؤال:

- من يذيع البيان؟

- لا اعرف..

هرع الى جهاز الراديو وكان ينشد "الله اكبر فوق كيد المعتدي" ذلك النشيد المحبب اليه عندما كان فدائيا في مصر ابان العدوان الثلاثي الغادر على مصر، وقد حفظه وانشده في مناسبات. لحظات، استمع الى فتاة لا علاقة لها بالعمل الاذاعي ولا صوت او صورة، تدعى (هناء العمري) زوج (علي صالح السعدي) امين سر حزب البعث العربي الاشتراكي آنذاك وهي تطنطن بالبلاغات الحماسية. التفت الى سامي وقال:

- لقد عملوها.. لنترك الدار حالا.

ثلاثة ايام طويلة مرت عليه وهو سجين دار (العمة) في شارع اصفر بالكرادة. الشارع الذي عرفه متمردا ومتظاهرا قبل سنوات يحتضنُهُ من جديد، لا متمردا او ثائرا، بل نزيل غرفة مظلمة في احد "مشتملاته"، يستمع الى بيانات وتعليمات متلاحقة صادرة من اذاعة الكويت بأسماء الشيوعيين والديمقراطيين والقاسميين وعناوينهم تدعو فيها افراد الحرس القومي الى اعتقالهم. لقد قتلوا الزعيم قاسم وهو في الزي العسكري الذي لم يتركه منذ اليوم الاول للثورة، وفي جيب سرواله مائة فلس. قتلوه نتيجة سياسته التي اوصلته الى هذا المصير، سياسة "عفا الله عما سلف" وبسبب طيبته وابتعاده عن اتخاذ الاجراءات الحازمة والرادعة ضد اعداء الثورة والشعب، فامطر الانقلابيون انفسُهم الذين عفا عنهم جسده للمرة الثانية بالرصاص.

عاش قاسم زاهدا بالحياة ومغرياتها، لم يفتن بمباهجها ومظاهرها او يستغل مركزه وموقعه القيادي في الدولة. كرّس جل حياته من اجل خدمة الشعب والوطن ومات بطلا وضحية لنزاهته واخلاصه، بحيث اعترف حتى اعداؤه في "رؤيتهم بعد العشرين" بذلك.

وقتل الانقلابيون اعداء ثورة ١٤ تموز القدامى والجدد، وصفي طاهر، المرافق الامين لقائد الثورة، وفاضل عباس المهداوي، رئيس محكمة الشعب، وماجد محمد امين، المدعي العام للمحكمة، وحسين خضر الدوري، عضو المحكمة، وعبد الكريم الجدة، آمر الانضباط العسكري، ومعه الملازم كنعان حداد، وطه الشيخ احمد، مدير الشرطة العام، وعشرات غيرهم من الضباط.

ومع اذاعة البيان رقم ١٣ سيء الصيت الدموي، اغتال وقتل الحرس القومي (اي أس أس) النازي الشهير، مئات الشباب المقاومين للانقلاب في الكاظمية وشارع الكفاح وحي الاكراد، وفي مناطق عديدة من العاصمة بغداد والمدن الاخرى كالناصرية والبصرة وكركوك والموصل.

زحف الانقلابيون بدبابات رفعوا عليها صور عبد الكريم قاسم صوب وزارة الدفاع، واحتلوا الساحات العامة بحجة حماية الجمهورية. كان الضباط الشيوعيون والقاسميون الوطنيون ينعمون باجازة يوم الجمعة بعد ان شغر الضباط الانقلابيون اماكنهم في الوحدات العسكرية. الاموال والمساعدات تنهال على الانقلابيين وغيرهم من الذين باعوا ذممهم وباتوا بلا كرامة وشرف وطني. لقد اغتالوا ثورة ١٤ تموز الوطنية نيابة عن الامبريالية ووفق مخطط امريكي حبكته وكالة المخابرات الامريكية كما اعترف بذلك لاحقا، امين عام حزب البعث الذي قام مع القوى الرجعية بالانقلاب الأسود.

اذاعوا اسماء التشكيلة الوزارية، فكانت تشكيلة عجيبة غريبة. البعثيون احتكروا رئاسة الوزارة (احمد حسن البكر) والداخلية (علي صالح السعدي)، الدفاع (صالح مهدي عماش)، الخارجية (طالب شبيب)، التخطيط (حازم جواد). القوميون المحافظون مثلهم (محمود شيت خطاب) للبلديات، (احمدعبد الستار الجواري) للتربية والتعليم، (عبد العزيز الوتاري) للنفط. القوميون الناصريون، مثلهم احد ضباط تموز ووزرائها (ناجي طالب)، (مهدي الدولعي) وزيرا للعدل، وصاله كبة. اما الاكراد، فمثلهم (بابا علي) للزراعة، واللواء (فؤاد عارف) وزيرا للدولة.

* * *

وقفت (العمة) المضطربة في باب الغرفة وهي تتوجس خيفة من ان تصارحه، بل عقدت الدهشة لسانها، حين اشارت بيدها المرتعشة الى باب المشتمل الخارجي. ادرك على الفور، ان دوره قد جاء، بعد ان ظلوا يبحثون عنه. خرج اليهم وكان قد اعد للموقف عدته، فشاهد احد الصبيان يشهر المسدس في وجهه ويأمره بركوب سيارة "شفروليت" بيضاء كانت تقف على بعد خطوات من الباب الرئيسي للمشتمل الصغير. لمح في داخل سيارة الاعتقال، أخاه (كمال) والى جانبه الفنان (عبد الواحد طه).

خنقت العبارات كمال وهو يؤكد له بأن الحرس القومي اجبره على كشف مخبئه. امسك بيد أخيه وهمس في اذنه: لا تنفعل يا عزيزي، اليوم افضل من أمس.

وبالفعل، كان اليوم افضل من صبيحة الانقلاب.

قال له احد البعثيين، بعد ان ضمهما سوية، موقف الأمن العام ببغداد، ان الاوامر آنذاك كانت قد صدرت بقتله فورا اينما وُجِدَ وفي اي وقت. فقد ذهب الى مقر جريدة (البلاد) كل من (جوزيف شاكر) و (مهدي شمس) الذي كان طباعا في الجريدة، وهما ضمن فرق القتل في حزب البعث، واعضاء نقابة عمال المطابع، لتنفيذ أمر القتل بحقه دون سؤال او جواب. ومن حسن الحظ، كما اعترف بذلك جوزيف شاكر، الذي عيّنه الانقلابيون مدير ناحية القوش في شمال العراق، وتم طرده بعد تهديده بالقتل من قبل اهالي المنطقة المعروفين بولائهم لثورة تموز والشيوعيين، ولم يمض على تسلمه الموقع سوى خمسة ايام، اعترف بأنه سعيد لعدم تواجده في المبنى آنذاك، بعد احتلاله من قبل الحرس القومي، حيث اخبرنا احد العمال في المطبعة، بأنك جئت مبكرا وتركت الجريدة قبل وصولنا بدقائق. اي في الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة.

كان هذا الحديث صريحا وصحيحا.

فسلم من رصاص عمال المطابع، ولكنه وقع اسيرا بيد الحرس القومي، وموقوفا في سجن العساكر.

في نادي (النهضة) الرياضي في منطقة الزوية بكرادة - داخل، تشابكت ايادي الاخوة الثلاثة، ولو كان رابعهم (بديع) في بغداد، لاصبح "الفرسان الاربعة" رهائن بيد انقلاب شباط الأسود. فبديع لم يشمله الاعتقال، بل لحقه الطرد من السفارة العراقية في واشنطن التي كان يشغل منصب السكرتير الاول فيها. اوقف مسؤولو النادي الثلاثة امام جدار عال، يقابل كل واحد منهم، حارس قومي يمسك بغدارة "بور سعيد" لحراستهم او لتنفيذ حكم الاعدام بهم، كما تخيّل من منظرهم ومن الموقف الملتهب آنذاك، الذي عبرت عنه "هيستريا" الانقلابيين وهم لا يصدقون بأنهم اطاحوا بالثورة، وسيطروا على البلاد، وقاموا بتصفية واعتقال الشيوعيين الذين كانوا من القوة بحيث يهابهم الانقلابيون انفسهم. لمح زميله السابق في كلية بغداد (منذر زارة) وطلب محادثته، الا ان منذر تنصل حتى من معرفتِهِ وهو صديق عزيز، لم يعرفه بعثيا، بل جارا في شارع أصفر بالكرادة.

جاءه بعد لحظات، مسؤول الحرس القومي في النادي، صلاح عمر العلي، وقال له:

واخيرا ظفرنا بك. هل تذكرني. انا كنت معك في الثانوية الشرقية. لقد كنت انت شيوعيا وكنت اتحين الفرصة للظفر بك. انا فرح، وسوف "نتونس بك اليوم"!

لم يتحقق أمل صلاح عمر العلي، فقد سبقه ضابط شاب برتبة ملازم، يطالب بسب أصحاب جريدة (البلاد) بناء على اوامر من وزارة الدفاع. ان العقيد خليل ابراهيم، المعروف بخليل رويتر، وكان نائبا لمدير الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع، ومن محبي جريدة البلاد قبل واثناء الثورة، ارسل هذا الضابط الشهم بسرعة، وهو من القوميين القريبين من العقيد، لانقاذهم من الموقف، وتسليمهم الى السجن رقم(١) في معسكر الرشيد.

امام بوابة السجن الكبير، ترجل من سيارة قيادة عسكرية ضابط برتبة رائد اسمه (حازم الصباغ) المعروف بحازم الأحمر، نسبة للون شعره "الطماطي"، وكان بنفس الوقت، قاطع تذاكر في باب ملهى خاله في شارع ابو نؤاس اثناء العطل الرسمية، ترجل ليلقي نظرة على حمولة السيارة. استفسر عن هوية الركاب الموقوفين، وعندما سمع باسم (سامي)، انبسطت اساريره، وتحسس مسدسه، الامريكي الصنع، وقال:

- اذن انت ابو اللاسلكي في سجن الرمادي.

راح يعربد وسيجارة "كرافن أي" تحاول ان تهرب او تسقط من بين براطيمه، صرخ كثور مطعون، وبدنه يتمايل من شدة الافراط بالخمرة:

- كيف كنت ترسل الشفرات من السجن الى المجرم ملا مصطفى البارازاني.

همس مساعده الملازم اول (عادل الخشاب) في اذن سيده: الاكراد حلفاء الانقلاب. الم يقل وزيرهم في بيان التأييد للانقلاب: " لقد تلاحمت الثورتان الكردية والعربية صبيحة الثامن من شباط"...

عاد الى الصراخ من جديد، وقد بدا الارتباك على وجهه المصطبغ بلون الخمرة:

- اعني في السابق..

نظر الاخوة الثلاثة الى بعضهم ولسان حالهم يقول: مصائب قوم عند قوم مهازل.

صعق سامي، وتململ كمال في مقعده، بينما راح هو يسترجع في ذاكرته قصة اللاسلكي:

كان سامي قد تلقى قرار الحكم عليه بالسجن سنة ونصف برباطة جأش، في نفس الوقت، كان المجلس العرفي الثاني يصدر احكاما مماثلة على سبعة متهمين من اعضاء اللجنة التحضيرية العراقية لمهرجان الشبيبة العالمي المزمع عقده في العاصمة الفنلندية، هلسنكي، من بينهم الفنان (احمد الخليل)، المحامي (طلال عمر موفق)، والناشط الكردي (خسرو توفيق). في الطريق ما بين مديرية الأمن العامة في بغداد وسجن الرمادي، كان الباص الذي ينقل المحكومين، يتوقف في بعض النقاط للاستراحة. في مدينة الفلوجة، تجمهر حولهم الناس يستفسرون عن هوية الركاب الجدد. لم تكن القضية معقدة.. فالشرطي المرافق البسيط كان يجهل الهويات، ولكنه اراد ان يظهر ذكاءه للناس، وانه عليم فهيم بأمور السياسة، قال بزهو: والله يا جماعة، الصدق الصدق، هؤلاء الركاب هذه المرة من جماعة سكي.. هسكي.. لسكي..لاسلك..

فتحولت (هلسنكي) بقدرة قادر من فم ذلك الشرطي البسيط الى (لاسلكي) في تقارير البعثيين في القدور السرية.. والا كيف فات الامر على ضابط عضو في مكتب عسكري لحزب سياسي، نسي او تناسى حقيقة ان (البارت) حليف البعث في تلك الحركة التي اطاحت بثورة تموز؟

بعد مراسيم الاستقبال في ادارة السجن الرهيب، والمعروفة بمراسيم الضرب والسباب قبل تسجيل الأسماء، اقتادوهم الى غرف القاطع الاول، كلاً على انفراد. قاده نائب الضابط الحربي (محمد فرج) الى الغرفة رقم (٣). غرفة صغيرة مظلمة لا تزيد مساحتها على اربعة امتار مربعة امتزج ضؤها الرمادي باللون الخاكي لأربعين نزيلاً من العساكر. لم يستطع ان يميز بين الوجوه السمر المحروقة بشمس تموز والعيون الغائرة في محادقها من شدة التعب والسهد، اي انسان يعرفه. الكل صامت والساعة كانت قد قاربت التاسعة مساء. انهارت قواه، لعدم تذوقه طعم الاكل والشرب من التاسعة صباحا.

تقدم اليه بحذر مشوب بالقلق، فالنزلاء يجهلون هوية زائر الليل بلباس مدني. تقدم النقيب الحلاوي المعروف بشجاعته (احمد خلف)، وبصوت يكاد ان يسمع، قال:

- هل الأخ عسكري؟

- . . .

- ضابط ام طيار؟

- . . أنا فلان.

دبّت الحركة في الغرفة الرطبة والمظلمة عندما تردد اسم الموقوف الجديد. حطّ الرجال بثقلهم على اكتاف احمد. الكل يتسابق لسماع اخبار المقاومة خارج الاسوار العالية. تشبثوا بالأمل بعد ان فقدوا الثقة بالقيادة العسكرية في وزارة الدفاع. كانوا يتساءلون عن المقاومة والابطال الصامدين في الكاظمية وحي الاكراد والفضل وباب الشيخ، وهل سيحققون الانتصار على القلة من المتآمرين؟

استكمل الطغاة شد الطوق حول عنق الشعب. . او هكذا خيل لهم. لقد قتلوا (جلال الاوقاتي) وعددا من الضباط الشرفاء ومن مختلف مراتب الجيش. وقتلوا وفتكوا خلال الايام الاولى من الانقلاب بما ينوف على خمسة الاف مواطن، وزجوا بالسجون والمعتقلات اكثر من ١٢٠ الف وطني من الشيوعيين والديمقراطيين والقوميين والقاسميين من الضباط الاحرار، وحوّلوا الساحات والملاعب الرياضية ودور السينما والعديد من الدور ومراكز الشرطة الى معتقلات ومراكز تحقيق ومسالخ بشرية. كانت تجربة انقلاب شباط في الحقيقة، تمرينا قامت به المخابرات الامريكية، لتطبيقه بعد ١٠ سنوات في تشيلي ضد حكومة الائتلاف الوطني (الليندي) من حيث المخطط والتنفيذ وسير الاحداث.

* * *

مرّ عليه الاسبوع الاول، والزنزانة التي احتضنته، تسجل احلى الذكريات واسوأها. عرف آنذاك معنى الصمود واليأس عبر الامتحان العسير الذي يؤديه الشعب العراقي. انقسم نزلاء الزنزانة الى فريقين: جسّد الاول معنى الصمود في اروع صوره، والابطال يرفضون كل البدائل التي يراد من ورائها تزييف حقيقة ما جرى لثورة تموز على يد الذين فجروها وقادوها، او الذين استثمروها ووأدوها. واظهر الفريق الثاني، اليأس في ابشع معانيه، والضعفاء يستسلمون لقتلة الثورة الذين اغتالوها قبل ان تصبح ثورة الشعب بأسره.

كان الصمود من نصيب ابطال اعطوا للاجيال اللاحقة اروع الامثلة في الدفاع عن الوجود، والتمسك بالقيم والمبادىء الخيرة، وكان اليأس من نصيب الضعفاء الذين يشبهون القناني الفارغة، ان وضعتها في الهواء، سقطت وتهشمت.

ان ما جرى داخل السجن رقم (١) صورة مصغرة لما جرى داخل اسوار المعتقلات الرهيبة التي زرعها الانقلابيون في كل ارجاء البلاد. تساقط مئات الشهداء في اقبية التعذيب وسراديب (قصر النهاية) سيء الصيت والنادي الاولمبي وخلف السدة ومقرات الحرس القومي، حتى مقر جريدة (البلاد) تحوّل الى سجن رهيب. اصابوا المئات بعاهات مستديمة، فاجهزوا عليهم ودفنوهم في مقابر جماعية في ابي غريب. تفننوا بالتعذيب الجسدي والنفسي وفق اساليب مستوردة من ملفات الجستابو. هتكوا اعراض المعتقلات في اكثر من مدينة في الجنوب. هددوا النساء والشيوخ من اهالي السياسيين بالقتل او الاغتصاب امام الموقوفين الذين يخضعون للتعذيب إنْ اصروا على عدم الاعتراف.

كان يتشبث صباح كل يوم جديد بشباك زنزانته المطل على حديقة السجن الكبير، ينظر عبر الاسلاك الشائكة حيث الشارع الطويل يمتد ويمتد، وهو يشكو الوحدة، لعله يلمح (سعاد) او لعلها تلمحه، فتعرف انه ما يزال على قيد الحياة خلف الاسوار العالية. كانت زقزقة العصافير تبعث في نفسه الشجون والذكريات، وهديل الحمام يحفر في قلبه الكبير حب الوطن وعشق الحرية، بينما كانت قرقعة السلاح الاسود تثير في نفسه مشاعر الحقد على كل من شارك في صنع هذا الفصل الاسود من تاريخ النكسة.. نكسة كل العراقيين والعرب جميعا. اجل، نكسة ١٩٦٣ في العراق كانت الفصل الاول من النكسة العربية العامة عام ١٩٦٧. وأنّى للعرب ان يحاربوا او ينتصروا اذا كان نصفهم يعادي نصفهم الآخر؟

تطلب منه الموقف داخل الزنزانة ان يظهر الشجاعة والصمود مقرونين بالتحدي لجبروت السجان.. لكن الدموع كانت تتساقط رغم ارادته، فيدعها تنساب كأن الزمن ينساب يعد اليوم تلو الآخر، في ظرف كان للوقت اهميته.

في الفجر وفي الظهيرة، بل وبعد منتصف الليل، تقرقع ابواب الزنزانات ليخرج منها بطل لا يعود، او ليعود بطل يئن من عذابات جراحه لتتلقفه ايادي الرفاق، ويعيدون ما بدأوا قبل لحظات مع معذب آخر ان لم تعفه الشهادة.

كم كان صوت السجان كريها ممجوجا وهو يزعق:

- ... انهض يا شيوعي. تحقيق.

نظر (حميد) الى النقيب (احمد) وقال له:

- الا يتعب هؤلاء المحققون؟

ابتسم احمد وهو يرتل بصوت الرجولة والثقة:

- انهم لا يتعبون طالما نحن لا نتعب او نمل يا رفيق.

يترامى من بعيد هدير مكتوم، ويردد نزلاء الزنزانات من جديد ترانيم التحدي والصمود.

وقبل ان ينتهي المنشدون، يفتح باب الزنزانة، ويدحرجون احدهم مضرجا بدمائه وينادون على النقيب احمد.

صرخ المحققون في وجه احمد:

- لماذا تكذب علينا؟

اجاب بهدوء:

- نسيت الاسم.

- هل هو في تنظيمك؟

- نعم.

عند عودته ثانية الى الزنزانة، سأله بعد ان كان يقص عليه ما حدث باستغراب:

- لكن (محمد) مستقل؟

- انا اعرف ذلك.

- لماذا اذن ادخلت اسمه في تنظيمك؟

- تكتيك.. تكتيك.

تدخل الملازم (اديب جورج) ليضيف:

- ان تجربة احمد مع الجلاوزة اكثر من تجربتي، وانا اتكتك حول تنظيم (المسيب).

رد عليه بقسوة:

- ولكن هذا غير صحيح.

اجاب اديب وهو يلقي ببصره خارج الزنزانة ليتأكد من عدم وجود احد من الجلاوزة:

- لقد جعلناهم يعيدون رسم شجرة الاعترافات عشرات المرات.

- والاعترافات، ما مصيرها؟

- اختلط الحابل بالنابل، وتاهوا..

عندها، تدخل المقدم (خليل) وقال بنبرة ملؤها ثقة وايمان:

- ابتدعوا فكرة الشجرة، فرسمت منذ الخط الاول مشوهة. ان سلام عادل ورفاقه؛ محمد حسين ابو العيس، صالح العبلي، جورج تلو، حسن عوينة، عبد الرحيم شريف، متي الشيخ، جمال الحيدري ، وعشرات غيرهم، جعلوا المحققين يرسمون اغصان الشجرة بلا اقلام، والاوراق تتطاير في الهواء.. وكما تتساقط اوراق الشجر في فصل الخريف، تساقطت هذا العام في شهر شباط.

ستنبت شجرتنا من جديد خضراء.

تربة العراق وفية معطاء.

* * *

لم يشعر بالغربة بعد مضي اربعة اسابيع على اختطافه وابعاده عن الزوج والطفل (رافد) وعن الوالدة المسكينة التي تشعر بالوحدة القاتلة لافتقادها الاولاد الثلاثة وراء القضبان، وبعد (بديع) عنها في واشنطن. ان احفادها؛ رافد وباهر وجهاد وهالة وهناء يضغطون عليها ويطالبون بعودة آبائهم او الذهاب اليهم في سجونهم. لقد اعتادت الأم على مثل هذه المواقف، اما هم، الاطفال، فأبرياءُ لا يعون ماذا حلّ بالبلد من مصيبة وما هو مصيرالآباء الذين يفتقدونهم مع عشرات الالوف من الناس الطيبين. كانت الوالدة تفكر بمصير اولادها ان مزقتهم حاصودة شباط، بل بمصير احفادها ان فقدوا الابوة مرة واحدة. كل الذي استطاعت ان تفعله، هو جلب الزوجات والاحفاد الى دارها الواسعة في عرصات الهندية، واقتسام لقمة العيش المتأتية بصعوبة من تقاعد زوجها الوزير السابق، وهو راتب ضئيل، ولكنه يساعد في تمشية الامور ب"الصلوات" وببضعة دنانير من راتب (اديبة) زوجة سامي.

لم يشعر بالغربة رغم الظروف القاسية التي تمر بها العائلة الكبيرة، ولم يحاول ان يفكر بمصيره ومصير تلك العائلة ان طالت آلة شباط رقاب الاخوة الثلاثة، بل كان ينظر الى وجوه مئات الضباط والشباب الذين تحتضنهم غرف السجن رقم (١)، فيجد الأمل

والتفاؤل يطغيان على القلق والتعذيب والمصير المجهول لكل هؤلاء، ويزداد اصرارا على التحدي والصمود. كانت احاديثهم وبطولاتهم كافية لملء الفراغ في وحشته واشغال كل تفكيره حتى لا تفوته اية اشارة يسجل فيها تاريخ المستقبل.

كان ينهض مبكرا كعادته، فيجد الكل نياماً الا (مكرم الطالباني) مستلقيا على ظهره وانامله تداعب عجينة الخبز الاسود (صمون الجيش المعروف) ليصنع منها ما تبقى من حجر الشطرنج. انه لا يكف عن نحت تلك الاحجار الجديدة بعد ان تكون سابقاتها قد سحقتها جزمة آمر السجن، لتكون البديل جاهزة في يوم جديد. لقد منع السجانون لعبة "المحيبس"، لكنهم عجزوا عن منع لعبة الشطرنج، طالما (مكرم) يتحداهم ويقضي الساعات الاولى من فجر كل يوم في صنع المزيد من ادوات اللعبة. فاذا ما حطّم السجانون وجبة منها، يكون البديل جاهزا عند الطلب. لقد ساهم (مكرم) في طرد الضجر واليأس اشهرا، كما ساهم في زرع الصمود في قلوب العشرات من الضباط، وهو يغرس الثقة في نفوسهم ويسلحهم بالايمان والشجاعة لتحدي الطغاة في غرف المسالخ ان نالتهم السياط وادوات التعذيب، فينقذون انفسهم وتنظيماتهم.

يقف مع (عبد الامير الرواف) الموظف في شركة الخطوط الجوية العراقية، منتصبا امام شباك الغرفة، وهوالذي لا يكف عن الكلام طالما تبقى اسئلته بلا جواب مقنع. انه لا يخفي عدم القناعة بما يسمع بل يخرج الاجوبة مغلفة بوقائع ولسان حال يقول: من فمك ادينك يا ...

يسأل الرواف مكرم الطالباني:

- ولكن، لماذا لم تكن لدينا خطة مضادة؟

- كانت هناك خطة طوارىء.

- هذا غير صحيح.

- وما هو الصحيح؟

- لا اعرف.. ولكن بالتأكيد لم تكن لدينا خطة طوارىء.

- اعتقد ان القائمين على الخطة لم ينفذوا واجباتهم.

يستدرك عبد الامير:

- هذا ما اقصده. فلو كانت هناك بالفعل خطة طوارىء، لما اعتقلوا المسؤولين

عنها اولا، بل لأخذت طريقها الى التطبيق، وكنا سننجح في ضرب المؤامرة لأننا كنا نمتلك كل القوة..

قاطعه مكرم:

- ربما نمتلك القوة البشرية، ولكننا لم نمتلك السلاح.

تدخل في الحديث، وقاطعهما، وهو يشير الى المكان الواسع في السجن: القاطع الاول وقاطع الوزراء والمدراء العامين ومن ثم القواطع العديدة التي اطلق عليها قواطع "العمية" نظرا الى كثرة عدد الغرف الصغيرة والمظلمة ليل نهار، وبجموعها، كانت تضم اكثر من الف ضابط وطني، معروفين بنزاهتهم وكفاءاتهم العسكرية، ثم قال لهما:

- اين كان هؤلاء العساكر؟

سكتوا، عندما نادى احد الحراس: الارزاق يا جماعة.

نهض الموقوفون على صوت السجان وتراكضوا الى الشباك لاستلام المقرر كل يوم: صمونة سوداء واحدة ورأس بصل اخضر، او صحن عدس اسود مملوء بالحجر الصغير بسبب عدم تنظيفه جيدا. في المساء، يأكلون من "القصعة" الجاهزة، رز متيبس، و"مرق" عبارة عن ماء بصل وردي اللون، تسبح فيه قشور البصل مع عظام متناثرة لا اثر للحم فيها.

بعد الفطور "الدسم"، يسير الطابور رقم (١) الى المغاسل لقضاء حاجتهم. الطابور يتكون من نزلاء غرفة رقم (٠٠٠)، وعددهم الاعتيادي أربعون. الوقت المسموح لغرف الحمام خمس دقائق فقط. يعود القسم الاكبر من الموقوفين دون قضاء الحاجة لضيق الوقت والازدحام، ونتيجة الضرب والشتائم. اضافة الى نوعية ما يتناولونه من الرز اليابس والبصل الممزوج بالاوساخ والاحجار.

تقفل الابواب من جديد لجميع غرف القاطع الاول بعد انتهاء الوقت. ينظر الموقوفون الى القاطع الثاني ليشاهدوا النزلاء من الوزراء والمدراء العامين والمسؤولين الكبار ينعمون بالشمس وبقضاء حاجاتهم لوقت طويل، كما يتسنى لهم المشي في حديقة القاطع. يحقد الضباط اكثر على اولئك الذين تسببوا في الكارثة. انهم المسؤولون عن ردة شباط الذين سلموا الثورة على طبق من ذهب الى الانقلابيين، فاستحقوا العناية والرعاية.

* * *

الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

نادى عليه عريف الحفر بأسم مقرون بلغة الانقلابيين المنبوذة. اقتاده الى غرفة التحقيق. كان هناك (سامي) و (لطفي بكر صدقي) صاحب جريدة (صوت الاحرار)، يحيط بهما آمر السجن (حازم) الاحمر واثنان من شلة التعذيب. ايقن حال دخوله الغرفة، ان اصحاب العاهات اختاروه هذه الليلة مع سامي ولطفي لممارسة هوايتهم المفضلة في تعذيب الموقوفين وفي مثل تلك الساعة من كل ليلة، للتمتع بنشوة السكر وبمنظرالدماء النازفة من الجروح وبؤر الاحاسيس في جسم الانسان.

تدلت سيجارة "كرافن أي" من فم حازم المشوه، وتشابكت اصابع يديه كقشة فوق رأسه المكور، وهو يحاول ان يهتز على كرسيه دون فائدة، بينما وقف (عادل الخشاب) و(محمد فرج) رهن اشارته. حملق آمر السجن في وجوه الثلاثة المغلوبين على أمرهم، وهو يبتسم ابتسامته الصفراء، ويترنح، فسقطت السيجارة من فمه الكريه، ونهض فاقداً اتزانه بسبب افراطه بشرب الخمرة، ولكنه سقط على كرسيه، فزعق بلحن مبتذل:

- لقد حققنا الثورة البعثية أمس في سوريا يا اولاد الفعلة. سنطحنكم ونرمي عظامكم للكلاب يا ...

لم تمض لحظات، حتى وجد نفسه طريح الارض والدماء تنزف من رأسه ومن اسنانه، وجبينه. حاول ان يتفادى الضربات الموجعة على الرأس، الا ان ادوات التعذيب كانت اسرع واقوى. شعر بالقوة وهو يتلقى الضربات على رأسه. ما اصلب هذه الرأس عندما تحدى "دونكي" شرطي نوري السعيد وعصي الصبيان في القاهرة، وها هو اليوم يتحدى ادوات الفن البعثي في التعذيب الجسدي.

بعد انتهاء مشهد التعذيب، سحله (محمد) ورماه في الغرفة رقم (١٠) في نفس القاطع الاول. أحس بالدفء حين امتدت اليه يد الرفاق لتتحسس مواضع الآلام التي طالتها عصا وسياط الجلادين. خففت عبارات رقيقة اوجاعه، فلم تنل تلك الادوات من صموده وتحديه.

في اليوم التالي، التقى به اثناء استراحة مراسيم الصباح، ضابط بعثي، لكنه مسالم لا علاقة له بفرق التعذيب. ابلغه هذا الضابط (الشريف) بأنه يحمل رسالة من

(احمد صالح العبدي) الحاكم العسكري العام الذي شاهده في القاطع الأول، ويريد ان يبرىء ذمته من "الجريمة" التي ارتكبها ضد اصحاب جريدة (البلاد) ما دام الأمر قد وصل الى ان يضم السجن كل ضحايا حكم البعث.

قالت رسالة العبدي الذي ينقلها الضابط البعثي الشريف:

عندما لم يستجب اصحاب الجريدة الى طلب الزعيم قاسم على لسان صحفه الصفراء، بالتهجم على الملا مصطفي البارازاني، واستنكار "تمرده" في ايلول ١٩٦١، طلب مني قاسم، ان اتخذ الاجراءات بحق الجريدة. اتصلت بالسيد مدير الأمن العام، عبد المجيد جليل، وقلت له بالحرف الواحد: أدّب اصحاب البلاد. لم اكن اتوقع ان يكون التأديب بخلق مؤامرة مزعومة ضد النظام، من قبل اصحاب الجريدة وذلك بزرع سكاكين وقامات مرسوم عليها حمامات السلام وزرنيخ على صورة نشارة الطابوق. فكانت تلك المسرحية مهزلة بحق عندما صدر الحكم بسجن رئيس التحرير سنة ونصفاً. وتعرت سياستنا الاعتباطية، واظهرت ضعفنا وتخبطنا في أمور خرجت من ايدينا، وكانت من اسباب انهيار الثورة على يد عناصر عشعشت في جهاز الدولة، وحدث ما حدث.

شكر الضابط البعثي الشريف على نقل رسالة الحاكم العسكري العام الشفوية، وابلغه ان يشكر بدوره اللواء العبدي، فالحق كان واضحا بالنسبة للناس، ولكل من عرف بتلك القصة المأساوية لرئيس التحرير. رغم تلك المهزلة، واصل اصحاب (البلاد) اداء رسالتهم في الكلمة والوجدان.

في يوم جديد، تناسى ما حدث له بالأمس على يد زمر التعذيب. فالسجن واحد: في العهد الملكي، في عهد ثورة تموز، وفي حكم الانقلاب الاسود. انه السجن وان اختلفت هوية السجانين، والضحية واحدة، دعاة ومبشرو الحرية وحماة حقوق الانسان.

تناسى كل العذابات وهو يستمع الى روايات المناضلين الذين مزقت الاسلاك الشائكة اجسادهم وهي تسلخ جلودهم بعد ان تنال تلك السياط اكثر من موضع في الصدر او الظهر، او الذين تحطمت اذرعهم وضلوعهم وهم يتدلون من المراوح السقفية، بل اولئك الذين تمزقت احشاؤهم بفعل القنابي الفارغة.. كان يفكر وهو يستمع الى حكايات بطولية ستحكي بفخر للأجيال اللاحقة الدروس التي اعطتها "مسالخ"

العاصمة وحمامات الدم واقبية قصر النهاية (قصر الزهور في العهد الملكي)، على جبل اعطى الكثير، فكان مثالا للوفاء وفداء لشعب ابى الذل والخنوع وصمد بوجه الطغاة.. كل الطغاة. فأن مات البطل، اخذ مكانه بطل آخر. قالوا (لسلام عادل)، اعترف، فرمى في وجوههم شهادة المناضل.

لقد ظن الطغاة، ان دارهم مأمونة كدار سيدهم في ذاك الصوب، وان القصر الجديد سيكون دارا للسادة الجدد، فكان قصر نهاية لحكم اسود.

جاءوا به للتحقيق.. راديو بغداد ما يزال يزعق ويعربد.. الموت للشيوعيين.. اخرسي يا موسكو. انه واحد من عشرات الالاف الذين تعرضت اجسادهم للسلخ في مسالخ البعث "القومي".

قالوا له:

- ماذا تقصد بكتابك "الخيانة الكبرى"؟

- خيانة عبد الناصر لطموحات جماهيرنا العربية، بوقوفه ضد ثورة ١٤ تموز.

كان جوابهم: ان عليك ان تدفع ثمن "خيانة" ناصر، بالضرب والتعذيب.. في نفس الوقت الذي كان فيه، يتلقى الضربات، كان صالح مهدي عماش، يصرخ في قصيدته المعنونة "أبي رغال" ويتحول مذياع (السعدي) ضد عبد الناصر.

اعادوا الكرة مرة ثانية وثالثة.

قال لهم، بعد ان اطمأن الى شيء واحد.. ان (الوجدان) في الامتحان وهو يئن من التعذيب:

الخيانة تعني، ان تتحول البنادق التي حاربنا بها وسنحارب بها مستقبلا الى صدور ابناء الشعب.

اخرسوه بضربة "العصا" الموروثة عن النازيين في مكاتب "الأس اس"، فلم يفق الا في القاطع الخامس.

قال قادتهم: جئنا لنحقق اهدافنا في الوحدة والحرية والاشتراكية، فقال شعب تموز: اين الحرية وعشاقها ومناضلون من اجلها، في السجون والمعتقلات، ورفاق درب يقتلون ويعدمون تحت شعار "معاداة" الحرية. واين الاشتراكية، ومكاسب الشعب تبدد على يد حلفاء اليوم من ايتام العهد الملكي وشيوخ الاقطاع وعملاء الاستعمار الانكلو-

امريكي. واين الوحدة، وقادة البعث في العراق يتنصلون من ميثاق الوحدة المبرم بين دمشق وبغداد والقاهرة، واستبدال علم ثورة ١٤ تموز، بالنجوم الثلاث "الوحدوية"؟ واين الوحدة، واتهامات علي صالح السعدي وقصائد مهدي عماش ضد جمال عبد الناصر، تذاع كل يوم من اذاعة بغداد؟

* * *

في الغرفة رقم (١٠) بعد "مهرجان التعذيب" والتي برع فيها انقلابيو شباط، وبعد رميه في غرفة المحكومين بالاعدام، التقى الطيار (خالد سارة) وابطال "تلكيف" الخمسة الذين تصدوا لعناصر العقيد عبد الوهاب الشواف في محاولة الاطاحة بثورة تموز. كما التقى المحامي (جميل دنو). وكان في الغرفة ايضا، العقيد عبد الرزاق، عضو الهيئة التحقيقية الخاصة في محكمة الشعب، والطيار عبد الوهاب، آمر السرب المكلف بحماية بغداد، وعشرات من الضباط الاشداء.

كان يعرف (خالد سارة) عن طريق الزيارات العائلية. طيار موهوب وقدير، يعتبر من امهر الهدافين في السلاح الجوي العراقي، الى جانب الطيار (منذر الونداوي) الذي قصف مبنى وزارة الدفاع في صبيحة الانقلاب. كانت التهمة الموجهة الى خالد تتلخص بدقة التهديف على غرفة عمليات العقيد الشواف في الموصل، فانصب حقد الانقلابيين عليه. جاء في تلك الليلة التي يقضيها في غرفة "الشؤم"، احد الضباط واخبر الطيار المغضوب عليه، بأن حكم الاعدام قد صدر بحقه وسوف يستصحبه فجر اليوم التالي الى الموصل لتنفيذ الحكم. في الموعد المحدد، لم يستلمه الضابط، بل زار السجن، الطيارون صالح مهدي عماش و(حردان التكريتي) ومنذر الونداوي، ومروا على الغرفة رقم (١٠) ليخرجوا خالد سارة منها مع الاعتذار له، واعادوه بدلا من الموصل، الى القوة الجوية.

غاب المحامي (جميل دنو) عن الغرفة يومين، وظنَّ أنه قد التحق بآخرين سبقوه الى ساحة الاعدام او في دهاليز المسالخ البشرية في كل طرف من اطراف بغداد، ولم يعد منهم احد. رموا جميل الى داخل الغرفة بركلة قوية اسقطته ارضا. ما ان استقر في مكانه، حتى انفجر بالضحك. سأله عن احواله ولماذا يضحك، فراح يقص على نزلاء الغرفة ما جرى له خلال اليومين الماضيين.

قال:

اخذوني الى موقف "المثقفين" الكائن في شارع السعدون قرب سينما "النصر". كانت غرف الموقف، مكتضة بالمثقفين، خصوصا الأدباء والصحفيين، ومن المحامين والاقتصاديين واساتذة الجامعة. يشرف على هذا "المعتقل" (جليل العطية) الذي كان رقيقا مع الموقوفين الذين جلبوهم من المعتقلات الاخرى ومن مراكز الشرطة لاجراء التحقيق معهم على يد مثقف بعثي له صلة بالكثيرين من المثقفين التقدميين. لم يستغرق الوقت معي الا دقائق وبدون اية تهمة، لأني لم اكن حزبيا ابدا، فاطلقوا سراحي وسلموني الى الحرس القومي لغرض اعادتي الى السجن رقم (١). المشكلة، اني كنت سعيدا ببراءتي، بينما تعرضت للضرب والاهانة في ادارة السجن اثناء مروري بالخطأ من امامهم، على يد حازم الاحمر، وعبارة "شيوعي للبيع" التي كتبت على جبهتي كانت ما تزال في محلها. وللحق اقول، لم يصبني في موقف المثقفين احد بقشة.

سأل جميل عن سبب ضحكه المتواصل، فأجاب:

في الغرفة التي جمعتني بعدد من المثقفين، استفسرت من راوية شاعر العرب الكبير الجواهري ، الأديب الرقيق (عبد الغني الخليلي) عن سبب اعتقاله، وهو بعيدٌ كل البعد عن الحزبية، فقال: بأن مفوض الشرطة (...) عثر بين الكتب الكثيرة التي في حوزتي على ديوان للجواهري، فاحتد غضبا وراح يكيل لأبي فرات الشتائم ويصرخ: بالله عليكم الجواهري هم صاير شاعر... وعندما دافعت عنه، صفعني وصب حقده عليّ والشرر يتطاير من عينه، ثم اقتادني الى مركز شرطة المأمون، ومن هناك جاءوا بي الى "دار المثقفين" عند (العطية).

ما ان انتهى جميل دنو من حكايته، حتى شعر بضجة غير معتادة خلف باب الزنزانة. لحظات، علا صراخ السجان. جماعة تلكيف الى الخارج. وقف الابطال الخمسة باباء وشموخ والقوا نظرة الوداع الآخير على رفاقهم النزلاء، ليواجهوا مصيرهم بالاعدام. كانت محاكم عبد الكريم قاسم العرفية قد حكمت عليهم بالاعدام ولكن الحكم لم ينفذ آنذاك، لرقة قلب قائد ثورة تموز.. لقد اصبحوا اسطورة للشجاعة والأباء لا في مدينة (القوش)، بل في كل قرى شمال العراق. ان المعلم (كوركيس) وشقيقه

سائق الأجرة ورفاقهما الثلاثة لم يشاركوا في قتل المحامي (المفتي) على طريق الموصل، بل كانوا ضحية لموقف دافعوا من خلاله عن ثورة تموز وعن جماهير القوش وتلكيف، فلحقوا بركب الشهداء الطويل.

* * *

١ تموز ١٩٦٣

نقلوا الصحفيين السبعة الى الموقف العام في باب المعظم في سيارة "زيل" عسكرية. التفت (رسمي العامل) صاحب جريدة (المستقبل) الى (لطفي بكر صدقي) وقال له:

يظهر ان الجماعة قرروا اطلاق سراحنا.

ابتسم لطفي، الذي قلّ ان تراه يبتسم، بعد ان رمق رسمي نظرة استغراب، وقال له:

- لا تتفاءل بالخير، لم تنته بعد مراسيم "التتويج".

امام الباب الحديدي الكبير لسجن بغداد المركزي في باب المعظم، كانوا هناك بانتظار الطابور الصحفي. جرى الترحيب المعهود في السجون العراقية ، وكما يسميه المصريون "التخشيبة"، بالمزيد من الصفعات والركلات دون اي اعتبار، ثم اقتادهم رئيس عرفاء السجن المزمن (جخيم) الى القلعة الاولى التي تضم وزراء تموز والمدراء العامين، منهم: محمد حديد، ابراهيم كبة، محيي الدين عبد الحميد، طلعت الشيباني، حسن طلعت، مكرم الطالباني، عبد الرزاق زبير، حافظ التكمه جي، وحميد الناصر.

في مساء نفس اليوم، زارهم فريق الشاي من مناضلي المقاومة في الكاظمية المحكومين بالاعدام.

كان (رسمي العامل) متشبثا بالباب الحديدي للقلعة، يحاور (جخيم)، حين طرق سمعهما (احدهم) ينادي من خلف باب القلعة الخامسة:

- زميل، شاي للقلعة الله يرحم اباك.

قهقه جخيم وقال:

- بالله عليك يا رسمي، شنهو كلمة زميل؟

- زميل تعني رفيق مهنة واحدة.

عقّب جخيم بنكهة اهل الجنوب المحببة للعراقيين:

- والله صار لي خمسة وعشرين سنة في هذه المهنة وما سمعت غير كلمة "رفيج".

راح رسمي بخبثه المعهود يداعب ويثقف السجان ويؤكد له بأن عبارة رفيق هي من اختصاص الشيوعيين. الا ان الظروف الحالية تنطبق على الزمالة، لا على رفاق درب وحزب شيوعي، فالموقوفون خليط من الشيوعيين والديمقراطيين والمستقلين والاكراد والحركيين ... و...

* * *

افترشوا طارمة القلعة في يوم قائظ مزعج، وراحوا ينعمون بنوم عميق، بينما كان هو سارحا في ظلمة الليل يستعيد الذكريات المحببة الى النفس. تذكر (سعاد) و(رافد) وحبه الشديد لهما، حتى غلبه النعاس بعد مشوار طويل من شريط حفلت به الذكريات. لم تطل الاغفاءة طويلا، فصحا على اصوات غير مألوفة وحركة غير اعتيادية بدأت تدب خارج القلعة. أمسك بالباب الحديدي وراح يرقب حركات الجنود و(جخيم) يسرع الخطى وفي يده غدارة "كلاشينكوف" بينما احتل بعض الحراس سطوح الموقف العام وهم مدججون بالسلاح. من بعيد، جاء صوت مكبوت: الله يستر.. ثم رشقات من الرصاص تبدد سكون ذلك الفجر التموزي، وازيز الطائرات يوقظ النيام، حيث يلتقط (ابراهيم كبة) جهاز الراديو "الباتري"، والكل بات يتوقع حدثا مستجدا قد يقلب الأمور رأسا على عقب.

التصق الموقوفون بالجهاز الذي تنبعث منه الاناشيد، وتساءل رسمي العامل:

- من يا ترى قام بالحركة؟

رد عليه محمد حديد:

- لا تتوقع خيرا يا رسمي.

ما كان منه الا ان يتدخل بين الاثنين، ويستدرك:

- لماذا لا نتوقع خيرا؟

نظر اليه ابو هيثم وقال:

- لأن البديل سيكون الاسوأ.

رمقه بنظرة حادة وعالجه بالقول:

- ولماذا لا يكون البديل افضل من الطغيان الحالي؟

رد ببرود:

- لأن القوى الوطنية مضروبة، ورجالاتها في السجون والمعتقلات.

- والشعب؟

- مغلوب على أمره ولا يقوى على التحرك دون قيادة.

قال بشيء من العصبية:

- اهكذا تصورون الشعب دائما. لقد اخطأتم التقدير في السابق بعد نجاح ثورة الشعب في تموز، وهذه هي النتيجة.

احتد الوزير السابق مكملا حديثه بحذر:

- اين القيادة التي ستقوم بالحركة؟

- ان القيادة تنبثق من بين صفوف الشعب الذي يختبرها وينتخبها في خضم الاحداث ثم يزجها في المعارك الفاصلة. الشعب وحده يصنع الاحداث.

لم يدم الحوار طويلا، فقد عاد (سامي) ليخبرهم بأن الحركة فشلت.

سأله بحزن ومرارة:

- هل انت متأكد يا سامي؟

اومأ برأسه .. فادرك الحقيقة.

في المساء، بات كل شيء واضح الصورة.

مجموعة من ضباط الصف يقودهم العريف البطل (حسن سريع) قامت بالاستيلاء على معسكر الرشيد للبدء بثورة شعبية تضع حدا للارهاب والحكم الاسود.

الجندي المكلف (صبري) الذي كان يوزع الشاي على غرف الموقوفين، قام بالسيطرة على بوابة المعسكر الرئيسية.

نائب العريف (حميد) اعتقل ستة وزراء من بينهم حازم جواد وطالب شبيب حاولوا الدخول الى المعسكر بحرسهم القومي.

قائد المجموعة حسن، اتجه مع رفاقه الى السجن رقم (١) من اجل اقتحامه واطلاق سراح الف ضابط موقوف من مختلف صنوف الجيش.

آمر السجن حازم فرّ هاربا واحتمى خلف غرف القاطع الثاني.

طاقم الدبابة المكلف باقتحام السجن اشتبك مع ثلاث دبابات تسللت الى الداخل يقود احدها رئيس الجمهورية (عبد السلام عارف).

القطعات العسكرية المساندة للحركة لم تتقدم من معسكر الوشاش.

التوقيت لم يكن دقيقا والتنسيق ضعيفا.

لم تتحرك القطعات العسكرية من معسكر الوشاش.

تأخر الرفاق في قيادة الحزب، واستعجل (سريع).

ارادها ان تكون ثورة الشعب، فكانت ثورة العرفاء.

اذن، خمدت انتفاضة معسكر الرشيد بعد نجاحها اكثر من ست ساعات. الا ان يوم الثالث من تموز، سيبقى محفورا في ذاكرة الشعب العراقي.

قالوا بأن الحظ لم يكن من نصيب العرفاء كما كان من نصيب انقلابيي شباط. اما هو، فلم يقتنع بتحليلات الرفاق لأنه كان متأكدا بأن انقلاب شباط ما كان يكتب له النجاح لولا دعائمه: التخطيط في الداخل عن طريق جبهة معادية ضمت كل العناصر المتضررة من ثورة تموز - الاسناد والدعم والتخطيط الامريكي والرجعي العربي - الوضع الداخلي المائع الذي ساعد على التآمر - اخطاء قيادة تموز السياسية - انعدام التسلح الشعبي - اضطراب او عدم وجود خطة طوارىء عند الحزب او لدى قيادة الثورة. اما حركة (حسن سريع)، فهي حركة نقية صافية اعتمدت على عنصري الاخلاص والشجاعة، وافتقدت الى قوة السلاح في المناطق الاخرى من العاصمة بغداد، واستهدفت نظاما فاشيا ودمويا، زجّ في سجونه ومعتقلاته اكثر من مائة الف وطني من المدنيين والعسكريين.

في المحاكمات الصورية لسريع ورفاقه الابطال، بانت الصورة اوضح. ارادها الانقلابيون ان تكون ادانة ارهابية، فتحولت الى درس وطني وممارسة ثورية لأعداء الفاشية.

سألوا حسن في المحكمة:

- لماذا لم تنفذ الاعدام بالوزراء الرهائن؟

رد عليهم بمنطق الرجولة:

– لم اكن انوي الانتقام لمجرد الانتقام وبين ايديكم عشرات الالوف من الرهائن الاحرار. ان التاريخ سوف يحاكمكم على جرائمكم. الشعب يمهل ولا يهمل. ان مات حسن سريع، فالشعب كله حسن سريع.

يومان فقط.. دخل فيهما حسن ورفاقه التاريخ من اوسع ابوابه: يوم سمع فيه الشعب اسم (سريع)، ويوم آخر مات فيه شهيدا خالدا. ان رحيل هذه الكوكبة الجديدة، زاد لمعارك الشعب القادمة.

* * *

كان الوقت ظهيرة الخامس من تموز. الضباط المعتقلون ينعمون بالقيلولة. تدّب حركة خارج اسوار السجن الرهيب رقم (١). ان الجندرمة قادمون باحذيتهم الثقيلة. وكما فعل النازيون بطوابير ضحاياهم في المعتقلات، فعل البعثيون ببغداد وهم يقودون الضباط الى قطار حديدي. تعثرت خطى الضباط وهم يساقون الى سيارات عسكرية تقف بمحاذاة الاسلاك الشائكة التي تحيط بالسجن. كانت الايدي والارجل مقيدة بالاصفاد والحبال. لم يتخاذل الابطال او تفت في عزائمهم لعبة الموت، بل كانوا يبتسمون كلما صعد احدهم الى سيارة "زيل" الكبيرة وهو يجر خلفه رفيقه المربوط في سلسلة من الحبال.

في محطة غربي بغداد للسكك الحديد، حشروهم اكداسا بشرية في عربات النقل الحديدية، وكأنهم يحشرون الاغنام في حظائرها عندما ينقلونها من الارياف الى مسالخ بغداد. فرشوا ارضية العربات بالزفت الاسود. اوصدوا الابواب باقفال سميكة. لم يصعد في القطار اي حارس قومي او جندي مكلف بالحراسة. لم يكن "قطار الموت" بحاجة الى حراسة طالما الهدف هو "حرق الركاب" في منتصف الطريق بين بغداد وسجن نقرة السلمان الصحراوي بدلا من حرقهم بمحارق تصنع خصيصا لذلك او تجلب من معسكرات الاعتقال النازية الأثرية، فيفتضح أمرهم.

الجو في تموز كان قائضا ومحرقا في الظل، لاهبا داخل عربات القطار من شدة حرارة الحديد والزفت الاسود "القير" المائع تحت اجساد الركاب. تحولت تلك الاجساد بعد مسيرة ثلاث ساعات الى لون احمر داكن، وكادت لحومهم ان تنال منها لسعة الحرق، فتتحول الى "لحوم مشوية"، لولا نخوة سائق القطار الشريف الذي ادرك خطورة

العمل المدبر للضباط، وهو يمسح العرق المتصبب من كل بقعة في جسمه وغشاوة تحجب الرؤية عن عينيه من سراب الطريق الطويل، فقرر ان يقف في محطة (السماوة) قبل الموعد المحدد له. كانت انباء مسيرة (قطار الموت) قد وصلت الى السماوة، فتجمهرت النسوة في المحطة وهن يحملن الجرادل المملؤة بالماء واكياس الملح في ايديهن، يتراكضن الى كل عربة حديدية، نجح الرجال في كسر اقفالها، لينتشلن اولادهن من موت محقق، وليطبع المخلصون لقضية شعبهم قبلة الحياة على اكثر من فم يتعرض صاحبه الى الاختناق. رغم ذلك، فقد القطار شهيدا من الضباط، وواصل الناجون مسيرتهم الى الغد.

ومع مسيرة القطار، كان له مسيرة اخرى في بغداد. اقتاده رأس العرفاء السجان (جخيم) وهو مصفد بالقيد الحديدي الى ادارة السجن الرئيسي القريب من منطقة حافلات الركاب المقابل الى قاعة الشعب. كانت نظرات المارة في الشارع تزيده اصرارا على الصمود والتحدي.

كانوا ثلاثة من ازلام النظام يتهيئون لحبك فصل جديد من الفصول ضد كل وطني ساهم ودافع عن تموز العظيم.

بادره رئيس الهيئة التحقيقية (ساكن النورجي) الحقوقي التركماني بالسؤال:

- اسمك؟
- فلان ..
- عمرك؟
- ٢٨ سنة.
- شغلك؟
- صحفي.
- رقمك الحزبي وتاريخ انتمائك للحزب؟
- ...

اعاد عليه السؤال بصوت عال وبحدة مقرونة كالعادة بشتيمة وسخة:

- رقمك الحزبي يا ابن...

ظن وهلة، انها نكتة الموسم، فلم يكن على علم بأن الاحزاب في العراق تمنح

الارقام لمنتسبيها . كل الذي يعرفه بعد الانقلاب، ان الحكومة الجديدة تمنح الارقام للسجناء او الموقوفين، وهي بدعة اخرى من ابتكارات الانقلابيين . اجاب:

اي رقم حزبي تعنيه؟

ضحك المحقق الذكي، وقهقه الباقون . جاءته صفعة قوية من الرائد (دحام عبد القادر) الذي يعرفه في السابق ضابطا في كلية الاحتياط، لحقتها لكمة قوية من نقيب الشرطة (كريم حميد) في حين اردف النورجي:

- رقمك الحزبي يا رفيق .

- انا غير منتم الى حزب يمنح الاعضاء ارقاما .

صرخ الرائد دحام:

- ما هي ميولك السياسية اذن؟

تنفس الصعداء، ورد بحذر شديد:

- انا وطني تقدمي .

تململ (ساكن) في مقعده، واضاف بلهجة واهنة:

- تقدمي يساري ام يميني؟

لم يتمالك نفسه في تلك اللحظة، فأعد للحساب عدته، واجاب:

- كيف يكون التقدمي يمينيا ؟

وبجوابه، ايقن الحق في دفع الثمن الجديد لكل من يتحدى "جهل" السلطويين، فنال نصيبه من الضرب المصحوب بسيل من الشتائم القذرة . احس بعدها (دحام) بالتعب، فكف عن الضرب . وانزوى المعاون (كريم) في جحر الغرفة، بينما واصل المحقق استجوابه العجيب وهو يدون في محضره سيناريو مسرحية شباط، وينغم ما يكتبه:

- اذن، اعترف المتهم انه تقدمي يساري شيوعي . . .

انتفض من مكانه واجاب المحقق:

- انا لم اقل بأني شيوعي .

- هذا واضح، فكل تقدمي لا بد ان يكون يساريا، وكل يساري هو شيوعي .

سكت . . ولم يضف شيئا، وراح المحققون يمطرونه بوابل من الاتهامات مصحوبة بادانات حاقدة عليه وعلى افكاره، وعلى كل كلمة كتبها في الجريدة .

اعادوه، لا للقلعة الاولى، بل الى القلعة الخامسة، بناء على اوامر من المحقق لحين الانتهاء من التحقيق مع بقية الصحفيين.

داخل تلك القلعة الجديدة من قلاع السجن الكبير، التقى بالعديد من الاصدقاء ورفاق الدرب. استمع من افواههم التي شوهها المحققون في قصر النهاية الى حكايات واقاصيص عن اولئك الابطال الصامدين في دهاليز قصر الخيانة. لقد فاقت الروايات البطولية حتى اساطير التاريخ الخيالية. كان يريد ان يلتقط المزيد من شواهد التاريخ، غير ان السجان حرمه من التدوين، عندما قرروا اعادته بعد منتصف الليل الى مكانه في القلعة الاولى.

في جلسة هادئة مع الزعيم (محيي الدين عبد الحميد) بعيدا عن بقية نزلاء القلعة، تحدث اليه الضابط الوطني من ضباط الثورة الاحرار الذين ساهموا في الاعداد والتخطيط لثورة الرابع عشر من تموز، قصة البداية. لم تكن هناك اسرار بمعناها الخطير، بقدر ما كانت خبايا متناثرة لمخطط محدد، جمعت خيوطها عزيمة واخلاص مجموعة من الضباط الوطنيين الذين شعروا وتحسسوا مشاعر الشعب، فانتفضوا على واقع فاسد.

قال له بأنه يبوح بما يقول لأول مرة منذ ان اقسم يمين الولاء لقيادة عبد الكريم قاسم في سبيل ان ينقلها فيما بعد - ان كتبت له النجاة - بأمانة الى الاجيال القادمة.

بدأ حديثه بتأن وهدوء قائلا:

في اواخر عام ١٩٥٣، بدأت مع عبد الكريم قاسم في تشكيل خلية للضباط الاحرار، وكان عددنا لا يتجاوز الخمسة. بعد عامين، امتد نشاطنا الى بقية الوحدات العسكرية، وعلمنا ان هناك مجموعتين من الضباط، يتزعم احداهما، رفعت الحاج سري، والثانية تضم بعض الضباط من ذوي الرتب الصغيرة من العناصر المحسوبة على التجمع القومي المؤيد لجمال عبد الناصر. جرت محاولات لضم المجموعتين الينا في مطلع ١٩٥٦ بجهود كل من رفعت والعقيد عبد الوهاب الشواف وبدعم من ناجي طالب. كانت لمجموعتنا بالذات اتصالات وثيقة ومنتظمة بالاحزاب السياسية الوطنية، وعلى وجه التحديد، الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي عن طريق (رشيد مطلك).

شاركنا آنذاك في رفد نشرة "حراس الوطن" التي يصدرها المكتب العسكري للحزب الشيوعي العراقي بالمعلومات عن حالة الفوضى السائدة داخل صفوف ووحدات القوات المسلحة. في عام ١٩٥٦، اي بعد العدوان الثلاثي الغادر على مصر وافتضاح دور الحكام الخياني في اسناد دول العدوان، قررنا ان نقوم بالحركة، مستغلين قرار رئاسة الاركان العامة باجراء (مناورات) عسكرية بالذخيرة الحية، لولا ان وشاية احد الضباط - احتفظ باسمه- عرف فيما بعد انه اسماعيل العارف، وزير المعارف في اواخر ايام عبد الكريم قاسم، حالت دون تنفيذ العملية. في وقت يتهم العارف رفيقه عبد الوهاب الامين بالوشاية.

جرت محاولات اخرى كان نصيبها التأجيل بسبب اقحام العقيد الركن عبد السلام محمد عارف في تشكيلة الضباط الاحرار عن طريق عبد الكريم قاسم الذي قدمه لنا بصفته احد الضباط النشطين والمحسوب على الحركة الناصرية.

بعد انبثاق جبهة الاتحاد الوطني في شهر آذار ١٩٥٧، توثقت صلاتنا بالجبهة الجديدة، وتوسعت قاعدة التنظيم ليصل عدد الضباط الى ١٥٠ ضابطا يمثلون عدة وحدات عسكرية داخل وخارج بغداد. وقد لعب العقيد (وصفي طاهر) بصفته مرافقا لرئيس الوزراء آنذاك، دورا هاما في الحفاظ على تحركات الضباط الاحرار ونقل المعلومات الينا عن كل حركة يراد من ورائها تشتيت خلايانا في اعقاب افتضاح احد اسرار الاجتماعات.

وكحصيلة لانبثاق الجبهة، وتبلور الاوضاع السياسية على الصعيدين العربي والعالمي، خصوصا بعد اعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وضعنا برنامجا وطنيا يتلخص بضرورة اسقاط النظام الملكي وتشييد نظام جمهوري وضمان الحريات العامة عن طريق مشاركة الهيئة العليا للضباط الاحرار في الحكم كبداية لريثما يتسنى تشكيل "مجلس قيادة ثورة" يسعى الى انهاء فترة الانتقال وتسليم الحكم الى ائتلاف وطني يعمل على تحقيق اهداف الثورة.

اتفقنا على ضرورة وضوح الرؤية خلال طرح شعارات الثورة: صيانة الجمهورية، اطلاق الحريات الديمقراطية، اصدار قانون الاصلاح الزراعي لتصفية الاقطاع، بناء صناعة وطنية تحقق الاكتفاء الذاتي، واخيرا تقوية الجيش وتسليحه ليكون قادرا على حماية النظام الثوري.

اما على صعيد السياسة الخارجية، فقد تضمن برنامجنا ضرورة اتباع سياسة الحياد الايجابي والتمسك بمقررات مؤتمر بانونغ وبميثاق الجامعةالعربية وهيئة الامم المتحدة والغاء حلف بغداد المركزي. وكذلك جرى الاتفاق على اقامة نظام الادارة اللامركزية لتحقيق الحكم الذاتي لأخواننا الاكراد في شمال الوطن العزيز. لقد اثار البعض منا وهم قلة لا تذكر، مسألة الوحدة الاندماجية مع الجمهورية العربية المتحدة، كأقليم شرقي، فقلنا، لندع الشعب يقرر ذلك بعد استتباب الامر.

ثم جاءت مرحلة الاعداد للثورة. جرت انتخابات القيادة بين اعضاء الهيئة العليا للضباط الاحرار عن طريق الاقتراع السري وتشخيص (القائد) الذي ستقع على عاتقه مهمة البدء في تنفيذ ساعة الصفر. لقد نلت ثقة الزملاء مرتين، لكنني تنازلت عن مهمتي للزعيم عبد الكريم بسبب القدم في الرتبة وليس بسبب آخر. فقد كان هو اقدم الضباط في التشكيلة آنذاك. ثم بعد اصراري على التنازل الى قاسم، اقسمنا يمين الولاء والاخلاص للقيادة وللثورة وادينا القسم الديني على عدم خيانة احدنا للزعيم لأي خلاف او سبب قد يظهر بعد نجاح الثورة.

وفي اعقاب الاعلان الرسمي لقيام الاتحاد الهاشمي بين العراق والاردن في شباط، قررنا القيام بالحركة لاحباط تلك المؤامرة المستهدفة تطويق الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، بغية ضربها عن طريق انقلاب عسكري يدعم من العراق والاردن. الا اننا قررنا تأجيل ذلك لحين يتسنى لنا الاتفاق مع الاحزاب الوطنية على تفاصيل الخطة كاملة. حتى جاءتنا الفرصة صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ و بدلا من ان نتجه بقطعاتنا العسكرية الى الاردن لضرب الحركة الوطنية المتنجرة في لبنان كما خطط لذلك حلف بغداد، حركنا قواتنا الضاربة الى بغداد لدك صرح الخيانة واعلان الثورة. ان اندفاع الشعب الى الشارع في صبيحة يوم الثورة، كان من اهم الاسباب لنجاحها وانتصارها.

سأل الضابط الحر:

- الا تعتقد ان الضباط الاحرار يتحملون مسؤولية تدهور الاوضاع بعد نجاح الثورة؟

سحب الزعيم محيي نفسا عميقا متعبا، ثم قال والالم يعصر قلبه:

- كنا قد اقسمنا الولاء على الوفاء.

اجابه:

- ولكن البعض خان القسم؟

- كنا ننتظر ونتوقع منهم مثل تلك الخيانة.

- وماذا كانت النتيجة؟ وجودنا في السجون.

٢٤ آب/اغسطس ١٩٦٣

يوم قائظ رطب، زاده سخونة ذلك الحوار الملتهب بين (مكرم الطالباني)، ووزير المالية السابق، العضو القيادي البارز في الحزب الوطني الديمقراطي، قبل ان يتركه ويؤسس الحزب الوطني التقدمي في الاشهر الاخيرة من حكم قاسم، (محمد حديد) حول البديل المتوقع لوضع بات يتأرجح بين ايدي الحكام انفسهم نتيجة تخبطهم في سياسات سبق وان فرضتها اكثر من مصلحة ضيقة تمثل تباينا واضحا بين قوى متناقضة الاهداف، لكنها تتوحد وتلتقي في معاداة الشعب.

قال مكرم لمحمد حديد:

- لابد ان تقود الخلافات بين فريق عبد السلام عارف وفريق (احمد حسن البكر) الى انهيار النظام.

امسك محمد حديد بذقنه، وهي عادة يتمسك بها كلما اراد ان يستغرق بالتفكير، ويلعب دوره كديمقراطي لا ينفعل، واجاب:

- هذا شيء واضح بالنسبة للنظام، ولكن الاصعب هو البديل.

بهدوئه الملازم له دوما، قال مكرم:

- البديل بالطبع هو قيام جبهة وطنية معادية للفاشية والامبريالية تحقّقُ الديمقراطية للعراق.

- ومن يقودها يا ترى؟

- الشيوعيون.

اغمض محمد عينيه وكأنه يدخل في غيبوبة، وراح يحرك ساقيه بعصبية ظاهرة، ثم قال:

- الوقت والظرف الحالي لا يسمح بمشاركة الشيوعيين بالحكم، فكيف يتسنى لهم القيادة؟

انتفض مكرم من مكانه وتمتم بعبارات نصف عربية وكردية لم يفهمها الوزير السابق، لكنه اضاف بنبرة حادة:

- لقد قلتم ذلك الكلام قبل الكارثة التي نحن فيها، وتقولون نفس الشيء الآن ونحن داخل السجون، وسوف تقولونه غدا بعد اندحار النظام، فمتى يا ترى يأتي الظرف المناسب؟

ببرود مصطنع بعد وخز مفاجيء، اراد حديد ان يداري وضعه المحرج، اجاب:

- بعد سنوات من اعادة لمسيرة تموز جديدة.

ضحك مكرم، ولربما كانت اول مرة يقهقه بها بصوت جعل بقية الموقوفين يتوجهون بانظارهم الى حيث يجلسان، وقال:

- استاذنا، ماذا حققتم انتم طيلة سنوات الثورة غير مواجهة الحزب الشيوعي وترك اعداء الثورة يسرحون ويمرحون، وقبل ان تنضج الظروف...

قطع السجان (جخيم) ذلك النقاش والحوار حين نادى بصوته الجهوري:

- فلان ابن فلان تفضل.

اسرع الى الباب الحديدي وقال له:

- خير يا عم جخيم؟

- لا بسيطة، الادارة تطلب حضورك.

في غرفة الادارة، كان المفوض (عادل الحلي) يحتسي الشاي، وما ان لمحه حتى بادره بالقول:

- مبروك يا أخ.

ظن للحظات فكرة اطلاق سراحه بعد ان سمع عبارة مبروك وراء كل هذه الأشهر اللعينة، لكنه ايقن خطأ العجلة في التفاؤل عندما شاهد المفوض يحرك حاجبيه بشماتة ويقول له:

- تصور المصيبة، انت بالسجن وتأتيك المصائب اكثر.. اي على الاقل لو كان المولود صبيا؟

خيّم صمت حزين لثوان، ثم اردف المعاون:

- على كل حال، اقترح عليك ان تسميها (اعتقال).

عادت به الذكريات الى ايام القاهرة حين اقترح احد الخبثاء على والده تسمية شقيقته الوحيدة التي ولدت في مصر (هاجر) تيمنا بالهجرة الى مصر. طرق يفكر لحظة، ثم رفع رأسه وقال متحديا:

- لا اعتقال ولا هاجر، بل من داخل السجن نوقد (لهيب) الانتفاضة.

لم يكد يطأ عتبة باب القلعة، حتى ناداه السجان ثانية. اسرع الخطى الى الادارة يحدوه الامل بمكالمة هاتفية من الزوج او الوالدة، لكنه اخطأ التقدير مرة ثانية. كان "المعاون" اللئيم بانتظاره على الباب، فقال له بدون مقدمة:

- الم اقل لك بأن المصائب تلاحقك وانت في السجن. تفضل وقّع على هذا التبليغ.

مد يده واستلم ورقة صغيرة كتبت فيها بعض الاسطر بآلة طابعة: يرجى حضورك امام المجلس العسكري الاول تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس، الرابع والعشرين من شهر ايلول ...

لم يذهب في اليوم المقرر الى المحكمة العرفية.

كانت هناك قصة اخرى.

الاحداث بدأت في سباق مع الزمن.

دبّ الانشقاق بصورة حادة بين كل اثنين داخل صفوف حزب البعث.

داخل الحرس القومي وفي صفوف القوات المسلحة.

الكل يريد ان يستثمر الوضع لمكاسب ضيقة.

قيادة الحكم تتقاذفها شهوات متضاربة.

الامريكان يبحثون عن بديل يحمي ظهر تواجدهم غير الشرعي في المنطقة.

مجموعة سكرتير الحزب علي صالح السعدي ، تعد العدة لاستلام كامل السلطة.

اخذت الحركة القومية الكردية المسلحة تشدد الخناق على النظام الذي بدأ يتداعى في معارك عنيفة، وكانت حملة التضامن مع الشعب من خلال نشاطات لجنة الدفاع عن الشعب العراقي قد سدت الابواب بوجه الحكام وعرّت جرائمهم امام الرأي العام

العالمي. حاول وزير الارشاد (السعدي) وبعض مؤيديه الانفراد بالسلطة تحت واجهة "تصحيح الأخطاء".

في تلك الايام العصيبة، زاره في الموقف العام الشاعر (كاظم السماوي) ليبلغه قرار السعدي باطلاق سراح الصحفيين. لم يكّذب السجان (جخيم) الشاعر والوزير، بل لوّح من بعيد بالورقة وهو يصرخ: يا جماعة، مبروك، اطلاق سراح.

انتشل (رسمي العامل) الورقة من يد رأس العرفاء وراح يقرأ مضمونها بصوت عال: قرر الحاكم العسكري العام (رشيد مصلح) اطلاق سراح الموقوفين التالية اسماؤهم ادناه على ان تتكفل مديرية الموقف العام (السراي) بتحقيق رغبة السيد الوزير بمقابلة شخصية في مكتبه الرسمي قبل تنفيذ الأمر وذلك صباح يوم الخميس المصادف ...

طوى رسمي الورقة وراح الصحفيون الستة يحزمون امتعتهم، بينما وقف سابعهم (يونس الطائي) صاحب جريدة (الثورة) حائرا في أمره وهو يولول ويلطم وجهه ويبكي دون وعي ولسان حاله يقول: لماذا استثنوا اسمي؟

في الموعد المقرر وفي مكتبه الانيق، كان الوزير علي صالح السعدي بانتظارهم. صافحهم بحرارة وكأن شيئا لم يكن قد حدث لهم منذ ما يقرب من سبعة اشهر. قال الوزير مع اعتذاره:

"اننا نأسف لما حدث لكم، وكان المفروض ان يكون مكانكم في صحفكم، ولكن اخطأنا ...و... وها انا اقوم بتصحيح الخطأ وأعتذر إليكم."

لم يكن بحاجة الى سماع مطالعة الوزير او اي شخص آخر من اولئك الحكام. انشغل عن ذلك الكلام بالتطلع الى السماء الزرقاء وهي تتشح بلون فضي، فتضيف الى جو الغرفة بريقا طالما غاب عنه.. بريقا لأمل مفقود وراء القضبان، او هكذا كان قبل لحظات، وراح يتخطى بحلمه تلك الايام السوداء، سابحا في بحر من الذكريات، تواقا للقاء الاحبة.

قطع عليه المسؤول البعثي احلامه حين وجه كلامه اليه بشيء من العصبية:

- لماذا لم تجب على سؤالي؟

عاد اليه وعيه فجأة، واجاب:

- لم انتبه الى السؤال. ماذا؟

- قلت، هل تريد ان تعود الى الجريدة؟

- كلا.

- ماذا تريد اذن؟

- حريتي، وجواز سفر الى الخارج.

انتفض الوزير مذعورا وبدرت منه حركات غير موزونة محاولا ان يشد نفسه الى الكرسي، ثم قال بصوت ينم عن خذلان وافلاس:

- لكن لماذا السفر؟ انتظر بعد ايام وسوف ترى الامور في تطور لما هو افضل. خدمة الوطن امانة في عنقكم يا رجال الفكر والكلمة الحرة.

التقط من عبارات الوزير المستكينة، ومن ضعفه الواضح ومنطقه المفلوج، العزم، فرد عليه:

- لا يخدم الوطن بأوامر، كما لا يتقرر مصيره بجرة قلم او شهوة حاكم.

لم يكن السعدي يتوقع مثل ذلك الجواب، وقد ظن بأن الانقلاب وما رافقه من ارهاب قد اضعف او فلَّ في عزائم الوطنيين، فأجاب مستكينا:

- الكل يخطىء وقد اخطأنا منذ بداية المشوار.

تراقصت العبارات على لسانه وهو ينغمها بلحن الوجود، ورد على الوزير:

- نحن لسنا على استعداد ان ندفع ثمن الخطأ، اخطاء تاريخية.

هاج وماج السعدي غضبا وهو يزعق:

- الكل ضدنا.. يلعن ابو الثورة وابو من قام بها..

نهض الوزير من وراء مكتبه ونهض معه الصحفيون الضيوف متجهين الى خارج الغرفة. اراد ان يعود الى داره التي افتقدها بسرعة. كان يخاف من الاختطاف مرة اخرى قبل ان يحقق امنيته بلقاء من يحبهم. ان الكثير من الاصدقاء والرفاق الذين اطلق سراحهم لم يصلوا ببيوتهم. تمنى ان يعود متخفيا تائها بين جموع الناس ليضمن سلامة الوصول الى الدار بعيدا عن عيون المتربصين. فكم من سيارة عرجت عن طريق الصدفة الى اقرب نقطة للحرس القومي، فضاعت هناك. ان امر الاعتقال بل والقتل مرهون باشارة بسيطة من اي فرد صغير يتقمص البدلة الخاكي ويضع على ساعده الايمن قطعة قماش اخضر اللون. بل ان رشقات الرصاص كانت لعبة مفضلة يتسلى بها الصغار والصبيان، فيكون الخطأ، نهاية مواطن، اي مواطن.

في الدار.. وجد الجميع في انتظاره.. وهكذا كانوا يتوقعون عودته منذ ان غاب عنهم. ضم طفلته الرضيع (لهيب) الى صدره والدموع تتحداه، فنظر الى الزوج ثم همس في اذنيها:

- ان وجهها يشع نورا وهي في اسبوعها الرابع.

اجابت بغنج ودلال:

- لقد جلبت لك الخير يا عزيزي.

كان مرهقا ومتعبا من رحلة طويلة.. القى بجسده على الفراش، وتطلع الى سقف الغرفة، فرأى شاشة بيضاء واسعة يتوسطها نجم اخضر. لقد كان اللون مشرقا، اشتاق اليه وهو في تلك الساعة الحالمة.. لكن سرعان ما غلبه النعاس، فاستسلم لنوم عميق.

الفصل الثالث
التجربة

البحث عن الذات..

ترك الاخوة الثلاثة بيوتهم واستقروا في دار الوالدة. كانوا يشكون العوز ولا وارد لهم بعد الاعتقال. لم تترك لهم الجريدة المستولى عليها من قبل الحرس القومي مليما واحدا سوى الديون. كما لم يكن لدى زوجاتهم حلي او ذهب كما كان عند الوالدة قبل سنوات ليعتاشوا على اقيامها. كان عدد الساكنين في الدار كبيرا. الاخوة واطفالهم الستة الى جانب الوالدة والشقيقة ايزيس.. يبحثون عن لقمة اضافية في القدر المشترك. تدمع عيناه كلما راقب الاطفال يشيرون باصابعهم عن لقمة جديدة. ان الاخوة الكبارعرفوا الجوع في شارع الزهاوي، لكن الاطفال ما ذنبهم؟

تمر الايام مسرعة وهي تطوي حالة اليأس والجوع بعد ان وجد (كمال) عملا بسيطا، لكنه كان كافيا لاشباع بطون اطفاله. توفقت (اديبة) المعلمة المفصولة في ايجاد مدرسة اهلية، ليستطيع (سامي) اشباع طفليه. اما الزوجه (سعاد)، خريجة الكلية، فما تزال تبحث عن عمل. تعود ظهيرة كل يوم لتخبره بأسى:

- يسألون عن اسم الزوج، ثم يعتذرون.

يسأل سامي:

- وما مصير الاعلانات في الصحف؟

- يكذبونها بكل وقاحة.

- لماذا اذن اطلقوا سراحنا؟

- هذه مسألة اخرى.

فجأة.. يلعلع الرصاص من جديد في سماء بغداد. البيان رقم (١) لم يختلف

عن بيان انقلاب شباط الا بترديد شعار "من اجل تصحيح الاخطاء". اسماء قادة الانقلاب لم تكن غريبة عن اذهان الناس. كانت كل تلك الاسماء علامة سوداء في سجل انقلاب ٨ شباط. ان رموز تشرين هي نفسها رموز شباط، رغم ذلك، كان ايمانه بعطاء الوطن يفوق كل الاسماء والاعتبارات. ردد مع نفسه وهو يستمع الى وعود الانقلابيين الجدد: يا ما اخذنا من هذا الوطن الكثير، فلماذا لا نعطيه القليل من استحقاقه علينا؟

انتخب قائد الانقلاب (عبد السلام عارف) رئيسا للجمهورية مرة اخرى. رئيس الوزراء الجديد لم يكن احمد حسن البكر، بل اللواء (طاهر يحيى) الذي شغل منصب رئيس اركان الجيش في انقلاب شباط.

تذكر صديقه وزميله (يوسف عويد) القادم من مدينة (عينكاوة) في شمال العراق. المدينة الصامدة التي رفدت الحركة الوطنية والثورية بافواج من المناضلين الاشداء كان من بينهم الشهيد (عبد الاحد المالح) الذي مات تحت التعذيب في "قصر النهاية" قبل ثلاثة اشهر على يد قادة الانقلاب.

سأل عن (يوسف) فقالوا له انه يمتلك مطبعة صغيرة في منطقة الرواف بالسعدون بالقرب من فندق بغداد. قادته خطاه الى هناك، فوجده كما عهده صامدا عنيدا مثل اولئك الرجال من ابناء الجبل. هب واقفا حين دخل عليه في ادارة المطبعة، وقد عقدت الدهشة لسانه، فعاط فرحا:

- هذا غير معقول، هل انت حي ترزق وقد ظننا ان آلة شباط سحقتك كما سحقت المئات من رفاقنا.

- نعم ما زلت على قيد الحياة.

- متى اطلقوا سراحك؟

- قبل شهرين.

- انا توقفت يومين فقط، فالوساطة تنفع.

- هذا جيد، لقد سلمت من يد اولاد . . .

نادى يوسف على العامل (جبار حسين) وطلب منه شراء صحن "تشريب" من مطعم رأس الدربونة. اردف يوسف:

- اين كنت طيلة هذه المدة؟
- اشم الهواء.
- ومطبعة الجريدة، ماذا حلّ بها؟
- باعوها بالمزاد العلني.

اغرورقت عينا يوسف وهو يتذكر (البلاد) ومطبعتها الكبيرةالتي دفع اصحابها دما وعرقا في سبيلها، ثم قال:

- وماذا تنوي ان تفعل؟
- . . .
- هل تعود الى الصحافة؟
- كلا، لقد خسرت الصحافة جنودها الاوفياء ويريدون لها ان تخسر شرفها. لقد مرغوا رسالتها بالوحل.
- وما البديل لمهنتك؟
- ابحث عن عمل شريف.
- المطبعة امامك.
- ولكن ليس لدي النقود.
- لنبدأ من الصفر، فنحن اصدقاء عمر ورفاق درب..

بكل بساطة، جرى الاتفاق بين الاثنين تماما كما كان اللقاء بسيطا.

* * *

١٤ تموز/يوليو ١٩٦٤

اصدر (طاهر يحيى) قرارات تأميم البنوك وبعض الشركات الخاصة في بيان اذاعه من اذاعة وتلفزيون بغداد. هللت الناس واسترخت بعض الفئات، وباركت الاحزاب السياسسية تلك الخطوة "الجريئة" وصدرت النشرات السرية وهي تمتدح القرارات الاشتراكية. قالوا ان عبد السلام عارف حقق الاشتراكية في العراق تماما كما حققها جمال عبد الناصر في مصر. لم يبق سوى اتمام الوحدة العربية.

التفت اليه (يوسف) واصابعه ما تزال تعبث بحبات السبحة "الكهرب" في يده وقال:

- ما رأيك بخطوة التأميم؟

افجعته المطالعة، فتململ في مقعده ورد عليه ببرود:

- تأميم بنوك وشركات اهلية؟ هل تسمي التأميم الارتجالي خطوة اشتراكية بينما شركات النفط الاحتكارية تنهب خيرات البلاد؟

رمى يوسف النشرة السرية امامه وقال:

- الم تقرأ رأي الحزب؟

مدد ظهره المتعب الذي يشكو التشنج والألم منذ ان ساطه الانقلابيون في السجن، واسند رأسه على جدار الغرفة الصامت. سحب نفسا بصعوبة، ثم اجاب يوسف بكلمات مكبوتة:

ما هذا الكلام. اعداء الاشتراكية يؤممون، وانصارها يسجنون.. اية اشتراكية هذه يا عزيزي؟

راح بعناء يشرح ويحاول ان يقنع (يوسف) بأن النشرة السرية التي في حوزته لا يمكن ان تعبر عن رأي "القاعدة" الحزبية اذ ما يزال رجالات الحركة في السجون والمعتقلات بعد ان اغتال الانقلابيون قادتها، والبعض الآخر الذي سلم من المجزرة منقطع عن تتبع سير الاحداث بسبب انقطاع "الخطوط"الطويلة والعريضة تنظيميا في كل مدينة وقرية. اما "المسؤول الاول" المؤقت، فإنه يتصرف منفردا وكأنه هو وحده الوريث الشرعي للأمجاد وتاريخ الحركة، في وقت كادت ان تغيب "الشرعية" بسبب التشتت الحاصل في بنيان الحركة.

صمت ابو نهاد قليلا ثم قال:

- لا افهم ماذا تريد ان تقول. هل ان الكلام المكتوب في النشرة لا يعبر الا عن سياسة كاتبه؟

- هذا بالضبط ما اريد ان اصل اليه. ان خطا سياسيا ينبع من واقع كسيح لا تقره الافكار العلمية التي تجسد (الخاص) بعد هزيمة كبرى لثورة ١٤ تموز، لا يمكن ان يكون الا خط الاقلية، وهو ينم عن هشاشة وحماقة الناطقين به او الذين يحاولون فرضه كسياسة لحركة عريقة في هذا الظرف بالذات.

قبل ان يسخن الحديث، اطلّ عليهما شاب اسمر، حلو القسمات، يضع نظارة

سوداء على عينيه وقد بدا الارتباك على تصرفه، الا انه رغم تنكره، لم يصعب عليهما معرفة الهوية. هجم عليه واحتضنه بقوة بعد غياب دام اكثر من ثلاث سنوات منذ ان اختفى من الجريدة بلا كلمة وداع، وراح يمطره بوابل من الاسئلة عن احوال الرفاق والاصدقاء، فدسّ في يده نشرة صغيرة وقال:

- ستعرف الاحوال من هذه النشرة.

ثم اسرع الخطى الى خارج المطبعة. نادى عليه، فالتفت (فخري كريم) وقال:

- انا مستعجل، سوف امر عليك في مثل هذا الوقت من الاسبوع القادم.

تصفح النشرة المتواضعة فأحس بالحزن وهو يقارن بين ما يقرأه الآن وتلك الادبيات الكبيرة التي سطرت تاريخ النضال الطبقي والوطني للشعب العراقي عبر سنوات طوال، فتألم.

لاحظ يوسف عويد الألم واضحا على وجهه، فبادره بالقول:

- لا تحزن، انها بداية متواضعة.

- انا لست حزينا، انا ناقم يا يوسف.

- لماذا؟

- لأننا عاجزون عن المساهمة في العمل.

- هل نستطيع المساهمة؟

- يجب، اذا اردنا ذلك في المستقبل.

وصدق حدس يوسف. حمل المستقبل القريب، كثيرا من الطلبات والمتطلبات. الرفاق والاصدقاء مبعثرون هنا وهناك. كانت الطعنة البعثية بخنجر امريكي في جسد العملاق العنيد، عميقة الغور. لم يكن من السهل تضميد تلك الجراح، كما لم يكن من السهل تضميد جراح الآخرين، او تعويض اولئك الابطال الشهداء الذين سقطوا في الساحة وهم يدافعون عن المبادىء الخلاقة، وكان لصمودهم مآثر بطولية لشعب خلاق. ان تاريخ نشوء واضمحلال بعض الحركات السياسية في العديد من الدول لصيق بتطور الاحداث وبحلول مرحلة في اعقاب مرحلة اخرى تفرضها المعارك الوطنية فالطبقية وفق قانون تاريخي. الا ان تجربة حزب الطبقة العاملة هي تجربة الحتمية التاريخية التي تعطيه حق الوجود ثم الصمود فالحياة.

الم يصمد في وجه اعاصير هجمة نوري السعيد عام ١٩٤٩ لابد انه سيصمد بعد اختطاف قادته اليوم. ان الطيبين من ابناء الشعب يحتضنونه اليوم وهو يقف على قدميه من جديد..

كانت البداية.. بداية صعبة.

في غضون ايام واسابيع، تحولت ادارة المطبعة الصغيرة الى منتدى وطني يؤمه العشرات من الاصدقاء. اصبحت الادارة وكرا سريا اكثر من كونها "قهوة" علنية، حيث يلتقي فيها المع واكرم الوجوه الثقافية والسياسية. كان يتسلل اليها في الظهيرة اللاهبة، وحين تغفو عيون الرقباء، اكثر من شخص في آن واحد. اسماء معروفة في سجل الحركة الثورية قبل وبعد انتكاسة شباط الاسود. وبين السياسة وعشاقها، يطل الادب الملتزم برموزه المخلصين، حسين مردان، علي الشوك، رشدي العامل، حميد رشيد، عبد المجيد الونداوي، خالد الحلي، يوسف متي.. كان بعضهم يبحث عن البديل، والبعض يطالب بالعمل الحاسم، بينما القليل منهم، يتمرد ويقتسم خارطة الموقف السياسي ملتزما ومتزمتا. كان احدهم يلّوح "بالأسس" ويضع اصبعه على منطقة كردستان، وقد مزقتها الخلافات بين فصائل الثورة الكردية المسلحة ويقول:

- من هنا يجب ان تنطلق المدافع.

يسأل:

- من يطلق المدفع؟

يتبرع (فخري كريم) ويقول بحماسته المعهودة:

- القوى صاحبة المصلحة في الثورة من شيوعيين وديمقراطيين وقوميين شرفاء، عربا وكردا واقليات قومية.

قهقه احد المستطرقين الخبثاء وهو يردد مع نفسه ترنيمة الخذلان:

- كانت فرصة وطارت، يوم كان الحزب يقود الشارع من زاخو حتى الفاو.

- ما يزال وسيبقى، وهذه هي مسيرته التاريخية.

جلس بعد سماعه هذا الحوار، يفكر. راح يقلب اوراق التاريخ القريب التي لم يجف حبرها بعد، لعله يوفق في الوصول الى حل ينشده ويرضي به الجميع. كانت بعض رؤوس الاقلام السياسية تداعب افكاره وتضغط بشدة عليه كي ينطق بطروحات حل المسألة الوطنية، لكنه آثر ان يسجل الافكار على الورق أمانة للتاريخ:

لابد ان تكون الرجعية المحلية ضعيفة الآن وهي في قمة المسؤولية.

انها رجعية تمثل فئة صغيرة متذبذبة ومتفككة اجتماعيا وطبقيا.

الحركة الوطنية تستطيع في خضم هذه الظروف ان تنمو وتزدهر اكثر من اية مرحلة اخرى.

البورجوازية الوطنية سرعان ما تخون الثورة الوطنية الديمقراطية.

التاريخ يعلمنا ان هذه البورجوازية سرعان ما تحوّل سلاحها ضد الطبقة الكادحة.

انها تدافع عن مصالحها، دون ان تدري انها تفتح الطريق امام القوى الرجعية رحبا.

الرجعية المرتبطة بالامبريالية تقودها مصالحها المشتركة الى الوثوب للسلطة من جديد.

الانظمة الرجعية توفر في اسوأ الحالات قسطا ضئيلا من الحريات لديمومة حكمها.

انها اضعف في تلك المرحلة من ان تسلك طريق الارهاب الدموي ضد معارضيها.

يجب على القوى الوطنية ان تستفيد من الوضع السياسي المائع.

عليها ان تعد العدة لعمل ثوري حاسم.

وضع في الحسبان لتلك الطروحات ، المعادلات التالية:

ابان الحكم الملكي الممتد قرابة ٣٧ عاما، قام الشعب بثورة العشرين وبانتفاضات الفلاحين واضرابات عمالية ناجحة كان اوسعها واعمقها اضراب كاورباغي عام ١٩٤٦. كما قام الشعب بوثبة كانون المجيدة عام ١٩٤٨ وحقق انتصارا في قبر معاهدة بورتسموث في مهدها. وفرض بانتفاضته في تشرين عام ١٩٥٢ قانون الانتخاب المباشر واقالة وزارة العمري. كما مرّر بانتفاضة الحي عام ١٩٥٦ تمرينا حيا قي شد الجماهير الى العمل الثوري وتعميق ازمة النظام المتهرىء واقام جبهة الاتحاد الوطني في ربيع ١٩٥٧ .

كانت تلك الانتصارات من صنع هذا الشعب التواق للحرية والديمقراطية والحياة الكريمة.

اثناء سنوات ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ الوطنية الديمقراطية والممتدة قرابة اربع سنوات ونصف، انهى الشعب الثائر مع قواته الوطنية المسلحة النظام الملكي وشيد صرح نظام

جمهوري معاد للاستعمار، وقضى على حلف بغداد العسكري العدواني، واخرج البلاد من منطقة النفوذ الاسترليني. كما اصدر قانون الاصلاح الزراعي باعتباره ثورة زراعية ملازمة تستند اليها الثورة الوطنية الديمقراطية لانهاء المجتمع شبه الاقطاعي. وضربت الثورة الاحتكار النفطي الجشع بتشريع القانون رقم ٨٠ للاستثمار الوطني، وارست بذلك لبنات الصناعة الوطنية بالتعاون والتنسيق الاقتصادي والفني مع الاتحاد السوفييتي كخطوة ضرورية لبناء قاعدة اساسية للصناعة الوطنية. وبفضل نضال هذا الشعب، تحقق مبدأ التعايش السلمي والحياد الايجابي ووطد صداقته مع المعسكر الاشتراكي، وقام بتسليح الجيش الوطني، ومد يده باخلاص الى اشقائه في الدول العربية من اجل دفع عجلة حركة التحرر الوطني العربية الى امام لكنس بقايا الانظمة الرجعية في المنطقة.

ثم جاءت ردة شباط ١٩٦٣. فخسر فيها الشعب خلال تسعة اشهر فقط الكثير من مكاسبه وانجازاته: الحريات العامة، النقابات العمالية والمهنية، الجمعيات الفلاحية والتعاونية، تجميد قانون الاصلاح الزراعي، اغتيال القانون رقم ٨٠، ضرب ومحاولة تصفية الاحزاب الوطنية والثورية، فتح السجون والمعتقلات لاكثر من ١٢٠ الف مواطن، فرض نظام ارهابي بوليسي ضد طبقات الشعب الوطنية الاجتماعية والتنكيل البشع باعداء الاستعمار بحيث لم تعرف الشعوب مثيلا له الا في ظل الفاشية والهتلرية، كما اعترف بتلك الحقيقة بعض قادة الانقلاب فيما بعد.

اما في عهد (العارفين) عبد السلام وعبد الرحمن، فقد سيطرت العناصر الانتهازية والوصولية على مقاليد الحكم بعد محاولة تصفية آثار انقلاب شباط سيء الصيت وتبرئة ذمة من اشترك منهم في ذلك الانقلاب الاسود، كعبد السلام نفسه وطاهر يحيى ورشيد مصلح (اعدم على يد البعث بعد ١٩٦٨ بتهمة عمالته للمخابرات المركزية الامريكية!) وسعدون غيدان وسعيد صليبي وغيرهم. وحاول المسؤولون في العهدين ردم المستنقعات النتنة التي اوجدتها العناصر المعادية للشعب، لتسبح فيها وتعشعش عناصر طفيلية جديدة. , ان عجلة التطور تدور بسرعة.. لقد خسر شعب تموز الكثير، وعليه ان يحافظ على ما تبقى من مكاسب، بل عليه ان يدعم نضال القوى الوطنية بقوة اكبر في ظل حكم مرحلي لم تتضح هويته الطبقية كما كان مخططا له. وبالتالي، كنسه واعادة مسيرة تموز على الطريق الصحيح.

ان خط آب السيء.. أخر مسيرة الحزب بعد قبره.

* * *

صيف ١٩٦٥

كان يمرق بسيارته مسرعا الى المنصور حيث ينتظره هناك (حسين جواد الكمر) ليستلم منه كميات الورق المخصصة لطبع "جريدة سرية"، حين اشار عليه احد ضباط الشرطة بالوقوف. طلب منه تفتيش السيارة بحجة وجود سرقة كبيرة في المنطقة. لم يرتبك مطلقا، ايمانا منه بأن اي حركة اعتباطية قد تجلب الشك او الريبة. ترجل من سيارته وترك رجل الشرطة يمعن النظر بالصندوق الخلفي ويطالبه بفتح كل ابواب السيارة والوقوف على بعد امتار منها. كانت التعليمات آنذاك تقضي بأن لا يتأخر عن موعد اللقاء اكثر من دقائق كضرورة لصيانة العمل السري. خطرت بباله فكرة سريعة وهو ينظر الى الضابط الذي انشغل بفتح احدى الرزم العديدة، فبادر الى مخاطبته:

- ابو اسماعيل، يجب ان اذهب الى الفلوجة بسرعة لايصال هذه الطلبية من الورق.
- اية طلبية؟
- الورق.
- هل كل هذه الرزم ورق؟
- بالتأكيد.
- واين هي وجهتك هناك ولماذا معك كل هذا الورق؟
- ارسالية لمطبعة الادارة المحلية.
- هل عندك هوية؟

خطا خطوات سريعة الى السيارة واخرج من درجها الهوية المطلوبة وكانت هوية نقابة الصحفيين، ثم راح يقرع ابواب السيارة، وكأنه اطمأن الى سلامته، فوجد الضابط يبتسم ويقول:

- اذن انت صحفي.

رد اليه الابتسامة، وهمّ بدوره ركوب سيارته، ثم التفت الى رجل الشرطة وفاجأه بالسؤال:

- يلزم اية خدمة او شكوى، فنحن الصحفيين في خدمة ابناء الشعب.

- لا شكرا استاذ، مع الف سلامة.

في الموعد المحدد، التقى ابو علي. استغرب من وجوده في هذه المهمة، وكان المفروض ان ينفذها (خالد السلام). قصّ على الكمر ما حدث له قبل دقائق، وطلب منه ان يسرع بنقل "الشحنة" والعودة من طريق آخر.

في طريق عودته، عرج على دار احد الاقارب ومكث هناك قرابة الساعتين قبل ان يعود الى المطبعة.

بعد تلك الحادثة "السليمة" اصبحت الفلوجة مكانا امينا لتسليم واستلام ارساليات الورق المخصصة لجريدة (طريق الشعب) السرية. وبدلا من استعمال سيارة واحدة، اصبح يستخدم سيارات العائلة بحجج مختلفة، حتى اعفي من مهمته وسلّم عمله الى رفيق آخر.

كانت اجهزة نظام عارف الاول والثاني ضعيفة بالفعل، الا ما ندر من فرص "الاصطياد" عن طريق الصدفة. البيوت السرية موزعة في كل شارع ومحلة. مقاهي "ابو نؤاس" باتت اوكارا للمناضلين.

في شقة عند مدخل ذلك الشارع المحبوب لكل العراقيين بسبب كثرة المقاهي والكازينوهات ومحلات بيع السمك ومطاعم اكل "المسكوف"، كانوا يلتقون هناك بين فترة واخرى. مجموعة من الادباء والصحفيين من مختلف الانتماءات، يلتقون ويتفقون من اجل" العمل الوطني المشترك". شباب فقدوا الثقة في حركات قومية شبه وطنية سرعان ما كشفت عن طبيعتها الرجعية، فتحولت الى دمى بيد الاستعمار، وحركات اثبتت لعناصرها بعد تجربة الحكم بانتهاء دورها في ساحة النضال الوطني والطبقي. كانوا يجتمعون ويبحثون عن البديل، فلم يهتدوا الى البديل الثوري الاصيل. وبدلا من المراجعة والاهتداء، تاهوا في دروب الثرثرة واللامبالاة. اما هو، فكان يريد منهم ان يعوا الامور بمنظور علمي، ليتسنى لهم الوقوف على اسباب الضياع.

دخل تلك الشقة الصغيرة في شارع ابو نؤاس اكثر من رفيق درب مشترك. كان

كل واحد منهم يحمل على اكتافه مسؤولية خاصة. ارادوها ان تكون بالفعل مكتب تنسيق، فاصبحت بالحقيقة مكتب ترحيل. شدوا الرحال الى بيروت ودمشق، ولم يعد منهم الا اثنان الى بغداد.

كان من بين اولئك الشباب، جعفر ياسين، مؤيد الراوي، عبد الآله النصراوي، عبد الرحمن الطهمازي، عزالدين رسول، وبرهان الخطيب. ارادت بعض الوجوه القديمة في حركات سياسية اخرى ان تقحم نفسها بين هذه الصفوف، الا انها سرعان ما غابت وغيّبتها ظروف العمل السري.

* * *

٢١ نيسان ١٩٦٦

اطل عيد القيامة بطقوسه الجميلة في ظل اعراس الربيع. مع اطلالته الحميدة، اطل صيادون مرعوبون برؤوس فارغة من اوكارهم المكشوفة يبحثون عن صيد يشفي غليل اولئك الذين اضاعوا الولاء لحاكم لا يعرف ما يريد، ولكنهم كانوا يبحثون ويبحثون.

شاهد صيادا يقترب من سيارته اثناء مروره في شارع أصفر بالكرادة. سيارة من سيارات "فولكس واكن" الشهيرة التي يعرفها المواطنون ومسجلة بسجلات الأمن العامة والمخابرات. اطل احدهم برأسه من شباك السيارة الامامي واشار عليه بالوقوف. ترجل منها رأس عرفاء أمن (جبار) ودلف الى المقعد الامامي بجانبه. ايقن للتو بأن تلك الحركات البهلوانية هي من اختصاص رجال البحث عن الاحرار، الا انه انساق وراء الوهم، فسأل المرافق غير المرغوب فيه:

- هل تعرف من أنا؟

اجاب جبار بسرعة والحقد يتطاير من عينيه:

- نعم، انت ابو الجريدة!

- يوجد عشرات ان لا اقول مئات مثلي في العراق من اصحاب جرائد.

- نحن نريدك انت بالذات.

- . . .

سكت رأس العرفاء برهة، ثم صرخ في وجهه:

- لماذا انت واقف.. تحرك بسرعة.

- الى اين؟

- الى مركز شرطة "غازي" في منطقة ارخيته.

في مركز الشرطة، طلب من جبار ان يستعمل الهاتف للاتصال بأهله، رد عليه ببرود:

- هذا ممنوع، فانت موقوف.

شعر بهول الصدمة عند سماعه كلمة "موقوف"، فأعد نفسه وخاطبها: لقد دخلنا في الجد!

طالت الجلسة في ضيافة أمن الكرادة حتى الساعة العاشرة مساء، شاهد اثناء الضيافة، افواجا من الناس تدخل وتخرج، او تدخل ولا تخرج. فجأة دلف الى المركز معاون الأمن (علي) الاعور. نادى على جبار وقال:

- يا جبار، وين ابو الجريدة؟

هبّ رأس العرفاء جبار واقفا واوصاله ترتعد، ثم قاده الى مكتب المعاون في الطابق الاول. (علي) رجل أمن مسلكي، جثة ضخمة يعلوها رأس صغير تتلامع صلعته، ووجه قبيح القسمات مشوه نقشت على جبينه الايسر عين ممسوخة شبه مقلوعة. رفّت العين اليمنى حين شاهد المتهم بلا تهمة يقف امامه. تقلصت شفتاه لترسم خطا معوجا ممتدا على امتداد فم اعوج. قال بصوت قبيح كقبح وجهه:

- اخيرا ظفرنا بك.. صار زمان ونحن نبحث عنك. اين تسكن؟

رد عليه باستغراب:

- الذي يتعرف على سيارتي ويحصي حركاتي، لابد وانه يعرف محل سكني.

احتد غضبا وصرخ:

- لكني لا اعرف اين تسكن؟

اصطنع البرود في الرد على المعاون:

- بل المديرية العامة تعرف بالتأكيد، وصاحب الدراجة المرابط امام داري يعرف من أنا...

قاطعه رجل الأمن بسرعة وقال لجبار بارتباك:

- خذه الى الدار ثم المديرية العامة بعد اجراء اللازم.

شقّت سيارة شرطة الأمن طريقها في سكون ذلك الليل وهي تتخفى عن عيون المواطنين تماما كما يتخفى السارق وهو يتسلل في جنح الظلام الى هدفه، والى الدار رقم ٢٦١ في عرصات الهندية. لم يشر هو نفسه الى رقم الدار. انهم يعرفون الطريق جيدا، ويعرفون ماذا يريدون. ان هؤلاء الجندرمة قد مروا على الدار وعلى المئات غيرها في مثل تلك الساعات المتأخرة.

امام باب الحديقة، كانوا بانتظاره: الاقارب والاصدقاء والجيران يرقبون اللحظة التي سيعود فيها المختطف من الشارع. كانت (سعاد) قد اخبرتهم بأن اسم الغائب لم يكن في سجلات مستشفى الطوارىء ولا حتى في دفاتر الطب العدلي. كانوا هناك بالفعل ينتظرون العودة الحميدة والسليمة.

اسرع ولده (رافد) اليه وهو يصرخ: بابا جاء، ثم شبك ظهر القادم واسترق النظر الى وجوه الغرباء. سألهم ببراءة الطفولة: هل انتم اصدقاء بابا؟ اومأ احدهم برأسه وهو يسرع الخطى الى داخل الدار، وانفض الباقون عندما عرفوا ان الغرباء اعداء لا اصدقاء.

عبث اولئك الغرباء بغرف الدار، لكنهم وقفوا مشدوهين امام غرفة المكتبة، ولم يتجرأوا في بادىء الامر على اقتحامها، الى ان قال لهم جبار: لا تخافوا، فهي كتب صماء!

التفت رأس عرفاء الأمن وقال له:

- الله يستر عرضك، اعطني بعض الكتب الممنوعة.

- ماذا تعني بالممنوعة؟

- الكتب الحمراء، بدلا من ان تتعبني، فكل هذه الكتب تحتاج الى ايام لقراءة عناوينها.

- وهل تعرف يا جبار نوع الكتب الممنوعة؟

- اعرف فقط الكتب الشيوعية.

- وكم كتاب شيوعي تعرف؟

- لا اعرف ولكنها ممنوعة.

انفرجت اسارير رجل الأمن حين سمع صاحب الدار يقول له:

- لن ابخل عليك بأي كتاب، فكلها امامك وكلها ممنوعة بنظر اعداء الثقافة والانسان.

فجأة، تسمّرت عينا جبار على ركن ايسر من اركان الغرفة حيث الرفوف العالية. كان على حق، فاللون الاحمر الوهاج يسترعي نظر الجميع، خصوصا حين يطل صاحب الدقن الجميل برأسه من بين تلك الكتب والمجلدات العديدة يتحدى بجبروته وبفكره الخلاق كل الدخلاء والسراق. ان الاعداء يهابونه ان هم سمعوا باسمه، فكيف الحال ان هم تجرأوا على النطق بالاسم؟

كان المنظر رائعا: اللون الاحمر يتحدى الجهلاء من ذوي الوجوه الصفراء. انفاس القارىء المؤمن بعدالة القضية التي يناضل من اجلها مكتومة ، وكنزه يتهدده اكثر من خطر داهم. الغرباء يريدون المساس بالكنز ولكنهم يهابون الاقتراب منه. بقية افراد العائلة واجمون في اماكنهم وهم يتطلعون الى الرفوف العالية.

لحظات خشوع وترقب.. فجأة، يقفز احد المراتب من افراد الأمن وبسرعة خاطفة يمسح بيده تلك الرفوف المليئة بالكتب، فتتساقط العشرات منها وتعرض نفسها بلا تكلف او اجتهاد: المؤلفات المختارة - رأس المال - افلاس الاممية الثانية - مرض الطفولة اليساري - المادية التاريخية - الدولة والثورة - ما العمل؟ و .... و ....

شهق جبار مرعوبا:

- ما هذه الكتب يا استاذ، تريد تسوي ثورة؟

رد عليه وهو يمسك اعصابه من كل طرف:

- يا ثورة أخي، هذه مجرد كتب.

- كلها كتب "ابو لحية".

- يعني؟

- من اين اتيت بكل هذا العدد؟

داعبت انامله ورم اللوزتين الذي يشكو منه باستمرار، فاختنقت العبارة ولم يستطع النطق، بينما واصل جبار حديثه بحذر:

- لماذا تجلب لنفسك المشاكل، وهي بالتالي غير صالحة للقراءة كما يقولون في المديرية.

- تقصد يا جبار غير صالحة للنشر.
- يعني نفس الشيء.
- وما هو رأيك بالكتب الاخرى الادبية او السياسية والقومية، اليست ممنوعة؟
- هل هي ايضا باللون الاحمر؟
- كلا.
- اذن، غير ممنوعة.
- ولماذا الكتب الاخرى ممنوعة؟
- لأنها كتب حمراء كما قلت، والكتب الحمراء خطيرة.
- خطيرة على من يا ترى؟
- خطيرة على الدولة.

سكت، وانشغل الغرباء بنقل الكتب الحمراء وتركوا جانبا كتب اصحاب الذقون الآخرين، ماركس انجلز، واصحاب الشوارب، ستالين، لعلهم لم يسمعوا بهم من قبل، وبالتأكيد لم يسمعوا بهم قط، واكتفوا بما جادت به الرفوف العالية دون غيرها. ثم راح جبار يدون اسماء الممنوعات في محضر "الكبس". وقف هو يرقبه، وانشغل بقضم قطعة الخبز التي اسعفته بها الزوج، ونظرات الوالدة في بريقها الازرق تتوسل ان يفوت الامر بسلامة ان وقف رجال الأمن عند حد الكتب.

توارت سيارة الحكومة بركابها الاربعة عن انظار اهل الدار وهي تشق طريقها بوحشة ما بعد منتصف الليل وتتجه نحو مديرية الامن العامة قرب القصر الابيض في منطقة السعدون.

انتفض معاون الأمن الخفر من مكانه مذعورا حين اقتحموا غرفته في تلك الساعة المتأخرة، وكان يغط في نومه، ثم عاد الى وضعه الطبيعي بعد ان تحلق الزوار حوله على شكل نصف دائرة، والقوا بتلة من الكتب الحمراء على منضدة عتيقة وعلى الارض. قال المعاون الخفر:

- في اية منطقة كبستم الوكر الحزبي؟

لم يدم حلمه طويلا.. فاق من غيه على اثر سماعه اسم "المتهم". تراجع عن كلامه، واضاف:

- عفوا، لم اكن اقصد ذلك، لقد ظننت بأنك صاحب الوكر.
- اي وكر تتحدثون عنه. انا صحفي وكل هذه الكتب تعود اليّ شخصيا.
- الا تعرف بأن حيازة هذه الكتب ممنوعة؟
- لا، لا اعرف ذلك لأن كل هذه الكتب ولربما اكثر، وبالتأكيد هي اكثر بكثير، تباع في مكتبة بغداد بشارع الجمهورية وغيرها من مكتبات شارع المتنبي.

لم يجب المعاون (مجيد)، فاشار على جبار بحركة، ادرك مغزاها بأنه سيكون ضيفا على المديرية العامة في احدى الزنزانات.

لم يغمض له جفن لما تبقى من الليل. ظل يحدق في شباك الزنزانة الصغير المعلق في اعلى الجدار لعل الفجر يسرع ويطرد الظلام الموحش، وليفرش الارض بخيوط الشمس الفضية، لتطهير عفونة ورطوبة الغرفة الكئيبة.

مع صيحة الخفير.. خرج الموقوفون من زنزاناتهم لقضاء حاجة الصباح.

في زحمة غرف القاطع الخاص بالموقوفين اليساريين، تصافحت الايادي وشدت على بعضها بقوة. التقى بالاصدقاء: (ميخائيل) الذي اعتقلوه في دار الوكر الحزبي المخصص لمطبعة الحزب. الشخصية الفلاحية المعروفة (كاظم فرهود)، اختطفوه بالقوة اثناء احدى "الزركات" في الريف. (كاظم الصفار) ضبطوه وهو يقوم بتوزيع المنشورات. الشباب الجدد انتشلوهم من داخل الكليات لأن عروق الثورة والتجديد تسري في عروقهم.

التفت اليه (فرهود) ابو قاعدة وقال:

- لماذا اعتقلوك؟
- لقد اختطفوني من الشارع.
- وماذا كنت توزع؟

ابتسم له وقال مازحا:

- خبز الصباح.. الشعب جوعان.

تدخل (الصفار) ووجه كلامه بنوع من الجدية في الحديث:

- هل لمظاهرة سينما (النصر) قبل اسبوع علاقة بالموضوع؟
- كلا يا كاظم، لم يظفروا بي آنذاك. هل تذكر عندما كنا نسير جنبا الى جنب ثم اختفينا عند صديقنا مجيد صاحب مؤسسة ريم التجارية بجانب فندق بغداد؟

- اذن ما هي التهمة؟

- وهل يحتاجون الى دليل كلما ضاقت بهم الامور؟

- على كل حال، ضبط كتب ممنوعة لا تختلف عقوبتها عن ضبط منشورات!

افترشوا ارض احدى الزنزانات، وراح ينصت الى احاديث وقصص من افواه المناضلين العنيدين القدامى والجدد في مسيرة الكرامة.

اقتسموا الخبز واللبن وكباب الكاظمية في الظهيرة، والشباب يستعيدون في ذاكرتهم النشطة دروس الماضي والحاضر بل وآفاق المستقبل. لم يستغرب ذلك مطلقا، فأن تاريخ الحركة الثورية زاخر، وجنودها اوفياء يسلمون الراية من جيل الى جيل. كان يردد دائما مع نفسه، ويردد معه الشباب قول شاعر المقاومة الفلسطينية (معين بسيسو):

انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح،

واحمل سلاحي لا يُخفْكَ دمي يسيل من السلاح.

في الساعة السادسة مساء، جاءه مراسل مدير الشعبة السياسية الاولى وزف في أذنه "بشارة" التحقيق. قاده الى الادارة المتخصصة بمطاردة المدافعين عن قضايا الشعب، وكان يتربع على مقعد المسؤولية فيها وجه ليس غريبا عليه او على الحركة الثورية، فهو شرطي مسلكي منذ عهد ما قبل تموز وبعدها. ما ان لمحه، حتى صرخ في وجهه:

- اما تزال عنيدا؟

صعقت ذاكرته صيحات مشابهة لتلك الصيحات في اروقة مديرية التحقيقات الجنائية السابقة ايام نوري السعيد، ثم نباح المحقق (ساكن النورجي) قبل ثلاث سنوات، وما تزال اصداء صرخات الجزارين في الاقبية التي افترشها الاحرار طيلة تسعة اشهر تمزق جدار الصمت الرهيب الذي يسبق العاصفة كلما ارتفعت كلمة الحق الى الاعلى. رد على المسؤول:

- كلا لست منتميا الى اي حزب.

- وماذا بشأن هذه الكتب؟

- انها كتب علمية ولم تكن وحدها في حوزتي بل كانت ضمن خمسة الاف كتاب.

- اذن، لماذا القوا القبض عليك؟
- لا ادري وانا استغرب مثل هذا العمل.
- وهل عندك كتب اخرى من صنف الممنوعات؟
- . . .
- هل تعمل في الصحافة حاليا ؟
- كلا.
- هل انت متأكد من انك غير شيوعي؟

داعب المحقق "الذكي" و"العليم" قائلا:

- الشيوعي هو كل من انتمى الى الحزب الشيوعي، وبما اني غير منتم، فهذا يعني. . .

لم يدعه يكمل كلامه، قاطعه حين قال بعصبية:

- بلا فلسفة، نعرف انك صحفي، اخرج ولا ترنا وجهك مرة اخرى.

نظر الى قريبه (غانم) الذي توسط لدى السلطات المعنية لاطلاق سراحه، وسأله:

- هل تصدق يا غانم بأني جئت اليهم؟ وهل تعتقد اني مشتاق الى رؤياهم؟

في صباح اليوم التالي، وبينما كان يتناول فطوره، القيمر والدبس المحبب دائما الى نفسه منذ الطفولة، اطل عليه (فخري) كعادته متخفيا مسرعا حذرا من عيون الشرطة، بعد ان علم بالاختطاف من الشارع ومن ثم اطلاق سراحه السريع، فلّوح له بالتحية وقال:

- بشّر.. سلامات؟
- اطمئن.. سلامات.

شدّ على يده بقوة قائلا:

- احترس لتحركاتك، فأنت الآن تحت الرقابة. اياك ان تقع فريسة في يد "الكلاب السائبة".

عندما خرج فخري مودعا، نظرت (سعاد) اليه نظرة حب وحنان وسألته:

- هل عدت الى السياسة يا عزيزي؟
- لماذا تسألين يا حبي؟

- لأني خائفة.

- من اي شيء تخافين؟

- لقد اصبحت هدفا سهلا.

- ومتى كنت غير ذلك؟

امسك بيدها، وراح يداعب خصلات شعرها الاسود الطويل، مطيلا النظر الى عينيها السوداوين، فدغدغ عواطفها حين قال لها:

- انا احبكم جميعا، فلا تقلقي ابدا.

- بل انا خائفة.

همّ بالخروج من الدار، لكنه عاد اليها ثانية وطبع قبلة دافئة على خدها وهمس في اذنها احلى العبارات:

- انا احبكم.. فانتم جميعا جزء من "الوجدان".

* * *

كان الوطن يعيش مرحلة نهوض شعبي جديد، والقوى الديمقراطية تجمع صفوفها وتتهيأ لنفض غبار التخبط السياسي، والشعب يرقب بحذر ويقظة تلك المحاولات المتصاعدة التي تقوم بها العناصر والقوى السوداء للوثوب الى مراكز القوى من جديد.

كان الاقطاعيون المنزوون في جحورهم منذ تجميد قانون الاصلاح الزراعي على يد انقلابيي شباط يتحينون الفرصة لبعث مجدهم المثلوم عن طريق تحالف كسيح مع بقايا وفلول بورجوازية المدن الذين يتحلقون بحلقات مبعثرة في احزاب وتكتلات، بعد ان لمسوا تخبط النظام في عمليات التأميم وعلى يد اشخاص وفئات لا تؤمن اصلا بالتحولات الاشتراكية، وادركوا ضعف الحلقة في مسلسل الاحداث، في وقت تميز بنمو وتعاظم دور القوى الوطنية خصوصا، عندما تلاحمت قوى الثورة الوطنية فوق ذرى كردستان العراق في صورة رائعة جسدها ذلك التلاحم المصيري لقواها الضاربة "الانصار" و"البيشمركة" وفي ارياف الجنوب الغاضب.. فكان التناقض واضحا والصراع عنيفا.

في لقاء عاصف، اختلف عن كل اللقاءات العديدة آنذاك، طرح (فخري كريم) خارطة "العمل الحاسم" وجلس القادمون من اطراف بغداد يستمعون الى تفاصيله.

كانت (سعاد) تقوم بواجبها في استضافة الاجتماع الذي استغرق ١٢ ساعة. توقف المجتمعون عن الحديث عندما تساقطت اكواب الشاي منها وهي خلف باب الغرفة الواسعة. ركض اليها، فوجدها ترتعش خوفا ووجهها اصفر اللون. قالت متأسفة بأن الاكواب سقطت بسبب ارتعاش يدها وهي تستمع الى حديث "الثورة" و "توزيع المهام" و "السلاح لدينا" و"انت" مسؤول عن قاطع الكرادة. احتضنها بقوة وخفف عنها المخاوف مؤكدا لها بأن ما تسمعه هو سيناريو لعمل سياسي على الورق.

في تلك الليلة، عانده الأرق الصادق وكان لصيقا به. لقد ازدحمت وتصارعت الافكار في رأسه. ان الوضع سيء ومائع، لكنه كان في نفس الوقت حريصا على ان لا تتكرر مأساة اخرى، فتكون كارثة جديدة قد انهكت قوى الشعب وهي لم تزل في مرحلة النمو. رغم ذلك، احس انه يمتلك سرا خطيرا.

فجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان.

ذهب الى المطبعة كالمعتاد وهو يحمل هموم واسرار الأمس. كان يتطلع الى يوم جميل قد يحقق الأمل، فيترجم الاقوال بالافعال، ويتحول الحلم الى حقيقة، ويجد العراق يخطو خطوة الى امام بهمة وعزيمة اجيال الانتفاضات. لم يغب عن باله مطلقا ذلك البريق المنتظر كلما طوى يوما حتى لو كان رتيبا هادئا.

امام مطبعة (التقدم)، كان (ابراهيم علاوي) واقفا حائرا، يلتفت الى كل عابر سبيل في تلك المحلة وقد بدا الارتباك والاضطراب واضحا على تحركاته العفوية، وما ان لمحه قادما، حتى صوّب اليه سهامه الجارحة حين فاجأه بالسؤال:

- هل علمت بالانقلاب؟

لم تصعقه المفاجأة رغم الاحداث التي يعيشها والتي عايشها منذ سنوات لحدوث انقلاب في البلاد.. لكن الهدوء يبسط سيطرته على الشارع، والناس تسير كالمعتاد باتجاه اعمالها او تتحشد في الدوائر والمؤسسات، واذاعة بغداد تنشد اغاني فيروز الجميلة كما اعتادت ان تقدمها المحطة مع الساعات الاولى للصباح. لم يرد على ابراهيم، بل استمر في طريقه باتجاه غرفة الادارة الملاصقة لسلم عمارة "الاخوان" المطلة على شارع السعدون.

اعاد (ابراهيم) سؤاله.. عندها، عاد اليه وهو يبتسم قائلا:

- اهي كذبة نيسان يا ابراهيم؟

ارتجفت الكلمات على لسان ابراهيم وهو يؤكد:

- لا امزح معك، لقد قمنا بالانقلاب مساء امس.

اطال النظر الى ابراهيم لعدة ثوان، ثم سأله:

- من قام بالانقلاب؟

- المخلصون داخل الحزب.

تحسس مفتاح غرفة الادارة يتأرجح بوحشة مع بقية المفاتيح وهو ينادي على العم (فرج) في رأس الدربونة: فنجانين قهوة يا عم فرج بسرعة الله يحفظك.

طلب منه ابراهيم ان يصغي الى ما سيقوله بهدوء وبدون انفعال وان لا يقاطعه حتى يفرغ من حديثه، بينما كان هو يتوسل اليه ان يتركه وشأنه ويدعه يرتشف قهوة الصباح المحببة اليه.. الا ان الصديق العزيز لم يدع له المجال لتكملة مراسيم الصباح في مطالعة الصحف.. فراح يروي له تفاصيل الانقلاب:

منذ احداث ما بعد تموز، خصوصا بعد مؤامرة الشواف واحداث كركوك وفشل محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، لم يستطع الحزب القيام بالانقلاب لاستلام السلطة. بعد انقلاب شباط، ومجيء حكم عارف وبروز خط "آب" السيء، كانت كوادر قيادية وقاعدية تتحين الفرصة للتخلص من القيادة الحالية.. هذه القيادة التي تسببت في الكوارث الوطنية وما تزال. ان الحركة الثورية بحاجة الى قيادة شابة تنتشلها من المحنة وتضع في مقدمة برامجها مسألة استلام السلطة عن طريق الكفاح المسلح. ان الوضع الداخلي في بنية الحزب بحاجة الى تغيير جذري، ولهذا السبب قمنا بالانقلاب..

لم ينس ان يضيف في نهاية حديثه بأن معظم كوادر الحزب مع "الانقلابيين".

خلع نظارته الطبية، وطوى صحيفة الصباح، ثم قال لابراهيم:

- هل افهم من كلامك ان الحزب اخطأ بعدم استلام السلطة؟

- بالطبع لأن الفرص كانت متوفرة والشارع يطالب باشراك الحزب في الحكم.

- يعني انك تؤمن بالانقلاب العسكري ضد سلطة وطنية.

- اذا تطلبت ذلك مصلحة الحزب والشعب.

– وماذا بشأن توفر الظروف الموضوعية للقيام بثورة اشتراكية. والثورة الوطنية الديمقراطية تطوي عامها الاول في ظروف معقدة وفي اعقاب مرحلة..

قاطعه وقال بحدة:

– هذه تبريرات غير منطقية وغير مقبولة.

– الم يطرح الحزب آنذاك رأيه بخصوص التعاون مع البورجوازية الوطنية كسياسة واضحة وصريحة ومؤسسة موضوعيا لواقع المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها البلاد، وتحذيره الصريح بأن اي عمل يستهدف اسقاط السلطة القائمة لا يمكن ان يكون الا مؤامرة استعمارية يجب الرد عليها بحزم؟

رد ابراهيم وارنبة انفه تتراقص مع كل كلمة يقذفها بشدة:

– هذه السياسة كانت خاطئة نتيجة ضعف التركيب الطبقي للحزب وانسياقه وراء المفاهيم السائدة آنذاك المبالغة باهمية ودور الاحزاب والحكومات الوطنية التي تستلم السلطة في اعقاب ثورات وطنية ديمقراطية في تحقيق خطوات الانتقال السلمي الى بلوغ الثورة الاشتراكية.

– وماذا بشأن التعاليم الحية من خلال التأكيد على مهمة مواصلة الانطلاق من سياسة الحزب الثابتة في التحالفات الوطنية وبالاعتماد الواسع على نضال الجماهير من اجل الدفاع عن الاستقلال الوطني الذي كان يتعرض الى الخطر، ومن اجل الدفاع والتمسك بحقوق الشعب وحرياته الديمقراطية..

– لقد خانت البورجوازية الوطنية.

– الم يطرح الحزب شعار "تضامن – كفاح – تضامن" في محاولة لشل المساومة لدى البورجوازية ومن اجل دفعها الى امام لاتخاذ مواقف حازمة ضد الاستعمار وشركات النفط..

– هذه الشعارات كانت "تحصيل حاصل".

– دعنا نعود الى نقطة البداية. هل تسمي عملية التمرد الانقلابية كما تقول الآن بأنها صحيحة؟

– لماذا تسميها تمردا. انه عمل طبيعي داخل بنية الاحزاب.

– في الاحزاب البورجوازية طبعا.

- . . . .

- وهل انت متأكد من ان كوادر الحزب معكم؟

اومأ برأسه دون ان ينظر اليه، بينما واصل الحديث بجدية اكثر من السابق حين قال:

- واين كانت كوادركم في تلك الايام وقد مرت السنون على ما تقول؟

لم يرد ابراهيم على السؤال، فوجدها فرصة سانحة لمواصلة التحدي، فقال:

- وماذا بشأن القيادة الجديدة للحزب؟

رفع ابراهيم رأسه قليلا وهو ينظر الى محتويات الغرفة، واجاب بارتباك:

- قيادة مؤقتة تهيء الظروف لعقد مؤتمر وطني.

- وهل هذا العمل شرعي؟

طأطأ علاوي رأسه ثانية وراح يمعن النظر الى بلاط الغرفة المتلامع كأنه يعد عددها، وقال بصوت خافت:

- مقتضيات مصلحة الحزب. . .

- اذن، نساعد على تكريس الانشقاق داخل صفوف الحزب؟

انتفض ابراهيم عند سماعه عبارة "انشقاق" ورد محتجا:

- الانقلاب حركة تصحيحية لمسيرة خاطئة.

حاول ان يقنعه بأسلوب بعيد عن الاستفزاز خطورة اتباع طريق الانقلابات والتمردات غير الشرعية داخل التنظيمات الحزبية، بل حتى اسلوب التكتلات، ولم ينس ان يذكره بعمليات الانشقاق السابقة التي تعرض لها الحزب خلال مسيرة طويلة من كفاحه، وما آلت اليه تلك الانشقاقات، وكيف حرص راكبو قطار الشهادة على صيانة وحدة حزبهم، فكرا وتنظيما رغم كل الضربات الموجعة التي تلقاها قبيل وبعد ثورة ١٤ تموز.

لم يقتنع ابراهيم، كما لم يقتنع هو بحجج ابراهيم المستهدفة تبرير عملية الانشقاق الجديدة والخطيرة في تلك الظروف وفي مرحلة المخاض.

قال ابراهيم:

- اننا نعمل على تجاوز اخطاء الماضي وبناء ستراتيج جديد يستهدف السلطة اول ما يستهدف. . اي ان نستلم السلطة حالا.

رد عليه بتساؤل:

- اتعتقد أنكم بهذا الانشقاق ستحققون هدفكم؟

امتعض ابراهيم واجاب بشدة:

- ان عملنا هذا ليس انشقاقا بل تحقيق رغبة الغالبية الكبرى من الاعضاء.

استعاد قليلا من ضبط النفس، وقال لابراهيم:

- اسمع يا رفيقي: "ان مهمة الحزب المباشرة لا يمكن ان تكون دعوة جميع القوى الموجودة الى الهجوم الآن بالذات، بل يجب ان تكون الدعوة الى خلق تنظيم ثوري آهل لتوحيد جميع القوى ولقيادة الحركة لا بالاسم وحسب، بل بالفعل ايضا. اي ان يكون مستعدا على الدوام لتأييد كل احتجاج وكل غليان وللاستفادة منها في زيادة وتعزيز القوات الحربية الصالحة للمعركة الفاصلة.." ثم اردف متسائلا: فأين موقعكم يا ترى وقد ارتضيتم ان تكونوا خارج التنظيم؟

احتد ابراهيم قائلا:

- اننا موجودون في كل مكان، والقوات المسلحة التي تتحدث عنها موجودة في منطقة الاهوار بالجنوب. سنخوض كفاحا مسلحا من هناك..

لم يكمل الحديث، فقد دخل الى ادارة المطبعة احد المراجعين دون ميعاد.. وخرج ابراهيم مسرعا من الباب الثاني للمطبعة ملوحا له بالوداع.

في المساء، جاءه (حسين جواد الكمر) ليتمم ما بدأ به في الصباح رفيقه ابراهيم. اصر على موقفه واكد له وللقادمين من صفوف المنشقين استنكاره للعملية الخاطئة بكل قوة.

في آخر قائمة زوار الليل، جاء (فخري)، وقبل ان يعظ، ابتسم له وقال:

- اقتصد في كلامك يا فخري، فأنا من عشاق الحرية والشرعية.

عانقه بحرارة، وجلسا يكملان ما تبقى من طعام العشاء.. رن الهاتف، وكان المتحدث (احدهم) يصرخ:

- ما الخبر؟

- لا شيء.. انا مع الشرعية.

* * *

٥ حزيران ١٩٦٧

في قمة تلك الازمة الخانقة على كافة الصعد، وفي وقت يتسابق فيه التاريخ مع صانعيه، هاجمت اسرائيل مصر. اذاع راديو بغداد بيانا عسكريا صادرا عن القيادة العامة للقوات المصرية المسلحة جاء فيه ان الطيران الاسرئيلي قام بشن غارات جوية مكثفة في عمق الاراضي المصرية مستهدفا فيها المطارات العسكرية، وان وسائل الدفاع الجوي ترد على الغارات بنيران مقاومة عنيفة حيث تم في الدقائق الاولى اسقاط ٢٣ طائرة معادية.. وان المعارك ما تزال دائرة.

سارع الى جهاز الراديو وراح يبحث عن محطات عربية تقول الصدق. دار القرص على اذاعة دمشق، وكان المذيع قد اعلن عن اشتراك القوات السورية في المعركة اسنادا لمصر. محطة عمان تذيع المارشات العسكرية وبلاغات الانتصارات للجيش الاردني في القدس.

في مساء ذلك اليوم، افترش بساط الحديقة مع الاصدقاء الجيران يستمعون الى الاذاعات العربية ويتابعون انتصارات القوات العربية في معركة التحرير. كان يسترجع مع كل بيان او بلاغ عسكري يذاع، ذكريات عام ١٩٤٨ حين كان شابا يانعا مندفعا باحساس قومي مشروع ضد الاستعمار يلعن ويصب غضبه على اعداء شعبه في بغداد والقاهرة وهو يتابع معارك جنين وطولكرم ونابس والفالوجة ورفح ومشمار هايدرن.. الا انه في تلك اللحظات، لم يمسك باعلام الدول العربية ليثبتها على مواقع العمليات العسكرية داخل فلسطين.. ان الايام والتجارب كانت قد عركته وصقلت افكاره، وجعلته يرتبط فكرا وعقيدة ومعايشة بقضايا مصيرية عديدة. عرف وادرك جيدا ان تكتيك معركة اليوم يختلف عن معركة الامس.

قطع الصديق (صلاح الملاك) سلسلة ذكرياته حين سأله:

- هل تعتقد بأننا سوف نحقق النصر على اسرائيل هذه المرة؟

طبعت الابتسامة بصماتها على شفتيه وهو يرد على صلاح:

- النصر العسكري ام السياسي؟

- ولم لا نحقق النصرين معا ما دامت الدول العربية دخلت المعركة موحدة؟

اعتدل في جلسته متربعا على سجادة الحديقة الخضراء، وقال:

- هل تعتقد ان المعركة عربية شاملة.. اعني معركة السعودية ودول الخليج والعراق كمعركة عربية موحدة؟

- الم تشارك جيوشها في المعركة حاليا؟

- ان المعركة تستهدف نظامي عبد الناصر وسوريا بالذات.

تدخل الصديق (مجيد الحاج حمود) في الحديث ووجه كلامه الى صلاح:

- انها ضربة موجهة الى رأسي الحربة في حركة التحرر الوطني العربية.

خيم هدوء على الجو.. واذاعات العواصم العربية تواصل بث برامجها الى ساعات متأخرة من الليلة الاولى.

وتطول الايام الى اربعة.. كان خلالها المذيع (احمد سعيد) يغرد من اذاعة "صوت العرب" بالقاهرة، و(محمد البكار) من اذاعة دمشق، و(ناطق سليم) من بغداد.. يذيعون بيانات الانتصارات في ساحات العمليات الشمالية في سوريا، والجنوبية في مصر، والشرقية في الاردن، فتخرج كاذبة مشوهة تدحضها اخبار وتعليقات الاذاعات والصحف العالمية وهي تؤكد على ان جيش الدفاع الاسرائيلي قد اكمل احتلال صحراء سيناء ووقف على الجانب الايمن من قناة السويس، وان هذا الجيش اكمل احتلال القدس وكل مدن الضفة الغربية، كما احتل مرتفعات الجولان السورية.

انهارت اعصابه، فقد دخلت حرب الايام الستة التاريخ من اضيق ابوابه.

في اليوم السادس، خفتت الاصوات العربية من الاذاعات، ليعلو صوت الحكام العرب: انها مؤامرة استعمارية قذرة - امريكا تحارب العرب وليست اسرائيل - السلاح الامريكي اقوى من السلاح الروسي - خيانات الضباط في سيناء مصر وقنيطرة جولان سوريا - و... و... تعددت الاسباب، والمصيبة واحدة.

في اليوم السابع، صرخ في وجوه هؤلاء الحكام واولئك القوم؛ لا، لم يكن الخامس من حزيران عدوانا او هزيمة او نكسة عربية بقدر ما كان "محنة" تمر بها البلاد العربية وحركة التحرر الوطني العربية التي تجسدت وتمثلت بعوامل ضعف بارزة.

دفعته تلك الاحداث المأساوية الى العودة للكتابة الصحفية بعد انقطاع طويل. كتب عدة مقالات في جريدة (التآخي) الناطقة بلسان الحزب الديمقراطي الكردستاني، ورئيس تحريرها صالح اليوسفي (اغتاله صدام حسين بطرد ملغوم في اواخر

الثمانينيات)، وكانت الجريدة قد صدرت قبل شهرين ونصف في اعقاب اتفاق بين الاكراد وسلطة عبد الرحمن عارف، بعد انتصار قوات الاكراد والشيوعيين على قوات عارف في معركة (هندرين) الشهيرة وبقيادة الملازم (خضر).

لخص اسباب المحنة برؤوس اقلام ناطقة:

- وأد ثورة ١٤ تموز الوطنية الديمقراطية في العراق ومعاداة عبد الناصر لقادتها.
- اغتيال الثورة في انقلاب شباط الاسود بتخطيط وتنفيذ من قبل وكالة المخابرات الامريكية.
- غياب دور الاحزاب الوطنية في مصر واضطهاد قادتها وعناصرها وزجهم في السجون.
- انفراد حزب البعث في سوريا بالحكم.
- معاداة الانظمة العربية لحركة المقاومة الفلسطينية المندلعة عام ١٩٦٥
- غياب الجبهات الوطنية الفاعلة في اقطار دول المجابهة.
- عدم استخدام النفط العربي سلاحا في المعركة.
- غياب الديمقراطية وانعدام الدور الشعبي في عمليات سياسية وعسكرية.
- تحالفات الرجعيات العربية في المنطقة مع الامبريالية العالمية وطليعتها، امريكا.

* * *

آب/اغسطس ١٩٦٧

فتور في الاعمال والمهن.

انعكس الوضع المتردي على المطبعة. تناقصت المواد اللازمة لتسيير العمل واهمها الورق بانواعه واحجامه.

قرر ان يتجه الى عمل آخر.

قال لشريكه (يوسف عويد):

- الى متى نصمد بوجه هذه الفوضى؟

اجاب يوسف:

- لماذا لا نجرب حظنا مع المؤسسة العامة؟
- الوضع هناك اسوأ من وضع تجار القطاع الخاص.
تساءل ابو نهاد والحيرة تمتزج مع كلماته:
- ماذا تقترح ان نعمل؟
- انا افكر ببيع حصتي في المطبعة.
- ماذا تقول..هل تود العودة الى الصحافة؟
- كلا.. سوف اجرب الحظ في البيع والشراء.
ابتسم يوسف وحاول ان يمزح معه مستغربا من الجواب، فقال له:
- هل ستطرق باب التجارة؟
- كلا. سوف ادخل الى اي مخزن، وبدلا من شراء حاجتي، اقوم ببيع الحاجات للناس.

لم يكن يمزح ، فقد سبق له ان اتفق مع اصحاب مخزن "الشيخ" المتواضع في عرصات الهندية والقريب جدا الى منزله، اتفق على البيع والشراء وبسعر زهيد. وكان قد اتفق مع صديقه ورفيق دربه (فخري كريم) على ادارة المخزن سوية.

باع حصته في المطبعة الى (صباح الدرة)، وسلّم مفاتيحه الى (خالد السلام) نيابة عن (الدرة). جلس مع (فخري) في ذلك الدكان الصغير ليخوض تجربة جديدة.

مرت الايام اسرع مما كان يتوقع.

تحول ذلك المخزن الصغير في الشارع العرضاني لعرصات الهندية الى خلية نحل لا تهدأ.

سحب المقر الجديد البساط من تحت اقدام من تبقى من اصدقاء في مطبعة التقدم.

شهد المشتمل الملحق بالمخزن لقاءات واجتماعات الرفاق والاصدقاء القدامى والجدد.

اهمل التسويق اليومي لبضائع المخزن بسبب انشغاله مع الاصدقاء.

انفك كثيرون من "المعاميل" الزبائن عن التبضع بسبب نقص المواد الضرورية.

عزف آخرون عن التردد بسبب مرابطة اصحاب الدراجات امام المخزن.

انشغل فخري مع الاصدقاء الذين ارهقوا ميزانية المخزن بقوائم الدين غير المسدد.

خلا الجيب من الفلوس، فشحت المواد اكثر، وخلت الرفوف من البضاعة.

صرخ في وجه فخري:

- ما العمل؟

اطرق فخري يفكر برهة، ابتسم وقال:

- بدأ العدو يدرك جيدا اننا . .

- اصبحنا وكرا؟

- بل قل مصيدة.

قال لفخري:

- اذن سوف انقذ ما يمكن انقاذه واعود الى (يوسف) في المطبعة قبل فوات الاوان.

اغلق المخزن بعد ان طارت وتبخرت الفلوس. طرق عائدا الى صديقه يوسف، وعاد (فخري) الى مقره الذي عشقه منذ الصغر.

وبعودته الحميدة الى المطبعة، عاد اصحاب الدراجات الهوائية الى نحورهم خائبين، وعاد النحل الى خليته السابقة.

* * *

في يوم هادىء من ايام الاسبوع غير المسجل في الذاكرة الخازنة، خطرت بباله الخالي من المشاريع او المشاكل، ان يقوم بزيارة زميل عزيز يعتكف في داره في حي الصحفيين باليرموك منذ ان ترك وراءه السجن رقم (١) عام ١٩٦٣، وآثر الابتعاد عن الصحافة والسياسة معا. خرج من ادارة المطبعة بصحبة فخري، ثم سار كل منهما في دربه. لم يلحظ في الشارع اية حركة غير اعتيادية. كان النجار الجار، والانسان الطيب (عبد المنعم) يحاور ولده ويضحك معه بصوت جهوري تهتز له بقية الدكاكين والمحلات التجارية كلما ضحك، بحيث يطل اصحاب المكاتب التجارية في عمارة الاخوان برؤوسهم متوسلين اليه ان يضحك بصوت هادىء، ويتبرع (عدنان الحافظ) صاحب مكتب بابل للاعلان، بالتوسط لدى منعم لتخفيف رنة الضحك. الفنان (احمد سلمان)، تداعب انامله الرقيقة اوتار عوده الثمين وهوينغم لحنا جديدا. العم (فرج) يوزع الشاي والقهوة على المستطرقين الوافدين الى شارع الرواف. ساعي غرفة زراعة

بغداد يهرول الى الخارج كلما دلف اليها زائر من الفلاحين او السراكيل لمقابلة (عدنان محمد) مسؤول الغرفة، ليعود وفي يده "استكان" الشاي للضيوف او المراجعين. الكل في الدربونة من الجيران، يؤدون اعمالهم بهدوء واطمئنان.

في بيت الصديق والزميل (لطفي بكر صدقي) صاحب جريدة (صوت الاحرار) الملغاة، اعادا ذكريات الماضي وايام السجن السوداء ومشاكل العمل الصحفي في بلاد الجهالة، فخطرت بباله فكرة وهو يسلمه نسخة من كتابه الصادر قبل فترة قصيرة "صحافة العراق - تاريخها وكفاح اجيالها"، فكرة اوحاها له لطفي وهو يتحسر على ذلك التاريخ وفرسانه من الرعيل الاول. طرقت فكرة تأليف كتاب عن "اعلام في صحافة العراق" باب افكاره وهو يمعن النظر الى فارس من فرسانها طالما صال وجال في ساحاتها الواسعة لفترة طويلة منذ ان اصدر مجلته التقدمية (الوميض) عام ١٩٣٠.

عاد الى المطبعة مسرعا، وفي رأسه تدور اسماء اولئك الاعلام الذين سوف يسطرون صفحات مؤلفه الجديد. لم يسمع اصوات المكائن، وشاهدالعامل (جبار حسين) يقف حائرا امام باب الادارة على غير عادته. دخل الادارة فصعق لمنظر الكتب والاوراق وهي مبعثرة بشكل هستيري. سأل العامل عن سبب هذه الفوضى، فراح يقص عليه ما حدث وجثته الضخمة ترتجف وتضيف لروايته الوانا من العجب والاستغراب.

قال جبار:

طوقوا المنطقة المحيطة بالشارع بسيارات الأمن، ثم اقتحموا المطبعة بقوة عشرة رجال يقودهم ملازم الأمن (ابراهيم زيني) وكان في الادارة مع يوسف، العامل (كريم حواس) - كريم شقيق العامل الشيوعي (مطشر حواس) الذي اعدمه احمد حسن البكر بتهمة (التجسس) بينما هو من اصلب الشيوعيين الذين قاوموا رجال الأمن قبل القاء القبض عليه بالرصاص) - من جماعة (عزيز الحاج). عبثت اياديهم بكل الاوراق والنشرات، فلم يعثروا الا على نشرة واحدة في درج المكتب. اعتقلوا يوسف وكريم وظفروا بالمهندس (ابراهيم علاوي) في مكتبه بالطابق الاول، ثم انطلقوا بهم في سيارات (فولكس واكن) حمراء.

كف جبار عن الكلام للحظات، ثم اضاف:

- وماذا نعمل الآن؟

- عودوا الى العمل.
- لكن..
- لا تخف، فقد اكتفوا اليوم بصيد لم يتوقعوه.

تدور عقارب الساعة كل يوم متسارعة.. تمتد وتكثر اجتماعات الاصدقاء في وقت يساق فيه العشرات الى المواقف والمعتقلات من جديد. رغم ذلك، كان واثقا من يوم قريب طالما ان العمل الحاسم ما يزال يحتفظ بمن يحفظ اسراره. كان في كل مرة يزور فيها (يوسف) في موقف "الفضيلية" ويراه وراء القضبان الحديدية، يلتقي بوجوه جديدة. اراد ان يبوح له بالسر المرتقب، ليخفف عنه وطأة السجن ويمده بمصل الصمود والتحدي، لكنه يتردد ويقنع نفسه بأن (ثابت حبيب العاني) و (محمد الخضري) اللذين عجزت ادوات التعذيب في مخابرات وزارة الدفاع والأمن العامة من انتزاع ذلك السر، سيقومان باداء الواجب تجاه يوسف عندما يحين الوقت وتدق ساعة الحساب.

فجأة.. توقف كل شيء.

كانت الايام حبلى بالمفاجآت، وكان المخاض عسيرا، والوطن ينتظر موعدا للميلاد الجديد.

ففي الخامس من شهر حزيران ١٩٦٨، اجرت العناصر القومية، وبقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، تمارينها واستعراضاتها في شارع الرشيد وساحة التحرير في مظاهرة لم يتجاوز عدد المشاركين فيها مئتي شخص يقودهم (احمد حسن البكر) دون ان تعترض سبيلها الشرطة او رجال الأمن. استغرب الناس نزول البكر الى الساحة مرة ثانية وهو الذي اكد قبل مدة الى مجلة (الف باء) ابتعاده عن السياسة وانصرافه الى تربية الابقار.

في المساء، كانت الآلة التشرينية تدق ابواب العناصر الشيوعية والديمقراطية دون الابواب الاخرى. عقارب الساعة تشير الى الثانية بعد منتصف الليل. كان على موعد جديد مع زائر الليل.

القى ببصره المتعب من السهاد من فوق تكية السطح العالي، فوجد سيارة "فورد ستيشن" بيضاء تسد مدخل باب الحديقة، وقد ترجل منها المعاون اياه (علي الاعور) ومعه شلة من الافراد. دارت زوجته (سعاد) دورتين في فراشها وسألت:

- من هناك يا عزيزي؟
- من تعتقدين يأتي في مثل هذه الساعة غير الغرباء؟
- وهل عادوا الى عاداتهم القديمة يا حليمة؟
- وهل يملون العمل في جنح الظلام وهم سراق الليل.

قبل ان يهبط السلالم باتجاه الباب الرئيسي للحديقة، سمع الوالدة التي سبقته الى هناك تقول للزائر غير المرغوب فيه وهي قد وعت الامور السياسية في مثل تلك الحالات منذ سنوات الوالد، سمعها تقول:

- لماذا لا تتركون ابني يا حكومة؟
- دلف الغرباء المكروهون الى الداخل دون دعوة، وقال المعاون:
- لنختصر الوقت، ولا تتعبنا.
- ماذا تريدون؟
- اللافتات والشعارات.

ضحك المتهم بصوت عال والتفت الى الزوجة والوالدة، فرآهما يضحكان ايضا. غص الحاضرون بالضحك عندما شعروا بغرابة الكلام من المعاون الذكي، فاردف (علي) بخجل مصحوب بعنجهية رجال الأمن:

- هكذا اخبروني ببرقيتهم السرية.
- من اخبرك مولانا؟
- المديرية العامة.

رد عليه والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- لا املك سلاحا ولا لافتات سوى مذكرة علنية من رئيس تحرير جريدة (التآخي) المعطلة حول ضياع الحريات العامة في البلد وهي ليست سرية. هل تريد ان تقرأها؟

لم يجب، بل طلب من احد ازلام الأمن ورقة وقلماً وراح يدون في محضر "الكبس" ما يلي:

.. وبعد اجراء التحري اللازم، لم نعثر على اي دليل او جرم يمس سلامة الوطن او ما يعكر صفو الامن والاستقرار.. للتفضل بالعلم."

خرج الزائرون، وعاد سكان المنزل الى فراشهم بسلام وهدوء. استلقى على فراشه، فسمع الزوجة تخاطبه:

- لماذا يزعجون البعض في مثل هذه الساعة، ويتركون البعض يتظاهرون في الصباح بكل امان؟

دست نفسها في فراشه، فشعر بدفء اكثر حين لامست شفتاها اذنيه وهي توشوش فيها بغنج:

- لا يهمني ذلك، فانا شريكة حياتك في السراء والضراء يا زوجي الحبيب.

* * *

الفصل الرابع
المخاض

١٧ تموز ١٩٦٨

الرصاص يلعلع للمرة الرابعة في سماء بغداد مع تباشير الفجر التموزي.. شاهد كأي مواطن كان شاهدا على ما يجري في الوطن الذي اغتالوه للمرة الثالثة في غضون خمس سنوات، وسرقوا قوت شعبه بالقوة والقهر الارهابي في اكثر من مناسبة. شاهد اولاد الجيران يلعبون لعبة الصبايا وهم يبحلقون في السماء لعلهم يظفرون بمنظر الطائرات وهي تنقض على اهدافها، لا يكترثون طالما هم لا يعون او يدركون ما يجري، ولكنهم كانوا يمرحون.

من على سطوح المنازل، جرى تبادل الحديث، حين نادى على الجار (مجيد الحاج حمود) وسأله:

- من هم الانقلابيون هذه المرة؟

- اعتقد انهم نفس تشكيلة الانقلابات السابقة.

نزل من سطح الدار مسرعا وتناول جهاز الراديو الذي بدأ يذيع فقرات البيان رقم(١) الصادر عن (مجلس قيادة الثورة).. العبارات متشابهة فارغة جوفاء لا تختلف عن عبارات انقلابيي شباط وتشرين الناقرة على الطبول.. برقيات التأييد صادرة من جحور المصفقين لكل انقلاب. الأسماء نفسها تتردد من جديد لابطال المهزلة، يضاف اليها اسم (عبد الرزاق النايف) وشريكه (ابراهيم احمد الداوود).

سألت الوالدة عن (حماد شهاب) و(سعدون غيدان) و(صالح مهدي عماش)، فقال لها بأنهم جماعة شباط الاسود. ترددت قليلا قبل ان تستفسر عن هوية الراكبين قطار الانقلاب الجديد، ثم انفرجت اساريرها عن ابتسامة عريضة، وقالت:

- هل تعرف من هما النايف والداوود ؟

- اراك تبحثين عن الهويات هذه المرة يا اماه ؟

تحولت ابتسامتها الى ضحكة مجلجلة مدحرجة عباراتها بسرعة:

- الم يعترفوا بأن السابقين كانوا قد اتوا الى الحكم بقطار امريكي ؟

اومأ برأسه بالايجاب، فرآها تنهض وتتجه صوب المطبخ وهي تضع عباراتها تحت اسنانها الذهبية بنغمة موسيقية وبطقطقة من اللبان الهارب من بين اضراسها مرددة: تجونا لو نجيكم، هالمرة جيناكم بقطار انكليزي يا هواي.

قهقه بدوره بصوت ونغمة ترامت الى اذنها صيحة ، فصرخت من المطبخ:

- ماذا تقول يا ولدي؟

- لا شيء يا اماه، فقد خطرت ببالي نكتة الموسم.

عادت (ام بديع) وصينية القهوة في يديها والاكواب تتراقص فوقها، وهي تواصل الدندنة. وضعتها على الطاولة بجانب كرسيها المخصص لها منذ سنوات. قدمت له فنجان القهوة وقالت:

- من فمك ادينك يا نايف يا عبد الرزاق.

- عبد الرزاق النايف يا امي.

نظر اليها باستغراب، وقد عقدت الدهشة لسانه حين سمعها تحكي من خلال دوران الفنجان الذي تمسك به تماما كما تمسكه قارئة البخت بمهارة ودقة، وراحت تداعبه وهي تقول:

رسالة من بعيد.. اكيد من ابني بديع.

تسمعين خبر مزعج.

اضطرابات في اسفل الفنجان.

قهر .. قهر .. قهر

الله يستر.

قاطعها قبل ان تكمل كشف اسرار الفنجان :

- هل اذهب الى المطبعة؟

- سدك امين ابني، اطمئن، لا خطورة عليك في الوقت الحاضر.

اتضحت الصورة السياسية بعد اذاعة البيانات: عبد الرزاق النايف، مدير الاستخبارات العسكرية، وابراهيم الداوود وحماد شهاب وسعدون غيدان، من آمري الحرس الجمهوري، واصدقاء رئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف، يساعدهم من المدنيين، صلاح عمر العلي، جعفر قاسم حمودي، وصدام التكريتي، قاموا بالسيطرة على القصر الجمهوري واذاعة بغداد، وطلبوا من رئيس الجمهورية التنازل عن الرئاسة مقابل ارساله الى تركيا. اذاع الانقلابيون البيان رقم (١) دون اية مقاومة، بينما راح المذيع الجديد (ضياء البياتي) يذيع برقيات التهنئة من مصادر عسكرية ومدنية. بعد لحظات على نجاح "الانقلاب الابيض" كما اسماه "المؤرخون" آنذاك، اعلن البياتي نبأ اسناد رئاسة الجمهورية الى (احمد حسن البكر). سيطر الانقلابيون الجدد دون "عناء" على امور البلاد. بدأت الصحف تمهد الطريق لتبييض وجههم المعروف في انقلاب شباط الدموي، لعل الشعب يعفو عنهم. ذهب (سعد قاسم حمودي) وسيطر على جريدة (الجمهورية). وركض (كريم شنتاف) لاستلام جريدة (الثورة) وطرد رئيس تحريرها (حازم مشتاق).

هذه هي ببساطة وقائع "الثورة الرائدة والعظيمة" كما يحلو لحزب البعث ان يسجلها باسمه..

بدأ يحدث نفسه بعد ان اقتنع برأي الوالدة، وترك البيت في طريقه الى مطبعة (التقدم)، متسائلا: ما هي هوية الانقلاب الحقيقية بجانب حزب البعث.. هل هم القوميون؟ كلا، ان القوميين حكموا بهويتهم الوحدوية، وان لم يحققوها رغم وجود تنظيم "الاتحاد الاشتراكي" الشبيه بتنظيم مصر. ماذا يمثل عبد الرحمن البزاز؟ وما هو دور (ناصر الحاني) في التشكيلة الجديدة؟

في الطريق، لمح (ابراهيم اليتيم) يلوّح له. دلف الى السيارة، فبادره بسؤال:

- ما رأيك بما حدث؟

- وما هو رأيك انت؟

سكت الاثنان، لربما كتما الجواب لمعرفتهما المشتركة بما حدث. راح يرقب الطريق الطويل ما بين عرصات الهندية في الكرادة الشرقية وساحة العلوية، حيث اشار عليه ابراهيم بالتوقف. قبل ان يترجل من السيارة، التفت اليه وقال:

- الوعود سهلة. لا تتعجل الأمور، بل دع الايام تحكي ما سيتمخض عنه البديل.

مع الترقب والانتظار.. حدث الانقلاب الجديد في ٣٠ تموز دون اطلاقات المدافع، بل بفصل مسرحي تلفزيوني اشترك فيه (البكر) وعلى يمينه (صدام حسين)، وهما يخبران جمهور المشاهدين بأن بطل المسرحية (نايف) قد خان المخرج، ولذا اقتضت مصلحة النص، ان يتولى البطولة اكثر من ممثل.

كان الوقت الذي استغرقته المسرحية ١٣ يوما، بينما التحضيرات والبروفة استغرقت ١٣ شهرا!

* * *

اطلقت حركة ٣٠ تموز سراح الموقوفين السياسيين واعادت المفصولين الى وظائفهم الادارية. قالت صحف الانقلاب بأن الحركة تفتح صفحة جديدة بعلاقاتها بالقوى الوطنية على اساس ستراتيجي لا مرحلي.

حاول ان يجرب حظه مع الصحافة لتبيان ما ينوون، وللمستقبل ما يبيتون. كتب مقالا مسهبا عن ضرورة انبثاق الجبهة الوطنية كطريق تاريخي لمرحلة اي تغيير يحقق مصالح الطبقات الاجتماعية المعادية للاستعمار ونحو تبدلات جذرية في بنية العلاقات الاجتماعية الجديدة. كان المقال استعراضا لما حققته جبهة الاتحاد الوطني لعام ١٩٥٧ في اندلاع ثورة ١٤ تموز الوطنية الديمقراطية، وما يجب ان تكون عليه في الوقت الحاضر انطلاقا من اهمية التحالفات الوطنية في مرحلة الصراع الوطني ضد اعداء الشعب القدامى والجدد.

تأبط المقال وذهب به الى ادارة جريدة (الثورة) في منطقة الصرافية. كان هناك في غرفة السكرتير، (طارق عزيز) الذي عاد من سوريا بعد نجاح الانقلاب وبدأ في كتابة سلسلة من المقالات التي مهدت له الطريق في العودة الى صفوف حزب البعث لاحقا. لم يكن رئيس التحرير موجودا، فسلم المقال الى سكرتير التحرير (نديم احمد الياسين).

كان متأكدا من ان المقال المذكور سوف ينشر في القريب العاجل لسبب بسيط: ان الحكام الجدد بحاجة الى اثبات هوية وطنية عن طريق طرح مثل تلك الطروحات

والاستفادة من الاسماء المعروفة التي تمثل تيارات سياسية وطنية لها تاريخ طويل في الساحة السياسية الوطنية. انهم بحاجة الى "تزكية" ولو مؤقتة لاثبات حسن النية.

لم يكن تقديره بما فكر به خطأ، فقد نشرالمقال في اليوم التالي بمكان بارز واحتل اسم الكاتب مربعا كبيرا كدليل على اهمية الموضوع.

وقر الايام على النشر الاول للمقال، ألحقه بمقالات عديدة تدعو الى الاهداف الوطنية المنشودة، دون ان يحذف منها اي سطر. كانت دعوته الى قيام جبهة وطنية، دعوة صادقة. الم يطرحوا ميثاق العمل الوطني على الشخصيات والوجوه الاجتماعية الوطنية البارزة؟

سارع الى ابداء رأيه، ولم يكن هو السباق الى ذلك الطرح، بل هكذا ارادوا هم من استطلاعاتهم. نشروا رأيه كاملا دون تحوير او تغيير، لكنهم بصموا بالاربعة داخل المقال في مربع مؤطر، بأنهم "لا يتفقون مع صاحب الرأي حول تسمية السلطة بسلطة حزب البعث العربي الاشتراكي، بل ان الحزب هو حزب الثورة العربية والسلطة هي سلطة ثورية.."

استغلت محطة اذاعة "الاحواز" العربية ذلك التعليق المؤطر وراحت تشن حملة قوية على النظام القائم محذرة ابناء الشعب العراقي من عواقب تأييد واسناد البعث، مستشهدين بالنموذج المنشور في صحفهم على ايمان الانقلابيين بالحرية "على الطريقة البعثية".

كانت له تجربة اخرى مع صحافة الانقلاب.

في الذكرى الاولى لحركة البعث، كتب مقالا مطولا اكد فيه على ضرورة السير في اشراك كل القوى الوطنية لتسيير دفة الحكم ولتحقيق اهداف المرحلة الوطنية وذلك على طريق انبثاق الجبهة الوطنية العريضة لتعميق المسيرة اللاحقة للتغيير الثوري الحاصل قبل عام.

كان ذلك المقال محكا للخلاف بين حزب البعث والاحزاب الوطنية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي. لقد دأبت وسائل الاعلام البعثية على تسمية الحركة التموزية بالثورة الرائدة، بينما الصحيح كون حركة البعث حركة تغيير في اعقاب مرحلة حكم مائع لم تتضح هويته آنذاك، مؤكدة ومنطلقة - اي الحركة الديمقراطية - بالتحليل

على مستلزمات قيام حكم وطني يعتمد بالاساس على قوى الشعب وذلك بتوفير الحريات الديمقراطية لطبقات الشعب صاحبة المصلحة الحقيقية في عملية التغيير الثوري.. حريات ديمقراطية كاملة غير منقوصة.

فوجيء في اليوم التالي بما لم يكن بالحسبان.. فقد نشرت جريدة (الثورة) المقال المعني بعناوين بارزة وباخراج صحفي لبق حقق الهدف المنشود في النشر التوجيهي والدعائي، من وجهة نظر "البعث" لا من وجهة نظر كاتب المقال، حين طرح مسؤول الجريدة مقدمة دالة في صدر المقال خالية من التوقيع او التذييل المقصود، اوحت بدورها للقارىء بضربة صحفية "لئيمة" بأنها - اي المقدمة - جزء من المقال بل المدخل الاساسي للموضوع.

كتب (طارق عزيز) الذي تسلم رئاسة تحرير الجريدة من سلفه (كريم شنتاف) مقدمة للمقال جاء فيه: تمر اليوم الذكرى الاولى لثورة ١٧-٣٠ تموز الرائدة وهي تواصل العطاء ..."

لم يكن ذلك التشويه، او بالصراحة، من باب الخيانة الصحفية فحسب، بل كان تعمدا مقصودا و"مكشوفا" اريد من ورائه احراج كاتب المقال والجهة السياسية التي يمثلها وزجهما في اتون الصراع الدائر من اجل استحصال تزكية وطنية تسبق الزمن قبل ان تتضح هوية الحكم - ان كانت هناك هوية وطنية - لمرحلة ما قبل الادانة التاريخية للخيانة الوطنية.

دلف الى ادارة المطبعة دون موعد مسبق، (فخري كريم) وهو يرتجف غيظا ومتألما، وبسط امامه عدد الجريدة، وبنبرة حادة يشوبها العتب والقلق، قال:

- ما هذا الكلام الذي تقوله في مقدمة المقال؟
- اي كلام يا رفيقي؟
- المقدمة؟
- ....
- منذ متى نسمي الانقلابات والمغامرات ثورة؟

لحظات صمت بددها بالصدفة ذلك العامل القادم دون ميعاد مسبق ايضا. دخل (علي عزاوي) الى المطبعة وهو يلتفت الى الوراء ودس في يده قصاصة ورق واسرع

الخطى الى الخارج. ان علي هو احد عمال جريدة البلاد في السابق، ويعمل في الوقت الحاضر عامل تنضيد في جريدة (الثورة).

فض القصاصة، وسلمها الى فخري وهو يبتسم مقنعا نفسه بأنها الجواب الذي كان ينتظره فخري وكل الاصدقاء امانة للتاريخ، وصمام امان ان كان هناك اي انحراف عن الطريق الصحيح الذي اختطه منذ ان بات سياسيا. راح فخري يقرأ مقدمة المقال المخطوطة بحبر احمر، بينما استغل هو الموقف، فوخز رفيقه باصبعه وداعبه بالقول:

- هل قلت انا شخصيا بأن الحركة ثورة رائدة، هل تعقل ذلك؟

سكت ابو نبيل وهو يبتسم. طوى عدد الجريدة ودس في جيب سرواله قصاصة "الارشيف" للذكرى. وضع نظارته السوداء فوق انفه كلما اراد ان يبتعد ويتخفى عن عيون الرقباء الذين لا يرحمون، وتسلل الى الشارع.

بعد دقائق، وجد نفسه في غرفة (نديم احمد الياسين) المطلة على نهر دجلة في شارع ابي نؤاس، والقريبة من المطبعة وفندق بغداد، في لقاء غضب وعتاب. قال لسكرتير التحرير والشر يتطاير من عينيه:

- من كتب مقدمة المقال يا أخ نديم؟

اجاب بصوت خافت دون ان يجرؤ على النظر اليه:

- وماذا بشأنها؟

- هل انا الذي كتبتها؟

- . . .

- هذا تزوير واجحاف وعدم امانة.

ارتجفت العبارات المستكينة في رد نديم حينما حاول تبرير ما بدأوه بالامس، فقال:

- وما الخطأ في هذا القول؟

- خطأ كبير جملة وتفصيلا.

انتفض "الصحفي" البعثي من مكانه وبدا الارتباك واضحا على حركاته حين اراد ان يفتح نافذة غرفته، وكانت مفتوحة بالفعل، فقال والحيرة واضحة على وجهه:

- هل ترفض ان تسمي ثورتنا، ثورة؟

- انا احتفظ برأيي، ويظهر انك او رئيس التحرير، لم تطلعا على ما تقوله وسائل اعلام القوى الوطنية؟

وقبل ان يواصل الاحتجاج، رن الهاتف فوق منضدة سكرتير التحرير الانيقة. كان المتحدث على الخط، (طارق عزيز).

غادر الجريدة وهو يسب هذا الفريق وذاك من فصائل صبيان السياسة.

* * *

لم يكن ذلك التشويه بداية المشوار الصعب مع مسيرة حكم بدأه حزب البعث بانقلاب داخل انقلاب في ٣٠ تموز، بل كانت حوادث اغتيال وتصفيات جسدية هي البداية لمشوار عبده (محمد الخضري) و(ستار خضير) و(شاكر محمود) بدمائهم الزكية وهي تنساب ساخنة على جانبي "قناة الجيش" وفي شوارع الكرخ والرصافة. كان الحكام يختطفون ويعذبون ويقتلون المناضلين في الظلام، وينعونهم في الصباح في جريدتهم (الثورة).

ثم جاء الصدام المباشر، حين اشعل العامل والطالب (مطشر حواس) فتيل الحريق، تحوّل بقدرة قادر من مناضل ثوري، وهو يدافع عن نفسه بالرصاص ضد اعتداءات رجال المخابرات، الى "جاسوس" و "عميل" على لسان رئيس الجمهورية، البكر، في خطاب له امام مسيرة بعثية، وما اكثرها في تلك الايام.

تسلق مطشر سلم المشنقة في باحة السجن المركزي وهو يرد بقوة ويسفه اتهامات رئيس الجمهورية.

تدلت جثته في فجر ذلك اليوم، لتضيع معالم الجريمة.

يلحق بمطشر، العشرات من رفاق دربه الذين غرر بهم المنشقون عن الحزب الشيوعي، واعترفوا داخل زنزانات قصر النهاية، سيء الصيت، لتضاف اسماء لامعة في سجل الشهداء: احمد الحلاق، ومتي هندو وهما يصمدان بوجه معذبيهم القساة يلعنان اولئك الذين خانوا الحزب، فخانوا رفاقهم، وتمرغوا في الوحل بعد ان تنكروا لشعبهم ووطنهم.

كانت السلطات البعثية قد منحت امتياز مجلة شهرية للحزب الشيوعي العراقي (الثقافة الجديدة) في ٤ آذار ١٩٦٩، لصاحبها د. صلاح خالص ورئيس تحريرها،

د.صفاء الحافظ. كما منحت امتياز اصدار جريدة يومية سياسية لجناح عن الحزب الديمقراطي الكردستاني - جماعة جلال الطالباني وابراهيم احمد - باسم (النور) في ٢٦ ايلول ١٩٦٨-

من بعيد.. جاءه صوت الزميل (حلمي شريف) رئيس تحرير جريدة (النور) يدغدغ سماعه عبر اسلاك الهاتف في مطبعته (التقدم)، يطلب منه اللقاء في مقر الجريدة في منطقة السنك بشارع الرشيد حيث كانت ادارة تحرير جريدة (عراق تايمس) القديمة تحتلها.

في الموعد المقرر، كان في الادارة، بضيافة جلال الطالباني و(محمد حسن برزو). كان مام جلال متخصرا بمسدس "توكاريوف" وباللباس القومي الكردي. آخر لقاء بينه وبين جلال يعود الى ايام الخدمة العسكرية في كلية الاحتياط قبل عشر سنوات تقريبا.

لم ينطق احدهم بحرف في اللقاء المتفق عليه مع (حلمي شريف)، بل دخل مسرعا الى الادارة، (منير رزوق) المحرر في الجريدة وهو يقول لرئيس التحرير بأن الغرفة جاهزة.

التفت جلال الطالباني الى حلمي، ثم اليه ، وبابتسامة حلوة، قال:

- ما هو رأيك يا ابا رافد؟

- حول اي موضوع يا كاكا جلال؟

- نريدك سكرتيرا للتحرير في الجريدة.

- عندكم الشاعر كاظم السماوي سكرتيرا، ونعم الاختيار.

تدخل حلمي في الحديث وقال:

- الاستاذ كاظم شاعر واديب، ونحن نريد صحفيا ممتهنا.

حاول ان يعتذر بلباقة ودبلوماسية، فرد على رئيس التحرير:

- الا تكفي مساهماتي بالكتابة عندكم منذ صدور الجريدة؟

اتجه جلال اليه ومد يده مصافحا مؤكدا له بأن "الجماعة الكردية" رشحته للعمل استنادا لامانته الصحفية والسياسية.

اجابه:

- ولكنكم تعرفون جيدا اني..

- هذا لا يؤثر على امانتك الصحفية.

لم تنفع الحجج والاعتذارات.. وجد نفسه بعد ذلك اللقاء يخوض ثانية العمل المهني الصحفي من موقع المسؤولية المباشرة. قرر ان يفعل شيئا جديدا بعد ان اتاحوا له الفرصة. كان سعيدا بلقاء زملاء سبق لهم ان عملوا في (البلاد): سلوى زكو، منير رزوق، وائل العاني وعزيز سباهي .ضايقه وجود (صادق الازدي) بين المحررين.

سأل (حلمي) عن سبب وجود صادق في جريدة لا يتفق مع سياستها، فرد عليه:

- توسط له بعض الاصدقاء لحاجته المادية.
- والمبادىء، ما هو ثمنها؟
- الحياة.. وفيها النقيض ...
- انا لا افهم مثل هذا الكلام يا كاكا حلمي.
- ضعه على الورق، وليجد مكانه في الجريدة.

* * *

كان الوقت قصيرا، والمصائب تنزل عليه من كل صوب. ففي شهر يتشاءم منه في كل عام، غيّب الموت شقيقه الاكبر (بديع) في نيويورك، ووالدته في بغداد. مات اخوه في ديار الغربة بالسكتة القلبية ولم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره. وماتت امه في اربعينية ابنها البكر.

تألم وحزن بشدة لفقدان الاخ الاكبر خارج الوطن، رغم انه لم يكن صديقا قريبا الى قلبه منذ الطفولة كما كان (سامي) والى حد ما (كمال). فقد كان بديع مغرورا متجبرا مدللا عند والديه، يحاول ان يستغل مكانته ليفرض سيطرته بالقوة التي طالما استعملها ضده واذاقه العذاب ضربا مبرحا بسبب او دون سبب. شاب وسيم طويل القامة ممتلىء الجسم بديع الصورة. وبالنظر لانشغال الوالد بالسياسة والجريدة ودخوله السجن مرات عديدة، بسط (بديع) بتشجيع من امه، نفوذه، وحاول ان يكون قاسيا للحفاظ على تلك السطوة، والا تمرد الاولاد وازاحوه عن "جبروته" كما حدث يوما في عيد الميلاد.

اراد هو وسامي ان يزورا في عصر اليوم الاول للعيد، اولاد الخالة في منطقة الوزيرية الجميلة، كجزء من مراسيم الزيارات في مثل هذه المناسبات التي لا تتكرر الا

مرتين في السنة. كان فرحا بالبدلة الجديدة والحذاء الاسود والرباط الذي يشده على رقبته للمرة الاولى، ودس في جيب سرواله مائة فلس هي عيدية الوالد.

وقف وراء باب الدار الرئيسي بانتظار خروج سامي اليه. جاء بديع بدلا من سامي بعد ان عرف بأنهما ذاهبان الى الزيارة المتفق عليها. صفعه بقوة، رنت في اذنه كطبل ينقر. حاول الاستفسار منه عن السبب، الحقها بالثانية. ركض اليهما سامي وكمال يخلصانه من ايدي بديع، فاشتبك الاربعة في المعركة بينما وقفت الوالدة المسكينة تلطم خدها وتندب حظها لغياب الوالد في "معتقل العمارة". استجمع قواه للمرة الاولى وعلا صراخه وهو يكيل الشتائم لبديع وشعر بأنه يمتلك الحق هذه المرة للوقوف بوجه الاعتداء، خصوصا ان بديع يعتدي دون حق، وهو ايضا لا يرتاح لتصرفاته الفردية. امسك به من الخلف وطوقه سامي ايضا ليتسنى لهما السيطرة على بديع، وراح يوسعه ضربا حتى اسقطوه ارضا، وتسابقوا بالفرار.

احس بأن الغلبة لا يمكن ان تتم الا اذا تظافرت جهود الاخوة للوقوف بوجه المعتدي، تماما كما شعر بديع بأن "جبهة" الاولاد اقوى منه، فحاول ان يلين وان يبتعد عن اسلوب العنف غير المبرر. الا انه بقي مكابرا منفردا برأيه واعماله التي سببت له الكثير من المشاكل والمصاعب في حياته اللاحقة مع الاصدقاء وافراد العائلة.

اراد بديع ان يستقل في حياته الاجتماعية عندما كان طالبا في القاهرة، فابتعد عن تقاليد العائلة العريقة واختار طريقا يخالف تقاليد تلك العائلة، وكان سببا في سفره الى بيروت للاشتغال هناك.

كما اراد ان يسيطر على الجريدة بعد ثورة ١٤ تموز وان يختط لها مسارا سياسيا مغايرا لخط الاخوة بحجة الانتماء القومي. كانت حجته اضعف من ان يقنع الآخرين، وسببا في قبول وظيفة دبلوماسية والسفر الى واشنطن حتى وافاه الاجل المحتوم هناك وهو في سلك هيئة الامم المتحدة.

لم يخف حزنه لخسارة فارس من الفرسان الاربعة بهذه السرعة، وبالسكتة القلبية وهو في مطلع الاربعين من عمره القصير.

كانت صدمة الموت قوية، وكان النعي مؤلما، والاخوة يحاولون تخفيف وقع الموت على والدته المريضة والمبتلية بمرض القلب الذي لازمها سنوات. الا ان المصيبة كانت

شديدة واقوى منهم جميعا . انه فلذة كبدها البكر الذي ينادونها باسمه. وفي اربعينيته، وكراسي الفاتحة في الدار ما تزال في اماكنها الموزعة على غرف الدار الواسعة، صرعها الموت، ليواصل الاخوة الثلاثة مراسيم العزاء في الدار التي شهدت مراسيم الأربعينية لأخيهم الكبير، في ليلة الأمس.

وقف امام النعش بخشوع وراح يستعرض شريط حياة هذه الانسانة المكافحة التي اعطت لعائلتها الكثير من راحتها وسعادتها، فلم تمنحها الحياة شيئا سوى الآلام والمصائب. سنوات طوال من الحرمان والترحال تخللتها سجون ومطاردة لزوجها واولادها، لكنها صمدت بوجه كل تلك الاعاصير رغم المرض العضال الذي هاجمها في القاهرة عام ١٩٥٠ تحملت كل تلك السنوات، الا انها لم تستطع ان تتحمل موت ابنها الكبير. كان الهبوط المتسارع في قلبها هو كل ما تبقى من نبضات ذابت في مستشفى "الراهبات" لتغمض عينيها بهدوء وسلام.

اجهش بالبكاء المر، وبقيت صورتها الجميلة عالقة في ذاكرته حتى الآن.

* * *

١١ آذار ١٩٧٠

الساعة السادسة مساء..

شارع الرشيد يحتضن جماهير بغداد الوافدة من كل اطرافها، والهتافات تتعالى من كل صوب: عاشت الاخوة العربية الكردية. الشعارات ترتفع عاليا وهي تمجد اتفاق آذار بين السلطة البعثية والحركة الكردية بعد سنوات طويلة من الاقتتال وخلال عهود سياسية متعاقبة امتدت ما يقرب من اربعين عاما.

جمع اوراقه الخاصة وترك بعض المقالات المتناثرة على الطاولة قبل ان تكتمل. دخل على رئيس التحرير دون استئذان. نظر اليه (حلمي شريف) مستغربا من حالة الارتباك الواضحة على ملامحه. قال حلمي:

- خير يا ابا رافد، هل هناك اي مكروه.

اجابه بلهجة تكاد ان تختنق في طيات رده:

- اعتقد يا كاكا ان الجريدة انتهى امرها في هذه الساعة.

خلع رئيس التحرير نظارته الطبية مسندا ظهره الى المقعد، وباتزانه المعروف، قال:

- ماذا بشأن الجريدة؟

- اقول ان الجريدة انتهت مهمتها.

تنحنح في مكانه قليلا دون ان يضيف شيئا، بينما سأله حلمي:

- لماذا تقول بانتهاء مهمة الجريدة، لماذا لاتفصح اكثر؟

- ان ثمن بيان ١١ آذار الذي اذيع قبل لحظات، هو جريدة (النور).

تراقصت نظارات حلمي على ارنبة انفه عندما تحركت عيناه وتقلصت عضلات وجهه في آن واحد، فعلا صوته، وفقد اتزانه هذه المرة، قائلا:

- ماذا تقصد بالثمن؟

أجابه:

- سوف تحل جريدة (التآخي) بدلا من (النور) وفي نفس هذا المكان.

وقعت العبارة الآخيرة على مسمع رئيس التحرير، وقع الصاعقة، فاراد ان يبرر "الثمن" بأي - ثمن - آخر غير النور، فعالجه سريعا:

- كان الحكم الحالي بحاجة الى تمثيل كردي لاسناده، فوجد في مام (جلال) "نورا" ولو كان بصيصا، واليوم هو بحاجة الى تمثيل كردي آخر له وزنه، فيريد "تآخيا" بين الشعبين العربي والكردي.

امتعض وجه حلمي من كلامه فرد عليه بعصبية نادرا ما تظهر على هذا الانسان الطيب:

- الملا مصطفى يمثل تيارا، ونحن نمثل تيارا آخر، ولا تعارض بالتمثيل السياسي.

- . . . .

نهض من مكانه مستأذنا حلمي شريف، وقبل ان يترك الغرفة، رن الهاتف على مكتب رئيس التحرير، ما ان سمعه يتكلم، حتى لمس للتو علامات الارتباك تضع بصماتها على وجه حلمي، وهو يرد على المتكلم عبارة: حسب ما تنسبون.

وضع حلمي السماعة جانبا، وقال له:

- كاكا انت محق.. قرروا حجب (النور) اعتبارا من هذا اليوم.

ما زال هو واقفا على عتبة باب الغرفة، بينما راح حلمي يشغل نفسه بمتابعة قراءة قصاصة ورق كانت تحاول الهرب من بين اصابعه المرتجفة، استأذنه بالذهاب الى الخارج، متمنيا اللقاء به في كردستان العراق.

في صباح اليوم التالي، قرأ في جريدة حزب البعث (الثورة) مقالا افتتاحيا يؤكد فيه كاتبه على "ان الذي يهمنا في هذه الموجة العارمة من الاستقبال الطيب الذي استقبل به بيان ١١ آذار في اوساط الجماهير والمنظمات في العالم. ان ما تم في ١١ آذار جاء صفعة موجعة لقوى الشر والعدوان التي عملت دائما على اذلال شعبنا ونسجت شتى المؤامرات لمنع العراق من التحرك الفعال في اطار الثورة العربية المعاصرة.."

وفي جريدة (التآخي) لعددها الاول، قال كاتب المقال الافتتاحي: "وفي عهد سياسي جديد كتب ديباجة افتتاحه بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠، اننا نتطلع الى توسيع اطار هذا التفاهم المشترك لكي لا يشمل مواد البيان وحدها، بل يتعداه الى سائر المشاكل الاخرى التي تمثل مختلف قطاعات العمل السياسي للقوى الوطنية والتقدمية والديمقراطية كافة..."

التفت اليه (يوسف عويد) العينكاوي من اربيل، وكانا يطالعان الصحف في ادارة المطبعة، وقال:

- الآن شمل افق التعاون السياسي قوانا الوطنية.. التآخي تعانق "الثقافة الجديدة".

كان ابو نهاد محقا، فالتعاون الوطني بدأ يتسع بين الاطراف الوطنية اكثر فاكثر داخل الصحافة وفي بعض المنظمات المهنية دون الاعلان الرسمي عن ذلك.

* * *

كان عام ١٩٧٠ عاما عصيبا على حركة التحرر العربية.. اعلن الملك حسين حربه ضد المقاومة الفلسطينية في مذبحة ايلول الاسود، التي ذهب ضحيتها المئات من مناضلي حركة المقاومة. لقد كانت تلك المذبحة بداية لحرب رجعية عربية ضد رأس رمح حركة التحرر الوطني.

مع عمليات ذبح المقاومة في الاردن، ذبحت الثورة الوطنية الديمقراطية في

السودان على يد (جعفر نميري)، وما اعقب ذلك من حمامات دم ضد العناصر الديمقراطية.

مع هذا الاهتمام والتتبع والترقب.. كتب عليه ان يخوض تجربة جديدة.

جاءه يوما الى المطبعة (احمد الجزراوي) المحرر في جريدة (التآخي) دون ان يكون قد ارتبط به بميعاد مسبق، وقلّ ان يلتقيه في بغداد، جاءه وقال له دون مقدمات الضيافة الاصولية في مثل هذه اللقاءات:

- كاكا (دارا توفيق) رئيس تحرير الجريدة يبحث عنك.

استغرب لهذه المعلومة، فرد على احمد:

- لماذا يسأل عني؟

- لقد رشحك الرفيق (صالح اليوسفي) عضو المكتب السياسي للبارت سكرتيرا لتحرير الجريدة.

لم يكن ينوي ان يعود ثانية الى الصحافة بعد تجربة (النور)، وآثر ان يواصل كتاباته في جريدة (بغداد اوبزورفر) على شكل تقارير سياسية، وخواطره الاسبوعية في جريدة (الجمهورية) لرئيس تحريرها (سعد قاسم حمودي)، الى جانب احاديثه "حكايات صحفية" من اذاعة بغداد مرة في الاسبوع. الا ان (احمد) ألح عليه بالعمل في جريدة الاخوة الاكراد، انقاذا لها من براثن "المتصيدين بالماء العكر".

في مقر الجريدة الذي كان يشغله قبل (التآخي) طاقم جريدة (النور)، التقى برئيس التحرير (دارا) و (حبيب محمد كريم) سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني، ومحمود عثمان و (صالح اليوسفي) من اعضاء المكتب السياسي للحزب. كان يعرف (اليوسفي) منذ وقت ليس ببعيد عندما كان رئيسا لتحرير التآخي عام ١٩٦٧ وكان يعرف (دارا) في اتحاد الشبيبة الديمقراطية وفي الحزب الشيوعي العراقي. اما (حبيب) فإنه يتعرف عليه للمرة الاولى.

بعد دقائق التعارف الأخوي السياسي، تركوه مع رئيس التحرير يتناولان سبل تطوير العمل في الجريدة بعد ان ظفروا منه بوعد في قبول المهمة.

كانت المهمة صعبة، والوحدة الفكرية في الاحزاب القومية والبورجوازية الوطنية شبه معدومة، بل كانت متنافرة تماما كما هي متذبذبة طبيعة تلك الاحزاب والجماعات

السياسية، التي انعكست بدورها على تذبذب المواقف السياسية، وما أدت اليه تلك المواقف من كوارث بعد الثورة الوطنية الديمقراطية المغتالة على يد البعث وحلفائهم عام ١٩٦٣، وانطلاقا من تلك البديهيات في مفهوم الصراع الوطني والطبقي، حاول ان يقنع نفسه بامكانية العمل في جريدة الحزب وفق خط سياسي واضح فرضته وقائع التغيير في العلاقات الوطنية الجديدة بعيد حركة تموزالبعثية.

قال لرئيس التحرير:

- هل انتم واثقون وتثقون بالتعاون مع البعث؟

اجاب بكل اتزان وهدوء:

- كان بيان ١١ آذار واضحا والوعود بالحكم الذاتي للشعب الكردي في متناول اليد.

- وهل انتم متوحدون داخل الحركة الكردية؟

- اذا كنت تقصد جماعة الجلاليين، فهم يمثلون الاقلية في الحركة الكردية ومنهم من العناصر من لا يهمها الا مصلحتها ووصوليتها.

- وما هو الضمان للعمل معكم وانت تعرف آرائي واتجاهي السياسي؟

قاطعه مسرعا بتطمينه على حرية العمل وفق الضمير الوطني الذي يتحلى به منذ زمان طويل:

- لا خلاف جوهري بين آرائك وبين ما ادين به وانت ادرى بمواقفي.

- لكنك يا كاكا ملزم بسياسة حزبك وخصوصا كونك احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب ومقرباً جدا من الملا مصطفى البارازاني.

- اوعدك بكل حرية في العمل.

- ولكن لي بعض الشروط.

سكت دارا لحظة قبل ان يواصل كلامه، وقد ظن ان شرطا سياسيا قد يكون المانع. قال:

- هل هناك شرط سياسي؟

طمأنه مبتسما واجاب:

- العمل الاعلامي اهم واخطر بكثير من التكتيك السياسي.

- كاكا، لا افهم ما تقول، هل هذا شرط؟

- لا كاكا، اقول ان هناك قادة عظاماً يهابون الصحافة. نابليون العظيم كان دائما يصرح بأنه يوجس خيفة من ثلاث جرائد اكثر مما يوجس من مائة الف مقاتل.

نهض دارا من مكانه واتجه الى نافذة غرفته وحاول ان يفتحه. غريب أمر النوافذ.. كلما اراد احدهم، ولنقل، احد المسؤولين من موقع المسؤولية، ان يتهرب من جواب محدد او معين او محرجٍ، تراه يتجه الى النافذة، وكأنها " واحة استراحة" تقليدية للمتحدثين الهاربين من الاجابات. عاد الى مكتبه واضاف قائلا:

- الجريدة بالنسبة لنا هي داعية فقط لخطوط حزبنا السياسية.

- بل الجريدة اكثر من داعية خصوصا في ظرف سياسي كظرف العراق.

- صحيح كاكا، فالجريدة جماعي، لا نظمي، عفوا ما هو القول المهني عن الصحافة؟

- الجريدة داعية جماعي ومحرض جماعي وهي في نفس الوقت منظم جماعي.

ادار رئيس التحرير رأسه دورانا مضطربا، كأنه يشكو من ألم في مفاصل عموده الفقري. نظر اليه بمحبة واضحة وهو يبتسم، فقال:

- الثقة موجودة والا لما اقترحنا اسمك. اما بالنسبة لكادر التحرير، فأنت حر في الاختيار.

- والمسؤولية؟

- ماذا تقصد يا كاكا؟

- اقصد ان تنحصر المسؤولية السياسية بك كرئيس تحرير، وحصر العمل الصحفي بكل تفاصيله بي كسكرتير تحرير وظيفي وتنفيذي.

- اتفقنا كاكا.

كان اول عمل قام به بعد استلامه مسؤولية التحرير، سحب طبع الجريدة من مطبعة (الجاحظ) لصاحبها (رسمي العامل) والحاقها بمطبعة (التايمس) لتكون في نفس البناية مع التحرير والادارة، ولإبعادها عن سيطرة وتحكم رسمي وجرجيس فتح الله بموادها او التأثير على هيئة التحرير بعيدا عن رقابة رئيس التحرير. في نفس الوقت، اجرى تغييرا جذريا في التصميم والاخراج الصحفي، وألحق بعض المحررين بالجريدة ممّن عملوا

معه في الصحف سابقا . فتم تعيين المترجم الاول في الصحافة (جورج يوسف) والمحرر الجيد (وائل سعيد) والكاتب المميز (شمران الياسري) و(محمود البياتي) .

كانت علاقته متينة مع شمران (ابو كاطع) بعد لقائهما الاول في جريدة (البلاد) ابان ثورة ١٤ تموز . . فلاح مثقف، ان قرأت له او استمعت الى احاديثه من الاذاعة وهو يجيب على سائله "احجيها بصراحة يا ابو كاطع" وبلهجة اهل الفرات الاوسط الجميلة، تتخيله فلاحا عملاقا شديد الصرامة، بينما هو في حقيقته نحيف الجسم، مرهف الحس، تغلب على هندامه وتصرفاته، البساطة والرقة، وتلمس في كلماته، الصدق والاصالة. عندما تلقاه، تحس بأنك تجالس صديقا تعرفه من زمن بعيد، لما يمتاز به من المرونة في الحديث، والبراعة في الاقناع، والصدق في الكلام.

جاء هذا الفلاح المثقف من ريف الجنوب وهو يحمل في قلبه حب الوطن والناس. نشأ في بيئة فلاحية وفي كنف عائلة عريقة يكن لها الفلاحون الاحترام بعد ان لمسوا من افرادها تعلقهم الشديد بالارض والدفاع عن حقوق المعدمين ضد جور الاقطاعيين ابان الحكم الملكي. غرف من الثقافة ما جعله مرجعا للفلاحين يحل مشاكلهم ويغرس في نفوسهم مشاعر التحدي للظلم، حاملا همومهم على اكتافه. اختزن تجارب غنية في خضم الانتفاضات الفلاحية، فجاء الى بغداد بعد اندلاع ثورة تموز ليواصل مهمته في شحذ يقظة الفلاحين للتمسك بالارض والدفاع عن حقوقهم ومكاسبهم وهو يحدثهم في برنامج (حافظ القباني) بصراحته المعهودة، حتى ضاقت به سلطة عبد الكريم قاسم، فقفلت المذياع بوجهه. انتقل الى جريدة (البلاد) محررا ومحرضا في ركن "الأرض والفلاح" وتحت باب (بصراحة ابو كاطع) الى ان اختطفته الاجهزة الامنية من الشارع واودعته التوقيف.

غاب شمران سنوات طويلة مختفيا عن انظار السلطات في عمق الريف، يواصل نضاله في صفوف الفلاحين. التقاه ثانية عام ١٩٦٧ في صريفته المتواضعة متسللا اليها مع شلة من الاصدقاء: صباح الدرة، يوسف عويد. كان منكبا اثناء النهار على وضع اللمسات الآخيرة من رباعيته "بلابوش دنيا". وفي المساء كان يستقبل ضيوفه من الفلاحين القادمين من اطراف ريفية بعيدة. انه يسمع وقع اقدام الخيل من بعيد فيخرج من صريفته ليكون باستقبالهم. اذا وصل الضيف، وترجل من الفرس وهو يحمل

"كلانشنكوف" على كتفه، تقدم مسرعا الى شمران ويهم ، او يحاول ان يقبل يده، لكن ابو كاطع يسحبها بشدة ويعانقه بحرارة ثم يقوده الى "الديوان" ليشارك بقية الضيوف "حكاية اليوم".

بعد انقلاب ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨، يعود ابو كاطع الى بغداد ليستلم مهمة ادارة مجلة (الثقافة الجديدة) ويباشر تنفيذ مشروع رباعيته عن طريق استحصال الاشتراك للاجزاء الاربعة حسب امكانية الصديق المشترك لقاء وصولات خاصة اعدها لهذا الغرض، حتى اذا ما استكمل المبلغ المطلوب، دفع مؤلفه الى المطبعة، وليستلم المشارك بعد فترة قصيرة نسخته (الزناد - بلابوش دنيا - غنم الشيوخ - فلوس حميد). هذه الرباعية التي اعتبرت بحق عملا روائيا قيما، كما وصفها الروائي الكبير (غائب طعمة فرمان) : "ربما لم يعرف الادب العراقي الحديث كاتبا اوقف همه الادبي والفكري والسياسي على الريف وقضية الفلاحين العراقيين مثلما اوقفه شمران الياسري، بما جبل عليه من صراحة وصدق وتفتح خيال، وبقدر ما اتاحت له طاقاته وادواته الفنية. انه من اولئك الغيورين الذين ظلوا، في مختلف اطوار حياتهم، منتمين ومخلصين لجذورهم الاولى، وللبيئة التي شبوا فيها، وتعلموا منها قواعد الاتصال بالناس والتعرف على الاشياء..." حتى يقول: "وليدافعوا بحماس فوار عن اولئك الذين وهبوا انفسهم للدفاع عن قضيتهم بحب ووفاء. لقد عرفوا المنبع واهتدوا الى المصب".

اوجد (شمران الياسري) لونا مميزا من الوان الكتابة لم تعرفه الصحافة العراقية، قديما وحديثا. هذا اللون من المقال الصحفي (الاعلامي)، يعتبر حاليا مدرسة في الادب الشعبي الهادف في شقيه البلاغي والعامي. وما يميزه ايضا، اسلوبه السلس والمشوق.

وكما كان ابو سعيد (عبد الجبار وهبي) رائدا من رواد "العمود الصحفي" في جريدة (اتحاد الشعب)، كان ابو كاطع رائدا وعلما من اعلام الكتابة الصحفية خلال عهود سياسية اختلفت احداثها، ولكنها لم تختلف صورها الرائعة على يد هذا الفلاح المثقف البسيط.

* * *

انغمس في العمل الصحفي في جريدة (التآخي) بكل همة ونشاط حيث استطاع

ان يرفع من نسبة التوزيع اليومي للجريدة الى حد لم تبلغه آنذاك صحافة البعث. كانت وجبات التوزيع اكثر من مرتين. وكان في بعض الايام يعود الى داره مع تباشير الفجر وهو يتأبط عدد الغد، ليجد الزوجة بانتظاره، فتسأله:

- الى متى هذا الحال؟

يطبع قبلة دافئة على خدها، ويرد:

- الا تعرفين مدى حبي وتعلقي وعشقي للعمل الصحفي؟

تجيب بدلال:

- لكنك تسهر وحيدا مع الحرف، واهل الشأن يسهرون مع من يحبون.

يضمها الى صدره الحنون ويهمس في اذنها ويوشوش غزلا:

- لا تدخلي الغيرة الى قلبك.

كان واثقا من حبه .. الا انه كان في نفس الوقت تواقا للقاء (نائلة). انها تحاوره وتناقشه حول العديد من قضايا الساعة وخبايا السياسة من خلال ما ينشر في الصحف او في ثنايا مقالاته السياسية، معلنة في اكثر من مناسبة حبها الشديد للسياسة، لكنها تجهل خباياها وتخاف من الضياع. اما هو، فكان واثقا من ان حبها الجديد للسياسة كان في سبيل شيء آخر وعشقا للذي احب ويحب السياسة. فهي امرأة بورجوازية تعيش في بيئة وجو بورجوازي مترف. لم تكن تدري ما يعنيه التمرد والتخلي عن طبقتها الاجتماعية ان هي ارادت بالفعل ان تتخلص من كل ما يحيط بتلك العلاقات من شوائب.

طلبت منه ان يكتب لها الشعر، فقال انه من محبيه ولكنه لم يجرب الحظ في اتقان فنونه. اشارت الى بعض قصائد (نزار القباني) في مجموعته الكاملة التي اشترتها خصيصا له وهي تتحداه ان كان في استطاعته ان يصوغ لها بيتا واحدا في وصف جمالها او انوثتها.

لقد كان ذلك التحدي كافيا ليجد نفسه بعد ايام ولقاءات يخوض تجربة ليست هينة، فيكتب لها اكثر من قصيدة نثرية بأحرف وعبارات ترقص على لسان كل من يقرأها. اندفع بعاطفته في الكتابة وجمع كل تلك الوريقات وهي مؤرخة بالحوادث والارقام والتواريخ، ويسلمها مخطوطة لتكون بحق "الأرق الصادق لمعاناة عاشق". وما

ان احتضنت بيدها ثمرة المعاناة، حتى شاهد طيف الزوج يحجب الرؤية لتستقر من خلال الكتيب "المخطوطة" في كل سطر او بيت من ابيات الديوان المزعوم. قرر ان يبتعد عن (نائلة) وأن يصارحها، لكنه كان مترددا، فيضيف الى ذلك العمل اوراقا جديدة تحرق بأحرفها الملتهبة كل تلك القصائد العتيقة.

في ليلة دون الليالي الخوالي، نظرت في عينيه طويلا، ثم قالت:

- هل تعلمني السياسة؟

ارتخت اعصابه، فرمى بثقله على الاريكة التي شهدت بعض المواقف من المعاناة، وقال لها:

- هل انت جادة بما تقولين وتطلبين يا نائلة؟

ارتشفت منه قبلة حارة، واردفت بالقول:

- اريد ان اتعلم منك كل شيء يفيدني.

- لكن السياسة يا نائلة غيمة داكنة تسبح في سماء زرقاء واسعة.

- دعني اذن اتيه في سمائك.

في اليوم الآخر، جلست (نائلة) تستمع الى حديث وحوار ساخن بدد ذلك الحلم الجميل الذي عاشته لحظات وهي تحلق مع من تحب في السماء الزرقاء الواسعة، حين قدم الى دارها، صديق زوجها ، ضابط المخابرات (خالد عبد الله سرية) المعروف في اروقة "قصر النهاية" بأبي بسمان.

رفع ضابط المخابرات قدح الويسكي الذي يتراقص بين اصابعه الطويلة، وقال بدون تكلف:

- هل تقدم لنا خدمة يا ابا رافد؟

نظر اليه باستغراب، اذ لم يمض على لقائهما سوى دقائق. رد عليه بحذر:

- اية خدمة يا ابا بسمان؟

كرع الضابط طويلا من قدح الويسكي "بلاك ليبل"، اعتدل في جلسته بعد ان تخلص من المسدس وجهاز "الووكي توكي" ووضعهما على الطاولة امامه، مختلسا النظر اليه، فقال فجأة:

- لا تخف من المسدس؟

رد عليه بهدوء مصطنع:

- لم ترهبنا يوما المسدسات بقدر ما تخيفنا السياسات.

قهقه ابو بسمان ضحكة مصطنعة ايضا، يجيدها اولئك الذين يستأسدون من خلال منطق القوة والارهاب، وحاول ان يسيطر على الموقف، ثم قال:

- لقد فرحنا عندما علمنا باشتغالك في جريدة اخواننا الاكراد.

ادرك للتو ما وراء الأكمة، فشحذ يقظته، بينما راح الضابط يتفنن في اختيار العبارات "المخابراتية"، فقال:

- نريد منك ان تحيطنا علما بما يدور بين اوساط الاكراد...

قاطعه وقد عقدت الدهشة لسانه:

- ماذا تقصد يا ابا بسمان؟

التقط خالد الكأس بيد مرتجفة، وابتسامة صفراء تغطي مساحة وجهه، مستطردا:

- لا بسيطة، نريد تقارير مركزة عن تحركات البارت داخل الجريدة ومن يتصل بهم من الاجانب.

- لكنهم حلفاء اليوم وانتم ادرى بما يجري في اوساطهم واوساطكم.

- هذا صحيح، ونحن ادرى بكل شيء ولكن المراقبة ورصد التحركات...

ترك ضابط المخابرات يتيه بين عبارات الترصد والمراقبة، واتجه الى الباب، ثم عاد اليه وقال:

- انا صحفي وسياسي ممتهن وعاشق الاثنين، لا شرطي مخابرات و أمن.

احتد خالد غيظا ورد بعبارات قاسية اراد من ورائها ان يداري حيرته وان يخرج من الورطة، فقال بانكسار خاطر و"شمخة":

- بل هي خدمة وطنية.

تمتم مع نفسه وهو يتخطى عتبة الدار الى خارج معتم:

- خدمة الوطن لا تأتي عن طريق المخابرات او الشرطة القمعية.

لحقت به (نائلة) مستفسرة عما يقصده بذلك الكلام، فابتسم لها وقال:

- يريدون من ابناء الشعب ان يكونوا رقباء بعضهم على بعض.

- اليس الاكراد شركاء في السلطة ولهم خمسة وزراء؟

- ان فقدان الثقة بين الاطراف الوطنية كارثة ستحل بالبلد.

- لا افهم ما تقول.

راح في اليوم الثاني يشرح لها خبايا السياسة وهي تتحرق شوقا لمعرفة المزيد. قالت له بأنها تائهة بين ما تسمعه في الاذاعة والتلفزيون، وما تسمعه من ضابط المخابرات او تقرأه في الصحف، خصوصا، ما تسمعه منه بالذات بين الحين والآخر. طلبت بالحاح ان يختار لها الكتب التي تفتح امامها الآفاق من اجل ان تحقق امنيتها في التحليق معه في السماء الزرقاء الواسعة.

تذكر تلك الايام التي اختار فيها بنفسه الكتب والدراسات، فوضعت قدمه على اولى درجات سلم المعرفة والادراك. لقد كان قبل عشرين عاما شابا متمردا على واقع سياسي واجتماعي سيء وفاسد، فتخلى عن طبقته الاجتماعية حين وجد نفسه يخوض صراعا اجتماعيا وطبقيا. تحوّل الوعي الطبقي الجديد لديه الى ايمان، وحفرت عقيدة الخير والحق في قلبه خندقا امينا ليستقر فيه (الوجدان) بلا خوف او وجل.

تكرر لقاء آخر مع ضابط المخابرات (خالد سرية).. وكادت ان تتكرر حوارات المسرحية، لولا انه وجد في نفسه القوة التي مكنته من حسم الموقف من خلال طرحه الواضح للضابط. قال:

- الا تعتقد يا ابا بسمان بأنكم تلعبون بالنار حين تلبسون اكثر من قناع في اكثر من مناسبة؟

امتعض خالد واحتقن وجهه احمرارا، فرد بعصبية من يملك المسدس والقرباج:

- ماذا تعني بكلامك هذا؟

عصرته العبارات عصرا، لكنه اطلقها ترن على مسمع الاصدقاء الجلاس معه:

- اقول، ان السياسة اخلاق.. فإن كانت قوى سياسية غير وطنية، فعلام تعقدون معها الاتفاقات؟

- لم اقل ان "البارت" حزب غير وطني.

- لماذا اذن تطلب مني ان اكون رقيبا على لسانهم وشرطيا على تحركاتهم؟

- خوفا وتحسبا من الانحراف.

- اي نوع من الانحراف هذا الذي تتحدث عنه امامي؟

اعتدل الضابط النقيب في جلسته واطلق حجة واهية في تبرير تخبطاته، فاضاف:

- لقد سبق للبارت ان رفع السلاح بوجه السلطة.

- وسيرفع السلاح مجددا عندما تدعو الظروف والحاجة الى حماية حقوق الشعب الكردي ان تعرضت للهدر او الضياع.

- انتهى اللقاء.. ولم يعد يلقاه لفترة طويلة.

* * *

١١ آذار ١٩٧١

كان فرحا على غير عادته في ادارة الجريدة وهو يتصفح عدد (التآخي) مسرورا بالعدد الخاص لمناسبة الذكرى الاولى لبيان ١١ آذار، فدلف الى الداخل مهرولا، كاكا (هيوا) الشغيل الكردي الطيب، وقال بلهجة اختلطت فيها العربية بالكردية:

- خطر والله، خطورة، لا يعرف كاكا بس هواية خطر.

- ما هو الخطر يا كاكا؟

- الصراخ في غرفة كاكا دارا.

- ومن هناك في الغرفة مع دارا؟

- كل اعضاء المكتب السياسي.

- وماذا يقولون؟

التفت الشغيل البسيط الى الخلف، ثم همس في اذنه:

- هل انت شيوعي كاكا؟

حدق في وجهه الذي جعلت منه التجاعيد والخطوط الغائرة في اكثر من بقعة، شيخا لم يقل عمره عن الثمانين، وابتسم له قائلا:

- لماذا هذا السؤال بالذات؟

- لأنهم يقولون الجريدة شيوعية ومو بارتية، ويذكرون اسمك بعصبية.

اطرق يفكر برهة، ثم خطرت في رأسه فكرة قد تكشف ما يدور في غرفة رئيس التحرير. هرع الى اجتماع المكتب السياسي، فوجد الجو مكهربا. شعر بالحرج وهو منتصب في مكتب (دارا)، فسارع الى تدارك الموقف باطلاق حجة لم تكن موفقة. قال لرئيس التحرير:

- عفوا، هل الافتتاحية جاهزة للطبع؟

خلع سكرتير الحزب (حبيب محمد كريم) نظارته ورمقه بنظرة حادة، لحقه (سامي عبد الرحمن) بنظرة لا تقل حدة عن نظرة السكرتير، بينما مال (صالح اليوسفي) الى جهة دارا متهيئا لافشاء سر الاجتماع الخطير. ادرك من خلال تلك النظرات الحادة، خطورة موقفه تماما كما عبّر عنها الشغيل الامين (هيوا). اعتذر وانسحب بهدوء الى مكانه في انتظار لحظة الانفجار.

انفك السياسيون الأربعة، اعضاء المكتب السياسي، وحلفاء البعث، وسارع (هيوا) الى زف البشرى، وهو يقول:

- كاكا سلامات..

ذهب الى دارا، فوجده واقفا والعرق يتصبب من فروة رأسه وقد اصطبغت ارنبة انفه بلون الليمون. ما ان لمحه، حتى اهتز بدنه وارتعشت الكلمات على لسانه حين بادره بالسؤال:

- ما هذا المنشور في الصفحة الرابعة؟

نظر الى حيث يشير اصبع رئيس التحرير على الصفحة الرابعة، فوجده يبصم على كاريكاتير خاص بالمناسبة. قال لدارا:

- ماذا ؟

- الكاريكاتير غير واضح.

- اعتقد يا كاكا دارا انه يعبّر عن المناسبة، ١١ آذار خنجران في جسدي امريكا وبريطانيا.

سقط دارا على كرسيه منهارا لا يقوى على الافصاح عن رأيه، وارتسمت علامات الحيرة على وجهه.. انه ضائع.. قيادة الحزب وبشخص سكرتيره، تريد منه شيئا، وسكرتير التحرير يريد ويعمل شيئا آخر.

لم يترك صديقه القديم يتخبط ويتألم كثيرا .. فواجهه بالحقيقة: قال انه يعتبر نفسه مستقيلا من الجريدة. لم يكن دارا يتوقع ذلك، ولم يتفق مع رفاقه على شيء، لكن المكتب السياسي كان قد اتخذ قراره بالتخلص من رجل "الاحراجات" في دولة "البعث".

ذهب الى غرفته. ترك الاوراق على منضدته، والتفت الى شريكه في الغرفة (عبد الغني الملاح) الديمقراطي الهادىء والمثقف الساكت دون ضجة، والانسان الرائع لمن يعرفه، وقد زامله في (التآخي) اربعة اشهر، تخللتها الطف الاحاديث السياسية والثقافية، وهو يعد الايام الحلوة عساها ان لا تنتهي، التفت اليه مودعا، وقال:

- يا عبد الغني، انا لست من الذين يجيدون اللعب على الحبال في "سيرك" الالعاب السياسية.

ترك كل شيء وخرج من الباب الرئيسي للمطبعة مودعا العمال الذين لم يكونوا يعرفون او يدركون ما كان يجري في الطابق الاول من مبنى الجريدة.

ترك الجريدة وقرر ان لا يعود الى الصحافة بعد تجربتي (النور) و(التآخي).

* * *

كان الحكام الجدد يسرعون الخطى ويتسابقون في محاولة تبييض وجوههم الكالحة: ميثاق العمل الوطني.. بيان ١١ آذار.. تعزيز العلاقات مع منظومة الكتلة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي.. الوعود باقامة جبهة وطنية عريضة يكون الحزب الشيوعي العراقي طرفا رئيسيا فيها.. و.. و..

اطلّ عليه (فخري) وفي جعبته هذه المرة، مشروع العمل الجديد. قال له دون مقدمات كعادته حين يتحدث معه مدركا تمام المعرفة بأن رفيقه وصديقه التاريخي سوف لا يرفض له طلبا، طالما هو يمتحن "الوجدان" كالسابقات من المطالب والمواقف. قال فخري مستعجلا الامور:

- اتفقنا على ترشيحك لعضوية مجلس نقابة الصحفيين الاول.
- من الذي اتفق يا فخري؟
- نحن وممثل البعث، سعد قاسم حمودي.
- يعني...؟
- الثقة.
- ومن يا ترى يمنح الثقة؟
- انها خطوة تصب في طريق تحقيق متطلباتها.

اطرق يفكر لحظات، ثم فجأة وعلى غير عادته، انفجر في وجه فخري قائلا:

- ثقة مشروطة بالتأكيد ومن جانبهم ولمرحلة مؤقتة..

ارتسمت علامات التعجب والغضب على وجه فخري وعلا صوته للمرة الاولى وهو يقول:

- ماذا تقصد يا ابا رافد؟

- سحابة وتعدي يا صديقي العزيز.

علا صوت فخري اكثر وهو يؤكد بأن الاتفاق الصغير في المنظمات المهنية عربون للاتفاق الكبير.

اجابه:

- ولكن يا فخري الثقة معدومة وانا واثق بأن الحاجة وحدها وراء الحاحهم على العمل المشترك.

- ارجوك لا تتطرف..

- ....

كان كل شيء قد انتهى.. فأسماء القائمة الائتلافية اذاعها راديو بغداد وكررها التلفزيون.

في المساء، رن الهاتف في داره في ساعة متأخرة من الليل، وكان فخري يتحدث بعصبية ويطلب منه الذهاب الى (دار الجماهير) وانتظاره هناك لأمر مستعجل. حاول ان يفهم منه او يستفسر عن هذه العجالة، الا ان فخري طمأنه بأن المسألة ستحل بما تشتهيه نفس الرفاق.

في غرفة رئيس تحرير جريدة (الجمهورية) جلس يقرأ فقرات البيان الانتخابي الذي اعده (سعد قاسم حمودي)، حين دلف الى الغرفة (فخري) وفي يده نسخة من البيان المطبوع بدار الجماهير.

جلس فخري الى جانبه وقال:

- ما رأيك بما هو مكتوب في البيان؟

- هل جرى الاتفاق على الصياغة التي تبدو غريبة في البعض من الفقرات وخصوصا الفقرة الاولى.

ثم فجّر ابو نبيل قنبلته الموقوتة بعد ان اعاد قراءة البيان على سعد قاسم حمودي،

بصفته النقيب المرشح على رأس القائمة، الذي راح يشغل نفسه بمراجعة مواد الجريدة.

قال فخري لسعد:

- نحن نعلن انسحابنا من القائمة الائتلافية يا سعد.

تلعثم سعد وهو يستفسر عن السبب، بينما رد فخري ببرود هذه المرة:

- لم نتفق مطلقا ولم يكن في الحسبان ابدا ان تذكروا في الفقرة الاولى اسم "الحزب القائد" او "الثورة الرائدة"، وانتم ادرى بموقف حزبنا وسياستنا الجبهوية، ان هناك بالفعل سياسة جبهوية لديكم. ثم نهض لينصرف، فبادره سعد بالقول:

- لا تستعجل يا رفيقنا، ماذا تريد بالضبط؟

- تمزيق البيان.

- لنتفق اذن.

جلب (ضياء حسن) سكرتير تحرير الجمهورية والمرشح للنقابة عن اصدقاء البعث، جلب كل النسخ المطبوعة وتم تمزيقها من قبل الاربعة المتواجدين في غرفة سعد.

ضحك رئيس التحرير البعثي وابتسم فخري، رئيس تحرير جريدة (الفكر الجديد) وحبس هو انفاسه حين سمع النقيب المرشح يقول:

- يجب ان نحشد قوانا وقواكم في الانتخابات يوم الجمعة القادم.

في طريق العودة، التفت اليه فخري وقال:

- ما رأيك بما حدث يا ابا رافد؟

- جيد.. ولكن..

قهقه فخري في مثل تلك المواقف كلما سمع منه كلمة "لكن" وقال:

- اراك تستعمل كلمتك المعتادة من جديد.

- انه عمل جيد ويجب تلقينهم درسا بابسط ضوابط الاخلاق واحترام اي التزام بين طرفين.

- وماذا بشأن "لكن"؟

- لولا حاجة البعث للتعاون في هذه الظروف، لقال لك سعد نحن نصر على رأينا..

سكت ابو نبيل، وشقت السيارة طريقها الى منطقة البتاويين بينما راح يفكر

طويلا محاولا ان يرسم صورة تكون معبرة عن العمل المشترك الذي سيؤطر العمل الجبهوي القادم.

فازت القائمة الائتلافية التقدمية وضمت في صفوفها ممثل حزب البعث بشخص (سعد قاسم حمودي) نقيبا، واعضاء مجلس النقابة من البعثيين والمحسوبين على ملاك البعث، (حسن العلوي) (جليل العطية) و (ضياء عبد الرزاق حسن.) وضمت الى جانبه، (فخري كريم) نائبا للنقيب بصفته ممثلا للحزب الشيوعي العراقي. كما ضمت (احمد الجزراوي) نائبا ثانيا للنقيب ممثلا عن الحزب الديمقراطي الكردستاني. اما القوميون، فمثلهم (سجاد الغازي) و (عطا الله شهاب).

في تلك الفترة التمهيدية لتجربة الجبهة، كانت له جولة جديدة مع البعث. فقد وجهت اليه عمادة كلية الآداب (قسم الاعلام) دعوة لالقاء محاضرة عن الصحافة العراقية. ان الحديث عن الصحافة بالنسبة له، كحبيب يتحدث اليه ويناجيه، فيعطيها حقها وما تحتاج اليه من العناية والحنان. الا ان العواذل كانوا له بالمرصاد.

تبرع اكثر من طالب صحافة بعثي لكتابة تقرير مغرض ومشوه عن مضمون المحاضرة واجتهادات المحاضر في المقارنة بين الصحافة الملتزمة الداعية والمنظمة، وصحافة الارتزاق والردة. ان موضوع الصحافة يتطلب الحديث عن تجاربها عبر مراحل تطورها، ولابد ان يعرج المتحدث على تجربة صحافة البعث: "الثورة" و "الجمهورية".

تحولت تلك الاحاديث الى مادة تحريضية ضد المحاضر، وكما تحولت "هلسنكي" في تقارير اوكار البعث في عام ١٩٦٣ الى "لاسلكي" ضد اخيه سامي، كذلك تحولت عبارة "النقد" الى "قذف" ضد حزب البعث وصحافته في تقارير طلاب الصحافة الذين تحولوا من طلاب اكاديميين الى شرطة أمن.

في اليوم التالي جاءته رسالة سرية ومستعجلة من (طارق عزيز) رئيس تحرير جريدة (الثورة) يندب فيها حظه ويبكي على محاولة اغتيال جريدته على يد المحاضر امام طلاب واساتذة كلية الآداب. طالب فيها رد الاعتبار اليه والى الحزب وصحافته "الثورية"، ويحيله الى المحاكمة الاعلامية العلنية في (نادي الاعلام) امام جمهور كبير من الصحفيين وموظفي وكالة الانباء العراقية واعضاء بعثيين عاملين في وسائل اعلام الدولة، الى جانب العديد من رجال المخابرات والأمن العامة.

كانوا هناك في النادي.. خمسة رؤساء اقسام في جريدة (الثورة) يتقدمهم (حربي محمد) يحتلون منصة خشبية اقيمت في حدائق النادي، وامامهم يجلس (طارق عزيز) لوحده في الصف الامامي، وفي الصفوف الخلفية تتزاحم على مقاعدها اجساد ازلام صحافة البعث. اما هو، فكان وحيدا ينصت ببرود الى مطالعات المتحدثين من رؤساء الاقسام. لقد صدم رئيس التحرير تماما كما صدم اصحاب التقارير الأمنيين والأمميين بنقد حاد لتجربة الجريدة، بل ويستشهدون بما سبق وان تضمنته محاضرته "الخطيرة" في قسم الاعلام وتنتهي الندوة بعد ثلاث ساعات من المناقشات وتوجيه الانتقادات لصحافة آخر زمان.

تخلو الحديقة من الحضور الا هو و(طارق عزيز) مع بعض المرافقين المسلحين.

تقدم اليه طارق وبخجل واضح قال له:

- هل قلت في محاضرتك اكثر من هذا؟

ابتسم بدوره لطارق وردعليه بشماتة:

- بل اقل بكثير مما قاله صحفيون مستجدون، ولكن اكثر منهم مما قاله صحفي اكاديمي ممتهن.

شدّ ابو زياد على يده وقال:

- ارجوك ان تقبل اعتذاري الشخصي، اما مكتب الاعلام القومي، فأنا اتكفل بذلك.

- يعني؟

- تبا لتلك التقارير...

هكذا بدأت الصحافة تسقط في يد الاعلام الأمني والمخابراتي بعد اقل من ثلاث سنوات..

ومع اعتذار (طارق عزيز)، اعتذر (سعد قاسم حمودي) نقيب الصحفيين ورئيس تحرير جريدة (الجمهورية) وعضو مكتب الاعلام القومي لحزب البعث، عن مواصلة نشر زاويته الاسبوعية (خواطر السبت) التي دأب على كتابتها اشهرا!

قال له سعد:

- خاطرة السبت الآخيرة كانت خطيرة وفيها "دس" مقصود علينا.

- انك يا سعد تكرر ما نشره (رشيد ياسين) في مجلة (وعي العمال) ضدي حين اسماها "شتيمة السبت".

- لا علم لي بما كتبه ولكن هذا رأي الرفاق في مكتب الاعلام القومي.

وتوافقت اشارة (سعد) مع اعتذار (فؤاد قزانجي) رئيس تحرير جريدة (بغداد اوبزرفر) التي تصدر باللغة الانكليزية عن الاستمرار في نشر تقاريره السياسية الاسبوعية التي درج على كتابتها لمدة ستة اشهر.

ولكن هذا الاعتذار الاخير كان دون سبب..

الفصل الخامس

الطريق

١٧ تشرين الثاني ١٩٧١

دوّن في دفتره بعض المقتطفات من المقالات الافتتاحية لصحف الصباح على اثر اعلان بنود ميثاق العمل الوطني.

قالت (الجمهورية):

"... ان الميثاق الذي طرحه حزب البعث العربي الاشتراكي هو ميثاق مبادىء الى جانب كونه ميثاق عمل، وهذه المبادىء مشتركة لكل القوى التقدمية والوطنية وتعتبر بمثابة نقاط الالتقاء الرئيسية في طريق العمل المشترك... كما انها حصيلة مفاهيم وستراتيجية اطراف القوى الوطنية التي يشعر البعث بأن بالإمكان السير معها في طريق العمل المشترك ضمن الاهداف المرحلية الواضحة المعالم، البعيدة كل البعد عن التناقضات الثانوية.."

وقالت جريدة (الثورة):

"... ان امام القوى الوطنية في هذا القطر فرصة تاريخية تفرضها الظروف الموضوعية التي تضعها في صف واحد، وتتطلبها شروط انماء هذه الثورة والطاقات والامكانات الزاخرة في هذا القطر المستعد للتضحية.."

اما جريدة(التآخي) لسان الحزب الديمقراطي الكردستاني الحليف، فقالت:

"... منذ صدور بيان ١١ آذار التاريخي فإنَّ حزبنا يطالب بتوسيع هذا التحالف وتوسيع قاعدة الحكم وتحمل المسؤولية بحيث تستوعب جميع الاحزاب والقوى الوطنية التي كانت ولا تزال تلعب دورا مهما في الحياة السياسية والتي يهمها ضمان سير

البلاد في طريق معاداة الاستعمار والرجعية والصهيونية، وانجاز مهام بناء المجتمع التقدمي وتعزيز الوحدة الوطنية

. . . "التفت اليه (يوسف عويد) وقال:

- ما هو رأيك الآن بعد اعلان الميثاق الوطني؟

- المهم النية الصافية الصادقة . . فعلى نياتكم ترزقون . . .

طرق يوسف يفكر ثوان، ثم تفتق ذهنه عن اطروحة مرتبكة لم يوفَّقْ في طرحها او في واقعيتها، فأضاف:

- لربما يعيدون لثورة ١٤ تموز وطنيتها ومسيرتها الديمقراطية؟

- ماذا تقول يا يوسف؟

- هناك شبه في المسار وفي البرامج المطروحة.

راح يشرح ليوسف بديهيات البرامج السياسية الوطنية حين قال له:

- كان المفروض ان تتحقق مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ابان السنتين الاولى من نجاح ثورة تموز.

- كيف؟

- بالتحديد، تصفية الوجود الاستعماري بجميع ركائزه الاقتصادية والسياسية وازالة القواعد العسكرية، وذلك بتحطيم النظام الملكي الرجعي وتشييد الجمهورية وخروج العراق من منطقة النفوذ الاسترليني، والخروج من حلف بغداد العسكري. فماذا حصل بعد ذلك؟ اغتالوا الثورة بمخطط امريكي لانهاء الوضع الثوري آنذاك.

- ولكن المهم اننا حطمنا الاستعمار واحلافه العسكرية.

- هذا صحيح الى حد ما، ولكن الاستعمار يحاول الدخول من الشباك.

كادت حبات السبحة الكهرب تهرب من بين اصابع يوسف وهو يجاهد لحبس بعضها وقال:

- وماذا حصل بعد السنتين؟

- ومن المهام الاخرى الهامة التي تحدد مسار الثورة، تحطيم العلاقات الاقطاعية واجراء تحولات جذرية في الزراعة وحل المسألة الزراعية عن طريق الاصلاح الزراعي، ولكن نجح الاقطاعيون وايتام العهد الملكي الذين اصبحوا من قوى المعارضة القومية في تجميد القانون، وان طبق بصورة جيدة في بداية الثورة، وانتزعت الاقطاعيات من

يد حفنة من اعداء الشعب، الا ان الفلاح المعدم لم يستفد شيئا، وتحّول قسم منهم الى اداة طيعة بيد السراكيل "الديمقراطيين".

- يعني؟

- وجود طبقة اغنياء الفلاحين بدلا من الاقطاعيين.

ابتسم يوسف وهو يعرج على المسألة الكردية مستبشرا ببيان ١١ آذار. رد عليه قائلا:

- اقرار الحقوق القومية للشعب الكردي يجب ان يخضع الى حل علمي للمسألة القومية يتوّج بحل ديمقراطي سلمي. وما جرى في آذار ١٩٧٠ لم يكن مفاجأة، فقد سبق لعبد الكريم قاسم ومن بعده في انقلاب شباط وفي عهدي العارفين ان حصل اخواننا الاكراد على الوعود..

- يعني انك تشك بجدية البعث.. وماذا بشأن المهام الاخرى؟

- ثورة ١٤ تموز انتهجت سياسة التعايش السلمي بين الدول ونبذ سباق التسلح وناضل شعبنا من اجل صيانة السلم العالمي وذلك عن طريق تحشيد كبير في حركة انصار السلام منذ عشرات السنين. وهذا يعني ان تتخذ السلطة الجديدة مواقف حازمة ضد المصالح الامبريالية وليس برفع الشعارات. كما ان ثورة تموز سارعت الى بناء صناعة وطنية وتنمية القوى المنتجة، فعاد حكام شباط ومن بعدهم، بعرقلة سياسة التصنيع وهذا بدوره ينعكس على مهمة رفع مستوى الشعب المادي والروحي.

ضاق يوسف ذرعا واراد ان يخرج بنتيجة تؤكد له توقعاته بقرب انفراج ازمة الحكم الجديد، فقال:

- ما من شك ان ميثاق العمل الوطني المطروح سوف يساعد على تشكيل الجبهة الوطنية والتي بدورها، اي الجبهة، ستعمل على اشاعة الديمقراطية في البلاد.

- اشاعة الديمقراطية في الحياة الاجتماعية يجب ان تقوم بمشاركة الجماهير في ادارة شؤون الدولة. فهل حزب البعث على استعداد لمثل تلك المهمة؟ وبالتالي، فمثل هذه الخطوة تستلزم اولا الشروع باصلاح مؤسسات الدولة وبناء جهازها بما يتناسب وتحقيق المهام الكبرى المطروحة امام الشعب.

- اي انك تريدها دولة ديمقراطية.

- الا تريدها انت كذلك يا ايها الديمقراطي؟

- ومن يحقق مثل تلك الدولة يا ترى؟

- قوى الشعب صاحبة المصلحة في التغيير والثورة ان اردنا ان تكون ثورة ديمقراطية.

* * *

كان علي عليه ان يتعظ بالحوادث والارقام لكل تلك التجارب التي رافقت محاولات التعاون مع العناصر البعثية بدءا بحادثة التزوير والدس على مقاله الجبهوي في الذكرى الاولى لحركة تموز، مرورا بعمله في جريدة (التآخي) ومن ثم محاضرته في قسم الاعلام، تلك المحاضرة التي تحولت الى تظاهرة صدامية مع كل من تجرأ على تحدي "البعث".. الا انه نزولا عند رغبة الاحباء، وافق على تحمل مسؤولية نائب رئيس تحرير جريدة (الطليعة) الصادرة عن الائتلاف الوطني داخل نقابة الصحفيين.

صدر من الجريدة الاسبوعية المذكورة خمسة اعداد فقط. في العدد السادس، حدث التصادم الجديد. لم يكن يترك مطبعة (دار الحرية) التي تطبع فيها صحف دار الجماهير الا بعد ان يكون العدد مطبوعا، فيتأبط عدده كما هي عادته منذ ان كان مسؤولا في جريدة (البلاد)، ويذهب مطمئنا الى المهمة المؤتمن عليها.

كانت الساعة تشير الى الرابعة صباحا. وقع بصره على العمود الاول في الصفحة الاولى وهي مستقرة على "البليت" الجاهز للطبع. وما ان قرأ الفقرة الاولى من المقال، حتى هاج وصرخ في وجه سكرتير التحرير (ضياء حسن) الذي لا يفارقه ايضا لحظة وجوده في المطبعة:

- ما هذا الكلام يا ضياء؟

- اي كلام؟

- العمود الاول تحت عنوان "كلمة الطليعة"؟

- انه المقال الافتتاحي.

- اعرف انه المقال الافتتاحي.

- ماذا هناك؟

- لم اقرأه ضمن مواد العدد المتفق على نشرها.

- لقد ارسله سعد قاسم حمودي قبل خروجه من جريدة الجمهورية.
- لماذا لم يوقعه بأسمه؟
- لا ادري.
- وماذا يظن؛ (الطليعة) ملحقا خاصا لجريدة (الجمهورية)؟
- والله يا ابا رافد هو المشرف المسؤول.
- والائتلاف الوطني، من يمثله في هيئة التحرير؟
- نحن الثلاثة بالطبع.
- اذن ما هذا الكلام وعلام يدل مثل هذا التصرف اللامسؤول؟
- ماذا تريد وما هو اقتراحك؟

استجمع قواه وقال لضياء بغضب وحدة:

- يجب تذييل المقال بأسم كاتبه او شطب أسمي كنائب لرئيس التحرير.

صعق ضياء لمثل هذا التحدي، وحاول التخفيف من الصياغة، الا انه اصر على رأيه.

اتصل سكرتير التحرير في تلك الساعة المتأخرة من الليل بالمشرف النقيب (سعد قاسم حمودي) وبعد نقاش معه، عاد اليه ضياء وابلغه بتذييل المقال بأسم سعد.

في اجتماع مجلس النقابة اللاحق، سبق النقيب في جولة التحدي، وقدم استقالته من المسؤولية في الجريدة، وكان قد اتفق مع (فخري) حول هذا الموضوع، وهيأ نفسه للسفر في اول مهمة نقابية خارج الوطن منذ انتخابه في مجلس النقابة.

كانت المهمة تنحصر في حضور مؤتمر المحررين الزراعيين المتفرع عن منظمة الصحفيين العالمية. وكانت نقابة الصحفيين العراقيين عضوا في المنظمة العالمية، وقد انتمت اليها منذ تشكيل الهيئة التحضيرية في اعقاب التمهيد للتعاون الجبهوي.. شاركه في الوفد، ممثلا عن البعثيين، ماجد احمد السامرائي، سكرتير تحرير جريدة (صوت الفلاح).

عقدت جلسات المؤتمر الاول المذكور في مدينة"فارنا" الجميلة في بلغاريا. وكانت الغاية منه، ايجاد افضل السبل للتعاون بين المحررين الزراعيين الاعضاء في المنظمة العالمية، وايلاء اهمية للنشر الاختصاصي الزراعي، الى جانب تشكيل النوادي للصحفيين المتفرغين للعمل المختص في المؤسسات الفلاحية الصحفية.

كانا يتحدثان في اوقات الفراغ، او في المناسبات الاجتماعية التي تخللت جلسات المؤتمر، عن آفاق التعاون الجبهوي. كان حريصا على ان يتحدث معه بكل صراحة، ولكن ماجد، كأي بعثي، كان يتهرب من الاجابات الواضحة والصريحة. بل وفي كثير من المناقشات، كان يستشهد بفقرات من خطب صدام حسين وليس خطب رئيس الجمهورية. عند الاستفسار عن سبب ذلك، يقول:

- صدام حسين سياسي متمرس في المناورات السياسية..
- ولكن المناورات حصيلة مغامرات وبعيدة كل البعد عن الوعي السياسي.
- البعث حزب انقلابي يعتمد على القوة في فرض الآراء.
- والعمل الجبهوي؟

اهتز ماجد في مقعده واجاب بشيء من الانفعال:

- الجبهة نحن نقودها بالطبع، والحزب هو قائد الثورة.
- وماذا بشأن ستراتيج الثورة؟
- تحقيق الاشتراكية الى جانب السعي لتحقيق الوحدة العربية.
- تحقيق الاشتراكية يا ماجد؟
- اشتراكية البعث طريق امثل للمسيرة..
- هذا غير صحيح.. انكم لا تعرفون طريق الاشتراكية.

احتد ماجد وراح يبرر حجة بحجة ابعد بكثير عن الواقع. لم ينس ان يدس في طيات كلامه تلك المقولة التي يحلم بها كل البعثيين/ من ان الشعب كله يؤيد العملية الجارية في القطر، وانه على استعداد لقبول فكرة قيادة الثورة والعمل الجبهوي من منطلق بعثي. كلنا بعثيون وان لم ننتم!

اجابه:

- اذا كانت تلك الحركة في مسيرتها تتجه الى مشاركة واسعة من الجماهير.
- يعني انك تؤيد قيام الجبهة؟
- لقد كتبت عدة مقالات حول اهمية قيام جبهة وطنية عريضة تضم كل القوى الوطنية والتقدمية خاصة في هذه المرحلة الجديدة... اليست هي مرحلة انتقالية؟

ابتسم لماجد بعد هذه العبارة التطمينية.. نهض مستأذنا والتفت اليه قبل ان يترك غرفة الاستقبال في الفندق، وقال له:

- ماجد.. ترجموا الاقوال بالافعال، وبعدها نواصل الحديث.

***

١ حزيران ١٩٧٢

اعلن (احمد حسن البكر) رئيس الجمهورية، عن صدور القانون رقم ٦٩ الخاص بتأميم عمليات شركة نفط العراق المحدودة من اجل استحصال حقوق الشعب في ثرواته الطبيعية. وفي ١٨ حزيران صدرت جريدة (الفكر الجديد) الاسبوعية باللغتين العربية والكردية عن الحزب الشيوعي العراقي، لصاحب امتيازها (فخري كريم) ورئيس تحريرها حسب قانون المطبوعات، (د. حسي قاسم العزيز). كتبت عن قرار التأميم في عددها السابع تقول:

"... ويواجه العراق الآن مهمة ترجمة هذا الانتصار السياسي الى المنجزات والنتائج المطلوبة على الصعيد الاقتصادي، وهذا يستلزم - فيما يستلزم - توفير جهاز اداري وفني قدرا كبيرا من الاخلاص الوطني لخطوة التأميم، والكفاءة الادارية والفنية العالية. وان نجاح هذا الجهاز يحتاج بدوره الى هيئات عديدة تقوم على تخطيط سياسة وطنية عليا بشأن الانتاج والتسويق والصناعة النفطية والبتروكيمياوية المتنوعة.. ان قيادة الحكم ووزارة النفط سبق وان قامت بالتشاور مع الاحزاب الوطنية، ومع بعض الشخصيات الوطنية حول السياسة النفطية والخطوات التي ينبغي انتهاجها مع الشركات العالمية العاملة في العراق..."

ذهب الى رفيقه العزيز فخري في ادارة الجريدة، اذ لم يتسن له قبل ذلك زيارته مهنئا بصدور شقيقة (الثقافة الجديدة)، فلمح هناك بعض الاصدقاء القدامى، والبعض الآخر من الشباب.

وعندما استفسر منه عن احوال التحرير ومشاكله، ابتسم ابو نبيل وقال:

- مكانك خال يا ابا رافد.

رد عليه باستلطاف وهو يشد على يد فخري قائلا له:

- لقد طفت يا فخري على اكثر من جريدة علنية وسرية وانت تعشق العمل السري والعلني منذ ان غبت او "غيبوك" عن جريدة (البلاد) عام ١٩٦٠ وكنت شابا في عامك السابع عشر آنذاك. اما الآن فأنا على ثقة من انك ستقوم بمهمتك على احسن وجه.

شكره على ثقته هذه بسرور. احتضنه ووعده بلقاء قريب.

وتكر الايام مسرعة بعد عام.

اعلن البعثيون عن قيام الجبهة الوطنية بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي. دخل الوزارة اثنان من قياديي الحزب الشيوعي؛ (عامر عبد الله) وزيرا للدولة، و (مكرم الطالباني) وزيرا للري.

باع مطبعته (التقدم) بعد ان امضى فيها قرابة العشرة اعوام، ووجد نفسه من جديد كادرا في جريدة (طريق الشعب) الصادرة في ايلول ١٩٧٣. كان صاحب الامتياز،(ثابت حبيب العاني)، ورئيس التحرير،(عبد الرزاق الصافي). اما مدير التحرير، فكان (فخري كريم).

كانت البداية صعبة..

لم يكن كادر الجريدة عند صدور عددها الأول مؤهلا لاصدار جريدة يومية سياسية ناطقة باسم هذا الحزب وجماهيره الواسعة. الا ان وحدة الارادة لهذا العدد القليل، والقليل جدا، وجهادية العاملين من العمال والمحررين، سهّل عملية الاصدار اليومي.

في التحرير.. كانوا ستة يلتحقون بالعمل الى جانبه:

عبد السلام الناصري، يوسف الصائغ، عبد المنعم الاعسم، صادق الصائغ، عبد المجيد الونداوي وابو سرحان. ثلاثة من هؤلاء يدخلون ميدان الصحافة للمرة الاولى: عبد السلام الناصري، عبد المنعم الاعسم وابو سرحان. عمل يوسف الصائغ في الصحافة كاتبا وشاعرا في الموصل وبغداد. ترك افكاره "بصوت عال" في مجلة (الف باء) والتحق بالجريدة محررا ومدققا لغويا.

عبد المجيد الونداوي، الكاتب الصحفي، عرفته الصحافة الوطنية وفي مقدمتها صحف الحزب الوطني الديمقراطي (الاهالي)، (صوت الاهالي) مترجما وكاتبا للمقالات الافتتاحية والتعليقات السياسية. كان الونداوي من المثقفين القلائل الذين عاشوا وماتوا دون ضجة.. كان انسانا هادئا قنوعا زاهد بالحياة، كتوما حتى عن مشاكله ومصاعب حياته الخاصة التي ضاعفت الى حد كبير من الآمه وأثرت على صحته، بل وقتلته وهو في اعز سني عطاءاته ولم يتجاوز الخمسين من عمره.

* * *

مع الاسابيع الاولى للتجربة، يكبر ويزداد كادر الجريدة، وتتوسع حلقات التحرير.. عناصر جديدة تلتحق بالعمل.. فالح عبد الجبار، زهير الجزائري، شمران الياسري، عبد الآله النعيمي، فاطمة محسن، يحيى علوان ورشدي العامل.

عادت به الذكريات وهو يجلس امام رشدي العامل بعد رحلة طويلة في العمل السياسي والصحفي، الى اللقاء الأول في القاهرة.. في الربع الآخير من عام ١٩٥٦:

عاد الشبان الثلاثة من معسكرات التدريب بعد توقف العدوان الثلاثي على مصر. كانوا يلتقون في مقهى "ريش" المشهور الواقع في ميدان التحرير وسط القاهرة يتبادلون اطراف الحديث عن ذكريات بغداد وعن الاوضاع السياسية العاصفة في الوطن العربي، يشاركهم في تلك الاحاديث بعض الضيوف العرب.

في مساء يوم اعتيادي، والثلاثة يتابعون انباء انسحاب القوات المعتدية من مدينة بور سعيد، اطل عليهم دون ميعاد، شاب اسمر نحيف بصحبة (غائب طعمة فرمان). شبك خلوق امين زكي الشاب الأسمر القادم من دمشق، بينما وقف هو ومحمد حسين الملا الطالب العراقي في جامعة القاهرة الى جانب غائب ليتعرفا على الزائر.

جلس الجميع يتابعون نشرة الاخبار.

كانت القاهرة آنذاك محطة مؤقتة شدت اليها انظار المثقفين العرب وهي تستقبل بين الفينة والاخرى، نخبة من الكتاب والادباء المتمردين على واقع بلدانهم الفاسد، يتقدمهم مثقفو العراق: غائب طعمة فرمان (عبد الوهاب البياتي)، (عدنان الراوي)، (خالد الصانع) و (رشدي العامل).

كان فرمان يمسك بخيوط "حصاد الرحى" وكان البياتي يتغنى بابيات من "اباريق مهشمة" والراوي يحتضن "النشيد الاحمر" بينما (رشدي العامل) يتشدق بتحفته "همسات عشتروت" وهم يجالسون مثقفي مصر البارزين في لقاءات متكررة في مقهى "لوك" بشارع سليمان باشا.

رشدي العامل، شاعر من الرعيل الثاني، في مقتبل العمر، ذو خبرة وذخيرة بسيطة من تجربة شعرية وليدة، يحاور بعمق الاوضاع السياسية والقضايا الفكرية المعاصرة آنذاك، مع طليعة ثقافية مصرية: محمود امين العالم، لطفي الخولي، محمد عودة، عدلي برسوم، عبد العظيم انيس، عبد الرحمن الخميسي وغيرهم. فينتزع

الاعجاب منهم عن استحقاق لما اظهره من مرونة وسلاسة في الحديث تنم عن زاد ومخزون ثقافي تجاوز بكثير عدد سنوات عمره السياسي والثقافي والتي طبعت بصماتها على قسمات وجهه المتعب منذ الصغر.

من خلال تلك اللقاءات والحوارات، توثقت علاقته برشدي مما سبّبَ له الارهاق والهدر لميزانيته البسيطة من مخصصات الدراسة في الجامعة الامريكية. يشاركه ذلك الهدر، غائب طعمة والبياتي. كانوا من رواد الجامعة ظهيرة كل يوم على مائدة الغداء. وتطورت تلك العلاقة الى صداقة متينة حميمية عندما وجد في الثلاثة، نقاوة عراقية اصيلة، وطيبة قلّ نظيرها، وعشقاً صادقاً للوجدان.

استهوت عراقية رشدي كل من عرفه من زملائه في الجامعة: مازن الحسيني، غالب هلسا، فاروق قدومي، وبشير البرغوتي. اصبح وبسرعة واحدا من المجموعة. منحته تلك العلاقة امتيازا كي يصول ويجول داخل حرم الجامعة وكل مرافقها.

لقد هيأت له الاقامة في مصر، فرصة الاطلاع والمتابعة لما ينشر في الصحافة المصرية وما يصدر عن دور النشر من روائع الادب العربي والعالمي. كان رشدي يشير عليه بقراءة بعض العناوين، بل يوجد طريقة ذكية تجبره على المتابعة والقراءة بما كان يزوده من قوائم مختارة للكتب، وبرمجة جلسات خاصة للتحاور والمناقشة.. عرف منه وتعرف على البرتو مورافيا، سارتر، جون شتاينبك، ساغان، تشيخوف، غوركي، ميللر، همنغواي، وعشرات غيرهم من عمالقة الادب العالمي. كما لم ينس ان يشير عليه بقراءة التراث العربي وروائع الادب فيه.

وفي كثير من الاوقات، كان رشدي يفرض نفسه على الطلاب العراقيين ويعقد الندوات لهم حيث يكون فيها هو وحده المتحدث في مقر رابطة الطلبة. وسرعان ما تكبر وتتوسع حلقات تلك الندوات، فتستنهض ما تبقى من الطلبة للمشاركة والاستمتاع باحاديثه وقراءاته الشعرية وتصوراته السياسية.

تركه في منتصف شهر حزيران ١٩٥٨ على امل اللقاء به في مطلع العام الدراسي.. تركه هناك في القاهرة بصحبة غائب طعمة والبياتي يواصلون اللقاءات ويتواصلون مع الاحداث في مقرات جريدة (المساء) ومجلة(روز اليوسف) ودار (الفكر الجديد) ومع نخبة المثقفين الديمقراطيين في مقهى "لوك" المعروف.

بعد ثورة ١٤ تموز، قطع رشدي العامل دراسته وعاد الى الوطن ليقتحم ميدان العمل الصحفي للمرة الاولى محررا في جريدة (اتحاد الشعب). وبعد عمر قصير للجريدة، تحوّل الى جريدتي (صوت الاحرار) لصاحبها لطفي بكر صدقي، ومجلة(١٤ تموز)، لصاحبتها المحامية نعيمة الوكيل.

كان رشدي اول كاتب صحفي يرفع ويطبق عمليا شعار "ادفع - اكتب" تبعه في هذا الشوط الشاعر الوجداني حسين مردان، كما كانت جريدة (البلاد) اول صحيفة عراقية تستجيب لهذا الشعار، بحيث باتت قاعدة تستند عليها صحف بغداد والمجلات منذ ذاك الزمن.

عرف الشاعر العامل في اولى سنوات حياته، التشرد والحرمان والتوقيف والنفي. ذاق مرارة الاعتقال المر في انقلاب شباط الاسود.. غنى في زنزانته مع رفاق دربه، "بلا دموع" وواصل عطاءاته من اجل "عيون بغداد والمطر".. فكانت قصائده تلك، نغمات تعلو على اصوات سياط الجلادين ونعيقهم، وقد السجناء والمعتقلين بالعزم والتحدي ليسطروا بدمائهم الزكية سجل الخلود، ولتدمغ اعداء الثقافة والانسان بما يستحقونه من ألقاب لطخت تاريخهم حتى يومنا هذا.

وكانت آهات رشدي في "قصر النهاية" سيء الصيت بعد انقلاب ١٩٦٨، تغطي على حجج السجانين، وهو يردد مقاطع من " نصف عموده" اليومي الرائع في جريدة (التآخي) فصمد في وجه جلاديه ثانية وهم ينالون من جسده المتعب النحيل، جروحا وكدمات، مصرا على ان كلماته في نصف عموده تعود اليه واليه فقط.. انه "ابو علي" وسيبقى ابا علي كما عاهد شعبه وعاهد نفسه منذ ان اعتنق الفكر عقيدة. وبالفعل، غدا رشدي العامل واحدا من المع كتاب العمود الصحفي في تاريخ الصحافة العراقية الى جانب (عبد الجبار وهبي) و(شمران الياسري).

انهم يكتبون عندما يسكت الآخرون.. ويسكتون عندما تتمرغ الكلمة على اعتاب التملق والارتزاق.

* * *

وتشاء الصدف ان يتزامن ظرف اصدار الجريدة مع انلاع حرب اكتوبر ضد اسرائيل. تطلب منه هذا الحدث الجديد ان يواكب الاخبار وان ينسق بين التحرير

والمطبعة لعدم وجود محرر مختص آنذاك للانباء الخارجية. كان عليه ان يضاعف عمله ولا يترك الجريدة الا وصفحاتها تدور وتتراقص على انغام ماكنة الطبع لولادة جديدة في الصباح الباكر، تماما كما كان يطرب لتلك الانغام والايقاعات منذ ان وعى الصحافة مهنة تبحث عن الحقائق والمتاعب، وعلى عشاقها تدور المصاعب ان هم ابتعدوا عن حقهم في التمسك باحقية كشف هذه الحقائق.

انه يعشق هذه المهنة، ويطرب لأصوات ادواتها، وتكتحل عيناه بمنظر الصفحات التي يساهم في وضع بصماته عليها اليوم ومنذعشرين عاما مضت، حين كانت الافكار تتصارع في رأسه وهو يخطط لاصدار جريدة (القافلة) الجامعية قي القاهرة. وفي (البلاد) بعد ثورة تموز ١٩٥٨ لحين اغتيالها على يد فاشست بغداد عام ١٩٦٣. وحين كان يغالب نفسه كل مساء لطرد النعاس ان داهمه في مطبعة التايمس في منطقة السنك وهو يتطلع الى عدد (التآخي) وعقارب الساعة تشير الى الرابعة فجرا. كان عمله شاقا، ولم يكن آنذاك يريد ان يسبر غور المقاصد التي يرغب في القيام بها او على الاقل، الافصاح عن تلك المقاصد بالقدر الذي تسمح به الظروف، فجعلها حبيسة قلب يئن من جراحات سابقة لن يخفف آلام صاحبه، الا حنان ذلك الأب الذي احتضنه شابا متمردا على واقع فاسد.

راح يعارك الزمن ويعيد للتاريخ المنسي اوراقه، ويصب جام غضبه على العدو الذي واجهه يوما وجها لوجه في شوارع بور سعيد، وهو ينتزع من جهاز "التيكر" للأنباء العالمية، تفاصيل معركة "التحرير" ليختار لها العناوين البارزة والمانشيت الاول في صدر الصفحة الاولى:

- تحطيم خط بارليف.
- يوم العبور الكبير.
- تحرير مدينة القنيطرة.
- اقتحام جبل الشيخ في مرتفعات الجولان.
- الدبابات المصرية تتقدم صوب مضايق سيناء.

وفجأة، يعيد التاريخ نفسه:

- اسرائيل تحتل مدينة القنيطرة السورية. ثغرة الدفرسوار وحصار الجيش الثالث المصري.

- الجيش العراقي يدخل المعركة في اليوم العاشر.

- . . . .

احس بالألم يعتصره ويمزق قلبه الرقيق.

دمدم مع نفسه: ماذا حصل.. ولماذا هذا التراجع بعد اليوم الخامس؟

تراقصت الاجوبة بين سطور قرار مجلس الأمن الدولي بوقف اطلاق النار، وتحرك الاتحاد السوفييتي في فرض القرار تماما كما حدث ابان حرب الايام الستة في حزيران ١٩٦٧.

عند الكيلو ١٠١ ومحادثات فك الارتباط بين القوات الاسرائيلية والمصرية.. بانت اللعبة اوضح: لقد حوّل الحكام العرب معارك الانتصار الى عملية تحريك سياسي وباشراف امريكي كالعادة لتطويق الانظمة المواجهة لاسرائيل في سبيل تمرير مؤامرة "التدجين" لقضية الشعب الفلسطيني.

منتصف عام ١٩٧٤

يزداد وضعه المادي سوءا نتيجة نمو غير مرئي في تكاليف المعيشة. الزوج موظفة براتب صغير، في شركة التأمين العراقية في شارع البنوك بالشورجة. اما هو، فراتبه في الجريدة قليل. ابنه (رافد) يكبر وتكبر معه وتزداد متطلبات العمر. لم يكن عنده وقت لاعمال اضافية بسبب ارتباطاته بنقابة الصحفيين. علاقاته العائلية وكثرة معارفه واصدقائه تتطلب مزيدا من المصاريف لتغطية ضرورات مثل تلك العلاقات الاجتماعية الواسعة.

تحت وطأة هذه الظروف.. يقرر تأجير داره الجديدة في منطقة تعتبر من المناطق السكنية الحديثة بموازاة نهر دجلة تمتد من منطقة البوليسخانة وسبع قصور، حتى جامعة بغداد، تعرف بمنطقة "الجادرية". استأجر شقة صغيرة في عمارة الكيلاني بشارع متفرع من الشارع الرئيسي لمنطقة كرادة داخل - ارخيتة - ابو قلام، مقابل مستشفى "الامام". حاول ان يستفيد من ايجار داره من اجل تدبير اموره المالية، وسد نفقات الدراسة لرافد ولهيب.

ومع نقلته هذه.. انتقلت جريدة (طريق الشعب) من القصر الابيض بجوار مديرية

الأمن العامة، الى منطقة العلوية قرب نصب الجندي المجهول في شارع السعدون القريب من "نادي العلوية" المعروف.

في المقر الجديد لمنظومة الادارة والتحرير.. التحق بالعمل كتاب وصحفيون جدد: فاضل ثامر، سعاد خيري، عدنان حسين، سعدي يوسف، حميد الخاقاني، مصطفى عبود، ونبيل ياسين. ويزداد العدد من متطوعين وكوادر حزبية، وتتنوع الاقسام، وتلبس الجريدة حلتها الحلوة وهي ترقص بين طواحين ماكنة "الاوفست" القادمة من المانيا الديمقراطية.

مع تطور الجريدة واتساع اقسامها، تطلب العمل المنظم دورات صحفية تأهيلية للكوادر الشابة القادمة من المحافظات والارياف المنخرطين في المكاتب الصحفية الفاعلة والمهمة في تزويد الجريدة بالاخبار والتحقيقات الميدانية في مختلف مناطق البلاد. ومن بين صفوف اولئك الشباب، برز في السنوات اللاحقة العديد من الكتاب والصحفيين والادباء، وبرزت مواهبهم التي احتضنها الحزب انطلاقا من واقع يؤكد بأن الموهبة شيء نادر، وعلى الحزب ان يرعى بانتظام وعناية تلك المواهب، وهو يرتكب "خطيئة ان لم يجتذب زميلا موهوبا الى جانبه ويساعده.."

كان معيار اختيار تلك الكوادر ومؤهلاتها للعمل في صحافة الحزب، يتأتى "لا عن النظر الى اسلوب هذا الكاتب او ذكائه وموهبته في الترويج للأفكار بين الجماهير، بل عن اتجاهه ككل، وعما يحمله بتعاليمه الى جماهير العمال..." هكذا كانت نظرة الحزب في الاختيار للكوادر، وهو الاختيار"اللصيق" بالمبادىء دون المؤهلات المهنية.

رغم ذلك.. تربت في صحف الحزب، اجيال واجيال في خضم معارك الشعب، فإن سقط او أسقطوا رفيقا، فعلى دربه يسير رفاق ورفاق. فالشعب دوما ينبوع لا ينضب، طالما تدفق ويتدفق ماؤه العذب من نبع طبيعي اصيل.

* * *

لم ينقض عام ١٩٧٤، الا وفريق العمل الصغير الذي بدأ بستة رفاق، ينمو ويكبر الى فرق عمل وخلايا دؤوبة في اقسام التحرير والاعداد والارشيف والادارة والاشراف.. عمل منظم ابداعي طوعي ترأس كل فريق او فصيل رفيق قادم من "اعلى": عبد الرزاق الصافي، فخري كريم، ماجد عبد الرضا، عبد السلام الناصري،

حميد بخش، ومحمد كريم فتح الله.. وتتزاحم الصفوف بالوافدين الجدد: رضا الظاهر، مخلص خليل، صادق البلادي، سعاد الجزائري، فاضل السلطاني، ابراهيم الحريري، سامي حسن، ليث الحمداني، غانم حمدون، رواء الجصاني، عصام الخفاجي، رجاء الزنبوري وعشرات من المراسلين الشعبيين في مناطق العراق.

احب فيهم حبهم العميق لقضية مشتركة، واقبالهم اللامحدود للعمل في هذا المجال الحيوي والهام من مجالات خدمة الشعب والحقيقة. عشق الوجدان في وجدان كل واحد سطّر حرفا في سجل الطريق. عزز وجدانه من طيبة وبساطة وتواضع اولئك الاحباب الذين فاحت من طيب كلماتهم رائحة الازهار حين تنبت في الارض العراقية الطيبة المعطاء. كبّر فيهم الاخلاص ونكران الذات في اروع صور الالتزام والعطاء.

* * *

في شقته المشرفة على شارع "ابو نؤاس"، كان يستقبل كل مساء ضيوفا من الجريدة.. يحاورهم ويحاورونه. يمتد الحوار او النقاش الى ساعات متأخرة من الليل، يتخلل بعضها "عراك"، لكنه في حقيقته، مراجعة "نظرية" لما يجري في الوطن من مزالق خطرة.

من الزوار احيانا، اثنان من نقابة الصحفيين، كانا يطربان لانتقاداته المهنية والسياسية.

(سجاد الغازي).. زميل وصديق قديم وصحفي ناجح، الا انه يختلف معه في الرأي والفكر السياسي. لم يكن الاختلاف جوهريا في بعض المسائل، بقدر ما كان في العقيدة. كانا يلتقيان في تحليل الاوضاع السائدة اذا ما اقترنت بشيء من التاريخ. كانت احاديثهما تمتد الى ساعات طويلة دون ان يشعرا بالوقت سواء في الدار او في النقابة، وهما في هيئتها القيادية منذ اعادة تأسيسها عام ١٩٧٠. سافرا في وفود نقابية اكثر من مرة: الى براغ، صوفيا، دمشق، موسكو، وهلسنكي. كان يرتاح جدا الى آرائه لأنه كان صادقا مع نفسه ومخلصا لعقيدته الوطنية. بدأ حياته السياسية قوميا، ثم عضوا في اول قيادة قطرية لحزب البعث العربي في العراق. انخرط في حزب الاستقلال حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ عندما تركه نهائيا. لم يكن انتهازيا في عقيدته القومية بقدر ما كان ضحية تيارات تائهة لهذه الفئة او تلك. لهذا السبب، كانت آراؤه نابعة من قلب مخلص لعقيدة شوهتها الاعيب المصالح الضيقة.

اما الزائر الثاني.. فكان (ضياء عبد الرزاق حسن) . صحفي رياضي ضيعته السياسة منذ ان تاه في صفوف حزب البعث في بداية الستينيات. فقد توازنه رغما عنه لعله يحافظ على شيء من تاريخه وهو يتنقل بين تنظيمات الحزب في بغداد ودمشق، يساريا في الكثير من الاوقات. عاش يدفع ثمنا لعقيدة مشوشة التصقت بفكر قومي شوّهه اولئك الذين باعوا الوجدان بابخس الأثمان.

قال له ضياء في يوم من تلك اللقاءات:

- كم كنت حاقدا عليك في السابق.

- لماذا؟

- من مقالاتك في (البلاد).

- وماذا بدا؟

- كنت اسابق الزمن ورفاقي في حزب البعث للظفر بك - خصوصا اذا نجحت المؤامرة التي كنا نحبك خيوطها في الداخل والخارج. الا ان حلمي لم يتحقق في صباح ٨ شباط.

استفزه قول زميل وصديق كضياء بعد هذه السنين، فنعته بالجبن، الا ان الصديق البعثي رد بابتسامة:

- لا لست جبانا، بل سبقني الى مقر جريدتك (جوزيف شاكر) و(مهدي شمس) وهما من عمال المطابع وكان الحزب قد كلفهما باصطيادك. لقد "أخّرت" ثورتنا اربع سنوات.

اجابه بشيء من الشفقة عليه:

- هل تعرف يا ضياء بأني اسمع هذا الكلام للمرة الثانية. اذ سمعته من عضو مكتب حزبكم العسكري (حازم الصباغ) في السجن رقم (١) عندما كان يشارك فرق التعذيب بفنونه الماهرة في التعذيب، وهو يكيل الضربات لي بقوة ويصرخ: ولك انت يا ... أخّرت ثورتنا اربع سنوات!

* * *

في ليلة قمرية على شاطىء دجلة في "جرداغ" نقابة الصحفيين في العيواضية، تسامرنقيب الصحفيين سعد قاسم حمودي واربعة من اعضاء مجلس النقابة، كان خامسهم مرافق "السيد النائب" (صباح مرزا).

بعد ان عبّ المرافق في جوفه اكثر من نصف قنينة "البلاك ليبل"، وبدون مناسبة او مقدمات، التفت الى سعد وقال بصوت عال:

- سوف نجعل عام ١٩٨٠ الشعب العراقي كله شعبا بعثيا ولا مكان لغير البعثي في العراق.

قال سجاد:

- لماذا بالتحديد عام ١٩٨٠؟

ضحك المرزا وهو يترنح على الكرسي السفري وبعجرفة اجاب:

- هذه سياستنا وهذا هو تخطيطنا، اما الباقون، فالى جهنم يذهبون.

ساد جو من الوجوم، بينما راح المرافق وسعد وضياء يمزقون باصابعهم جسد سمك "الشبوط" الملقى على الطاولة. لم يتمالك نفسه، فوجه كلامه الى صباح:

- وما هو مصير الجبهة يا ترى؟

انتفض المرافق من مكانه.. حسب الجميع ان عقربا من عقارب الشاطىء قد لدغه، وبريق الغضب يتطاير من عينيه، فصرخ محاولا ان يتدارك في فمه قطع لحم السمك من السقوط :

- من صنع جبهة ١٩٧٣ ويقودها، يستطيع ان يفعل كل شيء.

في اليوم الثاني، كان له لقاء في الجريدة حيث قال للرفاق بالحرف الواحد: ان البعث يزحف .. بل يلتف حول "الجسد" ليحطمه قبل ان يبتلعه.

* * *

بعد عودته من المؤتمر الثالث لاتحاد الصحفيين العرب المنعقد في دمشق، طلب اجازة بدون راتب من الجريدة ليتفرغ الى اعداد موسوعته الصحفية، خصوصا انه مرتبط بالدوام المسائي في النقابة منذ ان اصبح في هيئتها الادارية عضوا مزمنا.

انكب على اعداد موسوعته بكل همة.. افتقده الزملاء في الجريدة. لم تكن مكالمات (فخري) اليومية في الهاتف كافية. كان من زواره كل مساء للمراجعة والتخطيط المستقبلي. امسيات (يوسف الصائغ) و (ثابت العاني) و(آرا خاجادور) يطرب لها كلما اضافوا الى موسوعته السياسية وقائع التاريخ الشاهد على "تذبذب" حلفاء اليوم في الجبهة. اطلع شخصيا في "حلقات" واجتماعات سواء في الجريدة او

في مجالات اخرى، على تجاوزات البعثيين وقد فاقت الاعيبهم السابقة، وبلغت الاحداث التي اخلت بالعمل الجبهوي خلال فترة قصيرة، المئات من التجاوزات.. من اعتداء واعتقال وغدر وتصفية واسقاط سياسي واغتيال.

اراد ان يقولها في صراحة.. فجاءت على ثلاث حلقات..

الحلقة الاولى:

المكان: في "دار" بالكرادة الشرقية - خارج.

الزمان: ظهيرة يوم خميس.

الشخوص: سلوى، يوسف، هو، والسلطان.

بدأ السلطان حديثه عن متطلبات المرحلة وسياستنا وضرورة تعميق المسيرة وتطوير عملية التغيير والاستفادة من التحالف مع البعث لتحقيق طموحاتنا، خصوصا ان الكثير من المنجزات قد تمت منذ عام ١٩٧٠، ولم ينس في اثناء حديثه التأكيد على ان البعث بالرغم من كل الذي قدمه، فأنه كحزب بورجوازي يتطلع الى الوراء خوفا من التقدم الديمقراطي الذي يهدد بزيادة قوى العمال، بينما ليس للعمال سوى ان يفقدوا قيودهم وامامهم عالم بأكمله.

سكت السلطان.. واكتفى هو بابداء الأسف على "الدوغماتية" في عالم متغير..

قالت سلوى:

- هناك اكثر من دليل على ان البعث يخرق كل اتفاق وميثاق وانه بدأ يخطط لمرحلة جديدة.

رد عليها ابو علي:

- ان المنطق والتاريخ يعلماننا ان وجهة النظر الطبقية البورجوازية الصغيرة قد تكون ضيقة الى هذا الحد وذاك، تقدمية الى هذا الحد اوذاك، وذلك على وجه الدقة بسبب من الوضع المزدوج الذي هو موقف البورجوازية الصغيرة.

صرخ في اعماق نفسه:

- يا لهول الدوغماتية!

اردفت سلوى:

- وما هو موقف البعث من هذا المنطق والتاريخ؟

سكت السلطان برهة ثم قال:

- قد نكون متطرفين ان حكمنا على البعث بغير الواقع المفروض. انه لا يتطلع الى الوراء حاليا، اليس كذلك يا يوسف؟

لم يجب يوسف كعادته في الكثير من هذه اللقاءات.

التفت السلطان اليه وقال:

- اراك ساكتا دون التدخل في الحديث؟

خرج عن صمته وتأملاته، وكفر بالنصية ان ابتعدت عن الواقعية.. احتد واجاب:

- وماذا بشأن الخروقات والتضييقات ومحاولات فرض سياسة الأمر الواقع؟

مال ابو علي الى اليمين، وهو يشكو من مرض الفقرات من زمن طويل، وقال:

- قد تكون عفوية.

- عفوية؟

- قد تكون.

صعد الدم الى رأسه، وطقطق بأسنانه، متمردا على تبريرات السلطان وسكوت يوسف المطبق، فعلا صوته لأول مرة في حضرة السلطان القائد:

- ان التاريخ يعلمنا بأن لا نعلل النفس بالاوهام.

اعتذر ابو علي وطلب انهاء اللقاء على أمل التشاور والتباحث والتواصل بعد اسبوعين.

* * *

الحلقة الثانية:

المكان: في ادارة الجريدة بعد ان عاد الى الدوام فيها.

الزمان: عصر يوم السبت.

الشهود: عبد السلام، ابو كاطع، زهير الجزائري.

دخل (شمران الياسري) غرفة قسم "حياة الشعب" في الطابق الثاني. خلع المسدس من حزامه ودحرجه في شنطة الرسائل، وهو يتمتم:

- لعنة الله على المسدس. بالله عليكم احنا اصحاب مسدسات لو حكايات..

وللمسدس اكثر من حكاية من حكايات ابو كاطع. فقد طلب "الحلفاء" من الجماعة ان يسلحوا بعض المحررين المعروفين لديهم تحسبا "للطوارىء" لأن الدنيا غير أمينة.. اي الدنيا التي يتصدقون بها على الشعب، وليست دنيا اصحاب الحق والقضية. ان ما يبرر ذلك هو خوف "حلفاء" على "اصدقاء" من حوادث الاعتداء او الاغتيال، بينما احداث القتل والغدر تجري كل يوم في السجون والمعتقلات وفي كل قضاء وناحية. ان اصحاب القضية لم يطلبوا او حتى يرغبوا في حمل السلاح. الا ان الحاح "المسؤولين" اجبر البعض منهم على شد السلاح على البطون.

وكعادته، صرخ ابو كاطع بعد ان استقر امينا في مكانه المعتاد وبدون السلاح:

- جاي زين وحلو يا رفيج.

- التفت الى عبد السلام وسأله:

- هل وجدت حكاية الأمس طريقها للنشر؟

لم ينطق ابو نصير. كرر شمران السؤال، فأجاب نفسه:

- يظهر الحكاية ما صرّفت للرفاق.

ترك (زهير الجزائري) قلمه يتراقص على كومة الاوراق المبعثرة على منضدته. اسند رأسه على الحائط، شابكا اصابعه فوق رأسه الصغير، كماهي عادته حين يريد التقاط الاحاديث بكل دقة. استعد للمجابهة بعد ان وجد رفيقا آخر يدفع ثمن الاحتجاج على ما يجري من تخبط في الاوضاع الداخلية، وانعكاس ذلك التدهور على وسائل الاعلام: توبيخ، الفات نظر، ثم التعطيل الاداري. انتظر جوابا من رئيس قسم مسؤول في قيادة العمل وفي قيادة الحزب، بينما ابونصير يشغل نفسه في شطب الاسطر من مقالات تنتظر توقيعا لتكون صالحة للنشر.

في تلك اللحظة.. دخل غرفة القسم مستفسرا عن المواد الجاهزة للمراجعة والتدقيق قبل تقديمها للمسؤول الاول في الجريدة. سمع عبد السلام يدمدم بصوت واطىء يصعب تبيان ما يريد قوله، لابتعاده عن موقع رئيس القسم مسافة عرض الغرفة الواسعة. الا انه رغم الدمدمة والمسافة، التقط من ابي كاطع عبارة تدحرجت بصراحته المعهودة:

اذن قولوا لنا ان نسكت وان لا ننطق بالحقيقة التي تزعج البعث.

بنبرات متقطعة ونفس ناعس خرجت من فم زهير، واضحة معبرة عن رأي اكثر من رفيق، حين قال:

- يظهر ان في الجريدة اكثر من رقيب.

احتد عبد السلام، فألقى بنظارته على الاوراق المتكدسة على منضدته، وقال:

- المسألة لا تتعلق برقابة بقدر ما هي متطلبات العمل في ظل تحالف.

ادرك بأن ما يدور في الغرف الاخرى في الجريدة، يتردد صداه في غرفة قسم حياة الشعب. تقدم بضعة خطوات صوب عبد اللسلام وهمس في اذنه:

- انك تستنسخ صورة (ماجد) و (مهدي).. فماذا تركت للرفاق في (م. س.)؟

* * *

اما الحلقة الثالثة:

المكان: شقة رقم ١٢ في عمارة الكيلاني.

الزمان: عصر يوم الجمعة من كانون الاول.

الشهود: ثلاثة - هو وفخري وسعاد.

قال فخري لسعاد:

- هل انت موافقة على عودة ابي رافد الى العمل؟

نظرت اليه طويلا، فادرك من نظرتها ان هناك شيئا تود ان تبوح به، ولكنها كانت تخشى ان يقلق او يزعج زوجها. الا انها اصرت على القول:

- انت تعرف جيدا بأني تعرفت على الجماعة من خلال الكثيرين من رفاقكم الذين مروا علينا في عرصات الهندية والجادرية والكرادة منذ زمن طويل. كنت راضية مطمئنة على ما تقومون به من اعمال، متحملين انتم الكثير من المصاعب..

قاطعها فخري وهو يداعب لهيب، فابو نبيل يحب الاطفال وقد حرم نفسه منهم بسبب انغماسه في العمل السياسي، خاصة السري في عهود مرت وكرت، هذا العمل السياسي، حرمه من تكوين عائلة له، فرد على سعاد:

- موعظة جديدة..

اجابت بعصبية:

- الا تسمعون رأي الناس؟

التفت الى صاحب الدار وهو لم يزل يداعب لهيب ويبتسم، فقال:

- ما رأيك انت.. ندعها تقول ما في ....

لم تنتظر صدقات فخري او غيره ممن يتصدقون على الناس بالحديث وابداء الرأي، فبادرت الى القول:

- ان ما تقومون به هذه الايام خطأ وخطر عليكم وعلى القضية التي تؤمنون بها.

بحلق في عينيها، ثم مال الى جهة رفيقه التاريخي، ودمدم بصوت خافت:

- يظهر ان المسألة صارت جد..

ارتاحت لانتباهه، وراحت تخفف من نبراتها:

- ان ابا رافد لم يعلمني الكثير من الدروس..

ثم اشارت الى مكتبة عامرة في صدر غرفة الاستقبال، واردفت بالقول:

- لكن الفضل الى بعض هذه الكتب.. والاكثر، الى تجاربكم من خلال مناقشات كنت استرق السمع اليها ومناقشات زوجي معي، مما جعلني انتبه واعيرالاهتمام اكثر بما يدور حولنا.

تدخل، وقد ارتاح لهذه الملاحظات، فقال لفخري:

- ما تسمعه الآن لم نناقشه سابقا، انما اسمعه انا شخصيا للمرة الاولى مثلك.

ضحك فخري بارتياح.. التفت الى ام رافد طالبا منها ان تسترسل بالكلام بكل صراحة. فراحت تحكي بأسلوبها الخاص وببلاغة لا تمت الى مفردات المواضيع بنصوصها المعتادة، بل مبسطة بقدرادراكها لما تقرأه بعجالة ومن خلال ما علق بذهنها من مقالات واحاديث ومقتطفات من النظرية وفي اوقات متباعدة، وهي بين سطور تلك المعاني الكبيرة كانت تعبّر عن حقيقة ما يدور حولها، بمنظار واضح ترى فيه الأمور دون تشوش او انفعال او تحيز. في نهاية حديثها، قالت:

- اني اتوجس خيفة من وعود حلفائكم.. انهم لا يؤمنون قيد انملة بما يقولون.

خلع فخري نظارته السوداء.. مسح براحة يده عينه اليمنى. قال:

- كلامك صحيح يا ام رافد.. انا شخصيا غير مطمئن اليهم.

- امسك بيد فخري وهزها بشدة وبعصبية مستدركا:

- - يعني الناس تريد ان تقول بأننا يجب ان نفتح عيون الشعب ليرى خداعهم، لا ان نخدرهم. وان نعلم الشعب "بعدم الثقة بالكلام وان لا يعتمد الا على قواه هو، على تنظيمه هو، على اتحاده هو، على تسلحه.."

امتقع وجه فخري وهو يرد:

- وهل تعتقد بأننا بعيدون عن ذلك؟

نهض واشار على ام رافد ان تعد الطعام، ثم تمتم بنبرات تنم عن ألم وهو يهم بالتهام سيجارة اخرى. استنشق منها نفسا عميقا، ومع حلقات الدخان المنبعث من زفيره الملتهب، قال:

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.. علينا ان نعرف كيف نكّيف تكتيكنا وندرك مهامنا المباشرة وفقا لخصائص كل وضع بعينه.

صرخ فخري من بعيد:

- لم اسمعك جيدا.. ماذا تقول؟

- انا واثق من انك سمعتني جيدا.. وتدرك جيدا ما اقول..

* * *

عام ١٩٧٦

ظهر (صدام حسين) على مسرح الاحداث رجل الدولة الأول علنا بعد ان بقي "نائبا" لاحمد حسن البكر في قيادة حزب البعث وما يسمى بمجلس قيادة الثورة، يخطط ويوجه ويرسم سياسة البعث وراء الستار، و بعد ان نجح في السيطرة التامة على الاجهزة الأمنية والحزبية وعلى قيادات الجيش. وقّع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ مع شاه ايران.. تلك الاتفاقية التي تنازل فيها عن حقوق العراق في مياهه الاقليمية في شط العرب لقاء ضرب وتصفية الحركة الكردية المسلحة في عقر دارها وانهاء هويتها كثورة تحررية.

مع انتكاسة الحركة الوطنية الكردية، انتكست الاوضاع السياسية وانعكست على قوى الشعب الوطنية الاخرى. انفرد الحكام البعثيون بحلفائهم الشيوعيين. بدأت

مرحلة جديدة من مراحل "التبعيث" القسري في كافة الميادين والانشطة تحت خيمة الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

في داخل مؤسسة البعث.. كان ثمت تحرك من نوع جديد.

لف صدام حسين حفنة من البعثيين حوله وراح يعد العدة لفرض دكتاتورية من طراز جديد. كان منذ ان اصبح نائبا لاحمد حسن البكر في الدولة والحزب، يخطط لتبييض وجه البعث المعروف لدى الشعب والاحزاب الوطنية وعلى الساحتين العربية والدولية في اعقاب انقلاب شباط الاسود عام ١٩٦٣ بأقبح صورة مشوهة. وبالرغم من مساهمة البكر وغيره من اعضاء القيادة القطرية للبعث العفلقي في ذلك الانقلاب وفي جرائم الحرس القومي واقبيتهم الموزعة في ارجاء البلا، الا ان البعض من هؤلاء لم يقبل بتسلق صدام السريع الى المركز الاول في قيادة البعث. كان صدام يخطط في واد، وحزب البعث بكوادره المتعاونة مع اليسار العراقي، يخطط في واد آخر. الا ان الصراع الداخلي في داخل مؤسسة البعث كان قد اخضع لعوامل عديدة:

اولا: ضعف شخصية رئيس الجمهورية الرسمية والحزبية وسيطرة صدام على سياسة البلاد بصفته "النائب".

ثانيا: نمو واتساع قاعدة "شباب" البعث المتعاونين مع اليسار العراقي.

ثالثا: غياب شخصية قوية داخل البعث تستطيع ان تستقطب الشباب بسبب اعدام البعض وسجن آخرين كفؤاد الركابي وعبد الخالق السامرائي واغتيال غيرهما في حوادث مدبرة.

رابعا: تفجر الوضع في كردستان العراق.

خامسا: محاولات احتواء بعض العناصر من حركة اليسار وتقليدهم مناصب قيادية في بعض المؤسسات الثقافية والاقتصادية.

سادسا: شق وحدة الحركة الكردية من جديد واستقطاب عناصر منبوذة لتأسيس حزب سياسي بديل داخل الحركة القومية.

سابعا: اعتماد صدام حسين على جهازي الأمن والمخابرات في اسكات صوت اية معارضة للبعث وفي تصفية خصومه الشخصيين بالذات وزرع الرعب والارهاب في صفوف الحركة الوطنية وداخل صفوف كوادر واعضاء حزب البعث.

ثامنا: التسريع في عملية "التبعيث" على كافة الصعد.

كانت الصورة واضحة آنذاك.. وكان صدام يسرع الخطى لفرض نفسه دكتاتورا على العراق بلا منازع. هكذا خطط منذ ان عاد حزب البعث الى ساحة العمل السياسي بعد انهيار التجربة الدموية الفاشلة على يد حلفاء جبهة معاداة الشيوعية.

امام سياسة التبعيث القسرية، وقف بتحد الرافضون لهذه السياسة.

ان حقيقة ما كان يجري في العراق اختفت وراء الغربال.. " ففي مجتمع تمزقه التناقضات الطبقية، لا يمكن ان توجد على الاطلاق اية ايديولوجية خارج الطبقات او فوق الطبقات. لذا، فكل انتقاص من الايديولوجية الاشتراكية، وكل ابتعاد عنها هو في حد ذاته بمثابة تمكين للايديولوجية البرجوازية وتوطيد لها."

فهل يا ترى ادرك الحزب الشيوعي العراقي الحليف هذه الحقيقة تحت خيمة "الائتلاف"؟

ان عام ١٩٧٦ يحمل طابع الصراع بين الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية الاشتراكية. والتحالف بين القوى السياسية يجب ان يكون تكتيكا وليس استراتجيا.. وليس تحالفا ايديولوجيا او محاولة ايجاد وسط بين الايديولوجيتين. رغم هذه الحقيقة البديهية، كانت تخرج من بين صفوف الحركة اليسارية الاصوات النشاز.. ان تجربة البعث قد تختلف عن تجارب اخرى وتختصر الطريق التاريخي بطفرة او طفرتين. بل راح البعض يكرر اخطاء من سبقهم في مصر او في سوريا ابان تجربة الاتحاد القومي او الاتحاد الاشتراكي، متناسين تجربة الجزائر وجبهة التحرير في خضم حرب الاستقلال وبعد الاستقلال. وانساق آخرون وراء وهم وخيال "خندق واحد لا خندقان"! فأين كان الوعي الطبقي، وكيف يكون وعيا طبقيا حقيقيا اذا لم يتعلم المناضلون المحترفون "ان يطبقوا في العمل، التحليل المادي والتقدير المادي لجميع اوجه نشاط وحياة جميع طبقات السكان وفئاتهم وجماعاتهم ومراقبة كل طبقة من الطبقات الاجتماعية في جميع مظاهر حياتها العقلية والاخلاقية والسياسية."

* * *

وهكذا كان ايضا عام ١٩٧٦ حافلا بالنسبة له..

رغم انشغاله في الجريدة والنقابة، كان منهمكا في تكملة كتابه الجديد "الموسوعة

الصحفية العراقية" . لقد سبق له ان اصدر بعد كتبه الثلاثة في سنوات ثورة تموز، ستة كتب اخرى بين اعوام ١٩٦٨ - ١٩٧٢ عن تاريخ الصحافة العراقية واعلامها وعن صحافة الاحزاب السياسية . وكان عليه ان يعمل في شركة مقاولات من شركات القطاع الخاص تعود الى احد الاقارب ليتسنى له مساعدة العائلة ماديا بعد ان ازداد الطلب على ضرورة توفير مستلزمات المعيشة من قبل ولده (رافد) وابنته (لهيب) وهما يشقان طريقهما في الدراسة الموسطة .

كان يذهب صباحا الى شركة المقاولات الكائنة في شارع اصفر بالكرادة الشرقية، بحكم وظيفته كمدير ادارة مسؤول عن الموظفين والعمال الذين تجاوز عددهم الخمسين . كان يستغل فترة الغداء ليسرق الوقت في مراجعة وتصحيح كتابه الجديد في مطبعة (الأديب) البغدادية . ومساء، يذهب الى الجريدة لاتمام بعض الواجبات قبل الذهاب الى نقابة الصحفيين . وبين هذه المراجعات والواجبات، كان يعطي للعمل السياسي الكثير من وقته المتبقي . لقد ارهقته مسؤوليات النقابة في السفر الى الخارج لأيام واسابيع . . الى بلغاريا، جيكوسلوفاكيا، ثم يوغوسلافيا . ومع كل وفد نقابي، كانوا يرسلون معه احد اعضاء النقابة من البعثيين . وبصحبة كل بعثي، كانت له قصة تضيف الى همومه واتعابه الكثير من "مجاملات" الحرص على التعاون الجبهوي، والنقاش السياسي "البناء"، في وقت كان يشهد فيه ويلمس تدهور العلاقات على كافة المستويات . .

مع (ماجد احمد السامرائي)، وقف على عقلية اولئك الذين تسلموا مراكز قيادية في الاعلام البعثي، فاعطوه مثالا للتعصب الاعمى والتخندق في اقبية الجمود العقائدي حين يكون الفكر أسير الاجهزة الرقابية والأمنية . مع (صباح ياسين)، تلمس طيبة الاخلاق حين تمحوها تعاليم الطاعة الحزبية العمياء المصلحية، فتتجرد السياسة من اهم "اخلاقياتها" . مع (جميل روفائيل)، تحسس ولأول مرة، ان بين "شباب" البعث من يجرؤ ان يقول الحقيقة رغم سيادة قانون القهر والارهاب ضد من ينطق او مجرد ان يحاول النطق بالحقيقة مهما كانت "صغيرة" .

سافر مع (جميل روفائيل) الى بلغراد وفي جعبته مسودة اتفاقية بين نقابتين للتعاون وتبادل الخبر وتعميق اواصر الصداقة والعمل المشترك .

ومع "الاصدقاء" اليوغسلاف، كانت متاعبه اكثر من متاعب البعثيين . . انهم رفاق درب جربوا حظهم مع الالمان المحتلين الفاشست ابان الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩

- ١٩٤٥ .. ثم تاهوا في طريقهم الى الاشتراكية عندما حاولوا ان يبتدعوا طريقا جديدا..

لربما كانوا على صواب آنذاك.. في ابتداع وسلوك الطريق نحو الاشتراكية

حاورهم وحاول اقناعهم بحق العراقيين والعرب في ادانة العدوان الاسرائيلي والمطالبة بسحب قوات الغزو من الاراضي العربية المحتلة. سكتوا ثم رفضوا الادانة. اصر على الادانة في البيان المشترك.. ولكنهم اصروا على الرفض.

وفي اليوم التالي، اعادوا الكرة وتمسك هو بذلك الحق. انه ينطلق من ايمانه بعدالة القضية.. اما هم، فكانوا يتوقعون مرونة اكثر لامرار الاتفاق دون احراج المسؤولين الكبار! وبعد نقاشات طويلة وقعوا على ما اراد، وجرت مراسيم التوقيع على انغام رنين اقداح الكريستال والشمبانيا تزيدها رونقا.

عاد الى بغداد فرحا.. وعاد الى دوامه في النقابة عصر كل يوم.. وفي اليوم الرابع لعودته جاء اليه جميل روفائيل وطلب منه ان ينزويا في احدى غرف النقابة وبادره جميل بالقول:

- ابو رافد، اطلب منك طلبا ارجو ان لا ترده.

- خير يا زميل.

ثم اردف بالقول:

- وارجوك ان لا تتحدث بما سأقوله مع غيري.

- لماذا؟

- لانه سري.

اخرج جميل من محفظته مجموعة اوراق مطبوعة بآلة الرونيو وسلمها له مؤكدا على ضرورة قراءة المضمون لخاطر عيونه. لم يكمل، ولم يرغب هو ان يزيد بعد ان قرأ سطرا واحدا في اعلى الصفحة الاولى..

الرفاق في مكتب الاعلام القومي..

نظر الى جميل وقال:

- ما هذا يا زميل.

تعثرت الكلمات على لسان جميل وهو يطلب قراءة الاوراق قبل ان يقدمها الى المسؤولين في حزبه، فأردف قائلا:

- ولكن لا علاقة لي بما تقوله في اوراقك.

- - بل لك علاقة يا رفيقي.

- وما هي علاقتي يا ترى؟

- لانك اعطيت مثلا رائعا للتعاون الجبهوي، واعطيتني شخصيا درسا مفيدا في ماهية المبادىء.

امسك بيد جميل وقال:

- المبادىء بالافعال لا بالاقوال، واعذرني ان لم احقق ما تريد، وكم من اوراق وملفات ووثائق طواها النسيان.

* * *

اوائل سبتمبر (ايلول):

طلبوا منه في الجريدة ان يذهب مع فخري كريم الى باريس لتمثيل الجريدة في احتفالات (اللومانتيه) في عيدها السنوي. في نفس الوقت الذي رشحته النقابة عضوا في الوفد الذي سيحضر المؤتمر الثامن لمنظمة الصحفيين العالمية في هلسنكي في ٢١ ايلول. وكان الوفد يتألف من سعد قاسم حمودي ونائبه (فخري) وكل من ضياء حسن وسجاد الغازي وعثمان فائق مدير الثقافة الكردية في وزارة الاعلام.

من باريس، اتجه هو وفخري الى موسكو للقاء اعضاء الوفد هناك. ومن موسكو اتجهوا جميعا في القطار الى العاصمة الفنلندية.

وفي المؤتمر.. صدمته المفاجأة.

ففي اعقاب انتهاء اعمال المؤتمر بعد ثلاثة ايام من المناقشات والتقارير والقرارات، وزعت ثماني جوائز تقديرية باسم المنظمة لثمان شخصيات سياسية صحفية من بينهم لويس كورفلان الامين العام للحزب الشيوعي التشيلي، لدوره البطولي في مقارعة الانقلاب الفاشي الذي قاده بينوشيت ضد حكومة الائتلاف الوطني برئاسة الليندي، والى ميخائيل زمنين رئيس تحرير جريدة البرافدا، ورئيس اتحاد الصحفيين السوفييت، والى الشهيد ابراهيم عامر، الصحفي المصري التقدمي الذي استشهد في لبنان.

كما منحت جائزة يوليوس فوجيك الى اتحاد الصحفيين والكتاب الفلسطينيين تقديرا للنضال البطولي الذي يخوضه الصحفيون الفلسطينيون جنبا الى جنب مع حركة المقاومة الفلسطينية.

اما المفاجأة.. فقد كانت على لسان السكرتير العام للمنظمة وهو يعلن عن منح جائزة فوجيك المناضل الذي تحدى الفاشيست الالمان وهو (تحت اعواد المشنقة) ابان الاحتلال النازي لجيكوسلوفاكيا في الحرب العالمية الثانية، منحها الى ثلاثة صحفيين عراقيين دفعة واحدة.

فقد منحت الى فخري كريم عن دوره النضالي في الصحافة الحزبية العلنية والسرية، وهو تقدير يستحقه عن جدارة. اما أنْ تمنح الجائزتان باسم فوجيك الى سعد قاسم حمودي وضياء حسن فهذا ما استنكره بشدة رغم تبريرات فخري لاعتبارات معينة!

سكت على مضض.. وعاد الى موسكو.

* * *

وعند عودته من موسكو في زيارة ثانية.. وجد فصله من شركة المقاولات الاهلية كمدير ادارة دون تحديد الاسباب. لقد اعتاد على مواجهة الفصل او الطرد والتوقيف او السجن، ولكن لاسباب يدركها، وكان دائما على استعداد لتقبل نتائجها طالما ان الوجدان يفرض عليه ذلك. لقد جرب حظه طالبا في كلية الاداب ببغداد، ففصل لاسباب سياسية. واعترك الصحافة، فسجن لاسباب سياسية ايضا، وعاد الى الصحافة ثانية في صحافة حزب ديمقراطي كردي، فاستغنوا عن خدماته بقرار من المكتب السياسي، لاسباب سياسية (يسارية). اودع التوقيف مرات عديدة اثناء دراسته الجامعية واثناء عمله في مطبعة التقدم لنفس الاسباب.. السياسة.

اما الطرد في الفصل الجديد، فكان بدون اسباب، بقدر ما كان ثمنا للوجدان في الامتحان.

لقد اراد اصحاب الشركة ان يتخلى عن وجدانه ليستطيع ان يحقق مآرب حفنة من المقاولين ضد ارادة وحقوق العمال.

استعانوا بالنقابة.. ثم اقاموا الدعوة على العمال.. وعندما طلبوا منه في المحكمة ابداء الرأي، انحاز بدوره الى العمال عندما جاء شاهدا.. فكانت كلمتان منه هي الحد الفاصل في ان يصدر حاكم محكمة العمل قراره لصالح العمال ويسقط شهادتي الزور لممثل النقابة ومحامي الشركة.

ان ثمن الحكم لم يكن اغلى من وجدانه.

وثمن الفصل من الشركة لم يكن اغلى من وجدانه.

الجزء الثاني

الفصل السادس
الامتحان

حزيران ١٩٧٦

انتهى اللقاء في صوفيا، نجحا في توقيع اتفاق التعاون بين نقابة الصحفيين العراقيين ومثيلتها في بلغاريا. وفي طريق عودتهما الى بغداد، افترقا في مطار صوفيا. ذهب سجاد الغازي الى اسطانبول، وركب هو الطائرة المتجهة الى بيروت، لعله يظفر بلقاء "نائلة" بعد فراقهما الطويل في بغداد.

كانت بيروت تعيش حالة حرب طاحنة بين ابناء "الوطن الواحد"، وفي وسط هدا التلاطم الجنوني، يقحم ذوو المصالح الذين يقبعون في العواصم العربية، الفلسطينيين في اتون المعركة، تهيجهم تلك المصالح الضيقة، فيفرغون حقدهم في العاصمة العربية الهادئة، بيروت..

عرف هذه المدينة الجميلة، سويسرا الشرق، كما اسماها والده في الخمسينات، فهاله منظرها الغريب هذه المرة. الشوارع خالية، والمحلات التجارية مغلقة. فوانيس الحمرا والروشة ورأس بيروت، معتمة، واكوام المتاريس تنتشر هنا وهناك. وخلف رأس بيروت تلتمع العيون المبحلقة في وجوه الغرباء، ان مروا في هذا المنعطف او ذاك.

في غرفته المطلة على شارع الحمرا في الفندق، راح يدير قرص الهاتف، لعله يظفر بصوت نائلة ليزف لها نبأ وصوله الى بيروت، في هذا الجو المشحون بالمخاط. صعقت نائلة عند سماع صوته يتدحرج عبر سماعة الهاتف. لم تصدق انه جاء في وسط هذا الأتون الحارق للاجساد البشرية في بيروت الغربية. هرعت اليه بسيارتها الفارهة لتنقله الى المنطقة الشرقية بعد ان تحولت المنطقة الغربية الى ساحة حرب حقيقية.

* * *

ثلاثة ايام طوال منذ ان تركته نائلة في هذه المنطقة الشرقية، وهو يلعن الساعة التي جاء فيها الى بيروت. قالت له ان الشرقية منطقة آمنة، وان الفندق الذي ينزل فيه قريب من قصر بعبدا. الواقع كان عكس ذلك. فهدير المدافع وزخات الرصاص لا ينقطعان، وطرق المنطقة الشرقية غير سالكة في هذه الجولة الجديدة من الاقتتال. كانت القذائف الصاروخية تتطاير فوق العمارات العالية وفي الشوارع المهجورة دون تمييز.

تساءل مع نفسه؛ اين الهدوء والاستقرار في الشرقية؟

فجأة قرر السفر الى بغداد مهما كانت المخاطر، ولكن كيف يحقق رغبته هذه، وعاصمة الجمال قد شطرها المقاتلون الى نصفين. وكيف تستطيع نائلة القابعة مرعوبة في بيتها ان توصله الى مطار بيروت الدولي في المنطقة الغربية، وشوارع المدينتين الشرقية والغربية تجوبها العربات المسلحة وقد امتطاها مقاتلون مدججون بكل انواع الاسلحة وهم يحملون الاعلام الملونة التي لا يعرف رموزها الا المقاتلون انفسهم، والى اية جهة محاربة ينتمون.

جلس حزينا في صالة الفندق يفكر ويحتسي القهوة للمرة الخامسة في غضون ساعة. لمح احد ضيوف الفندق يبحلق في وجهه بين الفينة والاخرى، وقد حسبه من رجال مخابرات الجهة التي يقبع في واديها قصر بعبدا الرئاسي. حاول ان يبعد نظره عن عيون هذا الرجل الغريب. جال ببصره صوب الباب الرئيسي للفندق، لعله يظفر بطلعة نائلة دون ميعاد مسبق لتنقذه من هذه الورطة والحيرة. فجأة وهو في هذه اللحظات المقلقة، بادره الرجل الغريب بسؤال؛

الأخ غريب عن لبنان؟

أحس بالفعل انه غريب عن لبنان وهو العاشق له ولكل الساكنين في بلد الحب والجمال.

اجابه بحذر:

- ان لبنان في دمي، ولكنه ينزف دما لا يستحقه . .

مد الرجل الغريب يده مصافحا وقال له:

- انا جورج، صحفي من لبنان متقاعد. وانت من اين جئت؟

- انا ايضا صحفي من العراق.

تعارفا بسرعة، وعرف منه ان جورج صديق الجميع، وراح يدافع عن لبنان وعروبة فلسطين، وانه لا يرتبط بأي حزب او جهة سياسية. انه ليس "كتائبيا" او من " الاحرار" او من "القوات الوطنيةاللبنانية"، ولا ينتمي سياسيا الى اية جهة تقاتل في بيروت بعضها البعض، وما اكثرها في هذه الايام، ولكنه لبناني اصيل يدعو الى وطن خال من الزعامات والتدخلات..

نظر اليه، وبعد الاعتذار قال:

- انا افهم ما تقوله، ولكن قل لي بحق السماء، من المسؤول عن هذا الذبح البشري اليومي؟

نهض الرجل من مكانه واحتل المقعد الملاصق الذي يجلس عليه، وهمس في اذنه:

- الزعامات خارج الحدود.

- ماذا تقصد؟

- انهم يختلفون فيما بينهم، فيأتون الينا بهذه المصائب.

- من هم؟

- اعداء شعوبهم واعداء لبنان. فهناك اكثر من عاصمة عربية تدفع الاوضاع من سيء الى اسوأ كما ترى.

سكت كلاهما، بينما راح هو يستذكر احداث المذابح العربية السابقة والتي طالت لبنان الهادىء هذه المرة، فاستعرض حوادث ايلول الاسود في الاردن عام ١٩٧٠ بين الفلسطينيين والاردنيين، فسأل صديقه الغريب بصوت حزين:

- اتعتقد يا جورج ان القتال الحالي في لبنان ينحصر بين اللبنانيين والفلسطينيين؟

انتفض جورج ووقف بمواجهته وقال:

- القتال بين ابناء الشعب الواحد في لبنان اشد ضراوة وانتشارا ما بين الفلسطينيين واللبنانيين، انها حرب مناطق لبنانية اكثر من كونها عروبية. انها الطائفية المقيتة قبل ان تكون قومية.

- نظر الى جورج وقال بهدوء:

- ولماذا الطائفية الان، وقد عاش الطائفيون في ارض العرب آلاف السنين قبل وبعد الغزوات التي عرفناها.

- اطرق لحظة، قبل ان يجيب:

- اسأل الزعامات خارج الحدود . انها تحرك التكتلات متى تريد .

قطع النادل حديثهما عندما جاءه ليقول إنه مطلوب على الهاتف. اتجه الى مكتب الاستعلامات الذي اخبره بأن نائلة على الخط، حيث اخبرته بصوت مرعوب بأنها قادمة اليه حالا .

اعتذر من جليسه واتجه الى باب الفندق ينتظر قدوم نائلة، حيث تسكن بالقرب من المنطقة . ألم تقل له بأنها جاءت به الى هذا الفندق لتكون قريبة منه؟

ان الاقتتال لم يكن رحيما .

اطلت بجمالها الساحر وطلبت منه ان يغادر بيروت فورا ، بدت خائفة ثم اختفت .

عاد الى جورج . . ألم يقل ابو فادي انه صديق الجميع .

خطر بباله فكرة بأن جورج قد يستطيع مساعدته فينقذه من هذه الورطة . لم يشعر بحرج وهو يسأله ان كان بمقدوره ان يوصله الى مطار بيروت هذه الليلة .

لم يكذب جورج الخبر، تركه لحظات وعاد اليه قائلا:

- هل انت بالفعل مستعد ان تغادر هذه الليلة؟

تفاءل خيرا وهو يجيبه:

- بل فورا .

قال جورج:

- سيأتي صديق لي ويصطحبك الى مكان ما ، ومن هناك سوف يستلمك صديق اخر من الطرف الثاني .

- ادرك للتو، ان جورج صادق في كلامه، فأعد للسفر عدته، وجلسا ينتظران السيارة المأمونة.

* * *

الساعة الرابعة عصرا . عانقه جورج طويلا . نزل السلالم مسرعا ، ثم غاب في السيارة الواقفة عند المنعطف الايسر للفندق .

انطلقت السيارة "المأمونة" مسرعة تخترق الشوارع المسكونة بالخطر والموت، وكلما لاح عن بعد متراس او تلة من اكياس الرمل في الوسط او على جانبي الطريق، يطالبه

الشاب الهادىء الذي يقود السيارة بالانحناء واخفاء رأسه ، فالتعرف على الهوية قد يكلفه حياته.

بعد مسيرة محفوفة بالمخاطر، توقفت السيارة في شارع ضيق مظلم، وطلب منه السائق المقاتل ان يترجل منها بسرعة. لم يسعفه بكلمة شكر، بل زمجرت اطارات السيارة وقفزت في الوسط تلاحقها رصاصات الرجال وراء المتاريس. انه يدخل منطقة الحرام في القاطع الغربي من المدينة المستباحة.

وقف مشدوها على حافة الرصيف تلاحقه نظرات لا يعرف هوية اصحابها، ان كانوا من الاصدقاء العرب، ام العرب الاجانب، كما ينعتهم اعداء لبنان. من بعيد، لمح رجلا ضخما يلوح له ويطالبه بالاسراع الى حيث يقف والمسلحون الاخرون امام مبنى كبير. ادرك ببساطة ان المكان مقر امين لجماعة مسلحة تبسط سيطرتها على الشطر من بيروت.

قادته خطواته المثقلة برعب وهو يتعثربخراطيش فارغة لانواع من الاسلحة، واتجه الى المكان الذي يقف فيه الرجل. احس ان المسافة التي تربط منذ ترجله من السيارة ليصل الى المكان المجهول، طويلةٌ جدا، بينما هي لا تتعدى خمسين مترا. اعلن عن اسمه وهويته، فعانقه الرجل وسلمه الى مسلح يقف بسيارته فيات الايطالية البيضاء يجلس في داخلها مسلح اخر وانطلقا به الى مطار بيروت الدولي.

لم ينطق راكبو السيارة بحرف واحد، وبدأ بمراقبة تلك الشوارع التي بدت وكأنها قد هجرت منذ زمن سحيق، ناظرا الى العمارات التي شوهتها قذائف المقاتلين. فهناك بقايا محلات ومقاهي كانت قبل،الانفجار الغاضب، تعجُّ بالناس والمصطافين والمثقفين اللبنانيين والعرب. تساءل مع نفسه: ألم تكن بيروت واحة المثقفين ينهلون من منابعها الفكرية ليكتبواعن ذلك للاجيال اللاحقة؟ ازدحمت الافكار في ذاكره فتألم وحزن.

امام المدخل الرئيسي لمبنى المطار يقف جنود لبنانيون وفلسطينيون، البعض منهم يحمل السلاح. طلب منه الشاب الفلسطيني الذي اوصله الى المطار مبلغ الف ليرة لبنانية ثمن وقود السيارة كما قال.

ولج البوابة الرئيسية، فشاهد قاعات المطار الواسعة مزدحمة بالمسافرين، كانت الساعة تشير الى السادسة مساء حين دوت اصوات اطلاقات متراشقة صاحبتها

انفجارات شديدة من بعيد وكأنها رصاصات طائشة داخل المبنى. رمى بنفسه مع الجموع على الارض، بينما اختبأ اخرون وراء المقاعد الخشبية. بعد لحظات قليلة، علا صوت مكبرات المطار معلنا عن انتصار الانقلاب السلمي للعقيد عزيز الاحدب كمحاولة لانقاذ لبنان من المذابح.

تنفست الحشود المتراكمة في المطار الصعداء، وراحوا يهنئون بعضهم البعض، متمنين للعقيد الاحدب النجاح لانقاذ هذا البلد من الضياع، الا ان الانقلاب لم يستمر الا ساعات معدودة، ولم ينقذ عروبة لبنان، بل زاد في تمزيق الجيش واضعاف دوره في حماية الوطن.

سأل عن طائرة خطوط الشرق الاوسط المتجهة الى بغداد، فقالوا له بأن السفر محظور هذه الليلة. استسلم للامر الواقع واتخذ له مقعدا في مكان قصي في المطار منتظرا الرحيل في صباح اليوم التالي، اثناء ذلك لمح عالية ممدوح التي دخلت المطار في حالة مرتبكة، فسلم عليها واخبرها بأمر تأجيل كل الرحلات هذه الليلة، فاستدارت عائدة من حيث أتت.

صعد الى قاعة "الترانزيت" في الطابق الثاني وانزوى في ركن هادىء منتظرا الساعات المقبلة، بعد ان هده التعب منذ الصباح. تقدم اليه ضابط برتبة نقيب مستفسرا منه عن سبب بقائه هذه الليلة في المطار. عرف الضابط انه عراقي في طريقه الى العراق، فأرتاح له واصطحبه الى صالة المطعم الخالية، فجلسا يتبادلان حديثا وديا.

نظر الى الضابط اللبناني وقال له:

- لماذا تقاتلون الفلسطينيين؟

- نحن لا نقاتل، انهم محترفو قتال لا سياسة.

- بل انكم تهاجمون مقراتهم ومعسكراتهم وتطوقون تل الزعتر بالدبابات.

رد الضابط بنبرة يشوبها الغضب:

- نحن لا نهاجم بل ندافع عنهم ونحميهم من هجمات الغرباء.

- ومن هم الغرباء؟

اجاب بسرعة:

- الذين يحملون السلاح القادم لهم من خارج الحدود .
- هل تقصد الكتائب والاحرار؟ انهم لبنانيون.
- يقولون انهم يريدون لبنان دون دخلاء.

سأله:

- ومن هم الدخلاء؟
- اللاجئون!
- اذن يحارب اللبناني اخاه الفلسطيني!

استطرد الضابط قائلا:

- الحقيقة هي ان اللبناني يقاتل اللبناني قبل ان تصله رصاصة الفلسطيني. انها الطائفية.

سأله:

- والفلسطينيون؟
- انهم كبش الفداء،و يدفعون ثمن اخطائهم السياسية على ارض لبنان.
- اذن لهذا السبب وقع انقلاب الاحدب في هذا المساء؟

أجابه:

- يحاول الاحدب حماية كرامة الجيش اللبناني، بعد ان فقد واجبه كحام للبنان. ان حركة الاحدب احتجاج وليس انقلاباً، يستعرض عضلاته داخل معسكرات الجيش. الامر ليس بيد الاحدب او جيش لبنان. المسلحون والمقاتلون في لبنان اكثر عددا من الجيش اللبناني، ولديهم كل انواع الاسلحة، والخارجون عن القانون يريدون ذبح ديمقراطية هذا البلد وتمزيقه ارضاء لشهوات الحكام المتربصين بهذا النموذج.

نهض النقيب محمود، وعاد اليه بعد دقائق حاملا وسادة وبطانية، ولم ينس ان يترك له على الطاولة الصغيرة علبة سجائر "كريفن أيه"، متمنيا له نوما هادئا، وغاب عن الانظار.

لم يتمكن من النوم بسبب القلق والارهاق، ثم بدأت الصور تتلاحق في مخيلته لتبدأ بالتلاشي تدريجيا واستغرق في نومه ثم استيقظ وكانت خطوط ضياء الصباح قد بدأت تنير السماء، فهرع مسرعا الى مكتب الخطوط الجوية، حيث وجد طابورا طويلا

من المسافرين قد سبقوه، ومن بينهم لمح ثانية عالية ممدوح. ظفرا بالمقعدين، واقلعت بهما الطائرة مسرعة الى بغداد.

نظر عبر النافذة الى بيروت الحزينة وجالت في خاطره تلك الصور التي يحتفظ بها هو ووالده عن لبنان الخلابة، بجبالها ووديانها التي تشبه بالفعل مدينة سويسرا، راح يطوي وراءه صفحات تاريخ كتب عليه ان يكون هو شاهدا جديدا على احداث امة ابتليت بزعمائها العرب قبل ان تبتلى بالغرباء الاجانب.

* * *

تشرين الاول .. في موسكو

انهى الصحفيون مؤتمرهم العالمي الثامن في مدينة هلسنكي الفنلندية. كان الوفد العراقي يضم الى جانبه، كعضو دائم في مجلس النقابة، سعد قاسم حمودي، النقيب البعثي ورئيس تحرير جريدة الجمهورية الرسمية، فخري كريم، مدير تحرير جريدة طريق الشعب للحزب الشيوعي العراقي، نائبا للنقيب، وضياء حسن، البعثي والمحرر في صحف حزب البعث منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، امينا للسر، وعثمان فائق، مدير دائرة الثقافة الكردية (اغتيل امام مبنى المديرية بعد سنوات قليلة).

في فندق(راسيا) الكبير المطل على الساحة الحمراء، جاءه الصديق جلال الماشطة، الصحفي الكاتب والناشط السياسي الذي توسم فيه الاخلاص والثبات على المبادىء منذ ان كان شيوعيا وبعد ان اصبح متمرسا بالعمل السري في الازمات والملاحقات، جاءه ليخبره بأن رئيس قسم الصحافة في اكاديمية العلوم السوفييتية يرغب في لقائه في اليوم التالي.

استغرب للوهلة الاولى، فرد عليه جلال بضحكته المألوفة والتي عُرف بها، حتى عندما يكون جادا، وقال له:

- طلب مني استاذي ابراهيموف في القسم ان اقنعك بالانضمام الى الاكاديمية قبل ان نلقاه في الغد.

- التفت الى فخري كريم ، وقال له:

- تصور يا ابا نبيل، يريدون مني ان اعود الى الدراسة بعد عشرين عاما من النضال والعمل في الصحافة ؟

- قاطعه جلال قبل ان يرد عليه فخري :

- يقول ابراهيموف بأنك زودت المكتبة بكتب عديدة عن تاريخ الصحافة العراقية، وهم يعرفون بان طلاب المعهد يترجمون فصولا منها لينالوا درجاتهم العلمية، مما يؤهلك ان تنال اعلى درجة اكاديمية، وهي استحقاقك العلمي.

قال فخري:

- لماذا ترفض هذا الطلب؟

رد عليه بحيرة:

- هل اعود الى الدراسة والحصول على شهادة عليا في الصحافة؟

اكمل فخري الحديث:

- لم لا ؟

تدخل جلال قائلا:

- وهل تخسر شيئا لو قابلت ابراهيموف غدا ؟

في صباح اليوم التالي، وجد نفسه مع جلال الماشطة يدخلان بوابة الاكاديمية، ويجلسان مع ابراهيموف. رحب به الاستاذ، وطلب منه مباشرة ان يختار عنوانا لاطروحته بالعربية ، ويقدمها الى المعهد.

التقت الرغبتان طالما ان الأمر لا يتعدى الكتابة بالعربية، والاكتفاء بالزيارات الدراسية كل ستة اشهر لمراجعة الاطروحة والاستعداد لمناقشتها واداء الامتحان في الفلسفة والترجمة والتارخ العالمي.

عند هذا الحد، ولد كتاب " الصحافة اليسارية في العراق " ليضاف الى سلسلة كتبه عن تاريخ الصحافة العراقية.

* * *

مطلع عام ١٩٧٧

الحياة العامة اصبحت مملة. الاوضاع السياسية باتت مقرفة. العهر السياسي بدأ يطفح على السطح في كافة المجالات. الروتين في الجريدة بدأ يضغط على اعصابه. عشقه للصحافة بدأ ينتابه الملل. غرامه بالكتابة وبقدسية الكلمة بدأ ايضا يذبل وهو

حبيس ارادة واهواء اكثر من رفيق رقيب على تحركات وآراء المحررين في اقسام الجريدة. فرئيس التحرير، عبد الرزاق الصافي، عضو المكتب السياسي للحزب، يحاول جاهدا ان يوفق بين متطلبات العمل المهني في ظل تحالف سياسي كسيح مع حزب البعث، وبين ضغوطات الرفاق في الخارج وداخل الجريدة، المستهجنة للوضع الذي يعايشونه مع الحلفاء الاعداء داخل خيمة ما اسموه بالجبهة الوطنية والقومية التقدمية. مدير التحرير، فخري كريم، الغاضب عليالاوضاع، يريد شيئا آخر، يعاضده في ذلك غالبية المحرري. اعضاء المكتب السياسي يتقدمهم صاحب الامتياز والمشرف الجديد على الجريدة، ثابت حبيب العاني، يريدون الحفاظ على ما تبقى من مظاهر التحالف خوفا على ضياع كل شيء.

بدأ يومه في الذهاب الى الجريدة يشكل كابوسا يثقل كاهله. ان الدوام في اروقة المكان القريب من نصب الجندي المجهول في منطقة العلوية، بات اجباريا بعد ان كان بالنسبة له خيارا مفضلا، واستجابة لرغبة فخري كريم، الذي طلب منه الالتحاق بالجريدة منذ صدور عددها الاول.

لم ينفرد بهذا الشعور، بل كان واثقا من ان الكثير من المحررين يشاطرونه هذا الاحساس، حتى اولئك الرفاق الذين جاءوا من جنوب العراق بتنسيبات حزبية، بدأوا يتركون العمل ويتسربون الى خارج بغداد، ومنهم من غادر الى الخارج، ومنهم من سافر لاسباب باتت معروفة،يتقدمهم شمران الياسري (ابو كاطع).

حاول ان يقضي اوقاته خارج الجريدة، وهو يعد الايام التي بدأت تتسارع في جو محفوف بالمخاطر. كان يقوم مع صديقه يوسف الصائغ بزيارات الى مطبعة الاديب حيث يلتقي هناك بالذين يعرفهم من العمال والزائرين، ثم يغادران المطبعة الى جريدة الجمهورية للقاء محمد كامل عارف ومنير رزوق وسلوى زكو.

قبل العودة الى الجريدة ثانية يعرجان الى بارات ابي نؤاس او درابين العلوية ليحتسيا البيرة قبل ان تبدأ المرحلة الثانية من الصراع الدائر بين الحقيقة والواقع المفروض عليهما، وعلى كل اولئك الملتزمين الذين يحاول عدد محدود "من القادة" تجريدهم من قناعاتهم والاصطفاف في الطابور المتجه نحو المجهول المعلوم للجميع.

كان الذهاب عصر كل يوم الى مقر نقابة الصحفيين، لا يقل ازعاجا عن البقاء في

الجريدة .ان عيون الرقيب في سيارات (الفولكس واكن) ذات الشريط الاسود تلاحقه منذ مغادرته الدار حتى مقر النقابة وبالعكس.

في كل مساء عدا يوم الجمعة، كانت شرفة الشقة التي يسكن فيها في منطقة رخيته - كرادة داخل تشهد حوارات ساخنة، يؤججها يوسف الصائغ امام فخري كريم، بينما كان هو يلح في تساؤلاته عن اسباب بقاء الجبهة، وقد جاوز الفاشيون المدى في اعتداءاتهم واعداماتهم هذا عدا عن خطف الرفاق من البيوت والشوارع وتنفيذ سياسية الاسقاط السياسي، فينهض فخري ويتبعه يوسف، وتبقى الاسئلة تجوب في ذهنه باحثة عن الجواب.

يعود ثانية الى الشرفة ليكمل السهرة الحزينة، وقد باتت لياليه كلها حزينة، فالزوجة والاولاد نائمون. يحتسي ما تبقى من الكحول حتى يذهب الى فراشه متعثرا بخطواته ومستسلما للكوابيس التي تزوره دون ميعاد.

* * *

ينهض صباحا بتثاقل كالمعتاد، ليجد نفسه وحيدا، فالزوجة قد غادرت الى عملها في شارع البنوك، ورافد ولهيب قد ذهبا الى مدرستهما في العلوية. يبدأ هو مسيرته اليومية بالذهاب الى الجريدة.

في الغرفة الاولى التي يفتتح فيها يومه، تجلس فاطمة المحسن، وهي غارقة بين اكوام الاوراق المتناثرة على منضدتها دون نظام، يبادرها بالتحية مستفسرا عن مشروعها الجديد في الكتابة. تسقط القلم من بين انامله، وتعدل في جلستها لتقول:

- ما عدت اقوى على تصوير هموم الناس في صفحة(حياة الشعب) اذا كانت همومي وحيرتي حبيستين. لم اعد اطيق هذا العمل.

فاطمة المحسن، الفتاة السمراء القادمة من جنوب العراق، ولجت عالم الصحافة كفتاة يحدوها الامل في ان تكون صحافة الحزب مدرستها المثلى، كما كانت مدرسة للعشرات من المثقفين العراقيين والعرب، الذين تخرجوا من : العصبة،الاساس، الثقافة الجديدة، اتحاد الشعب ومن ثم طريق الشعب. كانت تصدر في تلك الفترة عن الحزب الشيوعي العراقي جريدة (الفكر الجديد) الاسبوعية لصاحب الامتياز احمد قاسم العزيز، ومدير تحريرها فخري كريم يساعده محمد فتح الله.

التحقت فاطمة بالفكر الجديد محررة متدربة وهي تحلم، وفي احلامها، ينمو ويكبر الامل، في ان تكون يوما ما صحفية وكاتبة. التحقت في جريدة طريق الشعب اليومية في اعقاب توقيع الجبهة مع حزب البعث، وكانت من اوائل المحررين الذين دفعوا ثمن الالتزام الفكري والسياسي عندما صمدت في سجون الحلفاء وصارعت الموت في اضرابها عن الطعام متحدية زمن الهبوط والسقوط. اطلقوا سراحها بعد حملة ادانة عالمية وغادرت العراق الى الخارج لتواصل مسيرة العطاء الثقافي، ورفضت ان تتحدث عن ممارسات التعذيب التي تعرضت لها في السجون، في الندوات والنشاطات التي اقيمت خصيصا لفضح اساليب التعذيب التي تفنن بها نظام البعث الدموي اللاانساني.

في الطرف الثاني من الغرفة، يحتل الشاعر الحالم فاضل السلطاني مقعده، الشاعر الرقيق والهادىء، الساكت عن الكلام المباح، الحالم به سرا، وهو يبحث عن جديد، الجديد الذي يشاطره في ذلك شاعراخر هو مخلص خليل.

شاعران واعدان لجيل جديد من مثقفي الحزب.

ترك الغرفة الاولى واتجه الى غرفة الارشيف. انهما اثنان فقط يرفدان كل اقسام الجريدة بالقصاصات والمتابعات والصور وكل مادة ارشيفية يحتاجها او يطلبها المحرر المعني. أموري عطية، الشيوعي الطيب الذي احبه كل العاملين في الجريدة. لا يعرف الحزن ابدا، ولا تراه او تلتقي به في الممرات او في الحديقة الا وهو يبتسم لكل رفيق او محرر مهموم. ومعه في القسم، تشاطره المهام، سهام الظاهر، الفتاة الشيوعية القادمة من طويريج في جنوب العراق، لا تعرف الجلوس على المقعد في الغرفة، بل تراها دائبة الحركة وهي تتنقل بين غرف الجريدة لتوزع المواد والصور والقصاصات على من طلبها سابقا. فالمحررون لا يملون الطلب طالما هم لا يملون الكتابة. سهام وأموري نجحا في تحويل الغرفة الواسعة في الطابق الارضي والملاصقة لحديقة المبنى، الى قسم واسع ضم في رفوفه ومكتباته العشرات من الاضابير والمجلدات والادراج الحديدية. هذا الكم الهائل من العناوين والقصاصات والمواد المؤرشفة في مختلف الاختصاصات وفي فترة زمنية قياسية لمثل هذا العمل الذي لاتستغني عنه اية مطبوعة في عالم النشر.

في الغرفة الاخيرة في اسفل السلم، يلقي سلامه ويداعب مدير الادارة، عادل

علي، ولا يتركه الا بعد ان يحصل منه على ضحكة ونكتة بلهجة عربية- كردية، يبقى يرددها وهو يتسلق السلالم الى الطابق الثاني، حيث يعرج الى قسم الشؤون العربية والدولية، ويرى امامه على باب الغرفة، حميد بخش (ابو زكي) الذي حل مكان ماجد عبد الرضا في ادارة شؤون القسم، وعضوا في مجلس تحرير الجريدة (هتج).

ان ابا زكي، رفيق لا تفارقه روح الدعابة حتى اثناء حديثه الجدي او مناقشاته مع رفاقه في تحرير الصفحة او في الاعداد لنشرة (مناضل الحزب) وهو كثير الكلام والاعتزاز في مفردات عن (العمل والتنظيم الشيوعي).

ابو زكي، الشيوعي الثوري، تجنت عليه صحف الردة عندما كان يتصدى للعملاء في المسيب، ابان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فآثر الابتعاد عن المسرح، ليواصل العمل السري في جنوب وشمال البلاد سنوات طويلة، ثم تضطره الظروف الصحية الى السفر خارج العراق، الى بلغاريا ، والبقاء هناك فترة، حتى تسنت له العودة الى بغداد قبيل الهجمة على الحزب في اواخر السبعينيات.

يترك حميد بخش واقفا على الباب ويدلف الى الداخل، ليرى امامه شلة من الاصدقاء والرفاق المحررين في هذا القسم، منكبين على العمل بهمة ونشاط. على الجهة اليسرى من الباب، يجلس فالح عبد الجبار، الكاتب الذي لا يمل او يكل من الكتابة متى ما طلب منه التحدث او الكتابة عن قضايا دولية او عربية ملتهبة، او ترجمة اى موضوع قد يختاره هو او هيئة التحرير، بدءا من ثورة نيكاراغوا حتى حرب تحرير الصحراء في شمال افريقيا (البوليساريو).

يشارك فالح في اجتهاداته السياسية في القسم، ابراهيم الحريري، الكاتب الساخر والشفاف الذي تربى في صحافة الحزب الشيوعي في عهدها العلني ابان حكم عبد الكريم قاسم (اتحاد الشعب).

وفي الجانب الايسر من الغرفة، يحتل المقعد الاول، الشاعر والكاتب رشدي العامل (ابو علي) الذي دوّخ الحكام في عهدي العارفين، عبد السلام وعبد الرحمن عارف، وفي ظل حكم "الجبهة" مع البعث. ابو علي، يعتبر من المع كتاب العمود الصحفي في العراق، برز في جريدة (التآخي) وفي جريدة (طريق الشعب) بعد صدورها العلني عام ١٩٧٣ والى جانب رشدي العامل، يجلس حميد الكعبي (ابو

مازن)، وعبد الآله النعيمي، ورجاء الزنبوري، الثلاثي النشط في عالم الترجمة، الذين رفدوا المكتبة العربية بتراجم تعد من انجح الكتب في مجالات السياسة والاقتصاد، وباتت اسماؤهم تحتل الصدارة في قائمة الكتب الصادرة عن دور النشر، كالفارابي والطريق والطليعة والمدى في بيروت ودمشق ولندن.

يجلس عبد الآله هادئا منكبا على الكتابة، يجول بنظره بين طيات الكتب والصحف، يقلب صفحات جريدة التايمس اللندنية ونيويورك تايمس الامريكية ومبعثرا اوراق وكالات الانباء العالمية وما اكثرها، وانامله تداعب خصلات شعره، وهو لا يكف عن نتف البعض منها كلما هربت منه او صعبت عليه عبارة دلالة لما يريد التعبير عنه، يجلس ولا يعير انتباها للوافدين الى القسم او المتحدثين من زملائه المحررين، ولا يترك مكانه الا ما ندر. عبودي، يفضل دائما البقاء وراء منضدته، يوزع احلامه ويطيل النظر الى المحررين في وقت هو لا ينظر اليهم بقدر ما هو يسرح لالتقاط فكرة او جملة من هنا وهناك.

من غرفة القسم السياسي، يدلف الى موقع (حياة الشعب)، ليجد زهير الجزائري وهو يسرع الخطى كعادته ليحتل مقعده امام عبد السلام الناصري (ابو نصير) رئيس القسم. ويعرف عن زهير انه كثير النسيان وبطيء الحركة، ويتناسى عن قصد ان اراد ان يتخلص من مقلب أو أن يداري وضعه الخاص او التخلص من واجباته او تكليفات الحزب له، وقد كثرت الحكايات عن ظاهرة نسيانه ما بين بيروت ودمشق، ولاحقا في لندن، المنافي التي عاش فيها في السنوات اللاحقة. زهير اذ دخل الصحافة من بوابة الحزب في مطلع السبعينيات، فقد بات بعد سنوات مبدعا في الرواية والمقال والنقد، وهو رغم ابداعه ووفرة نتاجاته، لم ينس الحزب الذي وضعه على اولى السلالم في حياته الفكرية.

الى جانب مكتب زهير، يبقى مكان شمران الياسري (ابو كاطع) شاغرا، لا يجرؤ احد على اخذه منذ ان اجبره الحزب على ترك العراق وتسفيره الى العاصمة التشيكية، براغ، حفاظا على حياته من غدر (الحلفاء - الاعداء) الذين توعدوه وخططوا لاسكات صوته الصارخ عبر عموده اليومي "بصراحة وهو يحذر وينذر ويتجرأ على الانتقاد بأسلوب لاذع لبق، ويتنبأ بما ستحمله الايام الحبلى بالتناقضات من احداث ومآسي،

ستجر على البلاد الويلات ان واصل الحكام البعثيون سياستهم لتنفيذ ما هو مرسوم في سجلات خاصة اعدها صدام حسين ونفر من عبيده في مكتب العلاقات العامة الذي تحول الى دائرة المخابرات العراقية لاحقا.

ومع زهير، يسرع الخطى ايضا كل صباح، عدنان حسين، في القدوم المسرع والخروج المبكر للقاء صحفي مع مسؤول او كتابة اسئلة لريبورتاج يحتاج فيه الى لقاءات مع مواطنين بؤساء يشكلون العمود الفقري لمادته الصحفية التي يتوخى منها الصدق والصراحة عن حالات بائسة تكتنفها (حياة الشعب) اليومية.

عدنان حسين، ما يزال طالبا في قسم الصحافة بجامعة بغداد. انه يحب مهنة البحث عن المصاعب، الا ان متاعبه كانت تزداد كلما قدم مادته التي اجاد في كتابتها واخراجها، الى رئيس القسم، عبد السلام الناصري، قبل ان ترى النور. ان قلم الرقيب في الجريدة لا يرحم، خصوصا ان هناك اكثر من رقيب، يعبثون بالمادة ويأخذون راحتهم في الشطب والتشذيب كي لا ينزعج او يزعل الحلفاء في جبهة الاعداء الاصدقاء القابعين في خندق واحد لا خندقين، هو خندق البعث.

كان عدنان، شأنه والرفاق الآخرون، حريصا على الجريدة وعلى الحزب، ولكنه كان مؤمنا بأن السكوت على الظواهر السلبية في مسيرة محفوفة بالمخاطر، اثرت على عمله وتطلعاته، بل وعلى حياة المحررين والرفاق، وتشكل عاملا من عوامل تهديم وتقويض اركان ما بناه الحزب في السنوات العشر منذ صحوته وتعافيه من مجزرة شباط ١٩٦٣، خصوصا وأن المسيرة الجماهيرية التي نظمت بمناسبة انبثاق الجبهة من جانب الحزب الشيوعي، كانت مخيفة للحلفاء من حيث عدد المشاركين فيها وتنظيمها واحتضان الناس الذين كانوا يحرسونها منذ انطلاقتها من مدينة الغدير حتى ملعب الشعب بجوار مدينة الضباط التي بناها قائد ثورة ١٤ تموز الزعيم عبد الكريم قاسم. ان هذا الحرص من رفاق عدنان كان الانذار الاول لقادة الحزب من ان التحالف لا يعني ابدا التغاضي عما يجري بأسم الجبهة، وان الخندق الواحد الذي اسماه صدام حسين لتحالف الشيوعيين مع البعثيين، بات يضيق الخناق على الشيوعيين .. فلم يسمع القادة او لم يحاولوا الاستماع الى صرخات واعتراضات الرفاق في القاعدة في تلك الايام السوداء من عمر التحالف الذي ولد كسيحا.

ترك قسم (حياة الشعب) واتجه الى غرفة واسعة تعج بالمحررين، وكأنهم في جلسة عائلية وليس في جريدة كبقية غرف التحرير. ان الغرفة الواسعة مخصصة لقسمي الثقافة والمنوعات (الصفحة الآخيرة). يتصدر القاعة، مصطفى عبود، وكان يقود اجتماعا مشتركا لمحرري الصفحتين. انه تقليد دأب عليه مصطفى منذ ان انيطت به المسؤولية، ويحضره كل من: حميد الخاقاني، نبيل ياسين، صادق الصائغ، سعاد الجزائري، حميد عبد الحسين ومؤيد نعمة.

ان مصطفى عبود، الكاتب الهادىء والانسان الطيب، كان حريصا اشد الحرص على تقديم الافضل والجديد وهو يوزع ويتابع تنفيذ العمل في تلك الاجتماعات، ولا ينسى ان يقترح العناوين للبعض، ورغم شفافيته في التعامل مع الآخرين، الا انه كان في بعض الاوقات عصبيا وجديا، تتقلص عضلات وجهه، وترتجف شفتاه ان غضب وشكا من تقاعس البعض في تنفيذ جدول العمل. لا يعرف الحزن والألم رغم ما يشكوه من امراض،و يكتم الألم والحزن في نفسه ارضاء للمتحدثين او المحررين معه ليرضي ضميره في تقديم الاحسن والافضل من المادة للقارىء.

يشاطر مصطفى عبود في القسم الثقافي، الشاعر حميد الخاقاني الذي كان صديقا لنبيل ياسين اكثر من صداقته لصادق الصائغ، والثلاثة يجتمعون لبرمجة نشر القصائد في الجريدة، في وقت يترك رشدي العامل بقية الشعراء ويدلف الى غرفة عبد الرزاق الصافي، فيسلمه قصيدة جديدة، تجد طريقها للنشر في الصفحة الثقافية في اليوم الثاني دون سؤ ال او جواب. ان قصائد رشدي لا تقبل التأجيل ولا تدخل في البرمجة الخاقانية او الصائغيْن، صادق ويوسف.

يترك صادق الصائغ قسم المنوعات ليلحق بسعاد الجزائري، الفتاة الدافئة ذات الشعر الاسود الطويل، هوت الصحافة وكتابة القصة القصيرة، وجاءت تنهل من الدورة الصحفية التي اقيمت في الجريدة، وكان في ذلك ما يعينها ويؤهلها لولوج عالم الصحافة والمهنة المحببة الى نفسها. سعاد الجزائري اعجب بها المحررون لخفة دمها ودماثة خلقها، ولكن صادق الصائغ، الشاعر والفنان الوسيم، كان الاسرع والسباق الى قلبها.

والى جانب كل هؤلاء الرفاق والاصدقاء، يبقى اعضاء سكرتارية التحرير، هو ويوسف الصائغ ورضا الظاهر، جنودا مجهولين في هذا الدرب الطويل، ومعهم، يبقى

جندي آخر متطوع، يأتي ويخرج من الجريدة كل مساء دون ان يحس بقدومه او خروجه احد من العاملين. انه يحتل غرفة صغيرة جدا في اعلى السلالم ثم ينزل بهدوء و يدخل غرفة السكرتارية، ليسلم الصفحات المخصصة للطلبة والشبيبة والمعلمين والاقتصادية، حتى وان خلت الغرفة من الثلاثة. انه الكاتب غانم حمدون.

* * *

منتصف آذار ١٩٧٧

ما احلى بغداد في هذه الايام.. زهور القداح تتراقص على اغصان الشجر واعشاب تصحو من رقادها شامخة تسابق زمنها القصير. الهواء المائل الى برودة منعشة يداعب البراعم والوريقات البكر في الاشجار العملاقة. انه يوم بديع من ايام الربيع الحلوة.

كان في حديقة منزله الجديد في منطقة الجادرية الجميلة القريبة من جامعة بغداد، يداعب هو الآخر الورود ويسقيها الماء، حين جاءه رافد، خجولا، حزينا، يبسط نظره على الزرع، وراح يتمتم بعبارات مخنوقة بألم واضح.

قال رافد:

- طردوني من المدرسة.. وسكت.

وقعت تلك الكلمات المخنوقة والممزوجة بحرقة قلب يرتعش، وقعت عليه كصاعقة لا يكاد ان يصدق ما سمعه للتو من ولده، او تراه لم يرد ان يصدق. فامتحانات البكالوريا الثانوية على الابواب. كادت الصدمة ان توقعه ارضا، لولا ان رافد احتضنه والدموع تتساقط من عينيه.

قال رافد:

- لم يكن الذنب ذنبي، صدقني يا ابي.

ان رافد لم يكذب يوما في حياته. انه ولد مؤدب وصادق مع نفسه ومع الآخرين، دمث الاخلاق، حلو المعشر، رقيق القلب، محب للناس، رياضي ومن عشاق الموسيقى. يتميز بالذكاء وهو متفوق في دراسته طيلة سنوات دراسته في كلية بغداد قبل ان تقوم سلطات البعث بتعريقها. يحترم الناس، وتخجله نظرات الاخرين. لا يعلو صوته على احد، صديقا كان او قريباً. احب الناس فيه البساطة والهدوء وخفة دمه.

مع دقات قلب الوالد الحزين وهي تتسارع لمعرفة المزيد من التفاصيل، احتضنه وطبع قبلة الأبوة على خده، وطلب منه ان يسرد له ما حدث بهدوء وبدون انفعال.

قال رافد بعد ان احس بالاطمئنان وشعر بحنان والده الصادق:

- لقد غاب عن بالي ان اخبرك باستحقاق الانذار النهائي للقسط الأخير من اجور الدراسة، فمنعني مدير المدرسة من ركوب باص الكلية. كنت حائرا، وانا لا املك مليما واحدا في جيب سروالي. اسودت الدنيا في عيني ولم اعد افكر بشيء سوى العودة الى البيت مشيا من منطقة الصليخ الى الجادرية، وهي مسافة طويلة جدا. أن المسافة التي اعنيها سوف تستغرق مني ثلاث ساعات، كنت متعبا من الدراسة والنشاط الرياضي. انتظرت باص الكلية حينما وصل الى الشارع الرئيسي، فقفزت الى داخل الباص عبر النافذة وتطاير الزجاج وكاد ان يمزقني لولا رعاية الرب..

سكت رافد، وبدأ بالبكاء وهو يشكو من صدمة نفسية..وسكت هو بدوره. لحظات، ثم قال لرافد:

- لا تبك يا ولدي، فانت رجل. سوف ارافقك غدا الى المدرسة.

* * *

في كلية بغداد، شهد الطلاب والمدرسون اغرب قصة لطالب يعتبره المدرسون من التلاميذ المميزين في الدراسة والرياضة، ومدير مدرسة لم يمض على استلامه الادارة الا اشهرا قليلة بعد عملية التعريق.

وفي غرفة ذلك المدير الذي يسمى سليمان الجعفري، وبحضور والد احد الطلاب ايضا، لاعب الكرة المعروف، لطفي عبد القادر، جرى حديث صريح حين قال للجعفري:

- اريد عودة ابني الى المدرسة.

انتفض المدير البعثي من مكانه، وكأن عقربا قد لدغه، وصرخ عاليا:

- ماذا تريد؟

كرر عليه القول من جديد ببرود:

- اريد عودة ابني الى الدراسة.

علا صوت الجعفري اكثر وهو يرتجف وقال:

- انك تطلب المستحيل.

نهض المربي الجديد متجها الى باب غرفته، واشار عليه بترك المدرسة ومهددا بالعواقب. نظر الى اللاعب لطفي، فوجده يتوسل اليه ان يمتثل الى طلب المدير. في تلك اللحظة، ادرك بأن المسألة لا تخص رافد فقط، بل انها ابعد بكثير مما تصوره. ان ولده يدفع ضريبة ما يرتكبه الوالد من "جرائم سياسية" في دولة يحكمها الطارئون على الدولة..

ركب الاثنان السيارة، واثناء تجاوزهما الباب الرئيسي للكلية، شاهد على جانبي الطريق الطويل المؤدي الى الشارع الآخر، رتلا من عربات "المارسيديس" السوداء الخاصة برجالات دولة صدام حسين، وقد ترجل منها عدد كبير من اصحاب الياقات البيضاء. التفت الى ولده رافد، وقال له وقلبه يعتصره من الألم:

- لا تحزن يا ابني، فالمدرسة اصبحت من ممتلكات ابن (السيد النائب).

من كلية بغداد، انتقل رافد الى مدرسة الثانوية النظامية، وحصل في نهاية العام الدراسي على اعلى الدرجات، فحق له ان يقرر مستقبله بنفسه. هل يبقى في بغداد ويدخل احدى جامعاتها، ام يغادر مع آخرين الى خارج العراق؟

* * *

في صيف ذلك العام، غادر رافد الى لندن للدراسة، وسافر هو ايضا الى موسكو للدراسة.

قبل ان يتجه الى موسكو، قال لرفاقه في الجريدة مودعا: الى اين نسير؟ لم يتلق الجواب من احد. فركب الطائرة وتمتم مع نفسه: انا اعرف الى اين نسير.

في موسكو، استقبله جلال الماشطة، و في القطار المتجه الى قلب المدينة، سأله: الى اين نسير؟ نظر في عيني جلال لحظات، فوجده ما يزال بانتظار الجواب، فلم يجبه. وتكرر السؤال من كل الذين قابلهم لاحقا في العاصمة الثلجية.

كانوا اربعة يتسامرون في شقته التي خصصتها له الاكاديمية. وضع الكؤوس امامهم: غائب طعمة فرمان، عزالدين رسول وبرهان الخطيب. انها الليلة الاولى في موسكو، واللقاء الاول مع اولئك الاصدقاء الذين يحبهم ويعشق طيبة قلوبهم. انه قادم من بغداد، وطيبتهم تتطلب منه ان يكون عند حسن ظنهم ان ارادوا منه ان يتحدث بصراحة، وهو الآن خارج جريدة الحزب.

غائب طعمة فرمان، يحاول ان يلتقط منه بعض الخيوط، ليحبك منها ما ينقصه في انجاز روايته الجديدة بعد ان اصدر "الآم السيد معروف" . يبحث عن ابطال حقيقيين، رغم انه خارج الوطن.

وبرهان الخطيب، الروائي الشاب، يريد هو الآخر ان يكون شاهدا على ما يجري وهو يحبك حوارات اولئك الذين تركهم في بغداد يواصلون عملهم السري من "شقة في شارع ابي نؤاس"ويتراكضون في حارات ودرابين البتاوين والكرادة بعيدا عن عيون الرقباء، وأن يصلوا اليه سالمين، فيحكوا خبايا القصة الضائعة.

اما عزالدين رسول، الاديب الكردي القادم من مدينة السليمانية، فإنه يستعد للعودة الى العراق بعد ان اكمل الدراسة، ويريد هو ايضا ان يطمئن على المستقبل في كردستان الحكم الذاتي.

كانوا على حق.. ان الوضع في العراق غير آمن.

في غمرة لحظات التأملات والامنيات، اطل جلال الماشطة وهو محمل بمتطلبات السهرة وقد قاربت الزجاجات الاولى ان تختفي من على المائدة.

دارت الكؤوس بعدة اتجاهات، وفجأة وقف جلال في وسط الغرفة، وقد انتابته الرجفة، واشار بعصبية و بحركة من اصبعه في مواجهة الصديق القادم من بغداد، وقال:

- انكم تتحملون مسؤولية ما يحدث وما سيلحق غدا بالشعب.. والله سوف لن يغفر لكم التاريخ اخطاءكم هذه المرة.

قاطعه غائب، وهو منتعش بعد كأسه الخامس، مدحرجا ضحكته المطبوعة بطيبته وشخصيته المحبوبة لكل الناس، محاولا ان يكون جادا في الكلام، فوقف هو الآخر، وقال:

- على كيفك يا جلال.. ترى الجماعة يتواجدون في بغداد وليس في موسكو او براغ.

احس برعشة تخترق كل جسمه وهو يستمع ويسترق النظر بعيدا، محاولا ان يرى من خلال زجاج النوافذ التي يكسوها الثلج، معالم موسكو وهي نائمة، حين ارعبه صوت جلال من جديد، متوعدا ومحملا المسؤولية التاريخية على قيادة الحزب.

وفجأة، ينهض جلال ويتجه الى باب الشقة دون ان يودع الجالسين. نظر الباقون الى بعضهم، وانهوا الجلسة، كما تنتهي مثل هذه الجلسات دون نتيجة.

* * *

قبل ان يغادر موسكو بعد انقضاء الشهر بيوم واحد، سمع طرقا خفيفا على باب الشقة في صباح ذلك اليوم. اطل غائب على غير عادته، وبدا مرتبكا حزينا وفي يده يحمل جريدة. دلف مسرعا الى داخل الشقة. نظر اليه مستغربا، واستفسر منه عما يحمله، فيبادره غائب بالقول:

- هل اتصل بك احد من بغداد ؟

ازدادت حيرته من سؤال "ابو سمير"، فرد عليه :

- خير ان شاء الله يا ابا سمير، ما القصة؟

سكت غائب برهة، ثم سلمه الجريدة التي كانت في يده بهدوء ، وقال:

- البقية في حياتك.

قرأ في جريدة الثورة خبر نعي شقيقه كمال بالسكتة القلبية. وهكذا يسقط فارس آخر من الفرسان الاربعة. لقد سبقه بديع بثمان سنوات وبالذبحة الصدرية ايضا.

في بغداد بعد عودته من موسكو، نظراليه الفارس الثالث،شقيقه سامي، وهما في مجلس التعزية المقام في دار اخيهما الراحل، كمال، وقال:

- ترى من سيكون ضحية الذبحات الصدرية في الايام المقبلة؟

ابتسما رغم المصاب الأليم، وذهب كل منهما الى داره.

* * *

حزيران ١٩٧٨

كانت مقصلة صدام حسين قد حصدت ارواح واحد وثلاثين شابا، منهم رياضيون معروفون في الفريق الوطني لكرة القدم، وكان كمال شاكر، سكرتير عام اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي ينتظر دوره في غرفة الاعدام. و مسالخ الأمن والمخابرات، تحرق جلود المئات من الشيوعيين والديمقراطيين والقوميين العرب والاكراد وحتى البعثيين. كل ذلك يجري تحت خيمة الجبهة، بينما القادة في الحزب والجريدة لا يحركون ساكنا الا بالخفاء.

فتح دفتر ذكرياته وسطر فيه هذه الكلمات:

" حتى في معادلة الربح والخسارة، هناك عقلانية في الحسابات. احقا اننا ضعفاء الى هذه الدرجة في الرياضيات العامة؟".

* * *

اسابيع تبدو راكدة على السطح، ولكنها متحركة تحت السقوف..

جاء الى وداعه في سفرته الثانية الى موسكو، فخري كريم ويوسف الصائغ.

جلس الثلاثة في شرفة الشقة كما اعتادوا ان يفعلوا في مثل زيارات اخرى، وعلى بعد امتار من البناية، تقف سيارة "الفولكس واكن" المرابطة ليلا لمراقبة الساكن في الطابق الثاني، القائد العمالي آرا خاجادور. نادى على آرا ليلتحق بهم في سهرة الوداع، الا انه اعتذر لارتباطه بموعد جبهوي في القيادة.

قهقه يوسف، وابتسم فخري، فسارع الصائغ بالسؤال:

- فخري بالله عليك، اسأل ، لماذا نبقى حتى الآن في الجبهة اسرى المجهول؟

مسح فخري نظارته الطبية كعادته عندما يتأنى في الكلام او الرد على سؤال او استفسار لا يروق له في بادىء الأمر، وهو على يقين بأن الحجة التي يتحجّجُ بها رفاقه في القيادة غير مقنعة، هذا عدا انه غير مقتنع باستمرار الحزب في الجبهة، وقد عارض الدخول في اي تحالف مع البعث منذ البداية.

لم يكف الصائغ عن الالحاح، فعلا صوته هذه المرة، واتهم فخري بالتكابر والتعالي وعدم احترام آراء الرفاق.

اجاب ابو نبيل بحدة:

- دعونا نكمل المشوار في الجريدة بحذر. انا شخصيا في انتظار فك الارتباط باسرع وقت.

* * *

في مساء يوم وصوله الى موسكو، تعاد الحكاية من جديد بحضور غائب طعمة فرمان والماشطة والخطيب. انه متعب وقد سئم الحديث عن موضوع الجبهة فهو متفق مع آراء الاغلبية من اعضاء الحزب واصدقائه برفض التحالف اساسا.

قضى الاسابيع الأولى مع الاربعة الذين يلتقون كل مساء في شقته او في شقة

جلال الماشطة او في مطعم باكو في وسط المدينة. وكان كل من احمد النعمان وجبار حاجم وشاكر القيسي يجالسونهم في اكثر السهرات.

سئم هذا الروتين وهو في انتظار موعد مناقشة الاطروحة. ان امتحان الترجمة والتاريخ والفلسفة سيكون بعد ثلاثة اشهر. انقذه جلال الماشطة بمشروع سفر الى برلين وبراغ. وافق على الفور وشدا الرحال الى برلين اولا. كان جلال خبيرا بزيارات برلين بالذات، حيث يذهب اليها عدة مرات في السنة للتبضع وشراء لوازمه من الملابس والكهربائيات وما شابه. هل يا ترى كان جلال يتاجر بهذ البضاعة، ام انه يقتنيها سدا لاحتياجاته فقط؟ لم تكن من عاداته ان يسأل او يتدخل في امور الناس والاصدقاء، فلم يتحدث مع جلال بهذا الموضوع.

* * *

براغ هي المحطة الثانية في تلك الرحلة. في اليوم الاول لوصوله، سأل عن "ابو كاطع" . ذهب مع غريب القروي، العراقي الذي جاء الى براغ قبل اكثر من عشرين عاما، الى مقهى "سلافيا" المطل على نهر "فلتافا" والمقابل للمسرح الوطني. ان هذا المقهى المزدحم، يرتاده العراقيون، و يلتقي فيه كل يوم المثقفون العراقيون والعرب.

كان الجواهري الكبير يحتل مقعده المعتاد وقد أحاط به عدد من هؤلاء المثقفين. احتضنه طويلا بعد فراق سنوات، وسأله ابو فرات مداعبا:

- هل وصلك الدور في طابور المهاجرين الطويل؟

اجابه بابتسامة ود وتقدير لهذا الشاعر العملاق:

- هل انت ياابا فرات متشائم الى هذه الدرجة؟

قهقه الجواهري وهو يداعب باصابعه مسبحة الكهرب التي يعتز بها كثيرا، ثم قال له والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- مولانا، نحن السابقون وانتم اللاحقون.

قاطعهما جلال الماشطة ونظره يتجه الى باب المقهى، ثم نبه الجالسين بقدوم ابو كاطع.

واصل الجواهري حديثه الذي يرتاح له كل من يستمع اليه، شعرا او نثرا او حديثا، الى جانب نكاته المعهودة وتعليقاته عن الجمال وحسنوات براغ اللواتي كتب فيهن شعرا:

- قدوم شمران الياسري الى براغ "منفيا" حيث قالها لكم بصراحته المعروفة، كان المؤشر للهجرة المفروضة علينا وعليكم. لقد بدأت بالفعل طوابير الشيوعيين تصل الى براغ وصوفيا، ليتم توزيعهم بعد ذلك في بلاد الله الواسعة.

كان الجواهري الكبير صادقا.

ان شهر آذار عام ١٩٧٩ كان المؤشر الذي تحدث عنه هذا الشاعر الوطني بحسه وبمشاعره الفياضة وحبه للعراق وللناس الطيبين من ابناء شعبه العراقي الاصيل.

* * *

في اليوم الثاني، اصطحبه ابو كاطع الى بارات "اوفليكو" ليحتسيا البيرة السوداء التي تشتهر بها بارات براغ، وهو المشروب المحبب لشمران، خصوصا عند ما يتناولها في بارات مزدحمة تجاور جسر "كارل" الشهير، والذي يقال عنه ان مواد بنائه قد خلطت بالبيض لتزداد اعمدته متانة وقوة لمجابهة جبروت هذا الزمن.

كان شمران الياسري ساكتا حزينا على غير عادته، يتفحص وجه صديقه دون ان يتحدث اليه، ويداعب شاربه الكث كعادته، وساقه لا يكف عن الحركة بعصبية. دقائق مرت، وعلى حين غرة، قطع ابو كاطع السكوت الحزين حين قال:

- هل بدأ الرفاق القياديون يستعدون للرحيل؟

- ماذا تقصد يا ابا الكطوع؟

دارت رأسه دورتين، وبدأت بالاهتزاز المضطرب، فاردف قائلا:

- لقد انتهت المسرحية، والمصيبة هذه المرة ان الفصل الاخير فيها هو المهزلة بعينها.

سكت الصديقان الرفيقان، وخيم هدوء حذر، الا ان شمران بدده بالوقوف، وطلب منه مرافقته لزيارة الصديق المشترك، مجيد الراضي. ارتاح للفكرة، فمجيد صديق الجميع، ومسؤول المثقفين في الحزب الشيوعي في مرحلة ثورة ١٤ تموز. لقد افتقده سنوات الهجرة بعد اضطراره للسفر في منتصف الستينيات.

في دار الراضي، كانت جلسة هادئة وحميمية، ضمت الى جانبهم، جلال الماشطة. لم يغب الحزب في احاديثهم. قاطع شمران الكلام ،وطلب من الحضور الهدوء والاستماع الى اذاعة ايران التي بدأت تحتل اخبار انتفاضة شعبها كل نشرات الاخبار

في العالم وبروز اسم آية الله الخميني كقائد لتلك الانتفاضة وان ايران على ابواب ثورة شعبية عارمة.

مازح الماشطة شمران، وسأله ضاحكا:

- لماذا هذا الاندفاع وراء احداث ايران؟

امسك ابو كاطع بشاربه ورد بصوت جدي ينم عن ثقة:

- ان انتصار الثورة في ايران سوف يؤثر على مستقبل المنطقة بكاملها ..

قاطعه جلال ولم يدعه يكمل حماسته:

- ماذا لو ظهر فيما بعد ان هذه الثورة، مصطنعة؟

تدخل مجيد الراضي في الحديث الذي صار ساخنا، ورد على جلال:

- وهل هناك ثورات مصطنعة في التاريخ؟

استمر الماشطة في تحديه الجاد لشمران والراضي، مصرا على ان الاندفاع وراء ثورة تصطبغ منذ البداية بتيار ديني متعصب، سوف تكون عاملا للاضطراب في المنطقة لا عامل استقرار، فلماذا نخطىء منذ البداية؟

انتفض ابو كاطع من مقعده صارخا:

- آهووو ... قابل احنا نصنع الثورة في ايران؟

رد جلال وهو يرتجف احتجاجا على اصرار شمران:

- ما هو موقفنا لو تبين اننا في تأييدنا وحماستنا للخميني قد جاورنا الخطأ؟

ضحك الجميع، واتجهت انظارهم الى ابي كاطع، عندما صرخ بالقول:

- آهووو ... عود نكول اخطأنا ... قابل هاي اول مرة نخطيء؟ صار لنا اكثر من ثلاثين سنة نغلط ونغلط، ومن خطأ الى خطأ نحن سائرون.

ضحك الجميع، وارتاح شمران عندما شعر بأن الذين يستمعون الى حججه، يتفقون معه، او هكذا افترض من خلال الجو السائد في الجلسة.

في طريق عودتهم الى حيث يسكن، اكمل ابو كاطع حديثه حول استفسارات مجيد التي اثارها قبل ان يغادروا بيته، شارحا سبب تسفيره من العراق على يد الرفاق في الجريدة والحزب، مستطردا بأن الرفاق احسوا بالخطر على حياته بعد نشر مقال "بصراحة" المعنون، "رأس الجريدة"، فطلبوا منه مغادرة بغداد في اليوم الثاني الى براغ. ثم تساءل:

- قل لي الحقيقة، بعد ان بدأت الامور في هذه الايام تتضح اكثر..

قاطعه قبل ان يكمل السؤال لأنه يدرك بأن الحقيقة لم تعد تختفي وراء رأي هذا الرفيق "القائد" او ذاك، انما بانت كوضوح الشمس، فالبعثيون وبأوامر من صدام حسين يعدون العدة للانقضاض على الحزب بحجة خروجهم عن الطاعة "الجبهوية". وهذه الحقيقة مقتنع بها جميع الرفاق، الا القلة من الذين كانوا يتوقعون عودة المياه الى مجاريها، وان ما يجري في تلك الفترة العصيبة من تاريخ العراق، ما هو الا نتاج "عركة أخوة"، فكانوا يضغطون على قيادة الحزب باتخاذ موقف مبدئي صارم، وحماية الرفاق من عواقب المستقبل المجهول المعلوم لهم.

عاد الى الفندق وهو يفكر بالمجهول فعلا، لا المعلوم لكل ذي بصيرة، فأرهقه التفكير والارق اللعين.

كان يريد ان يلتقي في براغ بعدد من الاصدقاء.. مفيد الجزائري، ، جيان، حسين العامل، محمود البياتي، محمود صبري، كاكه قادر ديلان وآخرين، الا ان جلال الماشطة اصر على السفر والعودة الى موسكو.

* * *

في الاسبوع الآخير من شهر آذار، تحدد له موعد مناقشة اطروحته عن تاريخ الصحافة اليسارية في العراق. عاد الى الشقة فرحا وزف الخبر الى محمد كامل عارف الذي كان يشاطره السكن بعد هروبه المبكر هو الآخر من النظام، رغم اشتغاله محررا لأهم صفحة في جريدة الجمهورية هي صفحة آفاق، هرب بحجة الدراسة واستكمال شهادة الدكتوراه، اذ سبق له ان درس في موسكو سنوات طوالاً وحصل على درجتين علميتين في جامعة موسكو. ان محمد كامل عارف، الذي يسميه ويوسف الصائغ، "محمد كاهي"، انسان طيب ومثقف، حلو المعشر، خجول، حميد الاخلاق، الا انه رغم كل ايجابياته، كان غريب الاطوار والمزاج. وهو ككاتب يتمتع برهافة الحس ورشاقة القلم، تضعف جهاديته امام الارادة في اتخاذ المواقف القاطعة. عاطفي حالم، تغلب على تصرفاته، الحماقة في بعض الاحيان، ان مست الحقيقة افكاره المشوشة نتيجة تخبطه في عالم السياسة الذي كان يتيه في خباياه بسبب ابتعاده عن الاعتراف بالواقع المعاش.

بدأت الليالي التي يقضيها في الشقة مع محمد تثقله يوما بعد آخر، وان لم تسعفه زيارات غائب طعمة فرمان اليومية واقتحامات جلال الماشطة المحببة الى قلبه وقلب غائب. كان محمد (ابو العباس) يبكي بحرقة كلما ارتشف جرعة اخرى من الكأس الذي لا يفارق يده اليسرى، رغم عدم افراطه في الشرب، يولول واضعا المنديل على عينيه، ويبكي بحرقة ويصرخ بصوت عال: أهلي.. وين أهلي.. اولادي.. بغداد.. أويلي يابا.. وين اروح. ينظر اليه بانفعال، حيث ان هذا المشهد يتكرر يوميا مما يجعله يحتد من تصرفات العارف الخفيفة والمبالغ في عاطفيته، فيصرخ في وجهه:

- كافي يا محمد، هل نعيد الاسطوانة كل يوم.. لماذا لا تعود الى بغداد؟

يصحو محمد كامل، ويعود الى طبيعته المشوشة، فيروح يلعن الوضع في العراق الذي تسبب في ابتعاده عن الأهل، ثم يقفز الى فراشه، ويغيبه الفراش في لحظات. ان حقده ينصب على الفراق لا على من تسبب في هذا الفراق ليس له وحده بل ولألاف المثقفين الذين بدأوا يغادرون وكأنهم سرب طيور مهاجرة.

* * *

قضى الايام القصيرة المتبقية على موعد مناقشة الاطروحة، بملل وحيرة. اخذ يفكر ويكرر السؤال مع نفسه: ماذا بعد الشهادة؟

كان التقليد المتبع في الاكاديمية، او لربما في الجامعات الروسية، ان يقيم الطالب الحاصل على الدرجة الاكاديمية، ومن الاجانب فقط، مأدبة عشاء وسمر في احد المطاعم، يدعو اليها اساتذة القسم، يتقدمهم رئيسه، والمشرف على الاطروحة، وعدد من الاصدقاء المقربين جدا، وهذا ما كان قد خطط له ونفذه جلال الماشطة، الخبير في الجلسات الحلوة، فكانت سهرة لطيفة ضمت غائب فرمان، احمد النعمان، شاكر القيسي، جبار حاجم، ليبيديف وابو الحب.

وفي مساء اليوم الثاني، دعا الى حضور جلسة مماثلة في شقته، سكرتير الحزب عزيز محمد، ثابت حبيب العاني، آرا خاجادور وعامر عبد الله، ولم يفتْهُ ان يدعو غائب وجلال. لقد كانت قيادة الحزب آنذاك قد بدأت في ايجاد مراكز لجوء لها، استعدادا للرحيل.

كان يرغب بلقاء (ابو سعود) وعدد من الرفاق القياديين منذ فترة طويلة. لم ينجح في بغداد لظروف لم تحقق له هذا "الامتياز"، فاراد ان يجرب حظه في موسكو.

افتتح ابو سعود السهرة، مهنئا، ثم قال له:

- مالذي ستفعله بعد هذه المرحلة؟

اجابه بسرعة ودون تفكير حتى للحظات تأمل:

- العودة الى الوطن. اليس كذلك؟

نظر اليه السكرتير العام للحزب والى الرفاق الآخرين، وقال بامتعاض:

- هل تريد ان تصبح بطلا في رؤوسنا يا رفيق؟

استغرب من كلام عزيز محمد الذي يحترمه ويعزه كثيرا، واردف بالقول:

- اليس هذا هو المطلوب، ثم لماذا البطولة؟

ثم توجه ابو سعود بحديثه الى الرفاق الآخرين والاصدقاء الجالسين في السهرة، وقال بنبرة حزينة:

- يفضل ان تفكر بالذهاب الى اية دولة عربية او اوروبية.

ومن عبارات عزيز محمد، ادرك للتو، ان الجواهري الكبير، كان صادقا، كما ادرك بأن شمران الياسري كان العربون الذي يدفعه الحزب في الظروف التي تجبره على "التحالف" قبل وبعد الازمات والنكبات.

انها بداية الطوفان..

* * *

١٥ نيسان/ ابريل ١٩٧٩

غادر موسكو الى باريس.

لم يكن يعرف من الاصدقاء في باريس سوى عبد القادر العياش واشقائه، شوقي، ضياء واحمد. حصل على رقم الهاتف من بغداد، فآل العياش، يديرون مطبعة تجارية في قلب العاصمة الفرنسية.

حط رحاله بعد منتصف الليل في مطار "أورلي". اتصل من قاعة المطار بعبد القادر الذي رحب به بحرارة وطلب منه ان يتجه بسيارة اجرة الى العنوان، فالمطبعة ليست بعيدة عن المطار. ان باريس مدينة جميلة وكبيرة، يتيه فيها حتى الفرنسيون.

بعد عناق طويل، طلب منه عبد القادر (ابو رافد) المكوث تلك الليلة في المطبعة، ومساعدته في انجاز مطبوعات مهمة ومستعجلة لمؤتمر نقابات العمال الفرنسية الذي سوف يفتتح في الصباح الباكر. لم يرد لعبد القادر الطلب. فكل الذي كان يريده في تلك الساعة المتأخرة من الليل ان يضمن له قضاء الليلة في المطبعة إلى ان يتدبر الاخوةُ الامر في اليوم الثاني. طمأن العياش، وكان قد بدا على وجه عبد القادر التعب والاعياء، وطلب منه ان يذهب الى داره، ويعتمد عليه في انجاز العمل.

استطاع ان ينعم بساعة من النوم قبل ان ينبلج الفجر، عندما ايقظه ابو رافد وهو يقبله ويشكره على ما انجزه من عمل كبير، كان عاملا مهما لانقاذ صاحب المطبعة من الورطة.

رن الهاتف في مكتب عبد القادر، واستمع اليه وهو يتحدث مع سكرتير نقابات العمال، ويخبره بأن الفضل في انجاز كل الاعمال المطلوبة لافتتاح المؤتمر، يعود الى ابن الوزير العراقي الذي كان يشتغل عاملا في جريدة والده ببغداد في منتصف الخمسينيات.

ضحك الصديقان، ثم توافد على المطبعة في الساعات الاولى المبكرة اخوة عبد القادر، وقضى معهم بقية النهار، قبل ان يستقر في الفندق الذي قاده اليه، شوقي، والذي مكث فيه اسبوعا قبل ان يترك باريس.

* * *

من باريس، اتجه الى لندن.. مدينة الضباب كما يقولون ..

كان ولده رافد قد سبقه الى العاصمة البريطانية في صيف ١٩٧٨ للدراسة الجامعية. قال له بعد ان استقر في غرفة كان قد استأجرها له قبل قدومه الى لندن، وقبل ان يباشروالده في افراغ محتويات الحقيبة، قال له بصوت حنون:

- هل ستبقى في لندن فترة طويلة يا ابي؟

لم يكن رافد يدرك بأن العراق قد بدأ يتحول الى جحيم على يد حكم جاهل متخلف يقوده رجل كان قد تخلى عن آدميته منذ الصغر، اطلق عنان القتل والفتك لشلة من الأمين والمجرمين الذين لا يعرفون من الحياة سوى اغتصاب الأرض والانسان، والتعذيب المميت في سبيل تحقيق مآرب لم يدركوا محدودية زمنها، شلة مطيعة لسيدها وولي نعمتها.

نظر الى فلذة كبده الذي يعشقه ابنا بارا وشهما ذكيا، واراد ان يطمئنه على الجواب، فرد عليه بصوت أبوي محب:

– سوف ابقى في لندن معك، فهي مدينة حلوة، والبقاء فيها مع من احب، احلى واحلى.

ارتسمت الراحة والقناعة على وجه رافد، فهو ايضا يعشق والده الذي رباه على حب الناس، والتمسك بالقيم والتقاليد الحميدة.

نظر في وجه ابنه مليا، تذكر طفولته، ثم بلوغه سن الشباب والرجولة، وهو ممتلىء بالحيوية والصحة، وتذكر ما كان يقول له الاصدقاء والاقارب الذين توسموا فيه تلك الرجولة قبل ان ينضج، وبدأوا يفكرون باعداده ليكون في المستقبل سائرا على دربهم ودرب والده، وفي زمن بدأ فيه الانسان العراقي الشريف يشك في انسانيته، والسياسي يفقد توازنه، والايديولوجي يتنكر لاحلى القيم في المبادىء التي يؤمن بها.

اطال النظر الى ولده رافد، وقرأ فيه احلى ذكرياته في بغداد، حيث كان هذا الشاب في كلية بغداد، رياضيا يمارس لعبة كرة القدم، وفنانا موهوبا تداعب انامله آلة الغيتار وبمصاحبة فرقة من الهواة، في مقدمتهم، الشاب ماجد ككا، الطالب القادم من القوش. عادت به الذكريات الى الكرادة الشرقية، في الشقة التي استأجرها في ارخيته بالقرب من شارع ابو نؤاس، بعد ان ضاقت بهم سبل العيش، وأجر داره في الجادرية الى شركة اجنبية، ليستطيع سد نفقات المعيشة المتصاعدة. وتذكر حادثة طرده من كلية بغداد من قبل مدير اجهلَ من اسياده، وكيف تحمل رافد ذلك الاجراء السخيف، وواصل استعداده لاتمام امتحانات مرحلة البكلوريا، واستطاع ان يحصل على اعلى الدرجات في معظم المواد.

تذكر، واستذكر كل ذلك الشريط، ورافد اليوم امامه ثانية في لندن، طالبا في جامعة "ريجموند" الامريكية، يواصل هواياته، ويزامل طالبا امريكيا، يعزفان على "الغيتار" في محطات الانفاق في اكثر من منطقة في لندن. و عندما يسأله عن تلك العادة،خصوصا انه لا يحتاج الى النقود، كان يبتسم ابتسامة طفولة محببة الى قلب الأب الحنون، ويؤكد بأن كل الذي يريده من هذه الممارسة، زيادة التمرين، وانه يفرح عندما يشاهد المارة تسخي لهما بالعطاء، لا حبا بالمادة، بل لادراكه بأنه يقدم للناس

شيئا من الموسيقى والفن الذي يحبه، ولا ينسى رافد من يداعب والده حين يقول له بأنه شاب يكسب بعرق جبينه عن طريق عمل عشقه منذ الصغر.

كانت اللقاءات بينه ورافد، اسبوعية. فالولد يقيم في القسم الداخلي بالجامعة التي تحتل مساحة جميلة من منطقة الجنوب الريفي من مدينة لندن الكبيرة، بينما يقيم هو عند عائلة عراقية في شمال العاصمة. في تلك اللقاءات كان يتحدث مع رافد عن الجامعة والدراسة.. عن اخبار العراق والسياسة، وعن الاصدقاء في لندن.

في تلك المرحلة، كانت قد غزت العالم، مودة وافدة من وراء المحيط، وشكلت مظهرا أبهر واستحوذ على عقول الشباب والمراهقين، في الملبس والشكل، ولم يكن رافد غريبا عنها. فقد اعتبرت تلك التقاليد نموذجا للعصرنة والتقدم، والمخالف لها، انسانا معقدا ومتخلفا عن ركب "الحياة الجديدة". فهل سيتخلف رافد الذي يعيش الآن في بلد غربي عن اللحاق بتلك "الصرعة" ؟

* * *

ذهب مع رافد في يوم هادىء الى زيارة احد الاصدقاء المقربين، وكان يسكن في ارقى منطقة من مناطق الجنوب الانكليزي تعرف باسم تشتهر به بطولة "التنس" العالمية، "ويمبلدون"، ذهب وهو مقتنع بان هذا الصديق العزيز سيفرح للقائه بعد سنوات الغربة، وقد نال من الاثراء ما يبهر الانسان، ويعيش كما يعيش أي لورد انكليزي وفي قصر فكتوري قلّ شبيه له في لندن. وكان رافد، بشعره الطويل، فرحا ايضا بلقاء ابنائه نصير ونينا اللذين لم يرهما منذ ان غادرا بغداد مع والدهما قبل سنوات. ابتسم المضيف في بادىء الامر ابتسامة خفيفة لم تدل على الاشتياق والفرحة باللقاء، ثم خرج من الغرفة للحظات. نظر رافد الى والده متعجبا، لكنه كتم الحيرة في نفسه، كأنه يتوقع شيئا ما سيحصل.

بعد قليل، دخل الابن نصير الى غرفة الاستقبال، ونادى على رافد، وانتظر هو بدوره لملاقاة العائلة. لحظات محرجة، عاد ثانية رافد اليه وهو حزين ومصفر الوجه، والدموع تكاد تقفز من عينيه، مودعا الوالد لأنه نسي شيئا في الجامعة !! لم يفهم السر وراء تصرف رافد المفاجيء. وعندما ترك رافد الدار، دخل الى غرفة الاستقبال ثانية الصديق مرحبا به من جديد. ولم يفهم ثانية السر وراء كل ما يجري في هذه القلعة.

في اليوم الثاني، عرف السر..

حكى له رافد ما جرى في قلعة الصديق اللورد ، وقال متألما بأن نصير طلب منه بناء على أمر من والده ان يترك الدار فورا، وادعى بأن والده لا يريده ان يتعلم من رافد العادات السيئة ويقلده في طريقة لبسه وانسياب شعره الطويل. فاللورد يعتبر تلك المظاهر ميوعة على حد تعبير الوالد المتعصرن بكل شيء الا بتلك الامور التي تمس مملكته ومكاسبه.

صعقه هذا الموقف من صديق كان يكن له المودة والاعتزاز. وحاول ان يقنع رافد بأن الذي جرى، خارج عن ارادة (صديقه)، وطلب منه ان يغفر له، محاولا ان يخفف وطأة الامر على ابنه.

نظر رافد مستغربا لما سمعه من والده، ثم قال بصوت ينم عن ألم مكبوت:

- انت يا والدي لا تعرف من هو الصديق الوفي والصديق المتزلف.

تعجب من كلام الولد، وسأله:

- لماذا يا ابني مثل هذا الحكم؟

قال رافد بهدوء، محاولا ان يخفف عن والده الصدمة:

- لأنك يا والدي العزيز حسن النية وطيب القلب ولا تمس احدا بسوء، وانا نشأت على هذه الاسس القيمة. اليوم بدأت اواجه الحقائق بمنظار آخر. فهناك اناس لا يقيمون وزنا لأحد الا بقدر ما يحققون من مكاسب لأنفسهم..

احتضن ابنه بقوة ، وامتزجت دموعه بالحسرة التي غص بها، ونظر بحنو الى ولده الذي بدأ ينضج اكثر فاكثر، وقال له بصوت مرتعش وحزين:

- انت محق يا ولدي.. ولكني ما زلت متمسكا بالطيبة التي تربيت عليها أبا عن جد.

ابتسم رافد، وطبع قبلة دافئة على خد والده وقال:

- والى متى تنتظر حتى تثبت لك الايام ما الذي ستجنيه من طيبتك.

تفارقا، على أمل ان يلتقيا في الاسبوع القادم.

في ليلة من ليالي الخريف، الح عليه احد الاصدقاء أن يصاحبَهُ الى كازينو للمقامرة مشهور في وسط لندن، وفعلا ذهب معه مشترطا عليه ان لا يتأخرا كثيرا،

وهناك التقى بأحد معارفه من بغداد، عصام القاضي، التاجر الغني والكادر الشيوعي المتقدم في فترة ما قبل انقلاب ٨ شباط عام ١٩٦٣ استغرب عصام تواجده في هذا المكان، فطمأنه بأنها زيارته الاولى وربما ستكون الاخيرة.

سأله:

- متى قدمت الى عاصمة (الاستعمار)؟

رد عليه بسخرية وخبث:

- قبل ثلاثة اشهر.

- وما الذي ستفعله بهذا البلد؟

- ابحث عن الاصدقاء الطيبين ان وجدوا.

راح عصام يعدد له اسماء البعض من الاصدقاء المتواجدين، فطلب منه هواتف ثلاثة منهم: شامل النهر، محمد حسين الملا، وفريد الاحمر.

بعد ثلاثة ايام، اتصل بشامل النهر وزاره في مكتبه الذي يقع في شارع " ويمبول ستريت" الموازي لشارع اوكسفورد الشهير في مركز العاصمة البريطانية. كانت جلسة لطيفة، ضاعت فيها الساعات الطويلة في خضم احاديث وذكريات وصولا لاحداث الساعة، وبينها قصص عن الهجرة والسياسة والحكم في الوطن، ومرورا باوضاع الرفاق في الداخل والخارج. اثناء الحديث ادرك نوايا ابو بشار الحسنة في الاستفسار والاطمئنان عن صحته وفيما اذا كان يحتاج الى اية مساعدة في غربته المفروضة عليه وعلى كل العراقيين منذ عام ١٩٦٣ حتى وصوله لندن في صيف ١٩٧٩، وطلب منه ان يدله على عناوين مؤسسات اعلامية عربية في لندن.

لم تكن هناك آنذاك اية مؤسسة او صحيفة عربية في تلك الفترة. اما عن الاعمال الحرة والتجارة فلا ناقة فيها له ولا جمل.

في لقائه الثاني مع شامل النهر وصديق آخر قال له:

- لماذا لا تجرب الحظ مع المطابع، خاصة وانك صاحب باع طويل في هذا المجال.

التقت رغبة الثلاثة؛ شامل، والصديق الفلسطيني، حسن شبيب، زميله في الجامعة الامريكية بالقاهرة سابقا، والذي امتهن التجارة في عاصمة الضباب ونجح فيها.

عقد العزم على تنفيذ الفكرة.

ساهم ابو بشار وحسن بمبلغ لشراء ادوات مطبعة تجارية صغيرة بدائية جدا، شغلت غرفة صغيرة في مكتب شامل النهر، وبدأ هو العامل الوحيد فيها، حيث ينضد ويطبع ما تحتاجه المكاتب التجارية الصغيرة.

كبرت المطبعة بعد ضخ مبالغ اخرى من الصديقين، واستأجر محلا استوعب عددا من مكائن الطباعة وملحقاتها في شمال لندن، لا يبعد عن مكان سكنه سوى بضعة امتار. وضع كل آماله في هذه المطبعة، التي ستدر عليهم ارباحا تحقق موردا اضافيا للصديقين وعونا له ليحقق عيشته.

* * *

حزيران ١٩٨٠

لم يبق في بغداد وبقية محافظات العراق من الشيوعيين والديمقراطيين والقوميين العرب والاكراد الا القلة بعد موجة الهجرة الواسعة الى الخارج، والتحاق اعداد كبيرة من الشيوعيين واصدقائهم في فصائل الانصار، في كردستان العراق، جنبا الى جنب مع فصائل البيشمركة للاحزاب الكردية، تطبيقا لشعار الحزب الشيوعي في اتخاذ الكفاح المسلح اسلوبا وطريقا لاسقاط النظام الدكتاتوري.

وكان صدام حسين، عند استلامه الحكم من احمد حسن البكر، في تموز ١٩٧٩ قد اعدم اكثر من ٢٢ بعثيا من الوزراء وأعضاء القيادة القطرية لحزب البعث وقادة الاتحاد العام لنقابات العمال وكوادر قيادية أخرى في الحزب. في تلك الجلسة، اعلن صدام نفسه رئيسا للدولة وللحزب وتوعد بقتل كل من يقف في طريق تسلقه الى مجده الخاص.

ان العراق بدأ يدخل مرحلة غريبة وخطيرة..

بدأ صدام حسين يعد العدة للاعتداء على الجارة ايران وضرب الثورة فيها تنفيذا لمخطط أعده مسبقا قبل استلامه السلطة من البكر.

السجون تفتح ابوابها الواسعة لتستوعب الآلاف من المعارضين له من كافة الاتجاهات والانتماءات السياسية والفكرية.

لقد بدأ عهد دولة المنظمة السرية الأسود في العراق.

عاد الى دفتره وراح يدون فيه بعض المستجدات ويسترجعُ الاحداث التي مر بها هذا الوطن. عاد، وما احلى الرجوع اليه في مثل هذه المناسبات والمنعطفات.

كتب في الدفتر:

الى اين يسير العراق اليوم؟

في العهد الملكي، كانت الاحزاب الوطنية السرية تقاوم الحكومة بالمناشير والصحف السرية وبالشعارات، وفي الاضرابات العمالية والانتفاضات الفلاحية، وعن طريق الوثبات والانتفاضات الشعبية، وفي الانتخابات العامة لمجلس النواب. وكانت بعض الاحزاب العلنية، خصوصا الوطنية الديمقراطية تحارب الحكومات بكل السبل المتاحة لها. وفي المقابل، كانت السلطات تلجأ الى زج الوطنيين في السجون وبحجج واهية، منها، تطبيق قانون مكافحة الافكار الهدامة سيء الصيت.

في العهد الجمهوري بعد انتصار ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، اطلقت الثورة الحريات العامة وشرعت القوانين الديمقراطية، وتحقق لاحزاب جبهة الاتحاد الوطني من الاحزاب الاربعة: الوطني الديمقراطي، الاستقلال، الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي، برنامجها الوطني الذي تآلفت بموجبه في هذه الجبهة.

بعد اقل من ستة اشهر من عمر الثورة، بدأت القوى السياسية تتقاتل، والمؤامرات تزداد من قبل القوى المضادة لضرب ثورة الجيش والشعب.

كانت الدوائر الحاكمة في الولايات الامريكية المتحدة، وعن طريق وكالة المخابرات المركزية "سي آي ايه" تنسق بين قوى الردة والاحزاب والشخصيات القومية المحسوبة على الخط الناصري من اجل وأد الثورة وهي في عامها الأول.

تحولت ثورة تموز بعد سنتين من قيامها، كثورة وطنية ديمقراطية، الى جمهورية يقودها عسكري وطني امسك وحده بدفتها حتى اوصلها الى مرحلة خطيرة تهدد سلامتها، وعرض مكاسبها الى الضياع.

استغل اعداء الجمهورية الاولى في العراق، في الداخل والخارج، كل تلك الظروف السيئة، للبدء في مرحلة التآمر الواسع لاغتيال الثورة.

دق ناقوس الخطر، وكان ٨ شباط ١٩٦٣ يوما أسود في تاريخ الوطن والشعب.

جاء الانقلابيون بقطار أمريكي للانتقام من الزعيم ومن شعب تموز. فكانت مجزرة رهيبة قتل فيها الألاف من الشيوعيين والديمقراطيين والعسكريين والمحسوبين على قاسم والثورة.

المعادلة:

نجحت ثورة ١٤ تموز في طي صفحة حكم ملكي رجعي شبه اقطاعي.

ونجحت ثورة الردة في ٨ شباط ١٩٦٣ في فتح صفحة سوداء لحكم رجعي ارهابي من طراز جديد قلّ أن وُجد مثيلٌ له في التاريخ.

بين تشرين القومي الناصري و١٧ تموز ١٩٦٨، عاد العراق الى حكم شبيه بالحكم الملكي المتهرىء للاخوين العارفين، عبد السلام وعبد الرحمن، الا من مظاهر مؤسسة الجمهورية الثانية.

في ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٨، عاد البعثيون للحكم بوجه جديد وبدعم اكثر من جهة خارجية في هذه المرة لاستكمال ما بدأوه في شباط ١٩٦٣ .

انخدع في الوعود السياسيون من الاحزاب الوطنية، العربية والكردية، فكان ميلاد جبهة بين البعث والاكراد في ١٩٧٠ بعد اتفاقية ١١ آذار والحكم الذاتي للشعب الكردي.

بعد اشهر معدودة، انفرط العقد البعثي - الكردي، وعاد القتال ثانية الى ربوع كردستان العراق.

ثم جاءت الجبهة الثانية بين الشيوعيين والبعثيين في ١٩٧٣

خلال هذه السنوات وحتى في الاعوام اللاحقة، لم يتوقف الذبح البعثي يوما واحدا. جرى الذبح على مراحل مخطط محكم، بدءا بالاكراد في حملات قمع شرسة طالت الابرياء في القرى، وفي المدن الكردية. ثم بالقوميين العرب في بغداد والموصل وسامراء والرمادي. وأخيرا بدأت مرحلة النحر للشيوعيين ولكل من يقف في درب البعث الصدامي. ولم يسلم من الذبح الحاقد حتى قياديو وكوادر حزب البعث.

في خضم هذه الاحداث، لم يسكت الاكراد، فاعلنوها ثورة تستكمل مسيرتها منذ ثورة ايلول ١٩٦١ ضد حكم عبد الكريم قاسم. ولم يسكت القوميون، بل اطلقوها صيحة واضحة وجريئة من القاهرة حتى دمشق.

ولم يسكت الشيوعيون ايضا؛

لقد دافعوا عن ثورة ١٤ تموز بقوة وقدموا العشرات من الشهداء.. ولكن خلال فترة قصيرة من عمر الثورة، وبعد اشتداد التآمر عليها، وانفراد قاسم بالحكم وقراراته العشوائية، اراد قائد الحزب الشيوعي العراقي، سلام عادل، استلام السلطة، فعارضه

في هذا الأمر المكتب السياسي، بل وابعدوه عن العراق. واستعدوا للقتال في العام الذي اعقب استلام عبد السلام السلطة ١٩٦٤ من اجل استرجاع حقوقهم، غير ان مصممي خط آب سيء الصيت قرروا تأجيل ذلك، وطالبوا بحل الحزب والاندماج بالاتحاد الاشتراكي العربي، الناصري، الذي اقامه طاهر يحيي وفرض فيه التأميم قبل نضوج الظروف لمثل هذه القرارات والاجراءات. الا ان انتفاضة اعضاء وكوادر الحزب ضد المسؤول الاول في قيادته ومكتبه السياسي، عبد السلام الناصري، الذي جاء في اعقاب استشهاد سكرتير الحزب، سلام عادل واعضاء مكتبه السياسي على يد انقلابيي شباط الأسود، انقذت الحزب من الانهيار والضياع.

في عام ١٩٦٧، اراد الحزب القيام "بالعمل الحاسم" لاستلام السلطة، الا ان نفس القيادة التي استلمت المسؤولية بعد فترة الاستشهاد البطولي لقادته، فوّتت الفرصة ثانية ففي الوقت الذي كان الرفاق فيه ينتظرون ساعة الصفر، تم ايقاف الخطة فجأة دون معرفة الاسباب، ان كانت هناك فعلا اسباب!؟ ولم تعرف الحقيقة حتى هذه اللحظة.

وفي عام ١٩٧٣، دخلت قيادة الحزب الجبهة مع البعث دون الرجوع الى الاعضاء وخصوصا عوائل شهداء الحزب والوطن. عارض الكثيرون، وترك آخرون العمل السياسي، وأسف البعض على هذا القرار. سأل الحزبيون المخلصون لقضية الشعب والوطن عن السبب الذي جعلنا نقبل بالتحالف مع من ذبحنا بالأمس القريب، قالت القيادة: السياسة ليست عرفا عشائريا، وانما هي فن الممكنات.

تعب من التدوين.. فطوى دفتره، بانتظار يوم جديد.

* * *

عرف في لندن، ان صديقه الحميم، ورفيق دربه في الحزب ورابطة الطلبة العراقيين في القاهرة في الخمسينيات، الكردي الشهم، القادم من السليمانية، محمد حسين الملا، يتخذ من العاصمة الانكليزية مقرا له للعيش والعمل التجاري. حصل على عنوان مكتبه من شامل النهر، واخبره بأن الملا، قد يستطيع مساعدته في مسألة الحصول على الاقامة في بريطانيا، بعد أن رفضت وزارة الداخلية طلبه وفق القوانين المعمول بها آنذاك.

كان حائرا وهو في طريقه الى مكتب الملا بعد هذه السنوات الطويلة من الفراق.

لكنه قرر ان يقابله لمعرفته الجيدة بطيبة هذا الانسان، وثقته العالية بأنه سوف يساعده في أية مشورة يطلبها منه.

وجد محمد واقفا على باب مكتبه الذي يقع في منطقة فكتوريا... لم تتغير ملامحه الا في الشعر الذي غزاه الشيب الابيض ألاخاذ، مما اضفى عليه طلعة مهيبة. وما ان شاهده، حتى اسرع الخطى اليه، واحتضنه بقوة وهو يضحك ضحكته التي اشتهر بها منذ ايام القاهرة، وسأله متعجبا:

- خطوة عزيزة كاكا.

امسك بيده وادخله المكتب الانيق والثري بكل شيء، مستفسرا عن احواله، وكيف عرف بعنوانه في لندن. ابتسم له وقال:

- والله يا كاكا محمد، تعبت كثيرا في معرفة ذلك لولا مساعدة شامل النهر.

قهقه الملا، وسأله بمحبة بادية على تعابير وجهه الصبوح:

وكيف تقضي ايامك في لندن؟

علق نظره بالثريا الكبيرة المعلقة في سقف المكتب، واجابه:

- انني اهيم على وجهي في عاصمة الانكليز، تماما كما يهيم كل من اضاع وطنا له.

أحس محمد بأن هناك مشكلة يعيشها صديقه من خلال نبرات صوته، ونظراته الدائرة في كل صوب في المكتب الكبير والأنيق. فاجأه بالسؤال:

- هل عندك مشكلة يا كاكا؟

حمل السؤال في طياته النية الحقيقية لمساعدة رفيق وصديق قديم له، وقد وضع يده على جرح انسان حائر تائه في هذا البلد، فنهض من مكانه واحتضن الملا طويلا وهو يشكره على عباراته الحلوة النابعة من قلب محب ومخلص.

قال لمحمد:

- صدقا اقول، بأنني محرج في ان اطلب منك مساعدة، قد لا تستطيع تلبيتها لي...

قاطعه، ولم يدعه يكمل الحديث، والابتسامة لا تفارق شفتيه، وقال بود واضح:

- ما هذا الذي تقوله؟ انت أخ عزيز علينا جميعا. اطلب، وانا انفذ ما تريد.

راح يقص على محمد الملا تفاصيل مشكلة الاقامة ورفض طلبه بسبب القوانين

ومتطلباتها، فوجده ملما عارفا بها، وقبل ان يكمل حديثه الذي كان صعبا للغاية، نظر اليه محمد، وبدون ان يعرف ما هو المطلوب منه، قال له:

- اريد أن اراك في الاسبوع القادم.

زاره في الموعد المحدد، بعد اسبوع، وقد ايقن من تصرفات الملا وحديثه واعتزازه به، انه سيحقق الطلب، وان لم يذكر بالتحديد ما يريده في اللقاء السابق.

لم تدم الجلسة طويلا، فذهبا الى المطعم، وبعد تناول الغداء، وقبل ان يودعه، سلمه مظروفا مختوما، وتمنى له الموفقية وبمواصلة الزيارات في اي وقت يحدده.

في قطار الأنفاق، وهو في طريقه الى البيت، فضّ المظروف بسرعة، فكانت المفاجأة.

قرأ في الرسالة وباللغة الانكليزية:

" نرحب بك في فرع بنك "اميركان اكسبريس" في منطقة (نوتنهيل كيت) ونشكر ثقتك بنا، ونود ان نؤكد لك اننا قبلنا فتح الحساب باسمك وبمبلغ قدره ربع مليون فرنك سويسري، أي ما يعادل ٦٣ الف جنيه استرليني. "

لم تصدق عيناه ما قرأه توا. ماذا يفعل الآن؟ هل يعود الى محمد، ام يعتبر الأمر منتهيا بالنسبة لوعد الملا له، عندما طمأنه في زيارته الاولى.

في اليوم الثاني، وجد نفسه في مكتب الهجرة في وزارة الداخلية البريطانية، ومعه الوثيقة المطلوبة التي تنص عليها القوانين الانكليزية. فكل الذي طلبوه في الداخلية رقم حساب يؤيد وجود مبلغ يتعدى ٥٠ الف جنيه استرليني.

لقد صدق الملا، وها هو اليوم ينقذه من جديد.

في عام ١٩٦٣، محمد يتحمل التعذيب الوحشي في قصر النهاية، سيء الصيت، على يد القتلة الانقلابيين. لم ينطق بحرف واحد قد يدينه كاعتراف رفيق على رفيق. وكان اثنان من البعثيين يبحثان عنهما في مواقف وسجون الانقلاب، بشار سردست، البعثي الكردي، ومحمد رضا الجابري، لا لافادة او اعتراف، بل للانتقام منهما. لقد كان الجابري عضوا في الهيئة الادارية لرابطة الطلبة العراقيين في القاهرة في فترة جبهة الاتحاد الوطني. وكان مع بشار سردست، الطالبين الوحيدين البعثيين من مجموع ٩٨ طالبا عراقيا في جامعات القاهرة. لقد جاء الوقت في غمرة عرس البعث، للظفر بهما وتصفيتهما، اسوة بما كان يفعله البعثيون في مسالخ الانقلاب.

ارسل الملا اليه طارشا من قصر النهاية الى السجن رقم (١) في معسكر الرشيد، ليخبره بأنه على العهد باق، وانه لم يعترف عليه ولا على الآخرين في تنظيم مصر.

كان محمد صادقا، لم يعترف، كغيره من الصامدين الذين انقذوا المئات من الرفاق في سجون القتلة، كما انه لم يعترف على احد رغم تهديدات وتعذيب مسؤولي السجن في معسكر الرشيد، حازم الصباغ، وعادل الخشاب.

* * *

وتكر الشهور والسنين، وكان قد ظفر بالاقامة في بريطانيا، ويسافر الملا الى جنيف ليستقر هناك، فلم يلتقيا لفترة طويلة بسبب ظروف محمدالمستجدة.

علم من شامل النهر، ان محمد جاء الى لندن في زيارة قد تستغرق وقتا طويلا. ذهب اليه في الفندق على امل لقاءه، اشتاق اليه، وتذكر الرسالة والحساب السويسري ليشكره ثانية على انقاذه من ورطة الابعاد والتسفير. قال لمحمد:

- بالمناسبة يا كاكا، ماذا حلّ بالمبلغ المودع باسمي في بنك الاميركان اكسبريس؟

كعادة ابناء العشائر العراقية، الكردية منها او العربية، ابتسم تلك الابتسامة المحببة الى نفسه منذ ان توطدت العلاقة بينهما في القاهرة، وأجابه:

- ان المبلغ ما يزال في حسابك في قسم الأمانات.

ظهرت على وجهه علامات الاستغراب والتعجب، فرد عليه بارتباك:

- ماذا يعني ذلك؟

رد محمد ببرود:

- كاكا يظهر انت غشيم في الحسابات والبنوك. ان المبلغ موجود في حسابك في سويسرا.

رد عليه ببلاهة:

- يعني انا في حل عن الموضوع وبريء الذمة؟

ضحك محمد واستطرد بالقول:

- انت طول عمرك بريء .. ولكنك ضعيف في أمور الفلوس والبنوك. إن المبلغ في حسابك ولا استطيع التصرف به لأنه باسمك.

تغلبت عليه البلاهة ثانية، عندما قال:

- يعني؟

ضحك محمد، واستدرك:

- كاكا، يعني الفلوس هي في حسابك وهي ملك لك.

ضحك بدوره، ورد باطمئنان:

- وماذا اعمل بهذا المبلغ؟

- الا تحتاجه بعد اليوم؟

ارتبك لمثل هذا الموقف، وقال للملا:

- يا كاكا، هل يعقل أنك بعد هذه السنوات، تسكت، ولا تحسب للاقدار حسابا؟

رد كاكا محمد بكل برود:

- كاكا، فدوة الك.

لم يتمالك نفسه بعد ان وجد في محمد ذلك الانسان الذي يفتقده كل اولئك الذين فقدوا الثقة بالناس، او كادوا ان يفقدوا الثقة حتى بأنفسهم، فقال بصوت مخنوق:

- كيف اتصرف الآن يا ابا شوان؟

كرر محمد سؤاله ان لم يكن بحاجة الى المبلغ، وعندما عرف الجواب، طلب منه ان يكتب تخويلا لصاحب المبلغ الحقيقي، لتحويل المبلغ من حسابه "المؤقت" الى حساب الملا في سويسرا.

قبل ان يفترقا، قال له محمد:

- سوف يبقى في حسابك مبلغٌ ما، من يعرف، هذه دنيا ..

ولا يعرف حتى هذه اللحظة ما يقصده بهذه العبارة، او ما هو المبلغ المتبقي.

* * *

تموز - آب ١٩٨٠

عاد يتسكع في الشوارع من جديد، لا يعرف الى اين يذهب او ماذا يريد.

المطبعة ، او شبه المطبعة في مكتب شامل النهر تشكو من الركود ومن قلة الوارد.

ابنه رافد غادر لندن الى كاليفورنيا قبل اسابيع.

الأهل في بغداد يتحينون الفرصة للسفر الى خارج العراق.

زياراته الى الاصدقاء بدأت تتقلص.

الاوقات الضائعة بدأت تضغط على اعصابه اكثر فاكثر.

عادة التدخين وتناول الكحول ازدادت وارتفعت الى قياسات استغربها هو من نفسه قبل غيره.

وفي هذه اللجة المفروضة عليه، وفي ليلة لم تشبه بقية ليالي الشؤم والضجر، رن الهاتف في ساعة متأخرة من ليلة الثلاثين من آب/اغسطس.. رنين غريب وكأنه من خارج الدار، جاءته صاحبة الدار لتخبره بأن المكالمة من الخارج. استعاذ بالله، وامسك بسماعة الهاتف، فسمع صوتا بعيدا يناديه ويتحدث بكلمات مخنوقة يصعب معرفة معانيها، ولكنها كانت تردد اسم رافد .. رافد ..

بدون وعي منه، صرخ بأعلى صوته:

- ماذا جرى؟

ردت عليه الخالة بتول التي افتقدها منذ ما ينيف على العشرين عاما، وهي تولول وتبكي قائلة:

- رافد .. رافد ..

لماذا رافد؟

- رافد في المستشفى.

صعقته المفاجأة، فارتجفت اوصاله، وتشنجت اعصابه،وتعثرت الكلمات وكأنها انحبست في فمه:

- بتول الله يحفظك، ماذا جرى لرافد؟

لم يكن يرغب او يصدق ان سوءا قد أصاب رافد.

بكت بتول بألم وحرقة والكلمات مخنوقة بين اوتار صوتها، تريد ان تخبره بأن رافد قد تعرض لحادث سيارة. سقطت السماعة من يده عندما سقطت الكلمات في اعماقه. لا يريد سماع المزيد ولا يريد ان يصدق ان مكروها قد حصل لرافد. حاول أن يقنع نفسه بأن الخالة بتول تكذب، أو ان الاخبار لا صحة لها ولا أساس.

اكدت بتول الخبر، وهو جالس على الارض توقفت حركة الاشياء حوله، توقف كل شيء الا نحيبه الداخلي. سلمته صاحبةُ الدار، سماعة الهاتف ، فصرخ:

- هل مات رافد؟

اجابت بتول وهي تنطق العبارات بصعوبة:

- لا .. لا .. بس هو فاقد الوعي، ويطلبون منك الموافقة على العملية.

بكى بصوت عال وقال:

- عملية.. لا تكذبي عليّ يا بتول، هل مات رافد؟

ردت بتول بجد وبعصبية:

- انا لا اكذب، فاستمع اليّ.

- لا اريد ان اسمع كلمة واحدة عن رافد.

- ارجوك، المسألة مستعجلة ولا وقت للضياع . هل توافق على اجراء العملية لرافد؟

ادرك للتو ان المسألة جادة، وان رافد لم يمت. رد عليها بسرعة وقد تشبث بالأمل، وقال لها:

- اوافق على شرط ان يعيش..

كان حلما.. بل حقيقة.

لم يذق طعم النوم لما تبقى من تلك الليلة. ولم يؤرقه الأرق بقدر ما ارهقه وانهكه التفكير بما حدث وهو يحاول ان لا يصدق الذي سمعه.

اجروا لفلذة كبده العملية الجراحية لسحب الدم النازف في رأسه.

نجحت العملية، لكن رافد لم يتحرك او ينطق.

طارت الأم من بغداد الى مدينة سانتياغو في كاليفورنيا لملاقاة رافد في المستشفى. جسد ملقى على السرير .. تناديه، وتتأمل ان تسمع منه الجواب. تدغدغه فيتراءى لها بأنه يستجيب للدغدغة. جسد رياضي لا خدش فيه، والان لا حراك فيه ولا أمل في حركةٍ بعد العملية.

في اليوم الرابع، تنادي الأم على الطبيب وتتوسل اليه ان يعطيها الأمل بشفاء ابنها. يحاول الطبيب ان يهرب، فتلاحقه.. ثم تتوسل اليه ان يمنحها امل حتى ولو نسبة واحد بالمائة في الشفاء. صارحها الطبيب بالقول بأن الأمل ضعيف جدا وقد يكون صفرا. تتوسل اليه ثانية، فيؤكد لها بأن المعجزة ان وقعت، فرافد سوف يعيش بقية حياته، جسدا لا حراك فيه، ولا يرى أو يسمع. لا ينطق، روح بدون جسد.

في اليوم الرابع.. يتوقف قلب رافد، ويسحب الطبيب الغطاء الابيض ليسدله على وجه ذلك الشاب الذي غادر قبل اوانه.

لقد مات رافد..

* * *

الفصل السابع
التجديد

ايلول ١٩٨٠

شهر حزين ومؤلم . .

ففي الثاني منه، رحل فجأة، وتركه يدور حول نفسه وحول حزنه، حاملا ألم هذا الرحيل. . مات رافد.

وبعد عشرين يوما، بدأ الاف الشباب يتساقطون قتلى في حرب عبثية اشعل نارها دكتاتور، ضد الجارة ايران، وشعبها يعيش احتفالات متواصلة بالذكرى الاولى لانتصاره على الشاه وطرده خارج البلاد.

* * *

بدأ في تلك الايام حياة جديدة. انتقل من سكناه مع العائلة العراقية، الى شقة في شمال لندن. استأجرنصف المساحة لمطبعة يمتلكها هندي، يدعى محمد شافي، ووزع فيها اجهزته الطباعية التي اشتراها بتمويل من شامل النهر وحسن شبيب لتساعده على العمل بصورة اوسع. كانت المطبعة لا تبعد عن مكان سكناه سوى مائة متر.

الا انه سرعان ما احس بالملل والضجر من وضعه الجديد هذا.

كان يريد حياة اخرى تملأ الفراغ الذي تركه رافد، وتعينه على تحمل الغربة والبعد القسري عن الوطن وعن وحيدته التي تبقت له ، لهيب، التي تعيش مع والدتها في بغداد.

كان يبحث عن شيء ينتشله من هذا الروتين القاتل.

يذهب صباحا الى المطبعة، وينتظر طيلة النهار، عسى أن يمر عليه زبون بعمل، لا يسد ثمنه تكاليف المطبعة الباهظة. كان الصديق فاروق الطائي هو الزبون الوحيد الذي يضخ له طلبات المطبوعات للشركات اليمنية مباشرة من هناك.

يعود مساء الى البيت، ليعد له العشاء ومستلزمات الليلة من متطلبات الشرب. واثناء السهرة اليومية، يطالع الصحف ويقرأ كتابا، وقلّ ما يشاهد التلفزيون، الا الافلام الغربية.

تمر الاشهر ثقيلة..

جاء قريبه مع عائلته، بقوا لفترة ثم ترك له سيارته الجديدة التي اشتراها من ايطاليا اثناء تجواله السياحي في مدن اوروبا، وطلب منه العناية بها واستعمالها ان اراد، فهو عائد الى بغداد، ولم يلْقَهُ مرة اخرى لان الحرب اللعينة منعت هذا القريب وغيره من حق السفر الى خارج الوطن.

وفي يوم آخر، جاءه رفاق لندن بطلب لمساعدة الفنانة ناهدة الرماح ريثما يجدون سكنا لها. كانت ناهدة قد فقدت نور احدى العينين، وهي تحتاج الى عملية جراحية سريعة لانقاذ الاخرى. اهتم بها كثيرا، فهي من رواد المسرح العراقي، وصديقة عزيزة عليه وعلى معشر المثقفين العراقيين.

وكان من زوار المطبعة شبه الدائمين، الصديق هادي منصور، والشاعر الوجداني الشفاف فاضل السلطاني، والفنان عزيز النائب.

في تلك الايام، زاره في شقته الشاعر الفنان محمد سعيد الصكار وعائلته، تربطه بهذا الانسان علاقة صداقة وزمالة في العمل لسنوات طويلة، علاقة متباعدة الا انها تتجدد في كل لقاء. كما التقى في هذه الايام ايضا الشاعر القادم من دمشق، عبد الكريم كاصد، والمخرج السينمائي قاسم حول.

وفي لقاء دون ميعاد، زاره الصحفي البعثي لطفي الخياط وبصحبته الكاتبة سؤدد القادري، قادمة من باريس. ان سؤدد تقوم بتحضير اطروحة االدكتوراه الموسومة بـ "المقارنة بين جريدتي "الجمهورية" و "الثورة". طلبت منه مساعدتها في مراجعة الاطروحة ، فوافق على تنفيذ طلبها، اذ سبق له أن قادها الى الصحافة عندما كان سكرتيرا لتحرير جريدة "التآخي" في عام ١٩٧٠ . تميزت بالجرأة في كتاباتها واثارت العديد من المناقشات الحامية التي سببت له المشاكل والاحراج من قبل رئيس التحرير دارا توفيق، مما اضطره الى الطلب اليها أن تكفَّ عن الكتابة.

جاءت سؤدد الى لندن من باريس لتستعين به وليساعدها في الاطروحة، وهي تتطلع لأن تحتل مقعد الاستاذية في قسم الاعلام بجامعة بغداد.

بعد ايام ولقاءات، كانت ملاحظاته مفيدة لها، واعادت كتابة وصياغة المادة في كل الفصول التي تضمنتها الاطروحة. شكرته على الجهد الذي بذله معها، وتمنت ان يكون اللقاء الآخر في بغداد.

* * *

في تلك الفترة - الانتقالية - في حياته، ازعجته واقلقت راحته، احداث، اضافت الى همومه اوجاعا كان في غنى عنها، بل فرضت عليه قسرا. كان يلتجأ في مثل هذه الحالات الى "الوجدان" .. الحضن الدافيء له في كل مرة تمتحنه الأيام والاحداث، في حلوها ومرها.

جاءت تلك الاحداث، وكان ابطالها رفاق يحبهم ويحترمهم ويذكرونه برفاقه في العراق، الذين استشهد البعض منهم في بغداد او مدن العراق الأخرى، وآخرين استشهدوا في جبال كردستان وهم يقاتلون قوات صدام حسين، وغيرهم الذين اغتالتهم الايدي الغادرة في بيروت و عدن او الشام.

كان نقيا في علاقاته، وفيا لمبادئه وصريحا مع نفسه ومع الآخرين. لم يكذب او يحاول تبرير اقواله واعماله مهما كانت الظروف. الا ان التقارير اللعينة كانت تلاحقه، تلك التقاريرالتي دأب على كتابتها رفاق تدربوا وتثقفوا على يد حزبيين محترفين في مجال المتابعة والتحقيق، وكان بعض الرفاق القياديين يطلعونه على تلك التقارير التي تتعلق به في لندن قي لقاءات جانبية.

أول الغيث من تلك الاحداث المؤلمة كان موجعا..

قدم الى لندن صديقه الشاعر يوسف الصائغ برفقة الشاعر البعثي حميد سعيد في محاولة لدعوة بعض المثقفين العراقيين والعرب الذين يعيشون في بريطانيا، لحضور مهرجان المربد الأول في بغداد.

كان يوسف الصائغ يعيش دوامة الضياع السياسي بعد فشل قصة حبه مع الحزب الشيوعي العراقي.اتصل به محمد كامل عارف، الصديق المشترك لهما، واخبره بوصول يوسف، وسأله ان كان يرغب لقائه.

تذكر قصة الحب الفاشل المنشورة في جريدة الثورة البغدادية، وفي مجلة الوطن العربي البيروتية يوم قرر فيه الصائغ اعلان البراءة من الحزب الشيوعي. كان المقال

الذي اتخذ صيغة قصة لحب فاشل، قد اثاره حينذاك بعد أن اخبره محمد كامل عارف تلفونيا بتفاصيل النشر واسباب كتابة المقال في جريدة الثورة.

قال محمد:

اتصل بي من بغداد جاسم الزبيدي، المصور الاعلامي المعروف، وهو يقضي خفارته في جريدة الجمهورية، وكان ينحب عبر الهاتف ويندب حظه لمعرفة يوسف طيلة هذه السنين ويصرخ:

محمد، ما هذا الهراء من يوسف الصائغ. ارجوك اقرأ ما كتبه في عدد الثورة هذا اليوم او غدا في مجلة الوطن العربي اللبنانية، لصاحبها وليد ابو ظهر الذي باع قلمه ومجلته الى النظام الصدامي لقاء تملك كازينو "ليالينا" في منطقة المسبح ببغداد.

كان المقال بعنوان "قصة حب فاشل عمره ٢٥ عاما".

عرف محمد كامل من صديق في بغداد قصة نشر المقال بالصورة التالية:

ذهب يوسف الى جريدة الثورة لرئيس تحريرها حميد سعيد، وطلب من موظف الاستعلامات في الطابق الارضي مقابلة المسؤول. قال الموظف ان حميد سعيد خارج المكتب في زيارة خاصة. ألح يوسف على ضرورة اللقاء به هذه الليلة. وعندما لم يجد الموظف حجة في عدم الاستجابة لطلب الصائغ، اتصل هاتفيا برئيس التحرير الذي كان في زيارة خارج مبنى الجريدة، ثم نظر الى يوسف وأخبره بأن الاستاذ قادم بعد قليل.

صحب حميد سعيد صديقه يوسف الى غرفته في الطابق العلوي ، وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. وبيد مرتجفة سلم قصة حبه الفاشل، وطلب منه نشرها في عدد الغد.

قرأ رئيس التحرير المقال مرة واعاد قراءته ثانية، وهو بعد كل صفحة يقرأها، ينظر من وراء نظارته صوب الصديق الجالس بهدوء امامه. ظل حميد ساكتا لدقائق، طلب منه بعد ذلك ان يعيد النظر بموقفه ويفكر اكثر قبل اقدامه على نشر "البراءة". الا ان اصرار كاتب القصة الفاشلة، جعل المقال منشورا في عدد اليوم التالي. فكانت فضيحة الصباح الحزين لشاعر وكاتب حكم على نفسه بالاغتراب الثقافي، فتألم كل من قرأ او سمع ما كتبه يوسف في براءته الفاشلة.

* * *

لم يخذل محمد فذهب للقاء يوسف. قال له:

- لا مانع ابدا، فيوسف اسقط عن نفسه هوية، ولكنه يبقى صديقا جاء يبحث عن ملجأ بعد ان خذله الآخرون.

في المساء، وفي شقة عارف، تعانقا وابتعد عنه بسرعة، ونظرات محمد تلاحقه في مشهد مؤلم للقاء حزين بين صديقين ورفيقين بعد فترة طويلة من الفراق، وفي موقف غير مريح بعد أن شطب يوسف تاريخه النضالي بصورة مضحكة وهزيلة.

بدد الحيرة والهدوء بسؤال دون مقدمات:

- هل كنت مقتنعا يا يوسف بصيغة البراءة من الحزب؟

بارتباك واضح، اجابه: نعم.

وبنبرة حادة هذه المرة، قال له:

- انت كاذب.

سكت يوسف لحظات ثم اجاب:

- انا واثق من كل كلمة كتبتها.

رد بصوت اعلى من السابق:

- بل انت كذاب! لماذا يا يوسف انزلقت الى هذا الدرك وكنت احسبك صامدا كصمود رفاقك في الجريدة.

احتد الصائغ غضبا، وكلماته تتعثر، وتخرج من شفتيه المرتجفتين بصعوبة، وقال:

- اين كنتم وانا اترقب كل يوم مجيء احد الرفاق الى بيتي.

أجابه على الفور:

- انت كاذب، فقد جاء اليك رفاقك مرتين، وفي المرة الثانية، اعطوك موعدا أمينا للقاء، بل رتبوا لك جواز سفر لمغادرة العراق.

تدخل محمد كامل بعد ان كان صامتا خلال الحوار الساخن، وقال ليوسف:

- انا شاهد على ذلك. ففي المرة الاولى حين هرّبوا لك القصائد الجميلة التي لم نجرؤ على نشرها خوفا عليك. أما المرة الثانية، فقد سمعت ذلك من الرفاق في موسكو.

طأطأ يوسف رأسه، وحاول ان يتهرب من الحقيقة، حين قال:

- صحيح، وجدت الرسالة تحت باب الدار، فماذا يعني؟

استطرد عارف بالقول:

- يعني ان الرفاق ارادوا تهريبك الى خارج العراق كما فعلوا مع الآخرين.

- انا لا اصدق!

- لأنك جبان.

حاول يوسف التخلص من الحديث، فقال:

- على اية حال، اعتقدت أن مديرية الأمن العامة تدبر لي كمينا بهذه الرسالة.

رد محمد كامل ببرود:

- يا كمين.. انت في بيتك وبين ايديهم..

سكت الجميع، وفجأة بكى يوسف بحرقة، كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل.

تحّول هذا اللقاء بين الزملاء والاصدقاء الحميميين، الى تقرير حزبي رفعه الرفاق في لندن الى قيادة الحزب في الخارج (هتخ) للتحقيق في هذا الخرق الحزبي، كما اعتبروه، وطالبوا بمحاسبته وتوجيه النقد له لأن اللقاء بالمرتدين يعرض الحزب الى مخاطر!

لم يوجه اليه النقد الذي طالب به رفاقه في بريطانيا، بل وجهته القيادة الى كاتب التقرير.

* * *

الحالة الغريبة الثانية..

الكاتب والشاعر المبدع، فاضل السلطاني، ترك الجزائر، وطلب اللجوء في بريطانيا.

كانت معرفته بفاضل جيدة وودية للغاية منذ ان كان محررا معه في "طريق الشعب".

شاب هادىء وخجول، لكنه مثقف واعد.

قليل الكلام، وان تكلم فكل كلمة دالة على معناها العميق.

اراد الرفاق في الجزائر أن يبعدوه عن قناعاته، شأن عدد كبير من المثقفين هناك، الذين ارادوا من الحزب ان يسلك نهجا واقعيا ويخاطب الناس بلغة عصرية وبخطاب

سياسي يبعده عن خطابات الخمسينيات. لم يرق له رأي رفاق الجزائر ولم يقتنع المسؤولون الحزبيون بما كان يطرحه، تماما كما حصل في اليمن لاكثر من سبعين رفيقا.

كان فاضل السلطاني واحدا من الذين شملهم التجميد والابعاد المؤقت عن التنظيم. الا انه، لم يبتعد كثيرا عن الحزب وعن تأييده للكثير من المواقف التي كانت تعبر عنها سياسة الحزب.

زاره في المطبعة يوما ما، وكانت مفاجأة، أفرحته، وطرب لها، خصوصا عندما عرف بأنه سيبقى في لندن ويطلب اللجوء السياسي.

وتكررت الزيارات، وكثرت، وكان يرتاح لها، ويقضيان ساعات في الحديث عن شؤون سياسية وثقافية، ويطلعه على قصائد كتبها في الجزائر، وأخرى في لندن.

قال لفاضل:

- البعض من قصائدك جميل، ولكن عندي اعتراض على قصيدتك الآخيرة، لأنها تمس الحزب مباشرة، والوقت لا يسمح بنشرها.

انفرجت اسارير فاضل، عند سماعه عبارة النشر. ابتسم وقال بخجل:

- ولكن من ينشرها لي؟

أجابه بثقة:

- أنا اطبعها وانشرها.

بعد اسبوع، جاءه فاضل بالقصائد التي يريد طبعها في مجموعته الاولى. تركه على أمل اللقاء بعد فترة.

قرأها، وسجل ملاحظته على ثلاثة منها، وانتظره في يوم آخر، ليصارحه برأيه، وهو يدرك بأن فاضل ابن الحزب، ومهما قالوا عنه في الجزائر، او في مكاتب اصحاب التقارير، يبقى ذلك الانسان رهيف الاحساس، المخلص للافكار التي تشبع بها خلال مسيرته الثقافية. ان وجدان هذا الشاعر نقي وشفاف.

في جلسة عمل، ابلغ فاضل بأنه مستعد لطبع المجموعة، ولكن بشرط سحب القصائد الثلاث التي اشار اليها في الحديث .. فتم الاتفاق على سحب قصيدتين وابقاء الثالثة.

في اليوم الثاني للقاء، اتصل بالخطاط والمصمم الصحفي، عزيز النائب.

خط عزيز كل القصائد، وصمم الغلاف للمجموعة.

اتفق الاثنان على تسمية الديوان "قصائد".

وظهرت المجموعة الاولى في الوقت الذي حدده لها.

فرح فاضل وهو يتفحص الكتاب الانيق المطبوع على الورق الصقيل.

كانت في الحقيقة هديته الى فاضل اعتزازا به شاعرا مبدعا وتشجيعا له لمواصلة مسيرته الشعرية.

ولكن، تحولت المجموعة الى تقرير جديد على ايدي الرفاق، ارسل كالعادة الى خارج بريطانيا.

طوى المعنيون ذلك التقرير، واعتذر منه اصحاب الشأن في لندن.

قال لرفاقه:

- طبعت المجموعة عن قناعة وان فاضل السلطاني شاعر مبدع، فهو وغيره من المثقفين، ورود في صدر الحزب.

* * *

الصدمة الثالثة:

٥٠٠ مثقف عراقي موزعون في المنافي.

مثقفون ولكنهم مقاتلون في خنادق الحرب في لبنان، يتعاطون الكلمة ممزوجة بالبارود الأسود. يتقاسمون الملاجىء في القطاع الغربي من بيروت، وفي الفاكهاني او الجامعة العربية والبربير وغيرها من المناطق الساخنة.

عشرات منهم، يعملون في صحافة ووسائل اعلام منظمة التحرير الفلسطينية وفي صحف بيروت ودمشق. آخرون يشاطرون اخوتهم في بناء صحافة حرة متينة في اليمن الديمقراطية. قلة من المبدعين استطاعوا الحصول على اللجوء في باريس ولندن.

اتفقت ارادة هؤلاء المثقفين لتأسيس رابطة مهنية يكون مركزها في بيروت بسبب وجود عدد كبير منهم هناك. عقدوا مؤتمرهم الاول الذي انبثقت عنه رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين، يترأسها الشاعر المبدع سعدي يوسف، وسكرتيرها التنظيمي، شمران الياسري (ابو كاطع).

تطلب الفعل الثقافي بعد تأسيس الرابطة، لم شمل المثقفين في المنافي في فروع ترتبط بالمركز، وترسم برامجها بعيدا عن تدخلات الهيئة الادارية الا في حالات تنسيق المهرجانات او الاسابيع الثقافية التي تقيمها المؤسسات الثقافية في هذا البلد او ذاك. وهكذا ولدت فروع ايطاليا وفرنسا وبريطانيا وغيرها من دول اوربا الغربية والشرقية.

اتصل به يوما، الدكتور ماجد الياسري (ابو محمد) وطلب منه التشاور والمساعدة في تأسيس فرع للرابطة في لندن.

باشر التحضير لهذا التأسيس رغم قلة عدد المثقفين في بريطانيا في تلك الايام. اجتمع بناهدة الرماح، الفنانة المسرحية المعروفة، وبشمعون برواري، مدير الفرقة القومية للفنون الشعبية في تلفزيون بغداد قبل هجرته، ومصطفى سيرت ، الفنان التشكيلي، وبعزيز النائب، المصمم الناجح في الصحافة العراقية. ثم اجتمع ثانية بماجد للتنسيق والتهيئة لعقد اجتماع مشترك، حضره فيما بعد، نعمان منى وعماد سلمان.

قبل الاجتماع الموعود، جاءه ابو محمد، وأبلغه نية "الجماعة" تنسيب عماد سلمان سكرتيرا للفرع. لم يكن يعرف سابقا هذا المرشح ولم يسمع به كاتبا او فنانا او صحفيا. سأل ماجد:

- من هو عماد، وما اختصاصه، وما هي نتاجاته ان كان كاتبا او شاعرا او قاصا. أجاب ماجد:

- انه قارىء جيد!

استغرب من التعريف، فقال لأبي محمد:

- ماذا تعني بقارىءٍ جيد؟

- يقرأ القصص والروايات بكثرة.

لم يستطع ان يصدق ما يسمعه من الدكتور الياسري، ولكن القرار كان حزبيا.

تطيّر الآخرون وهددوا بالانسحاب من الفرع، وكتبوا الى السكرتارية العامة التي انتقلت الى دمشق بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، يعترضون على هذا التدخل في شؤون المثقفين. سكتت السكرتارية. استبدلوا به بعد فترة نعمان منى، وهو مهندس معماري ناجح.

تحول الفرع من تجمع للمثقفين الى هيئة حزبية تقوده منظمة بريطانيا.

قالوا له إن المسألة تتعلق بحملات التضامن مع شعبنا في العراق، فقال لهم: إن المثقفين هم الوجه الحقيقي لأي نشاط تضامني من خلال ابداعاتهم ونشاطاتهم الثقافية في كافة المجالات، ولا حاجة لنشاط حزبي يؤطر هذه الفعاليات.

لم يستمع اليه الرفاق في بريطانيا. عاد الى دفتره الابيض، وكتب فيه:

" أننا لا نتعلم من اخطائنا، بل لا نريد ان نتعلم.. فما الذي يحمله المستقبل؟"

* * *

تموز- ايلول ١٩٨٢

تسارعت الاحداث اكثر من تسارع الأيام، وهي تحمل الألام والحزن للعراقيين.

صيف ساخن سجلت فيه الحرب العراقية - الايرانية اشرس المعارك، واقترفت فيه اسرائيل ابشع الجرائم بحق الفلسطينيين واللبنانيين.

لم يبخل العراقيون بدمائهم في هذه الاحداث. ففي بيروت روت دماء ثائرة فخري بطرس، وغازي فيصل ذرب، شوارع بيروت حينما استشهدا اثر غارة الفاكهاني. واستشهدت في معارك "حي السلم" كوكبة اخرى من المقاتلين في خنادق حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، يتقدمهم الشهداء عبد الكريم جبار كريم (ابو فيروز) وسعيد عبد الكافي حسن (ابو احمد) وكريم محمد لازم (رشاد) وحازم محمد خليل (جمال). لم تقف هذه البطولات عند حدها في لبنان فقط في تلك الايام، بل سبق للعشرات من المثقفين والطلاب ان ساهموا في معارك المقاومة الفلسطينية في احداث الجنوب اللبناني او في الاردن. هذا عدا الشهداء الذين راحوا غدرا برصاص كواتم الصوت البعثية، ومنهم مثلا اسعد لعيبي، الذي كان مرافقا شخصيا لفخري كريم، ويعمل في مكتب الحزب في بيروت.

* * *

اتصل به ماجد الياسري واخبره بحادث الاعتداء على حياة فخري كريم في بيروت.

اسرع اليه لمعرفة التفاصيل. سلمه بيانا تضمن تصريح الناطق باسم المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي في ١٩٨٢/٨/٢٨، قرأ فيه :

"بعد ظهر يوم الجمعة الماضي المصادف ١٩٨٢/٨/٢٧ قام مرتزقة من عملاء المخابرات العراقية بجريمة نكراء، حيث حاول عملاء النظام الدموي الحاكم في العراق اغتيال الرفيق فخري كريم عضو اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي في بيروت اثر عودته من توديع المقاتلين الفلسطينيين البواسل. وقد اصيب الرفيق بأربع طلقات نارية في وجهه ويده واصيب رفيق آخر اصابة في يده ايضا."

اذن ، الجريمة كانت محاولة اغتيال.

لم يمت فخري، او بالاحرى (علي عبد الخالق).

ففخري اسمه الحقيقي، وعلي عبد الخالق هو الاسم الحركي، او هو اسم من الاسماء الحركية التي استخدمها في نشاطاته خارج العراق، بعيدا عن عيون الرقباء والجواسيس.

عرف ذلك من خلال اطلاعه على الصحف اللبنانية وهي تنشر تصريحات القائد الشيوعي العراقي، علي عبد الخالق. كان يعتقد في بادىء الامر، ان المسؤول الحزبي هو بالفعل علي وليس فخري. فاجأته يوما احدى الصحف بنشر صورة للمتحدث الى مراسلها، داخل الحديث ، مع عناوين بارزة لأهم ما قاله في ذلك اللقاء الصحفي.

كانت الصورة المفاجأة لفخري كريم وليس لعلي عبد الخالق.

عادت به الذكريات الى سنين مضت، عندما كان يطلع على مقابلات او تصريحات (ابو عمار)، زعيم حركة فتح ، منشورة في الصحف العربية والاجنبية. فاجأته صورته في احدى الصحف اللبنانية، واذا به ، الصديق الذي كان سكرتيرا لرابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة في نهاية الخمسينيات، ياسر عرفات.

واصل تتبع اخبار فخري بعد حادث بيروت، وقالوا له بأنه يتلقى العلاج في موسكو.

اتصل بجلال الماشطة، وطلب منه ان يوصل تحياته الى فخري وتمنياته بالشفاء العاجل.

* * *

في مطلع شهر ايلول، ترك لندن في طريقه الى لوس انجلس في ولاية كاليفورنيا الامريكية.

لقد مرت سنتان على وجود لهيب وسعاد في تلك المدينة بعد هجرتهما الاضطرارية.
حطت به الطائرة في مطار المدينة. كانت لهيب بانتظاره.
لم يلقها منذ ان ترك بغداد قبل ثلاث سنوات.
كان رافد قد سبقهما الى سانتياغو في منتصف عام ١٩٨٠، للدراسة.
استعجل اجراءات المطار للقاء ابنته الوحيدة.
لحظة رائعة بقيت عالقة في ذهنه كل السنوات اللاحقة.
عانقها طويلا، وتأمل وجهها الجميل، فرأى وجه رافد أمامه، يبعث حيا.
كان فرحا باللقاء.. الا ان امريكا لم تعجبه.

حاول ان يتكيف مع الوضع الجديد، لكنه كان يصطدم بعوامل تجعل البقاء والعيش في امريكا مستحيلا. اراد ان يبقى لفترة قصيرة قبل ان يتخذ قراره النهائي. ان رافد معه اينما يذهب في المدينة. كان ولده هناك لمدة ثلاثة اشهر فقط عندما اختطفته وغيبته شوارعها في حادث مرور عابر، من قبل سائق متهور. الحياة صعبة في بلد يتراكض فيه الناس، وتسرقهم الضرائب، فيتحولون الى مستهلكين يغذون اصحاب الكروش والياقات العالية. لا اثر للعلاقات الاجتماعية، ولا يوجد اصدقاء، حتى الجيران بعيدون عن بعضهم. المدينة شبه مهجورة، ولا ترى اي فرد في الشوارع، فالكل يستخدمون السيارات في بلد تستهلك فيه بشكل غير معقول، كل ما تنتجه مصانع السيارات في العالم.

كان البعد الجغرافي بالنسبة اليه، عاملا آخر من عوامل عدم تقبله فكرة ترك لندن والعيش في المدن الصحراوية الامريكية.

لكنه، قرر ان يحاول التجربة..

فدامت تلك التجربة، ستة اشهر.

التقى بالصدفة بعد ايام من وصوله لوس انجلوس، بصديق (صحفي) كان طالبا معه في الجامعة الامريكية بالقاهرة. ملكون جبران، ابن صاحب جريدة "الاخبار" وشريك والده فيها في الثلاثينيات، ترك العراق منذ سنوات طويلة واستقر تاجرا في كاليفورنيا. لم يفهم من الصحافة التي درسها سوى المحاسبة. وحتى في هذه "المهنة"، فشل في ادارة الجريدة.

اعتقد في بادىء الامر عندما فاتحه بالشراكة، في عمل تجاري، انه تاجر ناجح بحكم قدمه في الاغتراب، ومعرفته بالبلاد، ومستوى المعيشة التي كان يرفل بها.

جال بفكره طويلا، واسترجع تاريخ والده مع والد ملكون حين كانت الشركة التي اصدرت جريدة "الاخبار" عام ١٩٣١، فاشلة منذ الايام الاولى لصدور الجريدة. الوالد يحرر ويكتب ويجعل الجريدة في المركز الاول في صحافة البلاد، وشريكه يدير ادارتها ويكتنز المال دون رقيب. فالصحفي منشغل بالكتابة ولا يدري في الحسابات شيئا، ولم يعر يوما اية اهمية للفلوس. انه لا يفهم بهذه الامور، ففشلت الشركة، واوقف الوالد الجريدة وخرج من المشروع بماكنة طباعة واحدة لا تفي بالغرض المطلوب لادامة عملية اصدار الجريدة.

ما يزال يفكر، فالخسارة المادية بالنسبة له، كبيرة. اما بالنسبة الى ملكون، فانها لا تشكل نهاية المطاف لوضعه الاجتماعي والمادي، وكل الذي كان يبتغيه من الشراكة في اي عمل، قضاء الوقت، واسكات صوت الزوجة التي تلح عليه بالعمل.

قرر ان يجرب حظه، ومع التجربة، قد ينموا الأمل في البقاء.

تم الاتفاق على شراء "سوبرت ماركت" صغير اسمياه (مخزن العائلة) في منطقة جميلة وغنية.

اتم ملكون اجراءات الشراء والتسجيل التجاري للمخزن.

تولى هو تدبير امر اللافتة والوان الكتابة لاسم المشروع.

وزع الاعلانات عن قرب موعد الافتتاح الكبير لسوق من اسواق الشرق.

توقع وملكون، ان الافتتاح سيكون مهرجانا وعرسا تجاريا.

وطالت ايام المهرجان الموعود، دون زبائن.

بدأت اللحوم وانواع الجبن تفسد، وبراميل القمامة تمتلىء بالبضاعة الفاسدة.

جلس كل يوم ينظر الى الرفوف العامرة بالمواد والمعلبات، والى خزانة السجائر المملؤة بافخر انواع التبوغ في العالم تفرغ ولا تملأ من جديد. الايجار الباهض بدأ يضغط على الوارد الناضب كل يوم. تراكمت الخسائر، وازدادت الديون بعد ان عجز ملكون عن تسديدها، او التقليل من فوائدها العالية في بلد الرأسمال العالمي.

ندب حظه الف مرة.

هل كتب عليه ان يخسر كل شيء؟

خسر الوطن اضطرارا.

وخسر ابنه البكر والوحيد، مبكرا.

وخسر ما تبقى له من النقود، حصيلة ايجار داره في الجادرية ببغداد لخمس سنوات قادمة.

لم يبق اذن، شيء ليخسره.

صحا على صوت يناديه.. التفت الى مصدره، فوجد صديقا قريبا جدا منه منذ ايام الدراسة في كلية بغداد، وفي ساحات الرياضة المحلية ومنها ساحة الكشافة في الوزيرية.

فؤاد كلو، ابن صاحب فندق بغداد، مهاجر مغترب قديم، جرب حظه في امريكا عاملا في مطعم، ثم مديرا لفندق، واخيرا، صاحب مخزن (ستور) في ديترويت بولاية مشيغان. عاد بعد هذه الانتكاسات، الى لوس انجلوس ليجرب حظه هو الآخر من جديد.

بعد العناق الطويل، عرف فؤاد، انه شريك مع ملكون في "السوبر ماركت". ضحك وقال:

- من ورطك بهذا العمل. انت غشيم ولا علاقة لك بمثل هذه الاعمال.

أجابه:

- الحظ يا فؤاد.

استدرك كلامه، قائلا:

- ملكون هو الخبير.

ضحك فؤاد وهو يصفق مازحا، وقال:

- ملكون صحفي فاشل، واراد ان يصبح تاجرا، ففشل، فكيف يورطك هذه الورطة؟

- ما العمل؟

- تخلص منه اليوم قبل الغد.

- لماذا؟

صارحه فؤاد بأن المنطقة لا تتحمل مخزنا عربيا، وتعتبر مقفلة بوجه أي عربي يسكن فيها. انها منطقة يسكنها اليهود، وشراء اللحم محرم عليهم الا اذا كان بالحلال حسب الطقوس اليهودية.

ايقن ان ما يقوله فؤاد هو صحيح. فطيلة المدة التي يقضيها في المخزن، لا يرى الا القليل من الاجانب يشترون المواد المعلبة او المثلجة فقط.

فاليهود لا يشترون اللحوم.

المكسيكيون لا يشترون سوى البيرة.

الامريكيون لا يقبلون على شراء المواد الشرقية.

ادرك كل ذلك بعد فوات الاوان.

قال لفؤاد:

- طيب يا اخي، انا غشيم، فما بال ملكون؟

رد عليه قائلا:

- هذا هو بالضبط السبب وراء الفشل.

كانت تجربة فاشلة وخسارة مادية كبيرة.

فشل في مشروع المطبعة بلندن، وفشل مرة اخرى في مشروع المخزن في مدينة هوليوود.

* * *

عاد الى مدينته المفضلة .. لندن.

التقى الفنان شمعون برواري في احد بارات منطقة "ايلينغ برودواي" يجالس قريبا له من مدينة "برواره باري" الآشورية في كردستان العراق. كان شمعون يتحدث عن تاريخه الفني وابداعه في التلحين والعزف على آلة الغيتار، وقريبه ينصت اليه باهتمام.

تدخل في الحديث، وقال لشمعون:

- كيف احوالك، وماذا تعمل هذه الايام؟

رد شمعون بابتسامة:

- هذه الانامل التي تبدع فنا، تحولت الى البناء لتبدع فنا من نوع آخر، الديكور.

اجابه:

- والله والنعم. الا تريد المساعدة؟

ارتشف البرواري من قدح الويسكي جرعة طويلة، واجاب:

- حبيبي، انت كاتب وصحفي تتعامل بالقلم والصورة، وأنا اتعامل بالفرشاة وورق الجدران. فكيف تعمل معي؟

قاطعه قائلا:

- وانت يا شمعون فنان موسيقي تتعامل مع الاوتار والغيتار..

تركه ونهض الى البار، ليستضيفه بكأس أخرى، ثم عاد وهو يبتسم بخبث، وقال:

- انا الآن عامل، أحس بما يحسه العمال الذين يبيعون قوتهم مقابل حفنة من الدراهم، بينما فائض القيمة، ينعم به اصحاب الاعمال البورجوازيون..

اسكته، قائلا:

- دعنا من الفلسفة والنظريات، أنا ايضا اريد ان اكون عاملا، اتعلم منك، واساعدك في الشغل.

لم يطل حديث الشغل بينهما، فشربا نخب الشراكة "العمالية" بعد ان كانا يشربان نخب الابداع في جلسات وفعاليات الثقافة الوطنية.

في بداية الاسبوع، يوم ١٤ تموز ١٩٨٤، ارتدى بدلة العمل البيضاء والفرشاة في يده، ليصارع جدارا عصى على شمعون خضوعا، فروّضه، ونظرات العجب والاستحسان من شريكه تلاحقه بالرضى والاطمئنان.

* * *

كانت له صداقات واسعة، بعضها حميمية، واخرى عابرة.

في البداية، لم يشأ ان يخبرهم، بعمله الجديد، الا انهم سرعان ما عرفوا من أحدهم.

عرفوا صنعته، عامل بناء وديكور.. فرح البعض منهم وكبّروا فيه روحه على اختياره هذا العمل، مجبرا لا مخيرا، وحزن آخرون. اما هو، فكان فخورا معتزا بما يقوم به. ان اعتناق الافكار تأتي عن قناعة، ثم تتحول القناعة الى ايمان، والايمان هذا

يمتحن في الانعطافات وفي الملمات. فلماذا لا يجرب الجمع بين الجهد الفكري نظريا، والجهد العضلي، عمليا.. انهما نتاج مشترك خلاق.

***

كانوا اربعة.. شمعون، الفنان الذي تحولت أنامله الرقيقة العازفة على الغيتار، الى اصابع خشنة تعارك الجدران والاخشاب بقوة، ومصطفى، الفنان التشكيلي الرائع، الذي تحولت لمسات فرشاته الملونة، الى لطمات شديدة تتلقاها الجدران بغضب. وثالثهم، الذي تحول قلمه من الكتابة والعمل في الصحافة لسنوات طويلة، الى سكين جارحة تعالج شقوقا نخرت في السقوف والحيطان ردحا من الزمن. اما الرابع، فكان الشاب الآشوري اللطيف البرت دنحا.. كانوا يتقاسمون العمل ولقمة العيش.

عرف اصحاب الاعمال هؤلاء الجنود المجهولين، كعمال بناء وديكور ماهرين. ان هويتهم اختفت وراء اسماء موهومة. فشمعون انتحل اسم فوزي، ومصطفى ينادونه بكاكا وليد، اما هو فيعرفونه بأبي الروافد. الا ان المشكلة التي تواجهه، هويته المكشوفة، وشكله المألوف للناس الذين عرفوه من خلال التلفاز او صوره المنشورة في الصحف.

لقد أحبهم كل الذين تعاملوا معهم، وشجعوهم اكثر فاكثر.

في شقة كبيرة تقع في منطقة "كوينز وي" في وسط لندن، كانوا منهمكين في العمل، حين دلف الى الداخل، موفق فتوحي بصحبة غازي المفتي للوقوف على سير العمل في الشقة. قدم موفق العمال الى صاحب الشقة بأسمائهم الحركية. كان موفق يجهل هوية شمعون ومصطفى. واجه المفتي العامل الثالث، مطيلا النظر اليه، وفجأة ضرب كفا بكف، وقال:

- هذا غير معقول.

التفت اليه موفق وقال:

- ماذا دهاك يا غازي؟

باستغراب شديد اجاب:

- خيل لي قبل لحظات ان (....) عامل مع الآخرين.

رد موفق ببرود:

- بل هو ثالثهم.

مد غازي يده وصافحه بحرارة، مستفسرا عن الاحوال، ومستغربا الوضع الذي لم يتوقع ان يراه في هذه الحالة. طمن المفتي عن صحته وارتياحه لما يقوم به.

التفت موفق الى غازي، داعبه بالقول:

- اليس انت من انصار الطبقة العاملة؟ هؤلاء هم الطبقة المثقفة من العمال. ولكن ماذا نقول، وانت احد الكوادر التي شاركت في وصولنا الى الملاجىء؟

رد غازي على موفق بعصبية:

- انتم لا تعرفون غير النقد والعتاب واصطياد الاخطاء. ألم اكن انا احد الضحايا، وانت تعرف بأني كنت محكوما بالاعدام في الموصل دفاعا عن جمهورية ١٤ تموز.

تجاهل غازي صديقه موفق، واستمر في حديثه عن ذكريات العراق، ثم صافح العمال، شمعون ومصطفى، واحتضنه ثانية، موجها كلامه للعمال:

- اكبر فيكم هذه الروح، فانتم بالفعل أهلٌ لكل ما هو خير وشريف.

* * *

يتكرر المنظر في دار شامل النهر.

في الصباح، يجلب الانسان الطيب والشيخ الوقور، حسن النهر، والد شامل، الفناجين و"دلة" كبيرة مملوءة بالقهوة العربية. ينادي عليهم بالاسماء المعروفة، ويجبرهم على الراحة، وشرب القهوة معه، وتبادل الحديث عن آخر تطورات الوضع السياسي. يضحك مستهزءا بأخبار انتصارات جيش صدام الموهومة، وجحافل " الفرس المجوس " تدخل مدينة الفاو وتصل الى اطراف البصرة ومشارف الاهوار في الناصرية.

حسن النهر، الشخصية الوطنية الديمقراطية المعروفة، ترك العراق مع غيره من الوطنيين الاحرار الذين خدموا الوطن وقدموا له الكثير من التضحيات، وخدموه في العديد من المجالات. تركه، حزينا، مختزناً الذكريات، بحلوها ومرها، يبكي بحرقة على البلد الذي استباحه صدام حسين ورهطه من الأميين غير الآدميين، على حد تعبيره، مؤكدا على ان ما يجري الآن من حرب ضروس، ومجازر بشرية بشعة، وقتل وتدمير، واستعمال الاسلحة الكيمياوية التي تحصد عشرات الالاف من الجنود

الايرانيين في الخنادق وساحات المعارك، مخطط له ، وان الوقت لم يحن بعد لوضع حد لهذه المجزرة البشرية الا بعد ان يستكمل طاغية بغداد المخطط بالكامل.

* * *

٢٦ تشرين اول ١٩٨٥

عاد منهكا في ساعة متأخرة من الليل بعد يوم عمل متعب طويل في ترميم بناية تقع خارج لندن، تملكها سيدة عراقية ورثت زوجها التاجر العراقي، سعدون الجميلي، الذي توفي في حادث سيارة في اوربا، عاد لينعم بقسط من الراحة.

بعد دقائق، رن الهاتف في الدار التي استأجر غرفة فيها، وكانت سعاد على الطرف الثاني، تستفسر منه عن أخبار بغداد. استغرب جدا من طلبها في ساعة متأخرة من الليل تسأله عن أخبار بغداد.

ادرك أن امرا ما قد وقع.. فقال لها بحيرة:

- اراك تسألين عن اخبار بغداد، ما الخبر عندك؟

اختنقت الكلمات، وانخفض صوتها، وتقطعت العبارات، وهي تخبره بفقدان أخيه الثالث، سامي.

سامي، الذي كان قريبا منه واكثر من أخ، يسقط هو الآخر صريعا بالسكتة القلبية اللعينة. انه خامس الراحلين المبتلين بهذا الموت المفاجيء. فقد سبقه الأب عن عمر قصير لم يتجاوز السادسة والخمسين. لحق به اخوه بديع وهو في ريعان شبابه، ولم يبلغ الثانية والاربعين، ثم لحقت بالاثنين، الأم، في عمرها الثامن والخمسين. ولم تتنفس العائلة الصعداء طويلا، حتى صرعت هذه الجلطة، اخاه كمال، في مقر عمله بجريدة "بغداد اوبزورفر" وهو في سن الخمسين. اما سامي، الفارس الثالث من الاربعة، فيسقط هو الآخر بالسكتة دون انذار كالآخرين في ايام احتفاله بعيده الثالث والخمسين.

* * *

اواخر عام ١٩٨٥

ما تزال طاحونة الموت على الحدود تلتهم اجساد مئات الالاف من العراقيين والايرانيين في الحرب الطائشة التي اشعلها صدام حسين. ومن داخل السجن الكبير في

العراق، تتواصل هجرة وتهجير الالاف من ابناء الشعب الذين افترشوا ارصفة الموانىء والشوارع في دول الجوار، او الذين اسعفهم الحظ، فوصلوا الى مدن اوربا.

كان يستعد لتنفيذ مشروع وطني في لندن.

التقى على انفراد بثلاثة من الاصدقاء .. اراد ان يفاتحهم بمشروعه، بعد ان اختمرت في ذهنه فكرة اصدار مطبوع عراقي في المنفى. كانت صيحات المعارضة العراقية تلح وتطالب بنافذة حرة يطل منها اصحاب القضية المشتركة، الموزعون على ارض الله الواسعة، لدعم الشعب في الداخل، وتصعيد حملات التضامن معه. ان ابناء الشعب الطيبين في بغداد وفي كل مدينة وقرية، يقارعون الذئاب البشرية بكل قوة، حتى بأسنانهم واظافرهم، وصرخاتهم المتوعدة تملأ السماء، صمودا وتحديا، وتبشر بايام حاسمة لانبثاق عصر الحرية.

ثلاثة من الاصدقاء والرفاق، اجتمعوا في لندن، يحدوهم الأمل بالتوفيق في اعمالهم التجارية، بعد ان خسروا الكثير في دول الخليج. اختارهم، وهو يتوسم فيهم الغيرة الوطنية، لعلهم يسددون جزءا من الواجب تجاه الشعب وقواه الرافضة للحكم الارهابي التي تقارع العدو في داخل الوطن، فيكونوا كرماء لهذا الشعب.

كان اولهم، عزيز الجصاني، رجل الاعمال الذي خسر كثيرا في دولة الكويت، وخسر معه الحزب، فجاء الى لندن ليبني من جديد.

التقاه حسب موعد مسبق، في مقهى بشارع اكسفورد ، وفاتحه بالمشروع الذي يود انجازه.

قال له بدون مقدمات، بعد حديث قصير عن اخبار العراق:

- اطلب منك خدمة يا عزيز، وانا واثق انك لن تردني او ترفض طلبي.

ظن الجصاني بادىء الأمر أن الطلب يتعلق بشغل الديكور والبناء، فاستعد له وقال:

- لن ارد اي طلب لمساعدة الاصدقاء.

اكد له ان الطلب لا يحمل طابعا شخصيا، فأمسك بيده واستطرد بالقول:

- انت عزيز علينا يا عزيز. الموضوع يتعلق بمشروع وطني، وانت اول الداعمين لكل مشروع وطني لانهاء ازمة البلاد وانقاذه من المحنة الكبيرة الي يعيشها.

ازدادت حيرة الجصاني الذي لم يكن يتوقع ان الحديث له علاقة بمشروع وطني. اعتدل في جلسته واحس بالثقة والاعتزاز، منتبها بكل احساسه لما سوف يسمعه. انه متعطش للعمل الوطني، وان مضى على تركه الساحة السياسية فترة طويلة.

افرغ كوب الشاي في فمه دفعة واحدة، وقال:

- شوف عزيزي .. لم ارفض في حياتي اي طلب للحزب او للحركة الوطنية عموما.

- اطلب وانا حاضر.

كانت كلمات عزيز الصادقة، الجواب الشافي الذي اختصر الكثير مما اراد ان يقوله له. اطال النظر اليه، ونظرات عزيز تتوسله ان يسرع في الطلب. لم يدخل الشك الى قلبه بأن عزيز سوف يمتنع عن المساهمة. انه واثق من استجابته لأي طلب يخص العمل الوطني.

قال برهاوة ومحبة:

- جريدة ..

سكت برهة، منتظرا رد الفعل من عزيز، ثم كرر الكلمة:

- جريدة ..

تلاقت العيون، فاستشف من نظرات عزيز انه ما يزال لا يفهم المطلوب منه. تمتم بعبارات خافتة، ولكنها اوضح مما قاله قبل لحظات:

- نريد جريدة وطنية علنية لنا في الخارج، ولأهلنا في الداخل.

خرج عزيز عن صمته، فبادره بالقول:

- هل الموضوع يتعلق بتمويل المشروع؟

- نعم، تمويل جريدة .. ولكنك لست الوحيد.

طرح عزيز اسماءا قد تكون مرشحة للمساهمة في التمويل. اختار منها اثنين فقط الى جانب عزيز. شكره في نهاية اللقاء، ووعده بلقاء آخر قريب.

كان الثاني، موفق فتوحي.

اقتصادي عاش ردحا من الزمن في براغ. نال منها درجة الدكتوراه وعاد الى الوطن، بعد قيام الجبهة بين البعث والحزب الشيوعي. استخدمته الدولة، خبيرا

اقتصاديا، واختاره الحزب مديرا مفوضا لدار طريق الشعب، وعضوا في لجنة اختصاصية. غادر العراق الى براغ ثانية عام ١٩٧٨، ومنها ذهب الى الكويت. لم يسعفه الحظ في العمل التجاري هناك، فجاء الى لندن واستقر فيها.

كان موفق من الرفاق القلائل جدا، الذين ائتمنهم الحزب في ولوجه عالم المشاريع التجارية، اسوة بالاحزاب الشيوعية الاخرى في البلاد العربية، وبحركات التحرر الوطني. كانت مشاريع الحزب متأخرة وفاشلة،خسر موفق والجصاني مبالغ طائلة في "سوق المناخ" بالكويت، وخسر معهما الحزب. جرب الحزب حظه في مشاريع اخرى ربحية، فخسر عقارا في المانيا وآخر في لندن. واخيرا، خسر خسارة كبيرة في مشروع "العمارة" في لندن بعد ان فضح فخري كريم عملية التلاعب التي احاطت بهذا المشروع، الذي صار مسؤولا عنه بعد كاظم حبيب.

كان موفق آنذاك خارج الحزب.

اتصل به بعد ان اطمأن الى عزيز الجصاني، وعقد معه لقاء طويلا غير متوقع، كما حدث مع عزيز، بسبب تشكيكه في نجاح المشروع. اراد ان يعرف كل شيء بالتفاصيل، لم يمتنع او يرفض، ولم يعط جوابا، كعادته دائما، بل اكثر من الاسئلة المتعلقة بالجريدة.

اوقفه عن الحديث، وقال له:

- عزيز الجصاني لم يطلب التفاصيل، بل طلب تحديد المبلغ الذي نحتاجه لتنفيذ المشروع كبداية للعمل. وما نريده منك، ان تحدد المبلغ الذي سوف تساهم فيه، كل حسب قدرته المالية، اما التنفيذ، فهو من اختصاص اهل الشأن في هذا المجال.

رد موفق مستفسرا:

- هل ستكون انت المسؤول عن المشروع والجريدة؟

اخبره بالايجاب. وافق موفق وحدد له المبلغ كبداية للتنفيذ.

شكر فتوحي على استجابته، وذهب الى الثالث من الاصدقاء.

مجيد الحاج حمود، الشيخ المثقف القادم من الشامية، شخصية يسارية ديمقراطية معروفة. شقيقه، هديب، كان وزيرا ابان حكم عبد الكريم قاسم، واحد اركان الحزب الوطني الديمقراطي لكامل الجادرجي. بقي صديقا له في العسكرية اثناء خدمتهما في

الاحتياط، ثم جارا مزمنا في عرصات الهندية وفي منطقة الجادرية. كان مجيد من اعز اصدقائه في بغداد. اختصر اللقاء، وحدد مبلغ المساهمة، وتعهد بالاستمرار في الدعم، وكفى.

هكذا كانت البداية.

* * *

بداية ناجحة..

ربح التمويل، وبقي ان يسرع في التنفيذ.

فاتح الجماعة في لندن، واخبرهم بتفاصيل المشروع ومتطلباته. ابدى الرفاق تفهما، وجاءته الموافقة من المركز باسرع مما توقعه.

كانت جريدة " طريق الشعب " تصدر في داخل العراق، وتطبع في دمشق. ومجلة " رسالة العراق " تصدر شهريا وتطبع في دمشق. ان اصدار جريدة في الخارج ضروري وهام، خصوصا اذا نجحت في تمويل نفسها، دون ارهاق مادي يتحمله الحزب المغرق في العمل على عدة جبهات، سياسية، قتالية، تضامنية، وتنظيميا.

التقت الرغبتان، رغبته الشخصية في العودة للعمل الصحفي، ورغبة ممثل الجماعة، ومسؤول التنظيم في بريطانيا، سعد علي، للمضي في تنفيذ ما تبقى من متطلبات الاصدار والنشر.

التقاه الدكتور ماجد الياسري، وتباحثا في التفاصيل.

طلب منه اسم المطبوع، فاقترح " عراق الغد " .

قال له ان الجريدة يجب ان تخاطب اهل العراق في الخارج وفي الداخل.

اتفقا على ان تكون لغة الجريدة بعيدة عن النصوص الحزبية الصرفة.

وأن نحافظ على سرية العمل والمكان.

هتف الياسري: عاش العراق، ولنا الغد.

* * *

جرى كل شيء بهدوء ..

دفع الاصدقاء الثلاثة مبلغا كدفعة اولى لشراء جهاز التنضيد الآلكتروني (الكومبيوغرافيك) الاول من نوعه في التنضيد الآلي في عالم الصحافة. اصطحب

معه شاكر السعدي (ابو شيرين) لنقل الجهاز الى الشقة التي استأجروها في منطقة "هاكني" في شرق لندن.

بدأ العمل الجاد..

كان معه في الجريدة، اربعة رفاق. ماجد الياسري، محمد سلمان، شاكر السعدي واميل اسحق. التحق بعد فترة قصيرة، سلم علي. لم يكن لاعضاء خلية العمل دراية او خبرة بالعمل الصحفي سواه. الياسري وسلمان، يحرران النشرة الطلابية، لسنوات ماضية. شاكر، يصمم النشرة والملصقات التضامنية، وأميل ينضد الصفحات، بخبرته المعروفة، في اشتغاله بجريدة " الشرق الاوسط " اليومية الصادرة في لندن. وكان سعد علي، مسؤول التنظيم الحزبي في بريطانيا، يساعد في الكتابة في اعدادها الاولى، وينشر اول مقال له باسمه العلني، بعد ان تم اختياره عضوا في اللجنة المركزية ضمن الرفاق العشرة الذين نسبوا لعضوية اللجنة في المؤتمر الرابع عام ١٩٨٥، الا ان رحيله المفاجيء، ترك فراغا كبيرا في بريطانيا على كافة الصعد.

ماجد الياسري، الطبيب النفساني الاستشاري الناجح، عاش فترة طويلة في بريطانيا قادما من طويريج، حيث امضى سنوات الخدمة الطبية هناك قبل انتقاله مباشرة الى لندن. اضافة الى نجاحه في مجال اختصاصه، فقد كان له دور في جمعية الطلبة العراقيين في بريطانيا، ومسؤولا عن تحرير نشرة الجمعية، حيث كان مولعا بالكتابة السياسية والفكرية، اما النشر الطلابي، فكان تنفيذا لواجبه الحزبي.

محمد سلمان، كان طالبا في جامعة لندن، ومهتما بالعمل الصحفي وله بعض الكتابات في النشرات الدورية التي تصدر في لندن.

شاكر السعدي، هو الآخر طالبٌ في لندن وعضو جمعية الطلبة العراقيين، وله خبرة فنية في تصميم النشرات الدورية التي تصدر في لندن بالعربية والانكليزية.

اما الشاب النبيل اميل اسحق، فقد كان ركنا اساسيا في الاصدار الطلابي، وعضوا متميزا في جمعية الطلبة العراقيين، عرف بجهاديته العالية وتفانيه في اداء مهماته، التي لم تقابل بالمثل من قبل رفاقه في بريطانيا.

صدرت جريدة " عراق الغد " نصف شهرية، وسارع الكتاب خارج بريطانيا برفدها بالمقالات والصور والكاريكاتير واخبار الجاليات العراقية ونشاطاتها. كانت الجريدة

العراقية الوحيدة في ساحة المعارضة خارج الوطن، ولقيت النجاح والاقبال بصفتها اللسان العراقي الصادق والصريح. باتت تصل الى الجاليات بانتظام، وتوزع سرا في مدن كردستان وفي بغداد.

لم يكن تحرير واصدار جريدة نصف شهرية تهتم بشؤون العراق وتغطي موادها ١٢ صفحة بالعملية السهلة. ولكنها استطاعت ان تصمد سنة ونصفاً، صدر من اعدادها بانتظام ٣٩ عددا، الى ان توقفت لأسباب مادية وفنية.

كانوا اربعة متطوعين في هذا الوكر السري، يساعدهم من وقت لآخر، سلم علي، الكادر الحزبي الذي هوى الكتابة، فدخل الصحافة من اوسع ابوابها، محررا في جريدة (الحياة) الصادرة في لندن. كانوا يقضون يومي السبت والاحد من كل اسبوع في التحضير والمراجعة، ويقوم هو بالقسط الكبير في تحرير المواد واختيار الصالح منها من المشاركين خارج الجريدة، وكتابة الافتتاحيات، وتهيئة كل شيء للتنضيد والاخراج في عطلة الاسبوع الثاني، وهو الموعد المقرر لتسليم العدد الى المطبعة الانكليزية، القريبة من الشقة.

ليلة الاصدار، طويلة، متعبة، وكان التوتر يزداد كلما اقترب الفجر، والرفاق قد أُنهكهم العمل، خصوصا، حين يبلغ الارهاق مداه بالنسبة لأميل، العمود الأساس في الجريدة، اذ بدونه، لا يمكن اصدار العدد. يأتي بعد انتهاء دوامه في جريدة الشرق الاوسط، يتناول مما هو موجود من الطعام الجاهز الذي يتولى شراءه، شاكر، ثم ينكب على جهاز الكومبيوتر، يلتهم بسرعة المواد المتراكمة امامه، والتي جرى تهيئتها من الاسبوع الذي مضى. فالمعروف عن أميل انه منضد من الطراز الاول بخبرته الواسعة واشتغاله في هذا المجال فترة طويلة.

يبلغ التعب ذروته.. يتوسل اليه أميل بدقائق للنوم والساعة قد شارفت الخامسة صباحا. يتوسل هو بدوره، أميل ان ينهي الصفحة قبل الاخيرة، ليتسنى لشاكر تصميمها، فموعد المطبعة قرب جدا. يترك أميل الجهاز، ويسقط على الارض، لا يقوى على ان يفتح عينيه، ويصرخ: " خاطر الله عشرة دقائق ". يتركه ممددا على الارض، ويذهب الى شاكر، مستفسرا عما بقي من التصميم للصفحات الأخرى، فيلقى نفس مصير أميل الذي بدأ شخيره يهز حيطان غرف الشقة الصغيرة، المائلة ارضيتها

الى اليسار، بسبب قدم البناء ووساخته. شاكر مبطوح على الطاولة، يتسابق في الشخير، مع أميل، والافلام الجاهزة المنضدة تغطي رأسه بعد سقوطها من لوحة التنضيد الخاصة. يتركهما دقائق معدودة، فيعاود تنبيههما بوجوب العودة للعمل وبسرعة لانهاء العدد في موعده.

يتكررهذا المشهد في عطلة كل اسبوع . كم كان قاسيا على هؤلاء المجاهدين . . الا ان الالتزام والواجب قاسيان ايضا على الانسان الحريص. تحمل فريق العمل ضغوطه عليهم رغم التعب الذي كان يعتريهم وذلك من اجل انجاح المشروع، الذي كانوا يفخرون به ارضاء لوجدانهم.

قام شاكر بتدريب هادي العلي، قبل ان يترك العمل ويسافر الى خارج مدينة لندن، فاجاد وابدع اكثر من " استاذه ". وتولى أميل، تدريب منى العلي، على جهاز الكومبيوتر، فتعلمت بسرعة، واتقنت العمل بابداع ، وكانت تقبل على التنضيد، وكأنها تؤدي الامتحانات في الجامعة.

اصبحت " عراق الغد " عزيزة على هذه الشلة في الوكر السري.

كانت تجربة مرة، لكن لا ينسى حلوها كل من عايشها.

* * *

تشرين الأول ١٩٨٧ ..

جاءه يوماً نعمان منى، وكان ما يزال سكرتير فرع رابطة الكتاب، يطلب منه الاستعداد للسفر. قال له:

- الجماعة يريدونك في الشام.

سأله:

- الجماعة اياها.

- قهقه نعمان (ابو سمير) وقال:

جماعة ركص فدع !

سأله:

- من تكون ركص فدع؟

استغرب ابو سمير من السؤال، فالمفروض ان عضو الرابطة ادرى من غيره باختصار الأسم. بحلق في وجهه وقال:

- رابطة الكتاب والصحفيين ...

لم يدعه يكمل التعريف، فاجاب:

- ما شاء الله .. كافي، فهمت.

بعد ثلاثة ايام، شد الرحال الى الشام.

* * *

في العاصمة، دمشق، علم ان الرابطة تعقد مؤتمرها العام الثاني بعد ان مضى على مؤتمر بيروت ما يقرب من سبع سنوات.

كانت بالنسبة له، هذه الفعالية، فرصة كبيرة للقاء الرفاق والاصدقاء الذين ودعهم في بغداد اواخر عام ١٩٧٨ ولم تسنح له الظروف ان يلتقي بهم خارج العراق.

اول من التقاه، فخري كريم، الذي استضافه ايام المؤتمر ومعه ناهدة الرماح. كان في داره ايضا، د. غانم حمدون عائدا من الجزائر بعد انتهاء عقد عمله كاستاذ جامعي هناك. احتضن فخري بقوة بعد سنوات من الفراق، وفرح بلقاء عبد الرزاق الصافي، وعدد آخر من القياديين الذين كانوا في بغداد او موسكو وبراغ.

طلب منه عبد الرزاق (ابو مخلص) ان يلتقيه مع فخري في مكتب الحزب.

في اللقاء، جرى الحديث التالي:

قال ابو مخلص، واكمل الحديث ابو نبيل، ان الأمر يتعلق بوضع جريدة " عراق الغد " التي ما تزال تصدر في لندن، وان قيادة الحزب، قررت وقف دعم الجريدة ماديا. كان قد سمع بهذا الأمر منذ فترة، وعلم ان قيادة الحزب في جبال كردستان العراق عارضت ايقاف صدور الجريدة بناء على ضغوطات القاعدة الحزبية داخل وخارج العراق. كما انه يعرف بالضبط ، بأن المقصود بالقيادة لا يتعدى قرارهما، باعتبارهما مسؤولين عن اعلام الحزب. ,

عارض قرار الحزب، وراح يدافع عن " مولوده " بقوة، موضحا لهما بأن ديمومة واستمرار صدورها في تلك الظروف، كصوت وحيد في ساحة المعارضة العراقية خارج الوطن، ضرورة تقتضيها مصلحة الحزب والقوى الوطنية المعارضة. واستمر ابو مخلص

وفخري في الدفاع عن وجهة نظرهما، مبررين قرارهما بالصعوبات المالية التي يمر بها الحزب. أكد لهما، أن دعم الحزب ماليا للجريدة، أهم بكثير من مصروفاته التي تهدر هنا وهناك دون مردود يذكر.

بدأ الحوار يسخن، وعندما ادرك بأن القرار سوف ينفذ، وما عليه الا أن يرضخ له وينفذ اوامر الحزب التي لم يعص اغلبها رغم عدم قناعاته ببعضها، التفت الى فخري وقال:

- يعني ان الحزب يريد اغتيال الجريدة.

التقت نظرتا رزاق وفخري، دون ان ينطقا او يسمع منهما الرد. في تلك اللحظة، دخل الغرفة احد الرفاق ليبلغهما بأن عدد الرفاق المثقفين الذين يحضرون المؤتمر، قد اكتمل. رافقهما الى غرفة اخرى من غرف مكتب الحزب. رحب ابو مخلص بالحاضرين، وابلغهم عن سبب دعوتهم الى هذا الاجتماع المحدد لاختيار انسب الرفاق كي يتولى مسؤولية الرابطة في المؤتمر الثاني.

جرى الترشيح بسرعة، وحسم الحاضرون القرار باختياره للمهمة القادمة.

قبل بدء جلسات المؤتمر، انتخب عضوا في هيئة رئاسته مع مجيد الراضي وقاسم حول.

حضر المؤتمر ٤٠ مندوبا يمثلون ٥٣٠ عضوا في فروع الرابطة والمركز في الشام، وتعذر حضور الرفاق من الداخل، وعدد آخر من المندوبين لاسباب فنية.

كان الخطاب السياسي - الثقافي للمؤتمر قد نص على " ان انفلات القمع، او غياب الديمقراطية في الوطن والذي تجلى في شكل قمع سافر جسدي وسياسي وفكري، هو الظرف الملموس الذي دفع مئات المثقفين وعشرات الالاف من المواطنين العراقيين الى الهجرة والعيش في مناف متباعدة، في ظروف سياسية واجتماعية ونفسية صعبة، بل بالغة الصعوبة في احيان كثيرة. "

" وقد مر الوطن منذ تأسيس الرابطة، بتطورات متعرجة. فمن جهة، انفلت القمع كالوباء، ومن جهة اخرى، اندلعت الحرب الايرانية - العراقية، وما رافقها من دمار وخراب، مادي وروحي، ومن جهة برز خطر الاحتلال الايراني في فترة، وتنامت وتائر القمع والتهجير، وصولا الى استعمال الاسلحة الكيمياوية لأول مرة في تاريخ البلاد

من جانب النظام العراقي ضد ابناء الشعب وبخاصة ابناء الشعب الكردي، والمباشرة بموجة بطش جديدة."

تميزت وقائع المؤتمر، على مدى يومين، وبروح ديمقراطية، بوضوح الصورة لأهمية دور المثقفين العراقيين في المرحلة الخطيرة التي يمر بها الوطن، وشعورهم العالي بضرورة المساهمة الجادة في معركة الشعب، سواء عن طريق نتاجاتهم الابداعية، او فعاليات ثقافية تبرز وجه الثقافة الوطنية وتدحض وتعري ثقافة الحرب وتأليه الدكتاتور.

خرج المؤتمر بقرارات هامة، ترسم للمثقفين برنامجا واضحا لتعزيز هذا الدور الهام في مسيرة الصمود والتصدي للنظام الارهابي، ومسؤولية المثقفين في تصعيد حملات التضامن من قبل مثقفي العالم مع الشعب العراقي.

في ختام جدول اعمال المؤتمر، كانت الفقرة الأخيرة ، الانتخابات.

جرت في جو ديمقراطي وودي، وكان الترشيح فرديا حرا .. فاز، الى جانبه، كاعضاء في الهيئة الادارية العامة، كل من، فالح عبد الجبار، مجيد الراضي، فيصل لعيبي، فخرية عبد الكريم (زينب) ، مؤيد الراوي، قيس الزبيدي، فاضل العزاوي، حميد الخاقاني، صادق الصائغ، علي عساف، ومن الداخل، فلك الدين كاكائي ومفيد الجزائري.

تقرر في المساء، عقد اجتماع للهيئة الادارية المنتخبة، في دار فالح عبد الجبار، لانتخاب السكرتير العام للرابطة واعضاء السكرتارية.

في الطريق الى الموعد المحدد، وكان بصحبة فخري كريم، وهما يذرعان شوارع وحارات دمشق، فاتحه فخري، وحاول اقناعه، لتولي مسؤولية الرابطة، معززا كلامه، من خلال نتائج الاستفتاء الذي جرى في مكتب الحزب، والاصوات التي حصل على اعلاها في المؤتمر، وهي تؤشر على الاجماع من قبل الرفاق والاصدقاء لتوليه منصب السكرتير العام للرابطة.

اعتذر، وطرح لفخري الاسباب التي تحول دون استعداده استلام هذه المسؤلية، ومنها، ضيق الوقت بسبب اعمال الديكور التي تستغرق كل وقته والتي تتعبه جسديا، وانشغاله في اصدار "عراق الغد" التي ترهقه فكريا، وواجبات أخرى ..

توقف فخري فجأة عن مواصلة السير، وقال له بانفعال:

- من منك افضل، مهنيا واسما كبيرا وخبرة طويلة وثباتا لتولي هذه المسؤولية؟

أجاب فخري وبانفعال ايضا:

- لماذا انا بالذات وهناك عدد لا بأس به من الذين تتوفر فيهم شروط " القيادة " لجمهرة المثقفين والمبدعين؟

خطا ابو نبيل وهو يمسك بيده وقال:

- أن وجودك على رأس الرابطة لا يختلف فيه اثنان، وخصوصا داخل الوطن.

- وظروفي التي عددتها لك؟

- هل تقف هذه الظروف حائلا امام اجماع الذين انتخبوك؟

حاول ان يتخلص من فخري، فذكر له بعض الاسماء التي يرشحها لتولي المسؤولية بدلا منه.

توقف فخري ثانية عن السير، أمسك بيده وقال:

- يا رجل، انت تعرف جيدا ان هناك اكثر من مثقف يتطلع الى " الزعامة " سواء من بين صفوفنا او من خارج الحزب ومن القيادات و"التيارات" الصديقة الأخرى.

سكت الاثنان، وواصلا سيرهما.

اسقط فخري كل الحجج واللاءات الرافضة. اقتنع بوجهة نظره، خصوصا انهما لم يختلفا في السابق في أمور اعقد وأهم، بل، وأخطر من هذه القضية.

ارتاح أبو نبيل لقبول رفيقه وصديقه تحمله المسؤولية الجديدة.

بعد مسير اكثر من نصف ساعة، بلغا دار فالح عبد الجبار، وكان مزدحما باعضاء الهيئة الادارية الجديدة.

انزوى اثنان في تلك الغرفة، وثلاثة في الحديقة، وآخرون خارج الباب الرئيسي للدار، يتنقل بينهم مجيد الراضي، ويلاحقه فخري كريم للتحدث هنا وهناك.

طالت المداولات والحوارات اكثر من ساعة.

عاد الجميع الى الصالة. بادر فخري في البداية، وطلب من الحاضرين ترشيح السكرتير العام للرابطة.

خيّم هدوء مشوب بالترقب وانتظارالمفاجأة. بدده ابو نبيل باعادة الطلب. لحظات، والكل صامتون، علا صوت فخري قائلا لهم: ماذا يا جماعة، أراكم صامتين؟

لم يكن فخري يريد أن يرشح أي واحد من الحضور، لحسابات واردة في مثل هذه المواقف.. انه عضو اللجنة المركزية للحزب، ومسؤول المثقفين فيه، ودوره لا يتعدى المشورة والاشراف، فإن رشح أحدهم، فسوف يحسب المرشح على ملاك الحزب، كما كان يحصل في السابق. إن الرابطة تجمع طوعي للمثقفين، يضم الاطياف الفكرية المتعددة في المجتمع العراقي. أكد لهم بأن الترشيح والاختيار حق لهم فقط وبحرية تامة دون تدخل من الحزب.

لم يذكر اسم واحد لدقائق طويلة.

بدد مؤيد الراوي السكوت عندما رشحه بصوت عال. وطالب البقية ان يتفقوا بالاجماع على انتخابه السكرتير العام للدورة القادمة.

حسم الراوي الموقف، فصفق الآخرون اعلانا وتأييدا للترشيح.

انتخب سكرتيرا للرابطة .. وقف يتلقى التهاني من زملائه الذين وضعوا ثقتهم به. تركوا دار فالح، واتجهوا الى نادي " جمعية المحاربين القدامى " ليكملوا السهرة.

* * *

الفصل الثامن
التحدي

قرر ان يغادر الشام الى لندن بعد يومين من انتهاء اعمال مؤتمر الرابطة. قبل سفره، التقى عبد الرزاق الصافي وفخري كريم، لتنفيذ قرارهما بوقف الدعم المالي لجريدة " عراق الغد "، وابلاغه بضرورة ايقاف اصدارها حال عودته الى لندن.

كان للقرار حيثياته..

استند الرفيقان على تقارير حزبية دأب على تشجيعها المكتب السياسي، لتنفيذ سياسته الداخلية في اخضاع الاكثرية لارادة الاقلية وفق تقاليد الانضباط الحزبي والمركزية الديمقراطية اللتين تسببت في غمط حق اعضاء الحزب، خصوصا عند التطبيق السيء لمبدأ " نفذ ثم ناقش " .

لم يخف عبد الرزاق، السبب الحقيقي وراء قرارهما، والاصرار على تنفيذه.

كان مسؤول التنظيم الحزبي في امريكا في تلك الفترة، احد اولئك الرفاق الذين امتهنوا كتابة التقارير الحزبية بشكلها المقيت، وكان سخيا بها، يهدف من وراء ذلك التسابق في تزويد الحزب، برسائله غير الصحيحة، لاعطاء صورة عن نشاطه، الذي سيؤهله لتسلق السلم الحزبي.

كانت الانتهازية والوصولية من اسوأ امراض الحزب. وكان التزلف، ومسح الاكتاف، عاملين من العوامل الهادمة للحياة الحزبية السليمة، مارسها، مع شديد الأسف، عدد من القيادات الحزبية في مستوياتها المختلفة.

ان امراض التنظيم في الخارج قد استفحلت ونخرت في جسد الهيكل الحزبي، ولم تنتبه اليها قيادة الحزب، الا بعد فوات الأوان.

دأب (ابو بشار) ، على عادته، على تزويد الحزب بتلك التقارير، وخاصة تلك التي تمس الصحافة العلنية من أدبيات الحزب خارج العراق.

في مكتب الحزب في دمشق، كان الثلاثة ما يزالون يتحدثون عن "عراق الغد".

قال له ابومخلص:

- هل تعرف الدكتور فريد... ؟

اجابه:

- تقصد دكتور ابوبشار؟

- هو بالذات.

- نعم اعرفه، واظن انه في موسكو الآن.

تدخل فخري على الخط وقال:

لا .. انه الآن في ديترويت.

فكر برهة، ثم قال لفخري:

- ماذا يعمل في ديترويت؟

- لقد استقر هناك.

- هل اصبح لاجئا هناك؟

اجاب ابو مخلص:

- في امريكا لا يمنحون اللجوء السياسي. انه يحاول الحصول على الاقامة.

تدخل ثانية فخري وقال:

- انه يقود العمل هناك ويصدر جريدة شهرية بالعربية.

للتو، ادرك السبب وراء قرار اغتيال " عراق الغد ". تعجب، عندما ابلغاه هذا الخبر، وباستغراب شديد، قال لهما:

- فريد يصدر جريدة، وفي امريكا؟

رد رزاق بكل هدوء:

- انها جريدة يصدرها الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة الامريكية وكندا منذ عام ١٩٨٠، ونحن ندرك اهمية الساحة الامريكية، خصوصا، أنه كان يعيش هناك اكثر من ٧٠ الف عراقي هاجروا من قرى ومدن الشمال، غالبيتهم من اخواننا الكلدان والآشوريين. و فريد يتولى الاشراف على الجريدة.

ساعد فخري ابو مخلص في سرد التفاصيل، وقال:

- منذ مدة طويلة ونحن نستلم التقارير عن نشاط الاصدقاء في امريكا وفي كندا. تؤكد هذه التقارير على ان الاتحاد الديمقراطي العراقي يطبع ويوزع من جريدة "صوت الاتحاد" ٥٠٠٠ نسخة، وهو عدد كبير قياسا الى نسبة توزيع المطبوعات العربية خارج منطقة الشرق الاوسط.

اراد ان يقاطع كلام فخري، الا ان ابا نبيل لم يعطه المجال، فواصل كلامه:

- ويبيعون النسخة بدولار. هل فهمت الآن اهمية هذا العمل قياسا الى ما نتحمله من مصاريف لاستمرار جريدتك في لندن.

رد على فخري بتوجس:

- انا اشك في ان ما تقوله صحيح وبالاخص حول العدد الموزع هو ٥٠٠٠، فقد عشت فترة في امريكا واعرف جيدا طبيعة الجالية العراقية هناك.

قال ابو مخلص:

- ولماذا يكذبون؟

صمت، ثم وجه كلامه الى الرفيقين:

- هل تأكدتم من التقارير؟

اجابه فخري، بصوت منخفضٍ ينم عن اهتزاز قناعاته، لكنه استطرد بالقول:

- كيف تريدنا ان نتأكد؟

امسك بالخيط، وايقن أن الرفاق بدأوا يصحون على الحقيقة. فاستغل هذه الفرصة، وقال لهما:

- تستطيعون التأكد من كشوفات الوارد والمصروف، اولا، ومن خلال من هم خارج الاتحاد وبعيدا عن تقارير فريد.

بادر رزاق في الجواب، واعتبرها نقطة البداية لما يقصده:

- لهذا السبب، نريدك ان تدمج "عراق الغد" بشقيقتها "صوت الاتحاد" والبركة فيك.

بهت للوهلة الاولى، لكنه تمالك اعصابه، فرد على رزاق:

- ماذا تقصد يا ابا مخلص؟

- اوقف الجريدة، وأعدْ اصدارها في امريكا.

انتبه الى بيت القصيد من وراء هذا الحوار، ورد:

- هكذا، وبكل هذه البساطة!

اومأ فخري برأسه، علامة الرضا لما قاله رزاق، وطلب منه ان يتقبل المقترح خدمة للقضية.

اجاب بحدة:

- خدمة القضية لا تأتي من خلال تقارير غير مدققة، وبقرارات سريعة، وانما تأتي عن طريق الحقائق ودقتها، وبناء على معطيات ثابتة تؤكد هذه الحقيقة.

سكت الاصدقاء الرفاق الثلاثة.

تمنى القياديان له سفرا ميمونا.

* * *

في الطائرة، ما بين دمشق ولندن، حاول ان يسترجع بعض الذكريات، المرة منها والحلوة.

كان خائفا من ضياع فرصة موجودة بالفعل، للعمل المعارض ضد النظام على الساحة البريطانية.

تساءل مع نفسه، هل كان الحزب في هذه المرحلة متابعا دقيقا، ومحللا مقتنعا بسياسة الأمر الواقع، ام ان المرحلة التي يمر بها الوطن تتطلب بعدا في الافق اكثر من محاولة ترجمة شعاره المركزي، " ايقاف الحرب واسقاط الدكتاتورية ". فهناك قوى سياسية لا تتفق مع الحزب في شعاره المحدد، انما تراهن على ضرورة استمرار الحرب لاضعاف النظام، ومن ثم، اسقاطه. وقوى اخرى محسوبة على المعارضة، تريد استمرار الحرب حتى لو تطلب الأمر احتلال القوات الايرانية للعراق لاتمام عملية اسقاط صدام حسين. عدد كبير من المعارضين، يعتقدون ان ايقاف الحرب، سيقوي النظام، وسيزيد من بطشه بالشعب وخصوصا في كردستان العراق.

بين هذه التيارات، ظهر فريق من المحسوبين على التيار اليساري، بل في داخل صفوف الحزب، يعارض دخول القوات الايرانية الى الاراضي العراقية، ويحاول ان يترجم شعار الحزب بايقاف الحرب مجردا من اسقاط النظام، بحجة الدفاع عن الوطن! بينما المستفيد من هذه السياسات المتضاربة، والمتعارضة مع بعضها البعض، هو الدكتاتور

المتربع على العرش الجمهوري في قصره بمنطقة كرادة مريم المطل على الجانب الكرخي من نهر دجلة الخير. ويتناسى هذا الفريق بأن المسؤول الأول والاخير عن اشعال فتيل الحرب التي تسبب الويلات والكوارث للشعبين العراقي والايراني، هو صدام حسين فقط.

ان الدفاع عن الوطن لا يعني في كل الاحوال، الدفاع عن صدام حسين ونظامه الدكتاتوري. الا ان رفع هذا الشعار الوطني دون التأكيد على اسقاط النظام المسؤول عن معاناة الشعب العراقي الذي سلبت ارادته بالقوة والارهاب، ودون الرجوع اليه في قرار الحرب العبثية، انما يعني، تجريد الشعار المركزي من الهدف الأساس الذي يصب فيه الاتجاه الواقعي الوطني لانقاذ الوطن والشعب من كل هذه الكوارث والمآسي.

حطت الطائرة في مطار لندن، وهو يدون في دفتره، السؤال الذي يحاول ان يجد له الجواب الشافي: الى أين يسير العراق؟

* * *

كانون الثاني - يناير ١٩٨٨

استعد للسفر الى ديترويت في ولاية مشيغان الامريكية.

اوقف اصدار جريدة " عراق الغد ".

شحن الاجهزة الى هناك.

اصابه الاحباط والملل من التقارير والقرارات الارتجالية.

ان الانتقال من منفى الى منفى، عملية ليست سهلة، خصوصا ان انتقاله هذا غير مقنع وبالضد من رغبة وارادة الانسان، الذي فقد الوطن.

لكنه اقدم على هذه التجربة الجديدة، يحدوه الأمل بالتوفيق.

انه الوجدان.

* * *

كانت الاسابيع المتلاحقة منذ استقراره في مدينة ديترويت، حبلى بالاحداث داخل الوطن. بدأت عناوين كبيرة وبارزة تملأ صفحات جرائد العالم، وتحتل الصدارة في كل نشرات الاخبار في اذاعات وتلفزيونات الشرق والغرب.

الفاو تتحول الى مقابر جماعية للجنود العراقيين والايرانيين.

اعتقال وتغييب عشرة الآف مواطن كردي من البارزانيين.

قصف مدينة حلبجة الكردية في السليمانية بالاسلحة الكيمياوية.

اختناق وموت ٥ الآف مواطن، جلهم من النساء والاطفال والشيوخ بسبب الكيمياوي.

بدء عمليات الانفال على مدار ايام أدت الى مقتل ١٨٢ مواطن كردي دفنوا في مقابر جماعية، وفيهم عدد كبير، من الشباب، دفنوا وهم احياء.

مئات من الضباط والجنود العراقيين يسقطون كل يوم على اعمدة الاعدام في حمامات دم سواء في السجون أو في الساحات العامة في بغداد والمدن الاخرى.

خشبة المشانق تهبط باجساد الشباب يوميا في اكثر من سجن، خصوصا سجن ابو غريب الرهيب، دون حساب او رقيب.

تحول العراق الى سجن كبير ومقابر جماعية وطاحونة تحصد اجساد الالآف من شبابه ونسائه وشيوخه، بل وحتى الاطفال الصغار، دون تمييز في الدين أوالعرق أوالانتماء، يقتلون على يد طاغية وازلام مسخ، مكروهين ومحتقرين، من امثال، علي حسن المجيد، وطبان، برزان، سبعاوي، عزت ابراهيم، وغيرهم، دخلوا السجل الاسود في تاريخ العراق.

ان مصير هؤلاء سيكون في يد الشعب، كما كان غيرهم خلال مسيرة التاريخ.

كان المصير معلوما.. ولكن يبقي السؤال في انتظار الجواب : متى يأتي ذلك اليوم؟

* * *

اتصل به بعد ثلاثة ايام من وصوله الى ديترويت، د. فريد هرمز (ابو بشار)، وطلب منه اللقاء لبحث أمور الجريدة، والاتحاد الديمقراطي العراقي .

صحب ابو بشار معه، شابا، قدمه بصفته مسؤول الاعلام في الاتحاد الديمقراطي . كان كمال يوسف (يلدو) في تنظيم الجامعة ببغداد، هاجر الى امريكا بعد حصوله على البكالوريوس مباشرة، مع عدد آخر من الطلاب، للالتحاق بعوائلهم المهاجرة منذ وقت طويل.

كمال، كان اكثر وضوحا في شرح أمور جريدة " صوت الاتحاد " من مسؤوله، الذي دأب على كتابة التقارير الموهومة الى المركز الحزبي.

جلسوا يتحدثون بلغة الارقام، وفاجأه كمال حين تطرق بوضوح عن تكاليف الجريدة الباهظة، وعن حقيقة توزيع ٥ الآف نسخة من جريدة الاتحاد الديمقراطي خلال السنوات الطويلة دون مقابل.

استفسر عما يقصده مسؤول الاعلام، موجها كلامه الى فريد؟

- ماذا تعني بدون مقابل؟

نظر كمال بدوره الى فريد هرمز، وطلب منه ان يفسر الموضوع. بدت على ملامح ابو بشار سحنة، دلت على تورطه، وكانت كافية للافصاح المبكر عن مضامين التقارير التي أرسلها الى فخري ورزاق في الشام. حاول ان يبرر ما يقصده كمال، الا ان الارقام كانت مذهلة. ادرك بعد ان اطلع على تلك الارقام، حقيقة هدر هذه المبالغ الكبيرة، والكبيرة جدا دون مقابل، عوضا عن تشغيلها في مشاريع ربحية، يكون مردودها كافياً لتمويل كل نشاطات وفعاليات الجاليات العراقية في اوربا، وبالتالي دعم الداخل، ماديا ومعنويا، بدلا من هدرها على نشاط اعلامي محدود في رقعة جغرافية تبعد ألاف الاميال عن العالم، وخصوصا، عن الوطن.

ذهل لما سمعه..

لقد اتضحت الصورة الان ؛

جريدة، او شبه جريدة، من ناحيتي الشكل والمضمون، ارادوها ان تكون لسان حال الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة وكندا، لتحقيق شعاره " من اجل جالية حرة وكريمة،" فباتت منشورا حزبيا ، ضاقت على صفحاتها اخبار الوطن الأم، وغابت رسالتها، كأي مطبوع، في الدعوة والتحريض، و في اعطاء الحقائق للجالية العراقية التي تتطلع الى سماع أخبار العراق، وعما يجري في وطنهم المبتلى بنظام الحرب والارهاب.

كان على الجريدة، أن تقف وراء الاتحاد في الفضح والتصدي لمرتزقة السفارة العراقية، ولنفر من المتطوعين للدفاع عن صدام حسين الذي لم يبخل في الصرف والتمويل لمشاريع يشرف عليها عملاء المخابرات العراقية، من امثال شاكر الخفاجي، امير دنحا وفيصل عربو.

نجح اعضاء الاتحاد الديمقراطي ميدانيا، في عمليات المقاومة والتصدي، وملاحقة تلك العناصر السيئة والطارئة على الجالية العراقية، وراحوا يتصيدونهم في الشوارع والمقاهي الشعبية المنتشرة في شارع (الميل السابع) وكالوا لهم الضربات، حتى نجحوا في تأديب المرتزقة، وافراغ اماكن تجمعات ابناء الجالية منهم ومّن هم على شاكلتهم، كالنوادي والمؤسسات ومناطق التجمع السكاني في المناطق المقفلة للكلدان في ديترويت. لقد نبذتهم الجالية، ووقفت مع الاتحاد، وبقية المنظمات الاخرى .

في جلسة أخرى، وجه كلامه الى فريد:

- ما العمل الآن، وماذا تريدون؟

قال كمال:

- نريد ان تكون " صوت الاتحاد " بمستوى جريدة " عراق الغد "، وبعيدة عن التحزب.

طرب لإشارة كمال الى عراق الغد، فرد عليه بارتياح:

- ومن اراد ان تنهج جريدتكم اكثر من هذا ؟

تبرع المسؤول صاحب التقارير، في الرد، قائلا:

- المرحلة التي يمر بها الوطن تتطلب ان تكون جريدتنا هنا شبيهة بالمطبوعات الحزبية الاخرى.

أجابه بعصبية وتحد:

- هل الاتحاد الديمقراطي منظمة حزبية؟

سحب كمال يوسف نفسا عميقا، واجاب:

- في الحقيقة، نحن في قيادة الاتحاد الديمقراطي، نختلف مع أبي بشار في الرأي، لكنه يصر على موقفه من منطلق مسؤوليته، وبصفته المشرف السياسي على المطبوع.

ضاق ذرعا باقوال وتبريرات فريد، وراح يشرح لهما، تجربة المنتدى العراقي في بريطانيا. قال :

- لعب الرفاق في لندن دورا مهما في تأسيس المنتدى، وكانت الفنانة ناهدة الرماح أول رئيس له. وبعد فترة قصيرة، حاول البعض من هؤلاء الرفاق ان يفرض

تقاليد حزبية ضيقة على نشاطاته وتوجهاته. الا ان البعض الآخر من الرفاق الذين ادركوا خطورة ان يتحول المنتدى الى منظمة سياسية تابعة، عارض هذا التوجه، ونجح في ابعاده كليا عن رغبة هذه القلة.

ارتاح كمال من كلامه، وطلب منه تقديم البديل لما هو موجود في امريكا.

سأله، عن أي بديل يتحدث. فقال كمال:

- لنبدأ بجريدة " صوت الاتحاد " أولا.

خرج ابو بشار من صمته، وسأله:

- هل عندك بديل؟

أجابه:

البديل الذي اريده يتطلب دعما ماليا كبيرا.

رد كمال بثقة:

- أي مبلغ تريده سوف لا يتجاوز حدود ما نصرفه على اصدار الجريدة لسنة واحدة!

اطمأن لهذا الايضاح. امسك بالورقة، وراح يخط عليها رؤوس اقلام لمشروعه. قال لهما:

الجالية عندكم بحاجة الى مكتبة، ونحن بصدد انشاء مطبعة عند وصول اجهزة عراق الغد الالكترونية، التي سوف تدر ارباحا قد تغطي جزءا من تكاليف طبع ونشر صوت الاتحاد، الى جانب الارباح التي سوف تتحقق من مشروع المكتبة، خصوصا أن تقاريركم تؤكد على وجود افق واسع في المدينة لتنفيذ مثل هذه المشاريع.

سكت الاثنان، فواصل كلامه:

ان وجود مكتبة ومطبعة يتطلبان القيام بحملة تبرعات لتنفيذ المشروع. ثم وجه سؤاله الى فريد:

- علمنا انكم أسستم ناديا اجتماعيا هو " نادي الرافدين " عن طريق جمع التبرعات من الاصدقاء في الجالية، الذين لم يبخلوا في تقديم العون حتى وصل المبلغ الى رقم كبير.

رد ابو بشار:

- هذا صحيح.

- اذن، هناك امكانية لاعادة التجربة مع المشروع.

ضحك فريد، وقال، بأنهم في الاتحاد لا يحتاجون الى التبرعات، لأن المبلغ متوفر لمثل هذا العمل.

استحسن تأكيد فريد، واستسهل التنفيذ، وبقي عليه أن يباشر العمل.

* * *

كان الطريق صعبا، فالمادة لا تقرر كل شيء.

وكان المشروع كبيرا..

جريدة " صوت الاتحاد " يجب ان تكون في مستوى صحفي سياسي جيد.

تأسيس مكتبة " دار المورد " يتطلب الكثير من الكتب والادبيات والمجلات العربية.

نادي الرافدين الاجتماعي يحتاج الى تطوير يجعله ناجحا في الاداء والخدمة للجالية.

وهناك طموح آخر لتأسيس اذاعة باسم " صوت الرافدين ".

فإن سكتت المدافع على الحدود العراقية الايرانية، في شهر آب ١٩٨٨

وفتحت المعارضة العراقية النار على النظام في داخل الوطن، وفي المنافي القسرية، في آب ١٩٨٩ ..

فما على محبي الوطن الأم في ديترويت، الا ان يكونوا في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم في هذه الظروف الجديدة.

وهكذا كان، وبدأ العمل الجديد..

انتقلت الجريدة الى مستوى الصحافة بمعناها الواسع، وطوت كل السنوات السابقة بنقلة نوعية في الشكل والمضمون، وبدأت تصدر شهريا بانتظام. احتضنتها الجالية، ورفدها المعنيون بما تحتاجه من المواد والمطبوعات والنشرات والاعلانات، من أجل تحسين أدائها وتطويرها اكثر واكثر. ارسلت اعداد منها الى اوروبا، والى كردستان العراق. لم ترسل مجانا في البريد كما كان المسؤولون عنها في السابق يفعلون. اذ تبين من قوائم البريد السابق، ان عددا كبيرا من الـ ٥ الآف نسخة كانت ترسل الى

عناوين انتقل اصحابها اصلا الى اماكن اخرى، وان اعدادا مماثلة من الاشخاص غابوا وانتقلوا الى رحمة الله. كان ارسال الجريدة يكلف بالبريد مبالغ طائلة، والى جالية لا تقرأ. بدأت في هذه النقلة، تدخل البيوت والنوادي والمقاهي والمحلات التجارية وعيادات الاطباء والمحامين، كما كان اعضاء الاتحاد يقومون ببيعها واستحصال الاشتراكات السنوية لها.

ومع الجريدة، كبرت وتوسعت، مكتبة " دار المورد ". وضمت الدار الكبيرة، مطبعة تجارية، سرعان ما استقطبت اصحاب الاعمال الذين نقلوا مطبوعاتهم اليها، وازداد الوارد الداعم للجريدة.

* * *

كان يقضي جل اوقاته في دار المورد منذ الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. ومعه في الدار، مازن فريد، خضر ميخا، والفتاة اللبنانية جانيت.

ان انامل مازن فريد السحرية تطرزالحروف على جهاز التنضيد الالكتروني بما كان يزوده من مواد للجريدة، واصابع العامل خضر تعبث بافلام الجهاز المنتجة، ووفق ارشاداته، كي يحولها الى اعمدة وعناوين تغطي ١٢ صفحة مع الصور والاعلانات، فتخرج انيقة ومنظمة. أتقن خضر فنون الصحافة وأجاد فيها. هذا العامل القادم من " كراج " لتصليح السيارات، تعلم وبسرعة، العمل في المطبعة، وفي الجريدة، وانتج بعد فترة قصيرة اعدادا من تصاميم ناجحة، لا ينتجها مصممون محترفون في الصحافة العراقية. اصراره وجهاديته ونكران ذاته، مكنته وبجدارة من ان يكون ضمن اسرة "صوت الاتحاد ".

يلتحق د. موفق داود في اعداد الصفحات باللغة الانكليزية، تحريرا وتصميما، ويسلمها بدوره الى خضر، ليكملا عدد الجريدة في موعده المقرر.

في المساء، يذهب الى نادي الرافدين الاجتماعي ويلتقي بعدد من اعضاء الاتحاد للتباحث حول امكانية تأسيس اذاعة باللغة العربية، وهو ما تحتاجه الجالية العراقية في تلك الظروف من اجل اعطائها الحقائق دون رتوش.

لم يستغرق الوقت طويلا لتنفيذ هذا الطموح. اتفقت الهيئة التي تشكلت وكلفت بالاعداد لهذا العمل الجاد، على القيام بحملة تبرعات لشراء الاجهزة اللازمة للبث

الاذاعي. جرى تخصيص غرفة في النادي، وتحويلها الى " استديو " بسيط، شارك في اعداده، نفس تلك الايادي التي اسست النادي من الاعضاء واصدقاء الاتحاد الديمقراطي.

في الساعة السادسة مساء اليوم الأول، انطلق صوت المذيع جمال ملاخا، جهوريا، يعلن بداية البث الاذاعي لصوت الحقيقة من اذاعة " صوت الرافدين "، وتتكامل فقرات البرامج على مدى ساعة كاملة؛ كلمة الاذاعة السياسية يقوم هو باعدادها كل يوم - نشرة للاخبار، يعدها جبرائيل صنا - الاغاني السياسية الوطنية والعامة، يعدها ويختارها، كمال يوسف - اركان فنية ورياضية وصحية يشارك في اعدادها اكثر من واحد. المشرف الفني الذي يقوم بالتسجيل، مهند توماس، يساعده في بعض الاوقات متبرع آخر.

* * *

يزور مكتبة دار المورد عدد محدود من الزبائن وفي اوقات متباعدة، لشراء بعض الكتب التي تتوزع الآف العناوين على رفوفها وفي شتى المجالات الفكرية والثقافية والسياسية، وفي الدين والتراث، الصادرة عن دور النشر المعروفة في بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد.

لعب فخري كريم، مدير مركز الدراسات الاشتراكية في الوطن العربي، ورئيس تحرير مجلة " النهج " الصادرة في دمشق، دورا مميزا في رفد المكتبة بالكتب ومن مناشئها وباعداد كبيرة.

كان مستبشرا ومتفائلا في البداية رغم التعب الذي يرهقه في جريدة " صوت الاتحاد " ، وفي الاعداد والاشراف على الاذاعة، وبسبب حضوره اليومي الى نادي الرافدين، الا ان تفاؤله كان ينبع من حرصه على اهمية ديمومة هذا المشروع، الا انه في نفس الوقت، ظل قلقا خائفا على ضياع " الولادات " الجديدة كما ضاعت في السابق الكثير من المشاريع الحزبية، السياسية والتجارية.

* * *

في مكتبه بدار المورد، زاره: ابو بشار، عامر جميل (ابو سلام) وبدر معروف.

كان فريد يبتسم وهو يتقدمهم، وأبلغه بأن الوفد قادم اليه بمهمة خاصة.

رحب بهم كعادته عند استقبال الاصدقاء الذين يفدون الى الدار في زيارات

خاطفة. بادر عامر جميل في الحديث، وكان يرتاح كثيرا لشخصيته بعد ان وجده انسانا طيب القلب، نقياً ومخلصاً لمبادئه دون ادعاء او تظاهرٍ.

قال عامر:

– الاتحاد الديمقراطي يحتاجك، واتفقنا في قيادته ان تكون رئيسا له في الدورة القادمة.

خرجت الكلمات مسرعة، وبصوت عال، اجاب:

– انا منذ قدومي الى امريكا حتى الآن في خدمة الاتحاد، الا يكفي ما ا قوم به في الجريدة والاذاعة وفي مؤسسة دار المورد ؟

بادر بدر معروف في الكلام عندما اراد ابو بشار الحديث، وطلب منه ان يتحمل المسؤولية، لسببين: الأول، اشرافه على كل فروع الاتحاد الاعلامية والثقافية. والثاني، دوره السياسي، وشخصيته الاجتماعية المعروفة في العراق.

شكر بدر على تقديمه هذا، لكنه اعتذر للمرة الثانية.

تدخل أبو بشار، وطلب منه الخدمة وتحمل المسؤولية في هذه المرحلة التي يجتازها الوطن.

عندما حاول لمرة اخرى، الاعتذار، متحججا بكثرة سفره الى اوروبا وسوريا لمتابعة شؤون رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين، بعد انتخابه سكرتيرا عاما لها، نهض عامر جميل وطبع قبلة على خده، والتفت الى بدر وفريد، مؤكدا بأن القبلة كانت الاسبق في التعبير عن الفرحة بقبول اداء الخدمة الجديدة، سكرتيرا عاما للاتحاد الديمقراطي.

رشحوه في مؤتمر الاتحاد، فاصبح سكرتيره للدورة الجديدة.

* * *

وتتسابق الأيام .. يترك ديترويت متوجها الى الشام، في متابعة جديدة لشؤون رابطة الكتاب، مع فالح عبد الجبار، عضو سكرتاريتها، وعلي فوزي، مسؤول المالية، وعبد الكريم كاصد وفاضل السلطاني، عضوي تحرير مجلة " البديل " الصادرة عن الرابطة.

في هذه اللقاءات، تم تحديد مواعيد عقد اجتماع كامل لسكرتارية الرابطة، وآخر

للهيئة العامة، وتنفيذ قرارات سابقة لتشكيل اللجان والتصديق على فتح فروع جديدة في اوروبا وامريكا وكندا.

كان اجتماع الهيئة العامة للرابطة في براغ، في ربيع ١٩٨٩. حضره ١٠ اعضاء من اصل ١٤ هم قوام الهيئة الادارية العامة. تحدد في الاجتماع، موعد انعقاد المؤتمر الثالث في منتصف عام ١٩٩٠، وتقرر ان يكون مؤتمرا يغلب عليه الطابع الثقافي وباوسع مشاركة ممكنة من المثقفين والمبدعين.

* * *

اثناء توقفه في لندن بعد انتهاء اجتماع الهيئة الادارية العامة، التقى فخري كريم في دار موفق فتوحي، وكان ابو نبيل قد وصلها توا، قادما من دمشق، لمتابعة اللقاءات مع بعض وجوه المعارضة العراقية، والتنسيق بين فصائل قوى المعارضة ما بين دمشق ولندن، اهمها حزب الدعوة والمجلس الاسلامي الأعلى، مع بعض التكتلات الجديدة التي تأسست في لندن، كحركة الوفاق الوطني برئاسة إياد علاوي وهي تضم البعثيين السابقين المنشقين عن صدام حسين، والمجلس العراقي الحر، لمؤسسه سعد صالح جبر، ابن رئيس وزراء العراق الأسبق، واتحاد الديمقراطيين العراقيين، ومن ابرز وجوهه، محمد الظاهر، فاروق رضاعة، عايدة عسيران وموفق فتوحي.

كان فخري يتحدث هاتفيا مع فاروق رضاعة، حين صرخ فجأة موفق، طالبا منه عدم التدخل بشؤون الاتحاد الوليد. لم يعره فخري الاهتمام، وواصل حديثه مع فاروق، محددا الموعد القادم للقاء.

وضع ابو نبيل سماعة الهاتف في مكانها، والتفت الى موفق وخاطبه بحدة:

- ماذا قلت؟

اجابه بعصبية:

- اعني لا تتدخل في شؤون اتحادنا.

ابتسم فخري، ونهض من مكانه، متوجها الى حديقة الدار، وهو يتمتم بسخرية:

- لماذا تعتبر التحدث مع فاروق تدخلا في شؤونكم؟

رد موفق بصوت اهدأ من السابق وقال:

- لأن الحزب الشيوعي لا يحق له أن يمثل التيار الديمقراطي، وأن يفرض نفسه وصيا عليه.

علا صوت أبي نبيل:

- يعني ان الشيوعيين غير ديمقراطيين؟

- ان الذي اعنيه هو ان الحزب لا يحق له أن يقود الحركة الديمقراطية في العراق.

قهقه فخري طويلا ورد عليه بهدوء:

- ألم تكن ديمقراطيا عندما كنت في صفوف الحزب الشيوعي؟

لم ينطق موفق حرفا واحدا، وسرح بعيدا، فكرر ابو نبيل سؤاله:

- كنت آنذاك شيوعيا وديمقراطيا ، اليس كذلك يا ابا عمر؟

صمت موفق وعاد فخري الى مكانه، ثم قال بحدة:

- كامل الجادرجي، رحمه الله، كان رئيسا للحزب الوطني الديمقراطي العريق لسنوات طويلة، لم يدع يوما أنه يمثل التيار الديمقراطي في العراق، أو ان حزبه يقود الحركة الديمقراطية في البلاد، لأنه يدرك تماما بأن وجود الحزب الشيوعي في العراق، تعزيز للتيار الديمقراطي وضمان قوة له.

توقف ابو نبيل برهة عن الكلام، ثم عاد موجها كلامه الى الرجل الصامت:

- لماذا سكت؟ هل بدر من حزبنا اي اتجاه وفي اي وقت مضى، رغبته بالوصاية او احتكار الحركة الديمقراطية في العراق؟

بان على وجه موفق الارتباك، بعد ان اسقط فخري كل حججه، وقال:

- هل تريدون قيادة تيارنا في هذه الايام ايضا.

- ولماذا في هذه الايام؟

- بسبب غياب احزاب ديمقراطية او وجود تيار ديمقراطي واضح الأهداف.

ملّ ابو نبيل الحديث، فاراد ان يختتمه، قال:

- اننا دائما مع وجود احزاب وتجمعات او حركات ديمقراطية، لأن وجود هذه الاحزاب تعزيز لحزبنا ولعموم الحركة الوطنية المتطلعة الى حكم ديمقراطي في البلاد.

اراد موفق ان يداري خجله من الورطة التي اوقع نفسه بها، فقال لفخري:

- اذن، كيف نستطيع ان ننسق عملنا معكم؟

لم يتلق الجواب. سكت الثلاثة. اتجه موفق الى المطبخ للقيام بواجب الضيافة.

* * *

كانت الاتصالات واللقاءات المستمرة في لندن ودمشق للتنسيق بين قوى المعارضة العراقية، قد تمخض عنها قيام " لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة العراقية " ضمت احزابا سبق وان انتظمت خلال السنوات السابقة في جبهات وطنية في طرابلس وفي دمشق وكردستان العراق.

فمن " جوقد " - الجبهة الوطنية والقومية الديمقراطية، التي تشكلت من سبعة احزاب، لتحل محل " جود " التي ضمت خمسة احزاب عاملة على الساحتين الداخلية والخارجية، الى " الجبهة الكردستانية " ممثلة لقوى كردية وعربية، خصوصا الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الشيوعي العراقي.

دمشق تفتح ذراعيها لاستقبال ممثلي المعارضة العراقية ..

لجنة العمل المشترك للمعارضة تعقد اجتماعاتها في الشام.

الاجتماعات الاولى تمثل فيها ١٧ حزبا وحركة معارضة خارج العراق.

الاتحاد الديمقراطي العراقي في امريكا وكندا يشارك في لجنة العمل المشترك.

في دمشق، ومن خلال الاجتماعات، تعرف على اسماء جديدة لأحزاب وتشكيلات سياسية تظهر لأول مرة خارج الوطن، بينها تلك الاحزاب الوطنية التي كان لها امتداد في العمق العراقي كالحزبين الكردستانيين والحزب الشيوعي العراقي، الى جانب احزاب الحركة الاسلامية، كحزب الدعوة والمجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق ومنظمة العمل الاسلامي.

وفي دمشق ايضا، عرف ان لجنة العمل المشترك التي بدأت اجتماعاتها بفترة قصيرة، صارت تضم ٢١ حزبا وتجمعا.

كان يعرف بوجود التجمع الديمقراطي العراقي برئاسة صالح دكلة، يضم في صفوفه نخبة من الشخصيات اليسارية والديمقراطية التي كانت تعمل سابقا في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، الحزب الوطني الديمقراطي لكامل الجادرجي، حزب الشعب لعزيز شريف وحزب الاتحاد الوطني لعبد الفتاح ابراهيم.

في لندن، تعرف على قيادة حركة الوفاق الوطني التي تضم شخصيات بعثية سابقة احتلت مراكز قيادية في حزب البعث العربي الاشتراكي كصلاح عمر العلي، عضو قيادة قطرية ووزير وسفير سابق، واياد علاوي ، مسؤول تنظيمات البعث في

الخارج، قبل ان ينفصل عن حزبه، وكان قد تعرض الى محاولة اغتيال من قبل عناصر المخابرات العراقية واصيب مع زوجته اصابات بالغة، والدكتور تحسين معلة، مسؤول كركوك السابق وأحد الذين ساهموا في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في منطقة راس القرية بشارع الرشيد، حين قام بمعالجة صدام حسين من طلق ناري اصيب به في تلك المحاولة، والدكتور صلاح الشيخلي، وهاني الفكيكي، عضو القيادة القطرية السابق.

كانت له صداقة في دمشق مع الدكتور مبدر الويس، الأمين العام للحزب الاشتراكي في العراق، وهو حزب قومي ناصري، ومع عبد الآله النصراوي، أمين عام الحركة الاشتراكية العربية. عرف يونادم يعقوب، أمين عام الحركة الديمقراطية الآشورية في امريكا ودمشق. ربطته علاقة جيدة في الشام مع مهدي العبيدي والدكتور ابراهيم الموسوي واسماعيل القادري، اعضاء قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي، الموالي لسوريا.

* * *

٢ آب - اغسطس ١٩٩٠

رجال المعارضة العراقية يواصلون اجتماعاتهم في دمشق.

المثقفون العراقيون يعودون الى منافيهم بعد انتهاء مؤتمرهم الثاني في برلين.

وفجأة ..

تزأر السماء، وتتلاطم امواج شط العرب، تزمجر المجنزرات، كتل الحديد الزاحفة على رمال الصحراء اللاهبة تتسلل، قرقعة السلاح الاسود تصك الاذان، تقذف حممها على (العدو) ...

اننا قادمون..

هكذا قالوا..

انه الغزو .. و(العدو) دويلة عربية على حدود الجنوب.

سنتان فقط، هما عمرالعراق الدامي ..من غزو الى غزو.

كانت ايران البداية، والكويت، الضحية، فمتى النهاية؟

كان فرحا لنتائج المؤتمر الثالث لرابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين المنعقد للفترة ٢٤ - ٣١ تموز، حين صرخ صدام: عاد الجزء الى الاصل!

صرخ بدوره .. يا للعودة !

الزعيم عبد الكريم قاسم قائد ثورة ١٤ تموز الوطنية عام ١٩٥٨ طالب، مجرد مطالبة، بحق العراق في ضم القضاء السليب الى الوطن الأم، ولم ينفذ طلبه. كان باستطاعة لواء واحد في الجيش العراقي، ان ينفذ الأمر دون ضجة، لكنه آثر ان يترك الأمر للشعبين العراقي والكويتي.

يومان فقط، بين مؤتمر المثقفين في برلين، وغزو الكويت.

عاد السؤال التقليدي، يطرق رأسه من جديد: الى اين يسير العراق؟

في ايلول ١٩٨٠، اعلن صدام حسين حربه على ايران.

وفي آب ١٩٩٠، غزا الكويت.

تساءل المثقفون في دول المنفى: ما الذي نفعله؟ وكيف سنترجم قرارات مؤتمر الرابطة في برلين قبل يومين، الذي انعقد تحت شعار: " ديمقراطية، ابداع " في وسط مهرجان ثقافي حضره عدد كبير من مبدعي العراق؟

في تقرير الهيئة العامة للرابطة المقدم الى المؤتمرين، جاءت ارادة وتصميم المثقفين العراقيين على:

" اردنا لهذا المؤتمر، ان يكون مؤتمرا للثقافة، وللحوار والبحث، واذا ما تحقق شيء في حدود هذا واكثر منه، فانه سيكون تجاوزا للطموح الذي انطلقنا منه . "

" كان الوضع الثقافي داخل الوطن يتميز بنمو اتجاهين، الاول سلطوي، مدائحي يندرج في اطار المساعي الاعلامية لتبرير ما هو قائم، واستخدام الثقافة سلاحا سياسيا اعلاميا. والثاني اتجاه مقاوم، إما من موقع ايمان عميق بالديمقراطية، وإمّا من موقع نزعة انسانية تتنامى وتحتدم كلما احتكمت الى العقل. وفي المنفى ظل الهاجس الديمقراطي، رغم التباينات العميقة ازاء هذه القضية او تلك، ظل القاسم المشترك للمثقفين العراقيين في المنفى، سواء في اطار الرابطة ام في اطار تجمعات ثقافية اخرى. "

" ففي تلك السنوات العشر، ومن خلال استعراض الوضع في داخل الوطن، كان الفعل الثقافي سلطوي مدائحي دعائي تبريري لجرائم حرب، ثقافة تمجيد وعبادة فرد؛ تسابق في ابراز وجهها الكالح، نفر من المثقفين البعثيين وعدد محدود من الشباب الطامح الى الشهرة والجاه والمال. وكانت اعمالهم تصب في عمليات تصوير طاحونة

الموت وهي تسحق مئات الالاف من ابناء الشعبين العراقي والايراني بشكل غير انساني، فظهرت قصص وروايات تقطر من عناوينها وفي ثناياها من ابطال واحداث، دماء الابرياء، ودونت اشعار في مجموعات شعرية تتغزل بآلة الحرب وتبارك الاعدامات لرافضي تلك الحرب، وعرضت لوحات في معارض خصصت لتمجيد " بطل القادسية "، وتسابق كتاب في الصحافة لاضفاء هالات التسبيح لعبقرية زائفة اطلقوا عليه لقب (القائد الضرورة) وما شابه ! "

هكذا اراد المثقفون العراقيون في مؤتمر برلين ان يكون المؤتمر، فكان انطلاقة الفكر في مقاومة الحرب والارهاب.

وصيحة في وجه أمية المثقفين السلطويين..

ان ثقافة السلطة لا تمت للثقافة العامة بأية صلة - لغة واسلوبا وقيمة ادبية.

فكيف الأمر، ان كانت ثقافة موت وعدوان ودماء وتمجيد طاغية؟

لم تكن ثقافة ..

فشل المثقفون السلطويون في خلق ثقافة حقيقية.

كانت ثقافتهم فاشلة.

ثقافة " الايام الطويلة " لعبد الامير معلة .

ثقافة " لولاك لما طلع القمر.. " لشفيق الكمالي

ثقافة بطلها الاوحد، صدام حسين.

ضحاياها مثقفون كانوا الى وقت قريب يصطفون في طابورالثقافة الوطنية.

وبالمقابل،

ما الذي قدمه كتاب نظام احتكر الكلمة قبل ان يبدأ بتبعيث المجتمع؟

وماذا قدمت رابطتهم في مجال الابداع ومن اجل حرية الكلمة؟

قدموا الكثير..

قدموا الكلمة الصادقة النابعة من وجدان شعبهم.

وقدموا شهداء أبراراً ظلت صرخاتهم الجريئة تدوي في سوح الوطن، في زنزانات، وشهداء حركة الانصار في ربوع كردستان العراق.

نشروا ابداعاتهم في المنافي، ووزعت سرا داخل الوطن في عمليات الاستنساخ الشهيرة.

وساهموا في النشاطات السياسية والاعلامية والتضامنية مع قضايا شعبهم ووطنهم.

رفعوا اصواتهم عاليا في نداءات وبيانات:

- بيان لمقاطعة مهرجان المربد الدعائي لسلطة الموت والارهاب.
- نداء حول العفو عن المنفيين العراقيين يفضح زيف العفو الصادر على لسان صدام حسين في المربد.
- نداء الى المثقفين العرب حول اعدام ٧٠٠ مواطن عراقي.
- حملة تواقيع عربية وعالمية حول جريمة حلبجة باللغات العربية والانكليزية والفرنسية.
- بيان حول توقف الحرب مع ايران، ترحيب بحقن الدماء وادانة لاستمرار الارهاب.
- نداء مع الكتاب العرب حول استخدام الاسلحة الكيمياوية من قبل النظام ضد المواطنين.
- نداء حول انتهاكات حقوق الانسان والثقافة في العراق.
- رسالة الى الامم المتحدة حول حلبجة.
- اصدار تأبين للشهداء الفنان ابو آيار في الوطن، والكاتب سعيد جواد في المنفى والشاعر وهاب الداوودي.
- نداء الى اتحادات الادباء العرب حول قمع المثقفين والثقافة في العراق.

ولم ينس المثقفون العراقيون القضايا العربية ومبدعي الثقافة العرب، فاصدروا بيانات تضامنية مع انتفاضة الشعب الفلسطيني، ورسالة تضامن الى مثقفي الأرض المحتلة. وارسلوا كتابا الى الامم المتحدة احتجاجا على إبعاد صحفيين فلسطين من الأرض المحتلة. كما اصدروا بيانا لتصعيد اعمال التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية.

واقامت الرابطة اسابيع ثقافية مميزة في دمشق، منها اقامة معرض تشكيلي للفنانين العراقيين في المنفى بمشاركة ٤٠ فنانا، ومعرض شخصي للفنان جبر علوان، وامسية موسيقية لفرقة بابل. كما اقامت ندوة عن الرواية العربية وامسية شعرية، وقدمت بعض العروض المسرحية.

ولأول مرة ينعقد في برلين مهرجان ثقافي يتضمن قراءات ادبية، وعروضا مسرحية، وأمسياتٍ موسيقية ومعرضا تشكيليا وفوتوغرافيا ومعرضا للكتاب، ينعقد مؤتمر للرابطة وبحضور ومشاركة عدد غير قليل من الكتاب والفنانين، ومن الذين لم يشاركوا سابقا في اعمال ونشاطات الرابطة.

انتهى مؤتمر الرابطة..

وانتهى المهرجان الثقافي.

في ختام هذا العرس الثقافي الوطني، انتخب المؤتمرون مكتب تنسيق من خمسة اعضاء لقيادة العمل بعد ان تم تغيير أسمها، الى رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين، وانتخبوه للمرة الثانية منسقا عاما لها، واعضاء المكتب هم، مفيد الجزائري، منذر حلمي، عدنان حسين، وزهير الجزائري.

* * *

ما تزال الاسابيع اللاحقة تترى، والاحداث تتسارع ما بين الكويت والعراق.. الرئيس الامريكي جورج بوش، يتوعد ويهدد بالحرب لطرد صدام حسين من الاراضي الكويتية. " قادة " حزب البعث، غزاة الجارة الشقيقة، يهددون بدورهم، ويتوعدون بتحويل العراق الى مقبرة للجنود " المعتدين ".

كان عليه ان يتعامل ويتفاعل مع كل تلك الاحداث من ديترويت حتى دمشق، ولقاءات في لندن، بعد ان باتت هذه العاصمة البريطانية، ساحة مهمة لنشاط المعارضة العراقية.

ممثلو المعارضة في الشام يتحاورون ويناقشون ويعيدون صقل الآراء والرؤى في كل اجتماع يعقد دون التوصل الى قناعات قد تحرك الساحة الملتهبة في الوطن المنكوب، ضد الحكم الدكتاتوري. كانت سبل تحقيق شعار اسقاط النظام، قيد التأجيل في تلك الاجتماعات.

تطول هذه الاجتماعات. يسجل معتمد اللجنة، صباح الجزائري، اسماء الحضور والغياب من ممثلي قوى المعارضة:

فخري كريم وتوما توماس عن الحزب الشيوعي العراقي - عبد العزيز عليان او موفق فتوحي، عن اتحاد الديمقراطيين - صالح دكلة، امين عام التجمع الديمقراطي

العراقي - فائق بطي، سكرتير عام الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة وكندا - عز الدين برواري او د. كمال خوشناو، عن الجبهة الكردستانية - ابو اسراء المالكي، ممثل حزب الدعوة في العراق - بيان جبر، او السيد عبد العزيز الحكيم، عن المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق - رضا جواد تقي عن منظمة العمل الإسلامي - مهدي العبيدي وابراهيم الموسوي، عن حزب البعث العربي الاشتراكي (قيادة قطر العراق) - تحسين معلة، عن حركة الوفاق الوطني - سامي عزار المعجون، عن المجلس الاعلى للعشائر العراقية - مبدر الويس، امين عام الحزب الاشتراكي في العراق - حسن النقيب، عن حركة الضباط العراقيين - سعد صالح جبر، رئيس المجلس العراقي الحر، اضافة الى عدد محدود من الشخصيات المستقلة.

تتواصل هذه الاجتماعات..

وأخيرا ..

في ٢٧ كانون اول ١٩٩٠، وقعت احزاب وقوى المعارضة على بيان مشترك، جاء في ديباجته:

" يا ابناء شعبنا العراقي الأبي:

ادراكا من قوى المعارضة العراقية لحراجة الاوضاع العامة في وطننا الحبيب، وخطورة المرحلة التي نعيشها جميعا حيث يسود حكم الطاغية صدام حسين الفردي واجهزته القمعية وارهابه الدموي، ويتفرد باخطر القرارات التي تمس مصير شعبنا ووطننا، دون مشاركة من اي مؤسسة دستورية او قانونية منتخبة، كإشعاله الحرب العدوانية على الجمهورية الاسلامية الايرانية.

وبناء على استمرار سياسة النظام الدكتاتوري في بغداد بتوسيع نطاق البطش والقمع والارهاب والاضطهاد والتصفيات الجسدية التي ذهب ضحيتها الالاف من خيرة ابناء شعبنا العراقي المكافح ومن جميع قواه الوطنية: الاسلامية والقومية (العربية والكردية) والديمقراطية .. عبر انتهاجه لسياسة التمييز السياسي والقومي والديني والطائفي، مما اوقع البلاد في أزمة خانقة سياسية واجتماعية واقتصادية ..

وهي اذ تدين وترفض الاحتلال والضم القسري للكويت، تشجب وتستنكر حشد الجيوش والاساطيل الاجنبية، وتؤكد على الخيار السلمي لحل الأزمة في الخليج ودرء

كارثة الحرب المحتملة ونزع فتيلها وذلك بتشديد الضغط على النظام لاجباره على الانسحاب من الكويت بدون قيد او شرط، وتعبئة كل القوى من اجل سحب القوات الاجنبية من المنطقة وحل الخلافات بين دولها سلميا ..

ان قوى المعارضة العراقية مجتمعة لتهيب بابناء شعبنا العراقي وجيشه الباسل في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ بلادنا الذي سيتعين من خلالها بلا شك مستقبله ومصير ابنائه، ان يكون رابط الجأش متهيئا لانزال الضربة الحاسمة التي ستقطع الطريق على اي احتمال قد يؤدي الى تعريض استقلال العراق وسيادته الى اخطار جسيمة وكارثة مهلكة وندعوه للعمل على تحقيق الأهداف التالية:

ذهب البيان الى تعديد ١٢ هدفا تحدد حاضر ومستقبل العراق، من ابرزها:

- اسقاط الدكتاتورية بارادة الشعب العراقي.
- اسقاط جميع خطط التآمر الاستعماري الهادفة الى تمزيق العراق وتفتيت وحدته.
- تأليف حكومة ائتلافية انتقالية تعقب النظام الحالي تشمل جميع فئات الشعب العراقي بكل قواه السياسية المناهضة للحكم الفاسد تتولى انجاز المهام التالية:
- الغاء سياسة التمييز الطائفي ضد الغالبية من ابناء الشعب العراقي.
- الغاء سياسة التمييز القومي.
- تحقيق الحريات العامة الديمقراطية.
- ضمان حقوق الانسان في العراق.
- الانتقال بالبلاد الى الاوضاع الدستورية.
- دعم الجهود الرامية الى تحقيق التضامن العربي.
- اسناد كفاح الشعب العربي الفلسطيني.
- انتهاج سياسة خارجية مستقلة والابتعاد عن الاحلاف الاجنبية.
- بناء تضامن عربي واسلامي حقيقي وبناء علاقات حسن الجوار.

***

١ كانون الثاني - يناير ١٩٩١

طبول الحرب تقرع بشدة.

الملايين من شعوب العالم تتظاهر ضد الحرب وترفع شعار لا للحرب من اجل البترول.

وفود رسمية عالمية تذهب وتعود من بغداد بأمل رضوخ صدام للانسحاب.

الاساطيل تجوب البحار وتقترب من الكويت.

القواعد العسكرية الامريكية في الخليج تعج بالطائرات الحربية.

الشعب العراقي يهاب الحرب الكارثية الجديدة.

الجيش العراقي في الصحراء، جائع ومكشوف دون غطاء جوي.

الساعات بدأت تقترب من خط البداية للعاصفة المدمرة القادمة.

الدكتاتور الأهوج يصر على عدم الانسحاب وزيادة سعير النار.

لطيف نصيف جاسم، وزير اعلام صدام يقسم باغلظ الأيمان بأنهم باقون.

الوزير التائه، يقسم بقطع يده اليمنى اذا انسحب الجيش العراقي.

مسؤولو البعث يهددون من بين دخان " السيكار " الملتصق باصابعهم، بقبر الغزاة.

* * *

عقارب الساعة تشير الى السابعة صباح ١٥ كانون الثاني . .

كان يقف في طابور طويل بقاعة وصول المسافرين في مطار هيثرو الدولي في لندن، بانتظار دوره في تأشيرة الدخول الى البلد.

انه عائد من ديترويت.

المطار مكتظ بالقادمين الى بريطانيا، والغالبية من الامريكيين.

طرق سمعه عبارة مقرونة بقهقهة، ضرباهم بعد منتصف الليلة، كان المساء، يعني له، الصباح الباكر حسب التوقيت المحلي. تثاقلت خطواته، وارتعش بدنه، واسودت القاعة في عينيه. وقف في الجانب الايسر من الطابور. لمح المسافر الامريكي الذي بشر بضرب العراق، يتحدث الى زميله الآخر. التفت اليه، وبتألم واضح على وجهه، قال له:

- لماذا أفرحك قصف الطائرات لبغداد ؟

اجاب بعنجهية امريكية:

- ضحكت لأننا سنقوم بنزهة جوية فوق بغداد .

كرر عليه السؤال:

- ولماذا الضحك؟

خجل المسافر القادم من امريكا من نفسه عندما عرف بأن الذي يحدثه، عراقي. قال له بحدة، وبكرامة العراقي، انه يعيش في المنفى هربا من اضطهاد صدام حسين اسوة بالآف العراقيين الهاربين من جحيم الدكتاتورية. الا ان الوطن بالنسبة له، وطن الجميع، رغم ان الشعب يدفع الثمن غاليا نتيجة دكتاتورية بغيضة جرّت البلاد الى كوارث ومآس انسانية لا مثيل لها في دول ابتُليتْ بدكتاتوريات مماثلة.

كانت المسافة التي قطعها بقطار الانفاق من المطار الى دار العائلة العراقية التي يكن لها الود والحب منذ ان جاء الى لندن في منتصف عام ١٩٧٩، طويلة جدا، قياسا الى المدة الاعتيادية التي تستغرقها الرحلة. لكنها كانت طويلة وطويلة.

حاول ان يرسم صورة في مخيلته لوضع بغداد في تلك اللحظات.. فظهرت له الصور دامية:

اصوات القذائف تصم الآذان.

بغداد ذات الليالي الفضية، لبست السواد الخانق.

الناس تتراكض في الشوارع، ومن اسعفه الحظ، وصل الى الملاجىء.

الحرائق تشتعل في كل مكان.

الكهرباء اختفى بعد ضرب مراكز الطاقة.

الراكضون من الابرياء في الشوارع او الدرابين، تصطادهم قنابل الطائرات، التي تفتك بالاطفال والنساء والشيوخ.

مباني مؤسسات الدولة تنهار بفعل صواريخ " كروز " الطائرة من اسطول الامريكان في البحار المحيطة بالمنطقة.

البنى التحتية لوطن استباحه صدام حسين قبل ان تستبيحه طائرات قادمة من

اقصى الغرب، تتعرض للتدمير من طائرات جاءت لتصب جام غضبها على " الولد " المطيع الذي ربوه. صدام يريد لنزوة في رأس، ان يتعرض لمصالح اسياده، بعد ان شجعوه على تثبيت نظام حكم لا يماثله الا حكم المغول في سالف الازمان والممالك.

في دار العائلة العراقية، انشدت انظاره الى جهاز التلفاز، ليشاهد صور الغارات الغاشمة على مدينته الجميلة التي يعشقها، تقطع اوصالها تلك الحمم النازلة من السماء.. وشاشة التلفاز العراقي تبث البلاغات العسكرية من قيادة الاركان، مبشرة الشعب بالانتصارات.

ان بلاغات الحكام العرب لا تختلف عن بعضها البعض بشيء الا بالحماسة الاذاعية، في الحدث والوقت. البلاغات التي انطلقت منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وبعدها في معارك مصر والعراق، لها ايقاع واحد: " انزال الخسائر الكبيرة في صفوف العدو، واسقاط عشرات الطائرات المعادية، وابادة جنود المعتدي ابادة تامة في البر والبحر و... و..

راحت دموعه تتساقط مع كل صاروخ يتجه لضرب هدف مدني. اعادت هذه الصواريخ الى ذاكرته، مأساة شعبه العربي والعراقي، منذ ان استمعت هذه الشعوب الى صيحات احمد شقير، اول ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية، يتوعد وينذر برمي اليهود في البحر، وصرخات احمد سعيد، من اذاعة صوت العرب وهو يزمجر ويزف بشرى الانتصارات في بور سعيد وابادة الانزال الجوي، وتدمير الجيش الاسرائيلي في صحراء سيناء في معارك العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦.

نسي، او تناسى، خسائر" امة العرب " في هزيمة حزيران ١٩٦٧، وضياع كل الاراضي الفلسطينية التي رفض الحكام العرب اقامة دولة فلسطين عليها وفق قرار التقسيم لعام ١٩٤٧، لا يريد ان يصدق بأن فلسطين الضائعة على يد اولئك العرب، حكاما واحزابا قومية، قد تجاوزها " العدو الصهيوني " واحتل الجولان في سوريا.

عادت به الذكريات المرة الى ايام حرب فلسطين الاولى في ١٥ آيار عام ١٩٤٨، وجهاديته المستمدة من جهادية والده في معاركه القومية، اذ كان ابوه

قوميا عربيا في سوح البرلمان والصحافة والتأليف، وفي دنيا السياسة العراقية والعربية.

كان فتى يافعا متحمسا، حين دخلت القوات العربية الاراضي الفلسطينية، في ذلك اليوم من التاريخ العربي. جلب له والده خريطة كبيرة لجغرافية فلسطين، فعلقها على جدار غرفته. رسم اعلاما صغيرة للدول العربية التي دخلت لتحرير فلسطين، وفتحت عدة جبهات من الشمال حتى الجنوب. راح يثبت هذه الاعلام على كل قرية او مدينة تحررها جيوش العرب. فجأة دبّت الرعشة في يده حين راح دون ارادته، يتحسس بأصابعه حدود خريطة فلسطين التي رسمها على ساقه هذه المرة، ويحفر بأنامله على جلده ،الطريق الى حيث توجد مدن جنين وطولكرم وكفر قاسم، وفوق ربوعها يرفرف العلم العراقي. حاول ان يوقف حركة اصابعه، الا انها تحركت صوب القدس ورام الله والخليل ونابلس، وهي تستظل بالعلم الاردني. أمسك بكفه كي يوقف تلك الحركة ، الا ان الاصابع واصلت تقدمها باتجاه بحيرة طبريا حيث يقف جيش سوريا على ابواب الطرق المؤدية الى حيفا ويافا. في تلك اللحظة، وصلت يده المرتعشة الى صدره لتتحسس قلبه المتألم على ضياع فلسطين، في كل معارك " التحرير " و " العبور " وفي حرب اكتوبر ١٩٧٣.

ساعة بعد أخرى، يجد نفسه مشدودا الى الأخبار. تزداد حيرته عندما تصرخ وداد من الغرفة المجاورة لغرفة الضيوف، ان العراق اسقط حتى الآن ٤٥ طائرة للعدو. انها بشرى ثانية .. فقبل ساعات زفت خبر تساقط الطائرات الامريكية والبريطانية والفرنسية كالعصافير بنيران جند صدام حسين. انتقلت وداد الى غرفته لتتابع معه الاخبار والوقوف على الحقيقة، فوجد في نظراتها تكذيبا لما تسمعه من انتصارات موهومة، سبق لها ان عاشت احداثها لاكثر من ٨ سنوات. قالت له، بأنها غير مصدقة لما تشاهده. فبالأمس، كنا نسمع انتصارات جند صدام حسين تتصدر الصفحات الاولى للصحف العراقية كل يوم، انتصارات على الفرس المجوس، بينما قوات ايران كانت قد وصلت مشارف البصرة بعد احتلالها جزيرة الفاو.

شرد للحظات، ثم قال لوداد:

- ان العدو الذي يواجهه العراق ليس ايرانيا او تركيا او اسرائيليا فقط، بل هو عدو عربي اصطف مع قوات التحالف الدولي لتحرير الجارة العربية الكويت. هناك قوات مصرية وسعودية وسورية وخليجية تشارك في معركة " التحرير ".

* * *

كان عليه ان يغادر لندن الى الشام بعد يومين.

هناك التقى برجال المعارضة العراقية التي تحضر جولة جديدة من اجتماعات لجنة العمل المشترك. في تلك الاجتماعات، تساءل ممثلو قوى واحزاب المعارضة : ما العمل؟

انطلقت الدعوة لعقد اول مؤتمر للمعارضة في بيروت.

الزمان: مطلع شهر آذار.

المكان: فندق (...) المهجور في رأس بيروت الغربية.

الحضور: ممثلو كل اطياف المجتمع العراقي من الاحزاب والتجمعات والحركات والشخصيات المستقلة.

العدد: ٤٠٠ مندوب وممثل من قوى المعارضة العراقية.

جدول العمل: اتفاق على عمل مشترك بعد معركة تحرير الكويت.

الهدف: محاكاة الواقع وطريق تحرير العراق من نظام صدام حسين!

* * *

عاد الى ديترويت، واجتمع بأعضاء واصدقاء الاتحاد الديمقراطي العراقي في ندوة عامة لابناء الجالية هناك. كان الهدف من الندوة، اعطاء صورة عن واقع الحرب الدائرة، وآفاق المستقبل، بعد تحرير الكويت.

دعاه أعضاء سكرتارية الاتحاد بعد انتهاء الندوة، الى اجتماع تنظيمي. قبل البدء بفترة استراحة بثوان، صرخ زهير سلمان:

- الله .. يا جماعة بدأت الحرب البرية.

تحلق الحضور حول زهير لمتابعة اخبار الهجوم على الكويت، من محطة قناة (سي.

أن. أن.) الشهيرة في الاخبار العالمية لتمتعها بامكانيات عالية، وبمراسلين يملأون عواصم العالم، خصوصا في المناطق الساخنة.

اذن .. الحرب البرية اشتعلت .

القوات الامريكية والبريطانية الزاحفة من الاراضي السعودية تدخل الاراضي الكويتية، وتتوغل بسرعة لم يتوقعها الخبراء العسكريون والقادة الذين خططوا للمعركة.

كانت وسائل الاعلام الامريكية والغربية تبالغ في قوة صدام العسكرية وجيش المليون. هل انخدع الجميع بهذه المعلومة؟ ام ان صدام هو الذي انخدع بعدم جدية اسياده الامريكان بمقاتلة " الابن المدلل " على حد تعبير الرئيس الامريكي، جورج بوش.

القوات المتعددة الجنسيات، تتقدمها القوات العربية تتبختر في صحارى الكويت دون اية مقاومة من الجيش العراقي. طوابير طويلة من الضباط والجنود العراقيين تستسلم، ومئات الدبابات والاليات العسكرية تحترق في اماكنها وخنادقها.

ذهل الكل ..

بكى البعض من مناظر الاستسلام وصور الجنود العراقيين الذين بدت على وجوههم ملامح الشحوب والجوع والخوف، وقد تركهم صدام حسين، واركان حربه، عراة في الصحراء الحارقة، وفي خنادق خاوية من الطعام ومن العتاد ومن اي وسيلة راحة ومتطلبات الاستعداد للمعركة. تركهم صدام وقادة البعث، يواجهون آلة الموت الزاحفة من وراء الحدود، لتحصدهم، وتدفنهم احياء في الخنادق.

ذهل مع غيره من هذه المناظر التي اراد منها المتحالفون في المعركة، اهانة الجيش العراقي وتمريغ كرامة الجندي في الوحل. ان المسؤول عن هذه الاهانة، صدام القابع في مخبئه المزود بكل ما يحتاجه لراحته وسلامته الشخصية.

صرخ زهير سلمان مرة ثانية:

- الله يستر...

وفجأة، ظهرت على شاشة التلفاز، صورة جندي عراقي، يركع ويقبل جزمة جندي امريكي، ويتوسل اليه بجرعة ماء، ولو قطرة واحدة.

كفر، وبكى مع بكاء الجندي العراقي المهان، كما يبكي الاطفال، وراح بحقد، يلعن صدام وحزب العفالقة وكل من ساهم في هذا الفصل الحزين لمأساة شعب عريق أذله حاكم اهوج، وشلة من حثالة المجتمع العراقي.

بكى، ولطم صدره دون وعي، كأنه يبكي على الشهيد الحسين في كربلاء يوم عاشوراء.

ان ما حدث للجندي العراقي من اذلال، وهو في الصحراء، أبكى حتى الجنود العرب الذين دخلوا الكويت دون ان يحاربوا.

أذلت هذه الصورة التي بثتها وسائل الاعلام المرئية لأيام طويلة، كل العراق بشعبه وارضه وسمائه.

إن صورة الجندي الذي أذله صدام حسين، جعلت العراق وكأنه قد ركع وذل، وهو يبكي الشهامة والكرامة والعزة المشهور بها أبناؤه في كل شبر من ارض الوطن.

انطبعت صورة الذل المشؤومة في ذهنه الباكي الحزين .. لم تفارقه الحرقة والألم، كل الفترة التي استغرقتها الرحلة من ديترويت الى دمشق، ومن فندق الجلاء في منطقة المزة الى مؤتمر المعارضة العراقية في بيروت.

في قاعة المؤتمر الكبير، شعر انه قد تحول الى قنبلة موقوتة يريد بها نسف كل من كان السبب في مأساة هذا الشعب.

كانت ايام انعقاد جلسات المؤتمر كابوسا جثم على صدره وهو يستمع الى رجال المعارضة يخطبون ويتبارون في انتقاء الكلمات الثورية والقومية. ما ان " يبدع " احدهم، حتى يتسلق الآخر المنصة ليعيد ترتيب كلماته الطنانة دون توقف.

صعد الى منصة المؤتمر رجل ذو عمامة، وما ان امسك بالمذياع، حتى صرخ: أنا قادم من ارض الانتفاضة.

مال على رفيقه الجالس على يساره وهمس في اذنه:

- لماذا جاء من ارض الانتفاضة؟ اما كان الاجدر بنا نحن اعضاء هذا المؤتمر ان

نذهب بكل هذه الحافلات الكبيرة التي نقلتنا من دمشق الى بيروت، صوب ارض الانتفاضة، بدلا من كل الخطب والكلمات الوطنية الصادقة، وأن نلتقي هذا الشيخ هناك في الجنوب المنتفض بدلا من ان يأتينا هو الى هذا المؤتمر ؟

سؤال مشروع .. ولكن ..

* * *

الفصل التاسع
الثبات

الأول من آذار ١٩٩١

انتصب ضابط عراقي شريف امام جدارية كبيرة في ساحة من ساحات مدينة البصرة، انتصب بشموخ وتحد، يراقب الناس تارة، ويطيل النظر الى جدارية القائد العسكري الذي يقود جيش المليون، تارة اخرى. يلقي بنظره بعيدا عن صورة القائد، الى منظر الالاف من الجنود الذين يجرون اقدامهم بتثاقل وصعوبة، ويهاله منظر اولئك البشر وهم في ملابسهم الداخلية بعد تخلصهم من بدلاتهم العسكرية وزيهم القتالي في صحراء الكويت، لينتهوا من كارثة الهزيمة المفروضة عليهم.

وقف هذا الضابط الشريف امام الجدارية، وصوّب رشاشته الى رأس القائد المهزوم، لحظات، رشقها بصليات اصابت هدفها باتقان. عاد بخطوتين الى الوراء، ليفرغ باقي الرصاصات في صورة الصنم.

تكف الطلقات، تلتهب الأكف بالتصفيق، تشق هلاهل النسوة في الساحة عنان السماء، وتتحول صداها الى هتافات في المحلات المجاورة والازقة وصيحات: الله أكبر تمتزج باصوات العيارات النارية القادمة من كل صوب، من اسلحة شباب البصرة. يتراكض الناس وراء الهاربين من الحزبيين والمسؤولين البعثيين، بعد ان تحولوا الى جرذان مرعوبة. انتشراللهيب المتصاعد من الساحة الى كل مدينة وقرية في محافظة البصرة ..في العشار، الفاو، الزبير ، ام قصر والشعيبة.

انها انتفاضة شعب يثأر لكرامته وكرامة الجيش العراقي.

كانت البصرة، المحطة الاولى للانتفاضة، التي يحررها ابناء الشعب، وينضم اليهم افراد الجيش القادمون من صحراء الكويت.

الجنود والضباط يسلمون اسلحتهم للمنتفضين.
مراكز الشرطة تتحول الى مراكز ميدانية للتنسيق بين المقاتلين.
دوائر الدولة يحتلها الثائرون.
نيران الغضب المتفجر تلتهم دوائر الأمن والمخابرات ومقرات حزب البعث.
سيطر الغاضبون على المحافظة بكل توابعها.
من البصرة، تنتشر البطولة الى الناصرية، العمارة، الكوت، النجف الاشرف، كربلاء، الديوانية، ديالى والحلة.
من الجنوب، امتدت انتفاضة الشعب الى السليمانية، اربيل، دهوك وكركوك.
تلاحمت سواعد ابناء كردستان العراق بسواعد ابناء الجنوب الصامد. تحولت الايام الى اعراس للشباب الذين صمموا على تحويل الانتفاضة الى ثورة رفض للحروب العدوانية، ضد ايران والكويت، وضد الشعب الكردي. ثورة رفض للنظام برمته، من اجل اسقاطه وبناء العراق الحر الجديد.

* * *

مدن العراق تنتفض..
معارضو النظام ما يزالون يخطبون في دمشق، وفي عواصم اخرى.
وكالات الانباء العالمية ما تزال تنتظر مقررات مؤتمر بيروت.
لم يصدر شيءٌ عن المؤتمرين سوى مقترحات وأمانٍ بالعودة.
خاب أمله بالمؤتمر، وبالعودة مع جيل الانتفاضة.
لم يعد الى بغداد .. بل عاد مع من عاد من المؤتمرين الى المنافي من جديد.
طار مع رفيق مشارك آخر من دمشق الى ديترويت.
في طريق العودة، بدأت الانتفاضة بالانتكاسة.
واشنطن تسمح لسمتيات صدام حسين بضرب المنتفضين.
قوات الحرس الجمهوري التي لم تدخل الكويت وبقيت سالمة، تزحف باتجاه مدن الجنوب.
السعودية تطلب من واشنطن كبح الانتفاضة.
الجنود الامريكيون ينزعون سلاح الشباب ويفتحون الطرق الى معسكري رفح والارطاوية.

السلطات الايرانية تستقبل مئات الألوف من اللاجئين.
الشعب الكردي بدأ مسيرة المليون الى حدود تركيا وايران.
الاماكن المقدسة في النجف وكربلاء تتعرض لقصف صواريخ صدام.
شعب الانتفاضة بدأ يغرق في بحر من الدم.
العرب ساكتون..
حكام الخليج يباركون عودة حكام الكويت ويحمدون سلامتهم.
خيمة صفوان حققت لصدام البقاء في الحكم.
تحولت الهزيمة في الكويت الى انتصار لحاكم بغداد المهووس.
الخاسر الوحيد، كان الشعب العراقي.

* * *

من جديد ينجو صدام حسين من مصيره المحتوم.
نجا من محاولات اغتيال كان ابرزها حادثة الدجيل.
ونجا من الحرب مع ايران بعد ان قتل من الجانبين اكثر من مليون انسان.
نجا من غزوه الكويت.
واليوم، ينجو من الانتفاضة، ويقتل خلال ايام ما يزيد عن مائة الف مواطن.
المعارضة العراقية تفتح صفحة جديدة في علاقاتها مع بعضها، وفي فعالياتها ونشاطاتها من دمشق حتى الولايات المتحدة.

ففي الوقت الذي تجتمع فيه قوى المعارضة في دمشق خلال الفترة ٣ - ١٠ كانون الثاني ١٩٩٢، استعدادا لعقد المؤتمر الثاني لها بعد مؤتمر بيروت، يبدأ البعض من تلك القوى بعقد لقاءات واجراء حوارات ثنائية ورباعية في لندن وفيينا وواشنطن، وتطلق الاتهامات من وراء الكواليس ضد قوى رئيسية في المعارضة، وتدعي فشل المعارضين لنظام صدام في توحيد صفوفهم او الاتفاق على برنامج وطني موحد.

تلك الزعامات التي تخفي رأسها وراء الكواليس، موزعة في عواصم عربية وشرق اوسطية.

كان بعيدا، وآثر ان يبقى بعيدا عن تلك الاجواء لفترة من الزمن، وابعد نفسه عن السفر الى لندن او الشام، وظل يراقب الاحداث من ديترويت وفي " مطبعة الشعب "

التي تحولت الى منتدى يلتقي فيه المثقفون والمعارضون لمتابعة ما يستجد من اخبار المعارضة فيما وراء البحار.

قرأ في الصحف اخبارا عن مؤتمر جديد.

ظهرت مدينة اوروبية جديدة على خارطة المعارضة.

فيينا تستعد لمنح تأشيرة الدخول لرجال المعارضة.

يقول الخبر المنشور يوم ٢٢ حزيران:

" اختتم المؤتمر الوطني العراقي - مؤتمر فصائل المعارضة العراقية - اعماله خلال الفترة ١٦-١٩ بانتخاب هيئة تنفيذية للمؤتمر تضم ١٧ عضوا للاشراف على تنفيذ خطة العمل المشتركة التي تم اقرارها في مختلف مجالات العمل السياسي والميداني والعسكري للاطاحة بنظام صدام حسين وانقاذ العراق.

كما وافق المؤتمر في جلسته الختامية على رفع عدد اعضاء الهيئة العامة للمؤتمر الوطني العراقي وهو بمثابة (برلمان في المنفى) من ٦٨ الى ٨٧ عضوا لتحقيق اوسع قاعدة من التمثيل الشعبي والفئوي والسياسي في هذا البرلمان.

واكد البيان السياسي الختامي للمؤتمر ضرورة اعتماد كل الوسائل المشروعة للاطاحة بنظام صدام باعتباره المقدمة الضرورية لتحقيق بقيّة الاهداف بل المناخ الاساسي لعملية التغيير الشامل في العراق. ودعا الى اجراء انتخابات حرة نزيهة لانتخاب برلمان وطني عراقي بعد التغيير، كما دعا الى احترام التعددية الثقافية للمجتمع العراقي. "

انتهى الخبر..

برز لأول مرة اسم احمد الجلبي كرئيس للمؤتمر الوطني العراقي.

في وسط الخبر المنشور في الصحف، يقرأ اسماء الاحزاب والفصائل التي لم تحضر مؤتمر فيينا، وهي:

- المجلس الاسلامي الاعلى في العراق (الحكيم).
- مجلس العراق الحر (سعد صالح جبر).
- حزب الدعوة الاسلامية (الآصفي).
- حزب العمل الاسلامي (محمد تقي المدرسي).

- الوفاق الوطني الديمقراطي (صلاح عمر العلي).
- الحزب الشيوعي العراقي (عزيز محمد).
- الحزب الاشتراكي الكردستاني (د. محمود عثمان).
- حزب الشعب الكردستاني (سامي عبد الرحمن).
- جمعية العشائر الكردية.
- التجمع الديمقراطي العراقي (صالح دكلة).
- الهيئة العراقية المستقلة (حسن النقيب).
- الهيئة العراقية الاستشارية (د. مهدي الحافظ).
- الاتحاد الديمقراطي العراقي في الولايات المتحدة وكندا (د. فائق بطي).
- حركة الضباط العراقيين.
- مجلس العشائر العراقية (سامي عزار المعجون).
- تنظيم الناصريين المستقلين (مصر).
- حركة الوحدة الشعبية (القوميين العرب - جاسم المعروف).
- الحزب الاشتراكي في العراق (د. مبدر الويس).
- شخصيات مستقلة وسفراء سابقون.

اعاد قراءة الخبر ثانية..خبر المؤتمر والقوى التي لم تحضره.

ان الكثير من فصائل المعارضة التي لم تحضر مؤتمر فيينا هي من الفصائل التي تتشكل منها الهيئة التحضيرية للاعداد للمؤتمر الثاني للمعارضة العراقية، والتي هي بالأساس ضمن لجنة العمل الوطني المشترك.

اذن.. اي مؤتمر هذا الذي انعقد في فيينا؟

ما هو مصير مؤتمر بيروت والمؤتمر الجديد الذي ينتظره المعارضون؟

لماذا حضر الى فيينا ممثلون عن الادارة الامريكية ووزارة الخارجية البريطانية؟

* * *

١٩ كانون الثاني ١٩٩٠

اجتمع مع اثنين من اصدقائه في مكتب هادي منصور بمنطقة " ولزدين " بشمال لندن. جلس مع مجيد الحاج حمود وهادي منصور يتباحثون حول امكانية تأسيس حزب

ديمقراطي تخلو الساحة العراقية منه داخل وخارج الوطن، سوى وجود تجمعات تتحدث باسم الديمقراطية هنا وهناك. كانوا مقتنعين بأن مستقبل العراق يحتاج بعد تحرره الى حزب يحمل فكرة ومنهاج عمل يتمثل بدستور حكم واضح وان يكون حزبا منظما وفق قواعد تنظيمية سليمة، ولا يجوز ان يقبل في عضويته الا اصحاب السمعة الطيبة، ومن الذين يؤمنون بمبادئه. واتفقوا على عدم الاعلان عن تأسيسه الا بعد استكمال هيكلية الحزب، والبدء بالاتصالات مع الاشخاص الديمقراطيين، وعقد الاجتماعات الموسعة معهم من اجل انضاج هذه الفكرة.

وعد هادي منصور بالاتصال مع عبد الأمير الرفيعي والدكتور عبد الصمد نعمان، بينما وعد مجيد الحاج حمود الاتصال بابراهيم الشيخ نوري وهيثم محمد حديد.

حضر الاجتماع الثاني في ٢٦، اي بعد اسبوع، الذي انعقد في دار مجيد، هادي منصور، هيثم عجينة، عزيز الجصاني، ابراهيم الشيخ نوري ومحمد كبة.

اراد عزيز الجصاني ان يرشح الدكتور حسن الجلبي، للانضمام الى الاجتماعات، الا ان غالبية الحضور استبعدوه في الوقت الراهن. ثم تحدث ابراهيم الشيخ نوري وكان واضحا في حديثه، حين أكد على ضرورة عرض الأمور بجرأة امام الشعب العراقي، وان تعالج تلك الأمور جميع جوانب الحياة، ايده في ذلك، هيثم عجينة. كما ايد هادي منصور كلام ابراهيم وطالب بأن يكون للحزب تنظيم ديمقراطي واضح المعالم، يربط الجمهرة الواسعة من الديمقراطيين العراقيين في الخارج بالمئات من السياسيين الذين عملوا في احزاب ديمقراطية سابقة منذ الاربعينيات، داخل الوطن.

كانت الاجتماعات متقاربة ودارت المناقشات في جو ودي، تركزت الرؤى على شكل النظام السياسي وضرورة ان يعتمد النظام الجمهوري الفدرالي الديمقراطي نظاما للجمهورية العراقية. وان تشرع القوانين فقط عن طريق السلطة التشريعية المتمثلة بالمجالس التشريعية المنتخبة من قبل الشعب ديمقراطيا.

كان ابراهيم الشيخ نوري قد اطلع على ملاحظات سابقة واوراق عمل تناولت الشكل المطلوب للنظام السياسي والاداري في العراق بعد الاطاحة بالدكتاتورية، ووزع على المجتمعين، الشكل النهائي للمشروع المقترح في جوانبه المختلفة، وفق التقسيمات التالية:

الديمقراطية - القضية الكردية - العلاقات الخارجية - الأمن الداخلي - القوات المسلحة - النظام الاقتصادي - القطاع الزراعي - الاخلاق والقيم الاجتماعية - الثقافة والتعليم.

في موضوعة النظام المهمة، كانت هناك نصوص عن الحقوق الطبيعية الاساسية لجميع المواطنين والانتخابات العامة، التي سيمارس من خلالها الشعب السياسة عن طريق مبدأ التعددية الحزبية وضمان حق تشكيل الاحزاب السياسية والعمل السياسي الحر.

وعن الديمقراطية، عدَّد الفصل المقدم كمشروع، المرتكزات والشروط الواجب توفرها والتمسك بها من اجل تحقيق النظام الديمقراطي النابع من الواقع العراقي الحالي يكون حائزا على عناصر الديمومة والنمو الايجابي. وجرى التركيز على ضرورة تأصيل وتنمية مفهوم المجتمع المدني في جميع مجالات الحياة الاجتماعية وبالاخص فيما يتعلق بما يلي:

- حرية المعتقد وخصوصيته وحرمته.
- حرية بيان الرأي والتمسك به والدفاع عنه.
- حرية الاختيار في كل المجالات المادية والفكرية.
- حق المساهمة في ادارة الشؤون العامة وفي الحكم.
- حرية المعلومات وحق الحصول عليها ونشرها.
- حق مراقبة ومناظرة ومحاسبة وتبديل الحكام.
- قبول مبدأ التعايش الحضاري والتبادل بين المعتقدات والآراء المختلفة.

كانت وما زالت القضية الكردية من القضايا الهامة التي تتعلق بحاضر ومستقبل العراق. وفي السنوات الثلاثين الأخيرة، لم تنحصر كشأن داخلي عراقي، او تخضع لواقع او اعتبارات تتحكم فيها المصالح والمواقف الاقليمية، خصوصا في دول الجوار، ايران وتركيا، حيث تسكنها الملايين من ابناء الشعب الكردي، بل تعدت الى أن تحظى بالاهتمام، وتتحكم في سياسة الدول العربية والمجتمعات الدولية. فحل القضية الكردية في العراق يشكل الضمانة لوحدة العراق وتآخي قومياته واقلياته على ان يكون عن طريق تطبيق نظام لا مركزي فدرالي في الحكم، تمثل كردستان العراق احد

أقاليمها ذات الاستقلال الذاتي وتحكم الاقاليم والمركز الفدرالي عن طريق مجالس تشريعية دستورية منتخبة بشكل ديمقراطي حر.

وفي مجال الأخلاق والقيم الاجتماعية، جرى التأكيد على اهمية التصدي الحازم للتردي الخلقي وتفشي القيم النفعية واخلاقيات الاثراء اللامبدئي والانتهازية والانانية العدائية، والعمل على:

- تنمية الاعتزاز بالقيم الحضارية الاصيلة المتوارثة للشعب العراقي على اختلاف قومياته واديانه وطوائفه.

- القضاء عليالمحسوبية والتفسخ الاداري واستغلال المناصب الحكومية ومواقع المسؤولية.

- التصدي الفعال لابتذال الاخلاق واهانة الكرامة الشخصية وشراء الذمم بالمال والمنافع الذاتية.

- خلق وتنمية الوعي الاجتماعي باحترام العمل المثمر والنافع للمجتمع.

- تنمية النظرة والخلق الاجتماعي الايجابي في احترام اهل الفكر من العلماء والادباء والفنانين والمثقفين المخلصين لرسالتهم.

- محاربة وتعرية الرياء والنفاق الاجتماعي والمداهنة ونبذ من يمارس هذه الآفات الاجتماعية.

- خلق واحياء قيم سلوكية صارمة تثبت حدودا عرفية للحرية الشخصية ومواقع تداخلها مع حرمة الآخرين.

- التأكيد على اهمية الرابطة العائلية واصالتها.

- تنمية التآخي والتسامح واحترام الخصائص القومية والدينية والطائفية لجميع المواطنين، ومحاربة التفرقة والتعصب المبني على اي من هذه الخصائص.

في تلك الاجواء التي كانت فيها قوى المعارضة تتحاور وتلتقي لوضع مشاريع وبرامج وطنية، وتعقد اللقاءات والمؤتمرات لها في سوريا ولندن وفيينا وكردستان العراق، وضع الاصدقاء السياسيون الاربعة هو وهادي منصور، مجيد الحاج حمود وابراهيم الشيخ نوري، في اواخر شباط ١٩٩٢، مسودة مقترح للدستور الجديد بعد الاطاحة بنظام صدام حسين، احتوى على ٣٤ مادة. جاء المقترح الدستوري بالشكل التالي:

١ . اسم الدولة هو، الجمهورية العراقية الفدرالية.

٢ . نظام الحكم جمهوري فدرالي دستوري ديمقراطي.

٣ . يبنى الدستور وجميع قوانين الدولة على الاعتراف الكامل بحقوق الفرد كما وردت في وثيقة الأمم المتحدة (الإعلان العالمي لحقوق الانسان).

٤ . يمارس الحكم ضمن حدود الجمهورية من خلال ثلاث سلطات اساسية: السلطة التشريعية، السلطة التنفيذية، السلطة القضائية.

٥ . تخضع السلطة التنفيذية لاختيار الشعب عن طريق تصويت ممثليه في السلطة التشريعية وتجري مراقبتها ومحاسبتها عن طريق السلطة التشريعية.

٦ . تشرع القوانين وتعدل وتلغى من قبل السلطة التشريعية فقط.

٧ . القضاء مستقل في قراراته وأحكامه عن كل من السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. وتنظم اعماله بموجب قوانين خاصة تضمن وتحمي حياديته واستقلاله.

٨ . تعديل الدستور لا يتم الا عن طريق استفتاء الشعب وبثلثي اصوات المساهمين في الاستفتاء، على ان يزيد عدد المساهمين على نصف المؤهلين للتصويت بالاستفتاء. ولا يجوز طرح اي اقتراح لتعديل الدستور والدعوة للاستفتاء عليه الا اذا احرز الاقتراح موافقة الهيئة الفدرالية التشريعية بمجلسيها او بثلثي اصوات كل مجلس.

٩ . اي تعديل للدستور لا يقبل ولا يؤخذ به اذا كان من شأنه تقليص الحريات الدستورية للأفراد، او تحديد حقوق الفرد في مراقبة ومحاسبة السلطة التنفيذية، او اذا ادى الى الحد من استقلال وحرية القضاء، او اذا انتقص من مبدأ الفدرالية او اللامركزية بالحكم.

١٠ . حق العمل مضمون للجميع دون تمييز بسبب العرق او الجنس او الدين او المعتقد او الطبقة. وواجب الدولة تهيئة الظروف المواتية للأفراد لممارسة حقهم في العمل. يحرم العمل بالسخرة وبدون أجور.

١١ . حرية العبادة والمعتقد وممارسة الشعائر الدينية مضمونة لجميع المواطنين دون تقييد او تمييز.

١٢ . حرية السكن وحرمته وأمنه مكفولة ومصونة بالقانون ولا يحق اقتحامها او

التجاوز عليها من قبل اي كان، الا اذا كان ذلك اجراء قانونيا بموجب أمر قضائي يتعلق بتهمة قانونية.

١٣ . حرية التنقل والسفر واختيار موقع العمل في كافة انحاء الجمهورية او خارجها مضمونة للجميع دون تحديد او تمييز.

١٤ . محاكمة الافراد والجماعات تكون علنية وبواسطة نظام المحلفين، مع ضمان حق الدفاع القانوني للمتهم في جميع مراحل التحقيق والمحاكمة، وتوفيره من قبل الدولة في حالة عدم امكان المتهم توفير ذلك لنفسه.

١٥ . ذكر الحقوق والامتيازات في الدستور لا يعتبر حصرا، ولا يمنع من التمتع بحقوق اضافية اخرى ومن قبل آخرين، اذا كانت هذه منسجمة مع نص وروح الدستور وفي حدود القانون.

١٦ . جميع مواطني الجمهورية، من مختلف الأقاليم، يتمتعون بنفس الحقوق في جميع الأقاليم، غير انهم يخضعون للقوانين المحلية للآقليم الذين يكونون فيه.

١٧ . تتألف الجمهورية العراقية الفدرالية من:

- اقليم جنوب العراق.
- اقليم وسط العراق.
- اقليم كردستان العراق.

وتثبت مساحات وحدود وكذلك عاصمة كل اقليم بموجب قانون خاص ملحق بالدستور ويكون جزءا منه.

١٨ . حدود الجمهورية ورقعة اراضيها هي الحدود الخارجية لجميع اقاليمها الثلاثة ومجموع رقعة اراضي تلك الاقاليم مجتمعة.

١٩ . عاصمة الجمهورية الفدرالية هي: مدينة بغداد.

٢٠ . دين الدولة الرسمي هو الاسلام. ويمثل القاعدة العقائدية والتراثية المتسامحة للمجتمع العراقي المبني على التعددية الدينية والقومية.

٢١ . علم الجمهورية الفدرالي الموحد وعملتها واحد وسلامها الجمهوري واحد ويتم توصيفها وتفصيلها بقانون لاحق بالدستور.

٢٢ . اللغة الرسمية الفدرالية وكذلك في كل من: اقليم جنوب العراق واقليم

وسط العراق هي اللغة العربية، بينما اللغة الرسمية في اقليم كردستان العراق هي اللغة الكردية.

٢٣ . المواطنة في الجمهورية العراقية الفدرالية هي واحدة وسواء، بغض النظر عن العائدية الاقليمية لأي مواطن عراقي. ويكون جواز السفر واحدا باسم الجمهورية العراقية الفدرالية.

٢٤ . يحكم كل اقليم ذاته دستوريا عن طريق:

١ . المجلس التشريعي الاقليمي: والذي يجري انتخابه ضمن كل اقليم من قبل مواطنيه عن طريق انتخابات حرة مباشرة وسرية مرة كل خمس سنوات (نائب واحد لكل ٣٥ الف مواطن). ويكون المجلس مسؤولا عن جميع المهام التشريعية الاقليمية ووضع السياسة العامة للاقليم والاشراف على تنفيذها.

٢ . السلطة التنفيذية الاقليمية، وتتألف من:

- رئيس وزراء الاقليم.
- مجلس وزراء الاقليم.

ويكونون مسؤولين عن تنفيذ سياسة الاقليم في كافة الحقول، ويجري اختيارهم من قبل المجلس التشريعي الاقليمي الذي يشرف على سياستهم ويخضعون لمحاسبته.

٣ . المجالس البلدية المحلية: وتكون مسؤولة عن تسيير الشؤون البلدية والمحلية كل في حدود بلديته، ويجري انتخاب هذه المجالس، مرة كل ثلاث سنوات، عن طريق الاقتراع السري المباشر حسب المناطق البلدية في الاقليم.

٢٥ . تحكم الجمهورية فدراليا، من قبل السلطات التالية:

١ . الهيئة الفدرالية التشريعية، وتتكون من:

أ. مجلس الاقاليم: يتألف من عدد متساو من ممثلي الاقاليم، (١٥) عضوا عن كل اقليم يجري انتخابهم مرة كل (٦) سنوات. ويكون انتخاب ممثلي كل اقليم من قبل مواطني ذلك الاقليم بموجب نظام التمثيل النسبي.

ب. المجلس الوطني: ويتألف من ممثلي المواطنين في جميع اقاليم الجمهورية، ويكون عدد نواب كل اقليم متناسبا مع عدد سكان ذلك الاقليم (نائب واحد عن كل ٥٠ ألف مواطن). تجري انتخابات النواب مرة كل (٤) سنوات بموجب دوائر انتخابية ضمن كل اقليم.

٢ . رئيس الجمهورية ونائبا الرئيس: يمثلون رأس السلطة التنفيذية الفدرالية ويجري انتخابهم مرة كل اربع سنوات من قبل جميع مواطني الجمهورية مباشرة، على ان يكون نائبا الرئيس من اقليمين مختلفين غير اقليم الرئيس ولا ينتخب أيٌّ من الرئيس او نوابه لأكثر من مرتين. وتجري انتخابات الرئاسة بموجب قوائم موحدة.

٣ . مجلس الوزراء الفدرالي: ويرأسه رئيس الجمهورية ويشترط ان توافق على اعضائه ومنهاجه السياسي الهيئة الفدرالية التشريعية ويعمل باشرافها وتحت رقابتها.

٢٦ . اعلى سلطة قضائية في الجمهورية هي مجلس القضاء الأعلى، ويتكون من (٥) اعضاء ينتخبون لمدى الحياة من قبل الهيئة الفدرالية التشريعية باكثرية ثلثي الاصوات. ويكون هذا المجلس الحكم النهائي في تفسير الدستور والقوانين وكذلك البت في الخلافات التي قد تقع بين السلطات التنفيذية بما فيها رئيس الجمهورية من جهة، والسلطات التشريعية من الجهة الاخرى، او بين السلطات الفدرالية من جهة والسلطات الاقليمية من الجهة الأخرى، او بين سلطات الاقاليم المختلفة.

٢٧ . رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو اعلى ممثل للجمهورية في جميع المناسبات والمحافل الدولية.

٢٨ . تمثل الجمهورية في جميع المحافل والانشطة الدولية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها . . . كوفد موحد.

٢٩ . تكون القوانين على نوعين:

- القوانين الفدرالية: وهي القوانين المركزية التي تنظم الشؤون الموحدة للجمهورية ككل. وتسن من قبل الهيئة الفدرالية التشريعية ويصادق عليها رئيس الجمهورية.

- القوانين الاقليمية: وهي القوانين التي تنظم شؤون كل اقليم بنفسه، على ان لا تتعارض مع القوانين الفدرالية. ويسن هذه القوانين المجلس التشريعي الاقليمي.

يجب ان تكون جميع القوانين منسجمة مع نص وروح الدستور ويعتبر لاغيا اي قانون او نص قانوني لا يتحقق فيه هذا الشرط.

٣٠ . تتكون الميزانية الفدرالية المركزية من مساهمة الاقاليم والتي تمثل نسبة واحدة من واردات كل اقليم، بمقدار (٥٪) اضافة الى الرسوم والضرائب الفدرالية.

٣١ . الصلاحيات السياسية الفدرالية:

أ- السياسة الخارجية والعلاقات الخارجية والمفاوضة وعقد المعاهدات، على ان توافق عليها الهيئة الفدرالية التشريعية.

ب- اعلان الحرب وايقافها على ان يكون ذلك بقرار من الهيئة الفدرالية التشريعية وبثلثي الاصوات.

ج- قيادة الجيش اثناء الحرب بواسطة مجلس دفاع أعلى تمثل فيه جميع الاقاليم بالتساوي.

د- التشريع على مستوى الجمهورية الفدرالي بسن القوانين الفدرالية.

هـ- التحكيم القضائي الأعلى.

و- وضع ستراتيجية التنمية الفدرالية والسياسة الاقتصادية العامة وتنسيق التخطيط التنموي بين الاقاليم.

ز- تنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الاقتصادية الخارجية وفرض الرسوم والكمارك على هذه التجارة.

ح- تخطيط وتنفيذ المشاريع التنموية الستراتيجية ذات الصفة المتكاملة كبعض مشاريع السكك الحديد والطرق والري والملاحة.

٣٢ . الصلاحيات السياسية الاقليمية:

أ- الحكم المحلي المستقل والادارة الاقليمية في جميع المجالات وعلى كافة المستويات.

ب- تشريع وسن القوانين الاقليمية في جميع نواحي الحياة.

ج- ملكية الموارد والثروات الطبيعية في الاقليم والتصرف بها واستثمارها.

د- تخطيط التنمية الاقتصادية والبشرية ووضع الخطط والبرامج التنموية وتنفيذ او الاشراف على تنفيذ هذه الخطط والبرامج.

هـ- ادارة الشؤون البلدية والاسكان والمواصلات والنقل.

و- الثقافة والاعلام والتعليم بكل مراحله وفروعه وباللغة القومية لذلك الاقليم.

ز- الشؤون الصحية والرعاية الاجتماعية.

ح- ادارة شؤون الأمن الداخلي واجهزة وقوى الأمن وقوات الشرطة على كل مستوياتها.

ط- ادارة شؤون الدفاع وقيادة القوات المسلحة ضمن حدود الاقليم اثناء السلم بالتنسيق مع القيادة الفدرالية.

ي- اعتماد اللغة القومية لسكان الاقليم لغة رسمية في الاقليم.

٣٣ . يضمن الدستور الحقوق القومية والدينية والطائفية للأقليات ضمن كل اقليم بموجب قوانين اقليمية تستمد من روح الدستور وتبنى على نصوصه.

٣٤ . تصون السلطة الفدرالية حرية واستقلال كل اقليم ذاتيا، كما وتضمن وتحترم حقه الدستوري الكامل في حكم ذاته.

برزت خلال مناقشة الشأن الفدرالي وجهات نظر تختلف عن الصيغ التي ذكرت في مشروع الدستور الجديد، من اهمها، تعديل كل ما يتعلق بالاقليمية من الاقاليم الثلاثة الى " الإقليمين ".

* * *

كانت الاجتماعات غنية.. الا ان الظروف كانت غير موفقة لاستمرارها من اجل تنفيذ المشروع الديمقراطي على الصعيدين التنظيمي، والسياسي. ومن الاسباب التي أدت الى ايقاف العمل، تعدد سفراته لحضور اجتماعات لجنة العمل الوطني المشترك، ومؤتمربيروت، الى جانب سفراته الى ديترويت. وكذلك سفر مجيد الحاج حمود الى دمشق، وتدهور صحة ابراهيم الشيخ نوري.

* * *

٥ آذار ١٩٩٢

وقف ينتظر في باب فندق الجلاء بدمشق، وكان على موعد مسبق مع رفاق سوف يسافرون معه الى ارض الوطن، بعد فراق طويل دام اكثر من خمسة عشر عاما.

الجو في الشام في تلك الايام الربيعية، جميل، منعش ومفرح، تشعر في الساعات الاولى من الصباح الباكر ببرودة خفيفة تسري في اوصال الجسم الذي لم يتعود بعد على الحركة، متمتعا بنوم هادىء، بعد ليل طويل.

وقفت سيارة بيضاء كبيرة الحجم امام الباب الخارجي للفندق. لمح في داخلها، عزيز محمد، ورفيقاً آخر، ابو ناصر، يلوحان له ويشيران اليه بالركوب معهما بسرعة.

حمل حقيبته الصغيرة التي تحتوي على بعض الملابس والحاجات الضرورية، واسرع اليهما. انطلقت السيارة تشق طريقها الى مطار دمشق. لم تتأخر معاملة التدقيق في الهويات الشخصية او الارواق الثبوتية اللازمة الا دقائق. صعدوا الى الطائرة الصغيرة بأمان. استغرب من حجم ونوع الطائرة، وأحس بأنه يصعد في حافلة لنقل الركاب وليس طائرة كما اعتاد على ذلك. ان المسافة بين دمشق ومدينة القامشلي في الجزيرة، خمسون دقيقة فقط. ولكن في طائرات كالتي يسافرون بها، يحس المسافر انه يقطع البحار في جو متقلب، يميل بالطائرة الى اليمين او اليسار، وصوت المحرك يصم الآذان، ويخال انه سوف يسقط في اية لحظة.

في مطار القامشلي الصغير، رافقهم احد رفاق مكتب الحزب الى نقطة العبور حيث المثلث العراقي - التركي - السوري، المعروف بمنطقة " فيشخابور ". لم تستغرق الرحلة سوى ساعتين.

وقف على حافة نهر دجلة، شعر بالدموع تبلل خديه وتنساب دافئة مطمئنة بحريتها، وهو يتطلع الى الجانب الآخر من الشاطىء. كانت دقات قلبه تتلاطم بقوة عندما همّ بالصعود الى القارب الصغير الذي كان بانتظارهم. داعب هواء العراق العليل وجهه المبلل بدموع الفرح والاشتياق، فشعر برجفة اقوى من الاولى، تجتاح كل بدنه.

هبط من القارب.. لامست اقدامه تراب العراق العزيز. وجد نفسه راكعا على حافة نهر دجلة، دون حراك. وقف الآخرون ينتظرونه، ليواصلوا السير الى كردستان. انه فوق ارض الوطن للمرة الاولى بعد سنوات المنفى المفروضة عليه. قبّل الارض بخشوع وبحب جعلته يحتضن طين الجرف، ويمسح به دموعه. انه يتقدس بمياه دجلة الخير والعطاء.

تلاشت كل سنوات الغربة والتشرد.. سأله ابو سعود عن شعوره في تلك اللحظات التي وقف فيها على الجانب السوري بانتظار العبور. لم يجبه.. حدّق في عيني عزيز محمد، فرأى الحب الكبير للعراق وشعب العراق مرسوما على وجهه، والعشق، محفورا عميقا في وجدان اكثر من مليون عراقي يعيشون في شتات العالم ومنافيه القسرية. ازداد ايمانه بأن الحرية دوما هي ملك عشاقها في كل زمان ومكان.

ادرك عزيز محمد، وهو يستمع اليه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ادرك عمق الحب الحبيس في صدر كل عراقي، ابعده الحكام عن أهله وأرضه في سنوات البعد القسري.

اول انطباع تولد عنده، وهو في السيارة التي تجوب بهم المناطق، باتجاه شقلاوة، وتوغلُ في عمق الجبال والوديان، صاعدة هابطة السهول، وعلى مرأى البصر، تمتد الارض البكر مكسوة بالخضرة الصافية والوان المزروعات الموسمية، اول الانطباع كان الأحساس بأن ارض كردستان تعيش احزانها ووحشتها واشتياقها لأهلها واحبائها.

بانت بصمات الاجرام والحقد الشوفيني واضحة على كل شبر دنسها علي حسن المجيد ورهط سيده من العتاة المجرمين. ولكن، رغم تلك القسوة البربرية، ظلت جبال كردستان شامخة تتحدى اعداءها، وسهولها الخضراء تتغنج بين ايدي الفلاحين الكرد، وهم يبذرونها بخبز الحياة، وفوق اكتافهم، تستقر بنادق " الكلاشن "، وهم يجوبون المراعي ويترنمون بأغاني الحرية والسعادة.

سأله الكثيرون عن شعوره وهو يتجول في كردستان، بما شاهده بعد الغياب الطويل عنها وعن أهلها. سحب نفسا عميقا ينم عن الفرح والألم في آن واحد، قال:

شعرت ومعي الالاف ما تعنيه هذه الأسماء: حلبجة، الانفال، علي كيمياوي، آثار الدمار في بارازان، سيد صادق، قلعة دزئي وفي اكثر من اربعة الاف قرية كانت في يوم سابق فرحة تحتضن مئات الالوف من ابنائها ، تلاشت ودمرت على يد حاكم المنطقة، علي حسن المجيد، ابن عم الطاغية، في دولة عشيرة آل المجيد. شاهدت سكان هذه القرى وغيرها من المدن والقصبات، يعيشون في خيام ممزقة، يشكون الفاقة والخصاصة نتيجة الحصار المفروض من قبل النظام، وفي ظل احوال مناخية قاسية وسيئة، صيفا وشتاء. الا انهم رغم ذلك، ينعمون بالطمأنينة والأمان، ويستنشقون عبير الحرية، للمرة الأولى، ويحكمون انفسهم بأنفسهم دون رقيب او مأجور.

تحولت كردستان التي زرعها صدام حسين بالمعسكرات والقلاع الكونكريتية والربايا العسكرية، وبقصوره الفارهة الباذخة، التي لا تضاهيها قصور السلاطين، تحولت الى ارض جرداء تمتد الاف الاميال، ومناطق محرمة على الناس، لا حياة فيها للبشر.

* * *

عاد من كردستان.. التقته مجلة " الثقافة الجديدة "، و سألته عن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الثاني للمعارضة، ولماذا طال التلكؤ في عقده.

اجاب:

" منذ تشكيل اللجنة التحضيرية الحالية مطلع هذا العام، وانا اشارك في الاجتماعات المخصصة لعقد المؤتمر العام الثاني للمعارضة العراقية، وما نزال نواصل عقدها من اجل التوصل الى صيغة مقبولة تتفق على برنامجه ومهامه كل الاطراف المعنية على الساحتين داخل وخارج الوطن. واقولها بصراحة، ان الفترة الطويلة التي استغرقتها التحضيرات، خصوصا بعد قرار مؤتمر بيروت في آذار ١٩٩١ بضرورة الاسراع لعقد المؤتمر الثاني، لم تكن لا في صالح قوى المعارضة، ولا في صالح شعبنا الصابر الذي اثبت عن جدارة في انتفاضته الشجاعة، انه صاحب القرار في كل ما يتعلق بشؤونه وبحاضره وفي مستقبله.

ومن هذا المنطلق، نأتي على الشق الثاني في السؤال: لماذا طال التلكؤ في عقد المؤتمر؟ أقول، ان السبب الرئيسي في هذا التلكؤ هو ما نشهده من تباعد وتشرذم وتعدد غير مبرر للتجمعات والكتل التي لا تستند على ارضية الواقع العراقي، اذ تعيش هذه الكتل والتجمعات الصغيرة في دول المنفى، ولا يهمها، مع شديد الأسف، ما يتعرض له شعبنا في كل يوم يمر وهو يئن من جراحات عميقة تزداد عمقا طالما يجثم على صدره نظام حكم يوغل في اضطهاده وارهابه، محاولا اسكات اي صوت يعارض الاجرام وشريعة الغاب.

هناك تيارات سياسية اجتماعية رئيسية، وقوى ومنظمات واحزاب وشخصيات لها وجود تأريخي في سوح النضال الوطني، وهي وإن كانت بعض قياداتها ورموزها تعيش خارج الوطن الا ان لها امتدادات داخل الوطن. وقد سبق لهذه القوى ان اتفقت في كانون الاول عام ١٩٩٠، على صيغة عمل وطني مشترك، توّجته بعقد مؤتمر بيروت في خضم احداث انتفاضة آذار الباسلة. فعلام هذا التبعثر والتباعد اليوم ونحن نعيد الى الاذهان ذكرى هذه الانتفاضة، ونحاول استخلاص دروسها الغنية؟

من الصحيح جدا، ان نتفق قبل ان نعقد المؤتمر القادم، ولكن مهما اختلفنا في تحديد مهامه، الا اننا لا يمكن ان نختلف حول ضرورة واهمية العمل المشترك، وبسرعة،

للاطاحة بالنظام الحالي واقامة دولة القانون وحماية حقوق الانسان العراقي وضمان حريته وصيانة كرامته من عبث العابثين الاقزام، وان ما يتطلع اليه شعبنا، او ما يتوقعه من المعارضة العراقية، هو وحدة الكلمة والتواجد بين صفوفه لتحقيق المهمة والهدف المشترك لكل فصائل المعارضة اينما وجدت او تواجدت. ومن الصيغ المطروحة الآن امام المؤتمر، الى جانب اوراق العمل المتفق عليها والتي تشمل العديد من المهام في مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والعسكرية والقانونية، هي صيغة البيان السياسي لتصحيح مستقبل العراق بعد اسقاط نظام صدام حسين وانبثاق المجلس الوطني او مجلس الانقاذ الوطني وقيادة سياسية واحدة تمثل التيارات الاساسية في المجتمع العراقي. "

توقف عند هذه النقطة، وتساءل مع نفسه: اين هي هذه التيارات الاساسية في خضم هذا الكم الهائل من الاطراف المعارضة؟

لقد غابت عن مؤتمر فيينا، التيارات الثلاثة الاساسية: التيار الدمقراطي، التيار الاسلامي والتيار القومي العروبي.

كيف نظرت قوى التيار القومي الكردستاني الى هذه المعادلة؟ ما الذي يحول دون انعقاد مؤتمر المعارضة على ارض كردستان بعد تحررها من سيطرة النظام؟

الاجابة على سؤال مجلة " الثقافة الجديدة "، بعد عودته من كردستان العراق، تلخصت بما يلي:

" تنظر كردستان العراق، كما ينظر الجنوب الصامد، وفي بغداد بالذات، الى نشاط قوى المعارضة في الخارج بعيون باكية وبألم واضح، خصوصا بعد انتفاضة آذار، وتحرير العديد من الاراضي، ولسان حال المواطن العراقي الذي يعيش مآسي الحصار الاقتصادي المفروض عليه، والحصار المميت الذي يفرضه عليه نظام بغداد، يتساءل: الى متى تبقى المعارضة في الخارج بعيدة عن الواقع العراقي؟ ويلح في تساؤله: بل اين هي المعارضة؟ ان هذا التساؤل المشروع وحده كفيل في ان نتحسس موقع اقدامنا، كمعارضة، ونجيب بجرأة وصراحة عما فعلناه في الماضي لكي نعمله في الحاضر من اجل دعم الداخل، ولا اقول للمشاركة في نضالات الداخل، لأن المشاركة تعني وتفرض علينا ان نكون بين الجماهير، نتعلم منها الدروس تماما كما نحاول ان نعلمها. اقول،

كي نعمل بنكران ذات وباخلاص وبهوية عراقية صرفة من اجل الدعم الفعال والنشط للداخل وعلى كافة المستويات، ورفد العمل الوطني بكل الوسائل وبما يمليه علينا الواجب الوطني، وما تفرضه علينا المسؤولية الوطنية الكبرى لتطبيق وترجمة شعاراتنا التي رفعناها سنوات طوالاً على ارضية الواقع واستحصال الدعم والتضامن من الخارج لنضال جماهيرنا في الوطن. "

أما في ما يتعلق بالظروف التي تحول دون انعقاد مؤتمر المعارضة على ارض كردستان المحررة، فللحقيقة اقول: كيف نطلب من شعبنا الكردي الذي حرر بنفسه، عبر نضالاته، وعن طريق الالاف من الشهداء، ثلثي اراضيه، ان يستضيف مؤتمرنا القادم، وبعض قوى وشخصيات المعارضة تستكثر عليه حق تقرير مصيره او مجرد الاعتراف بهذا الحق الشرعي مستقبلا؟ وطبيعي هناك اسباب وظروف اخرى لا مجال لذكرها الآن والتي تلعب دورها في عدم امكانية عقده فوق الأراضي المحررة في الوقت الحاضر. "

تجوّل في السليمانية، وعاد الى اربيل، الى شوارعها واطرافها، عينكاوة والقلعة التاريخية. زار زاخو ودهوك، فلمس في لقاءاته مع الأهالي، انهم يحاولون تجاوز سلبيات الماضي عن طريق زرع الثقة في نفوسهم أولا، ومن ثم التغلب على المصاعب التي يسببها لهم النظام في محاولاته المستميتة عرقلة مسيرة اعادة الاعمار بعد التحرير، وزعزعة الاستقرار الذي ينعمون بظله، وذلك عن طريق سحب الادارات المدنية، واحكام الحصار الاقتصادي على المنطقة، وعمليات التخريب والتفجير بين وقت وآخر.

ان ما شاهده في تجواله ولقاءاته مع الناس والمسؤولين الكرد، لا يعني باية حال، عدم وجود المصاعب او خلو الساحة الكردستانية من المشاكل التي قد تعيق مسيرة الاستقرار والبناء، اذا لم تنتبه اليه الاحزاب الكردستانية، او تحاول حصرها في حدودها الضيقة، وهو أمر طبيعي في اعقاب ظروف غير صحية بعد هذه السنوات الطوال من عدم الاستقرار. وقد تتلاشى مثل هذه الظروف او المشاكل بعد اجراء الانتخابات وانبثاق المؤسسات الشرعية وارساء دعائم دولة القانون ضمن مناطق الحكم الذاتي لكردستان العراق.

* * *

شهد عاما ١٩٩١ و١٩٩٢، هجرة واسعة للعشرات من المثقفين العراقيين الذين كانوا منتشرين في اليمن وسوريا والجزائر ولبنان وبعض الدول الاشتراكية، جاءوا الى منفاهم الجديد في بريطانيا، حيث المناخ الثقافي الصحي، في بلاد العلم والفكر الحر.

كان الأمل يحدوهم في المنفى الصحي الجديد، بتوفر الامكانيات و متطلبات التعبير عما يجيش في صدورهم من الحب الكبير للوطن، كي يتغنوا بابداعاتهم الشعرية والكتابية، وبالصورة واللوحة واللحن، الوجه المشرق لعراق الأمل، والمستقبل الوضاح لشعبه العريق في البطولات والامجاد، منذ ان انعتق من ربقة الامبراطورية العثمانية، حتيطرد الاستعمار البريطاني من أرضه في عام ١٩٥٨ .

فتحت العاصمة البريطانية ذراعيها لاستقبال سعدي يوسف، شاعر الوجدان الكبير الذي جاب عواصم ومدناً عديدة متشردا متغربا سنوات طويلة، جاء ليحط رحاله في لندن كي يعطي للحرية المنشودة معنى وغنى، وليجسّد بقصائده الجميلة حب الوطن والتغني ببطولات شعبه الذي أحبه واعطاه الكثير من عصارات فكره الإبداعي، حتى بات شاعرا لا عراقيا فحسب، بل شاعرا عربيا رائدا يدعو للحب والسلام وحرية الاوطان ونبذ الحروب والإرهاب وانواع الهيمنة العدوانية لتقييد حرية وكرامة المواطن اينما عاش على ارض الله الواسعة.

سعدي يوسف، بأشعاره الكثيرة، الغنية، عشق الحرية، فغناها بروائعه، نشيدا لعشاق هذه الحرية.

واستقبلت لندن، عددا من الذين عملوا في الصحافة، وكانوا زملاء مهنة واصدقاء عمر، جادوا وجادت بهم وسائل الاعلام العراقية والعربية على مر السنين والاحداث.

وفد اليها، سعود الناصري، الصحفي الناجح الذي تميز اسلوبه بالشفافية، تاركا موسكو التي احبها وعاش فيها ردحا طويلا من الزمن، ليستقر في لندن. سعود، زامله في جريدة " البلاد " بعد ثورة ١٤ تموز، وفي جريدة " الجمهورية " مسؤولا عن الصفحة الآخيرة فيها، ومحررا أساسيا في مكتب جريدة " انباء موسكو " اثناء وجوده هناك، وعرفه وفيا لأصدقائه، ولصيقا بالفكر الخلاق الذي آمن به طريقا لسعادة البشرية، فاجاد في التعبير عنه في الصحافة والعمل السياسي.

قبل سعود، جاء الى لندن عبد المنعم الأعسم، بعد رحلتي عدن ودمشق، في

محاولة لاستكمال مسيرته الصحفية منذ ان التحق في جريدة " طريق الشعب " سنوات الجبهة " الوطنية " مع البعث الغادر، حتى انغماره في لجة العمل السياسي والاعلامي في جمهورية اليمن الديمقراطية التي فتحت هي الأخرى ذراعيها لاحتضان العشرات من وطنيي العراق الهاربين من الجحيم الصدامي، وبات كاتبا سياسيا، ومولعا بالاقوال المأثورة والتراث العراقي.

مع الأعسم، وفد الى العاصمة الثقافية، لندن، الكاتب رضا الظاهر، حاملا معه هموم " الأنصار " في جبال كردستان العراق، وتجربة سنوات مع مثقفي الحزب الآخرين، في أعلامه، و في الجريدة المركزية والاذاعة وفي النشاطات الثقافية لفرع الأنصار لرابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين. فقد كان معه في تلك التجربة، زهير الجزائري، فالح عبد الجبار، داود أمين وآخرون.

ويترك دمشق متجها الى المنفى البريطاني، عدنان حسين، تاركا وراءه الصحافة التي عشقها بعد ان غرف من نظرياتها الكثير في قسم الإعلام بجامعة بغداد قبل هجرته، جاء ليجرب حظه في صحافة الاغتراب واختراق الصمت الإعلامي العربي على ما كان يجري في بلاده من مآسي وويلات، فتألق في جريدة " صوت الوطن " الكويتية الصادرة في لندن بعد اجتياح الكويت، ومعه فالح عبد الجبار.

فالح (أبو خالد)، واصل كتاباته في " صوت الوطن " لفضح جرائم النظام العراقي في العراق وفي الكويت المستباح، الا انه أبى ان يستمر في الجريدة، بعد تعرض بلاده الى القصف والتدمير على يد القوات الامريكية ، وقيام صاحب المطبوع بالانتصار لهذا التدمير الأمريكي، والطعن بالشعب العراقي، دون المساس بالطاغية وجرائمه.

سجّل فالح عبد الجبار، علامة بيضاء في وجدان الصحفي العراقي الملتزم بالقيم والشرف، مضيفا الى السجل الوطني للكتاب والصحفيين العراقيين، صفحات هامة بيضاء ناصعة في تأريخهم الطويل، و دورهم المشرف الطليعي في مسيرة شعبهم. فهم تلك الطليعة من مفكري ومبدعي الثقافة والصحافة العراقية الذين التزموا بمهنتها ورسالتها الشريفة، وأبوا ان تكون الكلمة الحرة الملتزمة قضايا شعبهم ووطنهم، سلعة تباع او تشترى في اسواق المال والنفط والمصالح الضيقة.

يترك العمل في " صوت الوطن " تضامنا مع فالح، سهام الظاهر والشاعر الرقيق

عواد ناصر، المبدع في الكتابة كإبداعه في الشعر، جادا يبحث عن الحقيقة في خبايا السياسة التي حجبت رؤاها الاعيب المسيّسين الجدد الذين يحاولون ان يحجبوا تلك الحقيقة، وان يجعلوا ساحاتها، مترعا لهم، يصولون فيها ويجولون.

عواد ناصر، صاحب وجدان " حدث ذات وطن " ومعه الشاعر المبدع عبد الكريم كاصد وهو يحتضن مجموعته الأولى " وردة البيكاجي " ، والشاعر الوجداني فاضل السلطاني في مجموعته البكر " قصائد " ، والشاعر صادق الصائغ صاحب " نشيد الكركدن " و " وطن للروح " ، ظلوا ينشدون للحرية ويتطلعون الى الوطن بحرقة وشوق، ويزيدون عطاءهم تألقا وابداعا في سوح الثقافة الوطنية العراقية، في بلد جاءوا اليه مبدعين، لا منشديّن اليه. شعراء، سبقهم الى الساحة، الشاعر فلاح هاشم الذي تغنى بأشعاره فنانو العراق، وبلند الحيدري، شاعر الريادة في الشعر الحر في مطلع الخمسينيات، وهاشم شفيق مع " أقماره المنزلية " ومن خلال رؤاه في " نوافذنا، نوافذهم "، والشاعر المقيم المزمن في لندن، الشاعر المبدع صلاح نيازي، وهو ينشد من اذاعة لندن البعض من قصائده، وينشر في الصحف العربية والبريطانية قصائد تبحث عن وطن فتجد صداها في قلوب محبي هذا الوطن.

مع كل هؤلاء المبدعين من شعراء العراق المغتربين المهاجرين، ينضم اليهم رعد مشتت، بعد ان سبقه الى لندن الشاعر المتألق فوزي كريم، وقد بث أنينه الحزين في "عثرات الطائر ".

يحمل الكاتب والصحفي زهير الجزائري (ابو نصير) " اوراقه الجبلية " واوراق ذكرياته الأنصارية عندما كان في جبال ووديان كردستان العراق، نصيرا، ويأتي الى لندن مع بنت المسرح، روناك شوقي، يحيط بسكناه من لحق به من دمشق، د. غانم حمدون، وعلى بعد امتار منه، الكاتب والباحث الجاد، علي الشوك الذي اغنى المكتبة العربية بابحاثه القيمة في مجالات الثقافة والتراث والعلوم.

تلتحق بفالح عبد الجبار، الكاتبة والناقدة فاطمة المحسن التي هربت من جحيم العراق بعد تعرضها لتعذيب وحشي في السجون على يد جلاوزة صدام حسين، وكانت قد ملأت الدنيا ضجيجا احتجاجا على ما كانت تتعرض له في زنزانتها من الإساءة، واضرابها البطولي عن الطعام، حتى نجحت الحملة العالمية في اطلاق سراحها، والسفر

الى هنغاريا للعلاج، وتكملة دراستها، وحصولها على درجة الدكتوراة عن رسالتها الاكاديمية حول الشاعر سعدي يوسف.

تلتحق مع ركب المثقفين الباحثين عن المنفى الآمن الجديد، الكاتبة والصحفية، سعاد الجزائري، الشابة الجميلة السمراء التي هوت الصحافة وكتابة القصة القصيرة، وتنقلت بين بيروت وبراغ، منذ هروبها مع زوجها صادق الصائغ، لعلها تستطيع ان تنشر في لندن ما فاتها نشره من قصص وحكايات وخواطر تجمعت لديها في بغداد ومنافيها الاضطرارية.

* * *

كان هؤلاء المثقفون قد تقاطروا على لندن دون ميعاد. فرح لهذا العدد الكبير من المبدعين الذين استقروا فيها، ومنهم من لا يزال يعمل مع مكتب التنسيق لرابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين، وآخرون في هيئة تحرير مجلة الرابطة " البديل ". تفاءل بالخير لقدوم هذه الكوكبة الجميلة من مثقفي ومبدعي بلاده، لعل النشاط يدبّ من جديد في الرابطة، خصوصا فيما يتعلق باقامة اسبوع او مهرجان ثقافي على غرار ما جرى في برلين اثناء انعقاد المؤتمر الثالث للرابطة هناك.

وجه اليه احد الصحفيين سؤالا عن السبل الكفيلة لعودة الحياة والنشاط للرابطة، بعد غياب وخمود في فعالياتها. أجابه:

كنا قد اتفقنا في برلين على ان تتولى التجمعات الثقافية المتواجدة في اكثر من منفى، ووفق امكانات وظروف المثقفين، سواء كانوا اعضاء في الرابطة او خارجها، الى اقرار شكل الارتباط التنظيمي مع بعضهم وعن طريق مكتب التنسيق العام، والقيام بالنشاطات التي يرتأونها وفي مقدمتها، الاهتمام بالجانب الثقافي الابداعي، ورفد مجلة " البديل " والتحضير لعقد المهرجانات الثقافية. كما تم في برلين.

رغم ذلك، يساهم العديد من مثقفينا المبدعين في رفد المجلات الفكرية العربية وفي ادبيات المعارضة العراقية بنتاجاتهم المميزة. وهناك فيض من النتاجات الثقافية والفكرية تنتظر دورها في النشر، بسبب شحة الموارد المالية أو انعدامها، وهو أمر طبيعي، لأن الرابطة تنظيم ثقافي مستقل لا يعتمد الا على اشتراكات الأعضاء واقيام ادبياته التي لا تفي بالغرض.

اما فيما يتعلق بسبل عودة الحيوية الى نشاط الرابطة ككيان تنظيمي، فان مكتب التنسيق العام يعمل لعقد المؤتمر الرابع والذي نأمل منه ان يقوم بمراجعة نقدية لمجمل النشاط السابق ووضع خطة عمل لاحق لتنشيط وتطوير آلية العمل الفكري والابداعي.

* * *

٢٧ - ٣١ تشرين الأول ١٩٩٢ في مدينة صلاح الدين - اربيل..

طوى المعارضون العراقيون كل الاوراق التي حملوها في السابق بعيد اجتماعات لجنة العمل المشترك في دمشق خلال اشهر من عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، ومؤتمر بيروت الأول للمعارضة في آذار ١٩٩١، أو التي حملوها في لقاءات جانبية بين اطراف واحزاب المعارضة في اكثر من عاصمة، طوى هؤلاء المعارضون اوراقهم، ووقفوا يراقبون حركة السفر والتنقل لرجال في ساحة المعارضة، كانوا الى الأمس القريب، خارج نطاق المؤتمر الوطني العراقي، يتوجهون الى كردستان العراق، ويتركون مقراتهم في لندن وباريس وفيينا ودمشق وبيروت، لحضور اجتماعات " المؤتمر الوطني العراقي الموحد " في مصيف صلاح الدين، ما بين اربيل وشقلاوة، وبضيافة الحزبين الكرديين للزعيمين مسعود البارازاني وجلال الطالباني.

كان الحزبان الكرديان يشكلان ثقلا اساسيا في الموازنة السياسية والميدانية بين قوى المعارضة العراقية للأسباب التالية:

- للإرث الوطني التاريخي الذي يعود الى عام ١٩٤٦ عند تأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة الملا مصطفى البارازاني، ومن بعده، تأسيس الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال الطالباني في مطلع السبعينيات.

- دورهما في قيام وديمومة الجبهة الكردستانية وتحالفهما مع الحزب الشيوعي العراقي المعروف بتأريخه الطويل وتأثيره وثقله الوطني في اوساط الجماهير العراقية.

- كونهما يمثلان التيار القومي الديمقراطي للشعب الكردي في منطقة الحكم الذاتي.

- تواجدهما في الساحة الكردستانية المحررة من سيطرة نظام صدام حسين.

- خوضهما الكفاح المسلح ضد النظام الدكتاتوري مع فصائل الأنصار والبيشمركة للأحزاب الكردية والعربية الأخرى، وبمشاركة آشورية وتركمانية.

- قيادتهما للحركة الوطنية التحررية لكردستان العراق تأريخيا.

ان خروج الحزبين من توليفة العمل الوطني المشترك واجتماعات المعارضة العراقية، والتحاقهما في مؤتمري فيينا وصلاح الدين، شكل خللا في صفوف المعارضة ، اضعف الى حد ما، قوة وتأثير مجموع القوى والاحزاب العاملة على ساحة المعارضة منذ سنوات عديدة. وبيّنت ان القضية العراقية بدأت تخرج من تأثير ونطاق " العامل الأقليمي "، الى رحاب " العامل الدولي ".

ومن بوابة صلاح الدين، بعد فيينا، دخل احمد الجلبي ساحة المعارضة، " قائدا " للمؤتمر الوطني العراقي الموحد.

مع الجلبي، دخل البوابة، معارضون ينتمون الى أحزاب وحركات رفضت العمل تحت اية خيمة يجلس فيها مراقبون خارجون لا ينتمون او يحملون الهوية العراقي.

فرض الواقع الجديد، شكلا جديدا في تركيبة هذه المعارضة.

كان من بين الذين التحقوا بركب الجلبي، وللمرة الأولى، سياسيون من التيارين الاسلامي والديمقراطي، يمثلون احزابا عريقة لها امتدادات تاريخية وميدانية داخل الوطن، حليفة مع الحزبين الكرديين خلال سنوات النضال السري والعلني عبر تطور الحركة الوطنية في العراق بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت المناقشات ساخنة في اروقة المعارضة، خصوصا في لندن، التي استقطبت الغالبية من قوى وشخصيات وطنية، وشكلت حلقة الوصل والتواصل مع المراكز الاخرى في دمشق وطهران وفيينا.

الأحزاب الاسلامية والحزب الشيوعي العراقي، وقوى التيار القومي العروبي، وقفت منذ مؤتمر فيينا ضد الجلبي ولم توافق على المساهمة فيه، بل وعارضته وشككت في اهدافه واحتفضت بموقف حاد من مسألة تمويله، وارتهانه بالسياسات الخارجة عن الارادة العراقية.

كان هو من الرافضين لفقرة مسابقة الركض الى شقلاوة، وشاهدا على ما كان يجري خلف الكواليس، وواقع الخلافات بين قوى وفصائل المعارضة بعد ان تداعت

وسقطت اعمدة بنيان العمل الوطني المشترك ومؤتمر بيروت، تلك الخلافات التي بلغت ذروتها اعلاميا وفي داخل اروقة تجمعات قوى الرفض لمؤتمر فيينا. فجأة، توقف هذا السيل من الاتهامات ومواقف الرفض المبدئية له، واتجهت الانظار الى شقلاوة وصلاح الدين، حيث توافدت وفود وشخصيات الى المؤتمر الجديد للمعارضة.

صدمته السرعة التي استبدلت بها قوى الرفض، موقفها المستجد في القبول لحضور المؤتمر الوطني العراقي الموحد بقيادة احمد الجلبي وبمباركة من خارج حدود كردستان العراق. لم يتلق الجواب عن السر وراء هذا " الماريثون " . التجأ الى فخري كريم، الذي كان مرجعا موسوعيا لمواقف الحزب الشيوعي وقوى المعارضة الأخرى منذ ان كان قائدا سياسيا في بيروت نهاية السبعينيات، التجأ اليه في مثل هذه المواقف، وهو العارف ببطون الأمور، خصوصا بعد أن انتخب عضوا في المكتب السياسي للحزب، قال له باستغراب شديد:

- ماذا يجري يا فخري؟

أجاب والألم يعصر قلبه:

- مثل ما جرى بالأمس!

- وماذا جرى بالأمس؟

لم يرد ابو نبيل. عرف من سكوته ان أمرا ما قد استجد على الساحة العراقية، وان الحزب على ابواب مرحلة قد تؤثر مستقبلا على سياسته، وأن خلافا قد وقع داخل اللجنة المركزية للحزب.

تذكر الموقف الحالي، بنظيره السابق عام ١٩٧٣، وبموقف فخري، والقلة من الرافضين لدخول الجبهة مع البعث. ويعيد ذلك الموقف نفسه اليوم، والحزب يتطلع الى مسألة الالتحاق بمؤتمر صلاح الدين.

ان جبهة البعث كانت في البداية بين الحزب الديمقراطي الكردستاني والبعثيين.

تعثر التحالف، وخرج الاكراد ليدخله الحزب الشيوعي العراقي.

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجتماعا (تأريخيا) خلف جدران غرفة موصدة الابواب، خالية من اجهزة التشويش والتنصت، كما تراءى للرفاق المجتمعين، وطرح سكرتير الحزب جدول الاجتماع الذي أعده المكتب السياسي، وكانت الفقرة

الأساسية الهامة، مناقشة دعوة حزب البعث للشيوعيين، الانضمام الى " الجبهة الوطنية والقومية التقدمية "!

سأل السكرتير العام للحزب في بداية الاجتماع:

- يا رفاق، الدعود واضحة.. ما رأيكم؟

- (. . . . .)

كرر عزيز محمد سؤاله وطلب التصويت برفع الأيدي.

عدّ ابو سعود الأصوات، توقف عن الكلام، خطّ على الورقة نتيجة التصويت.

نظر الرفاق في وجه السكرتير العام.

سكت، ولم يتحدث للحظات، ثم طالب باعادة التصويت على الدعوة.

هدوء خيّم على جو الاجتماع.

لحظات، بدد ابو سعود الهدوء حين طلب من المجتمعين، استراحة لمدة نصف ساعة.

عاد الرفاق من فترة الاستراحة التي لم يكن الهدف منها، للاستراحة، بل للتداول والاقناع..

جرى التصويت من جديد. رفع عزيز محمد صوته باعلان النتيجة. واحد زائد النصف.

كان القرار (التاريخي) مفاجأة..

دخل الحزب الشيوعي العراقي بتحالف مع حزب البعث العربي الاشتراكي - قيادة عفلق.

دخلها في ١٩٧٣ وخرج منها عام ١٩٧٩ معارضا.

واليوم..

جاءوا يطلبون من الحزب دخول المؤتمر الوطني العراقي الموحد ..

ما العمل؟

تجتمع اللجنة المركزية في شقلاوة، بغياب د. رحيم عجينة وعبد الرزاق الصافي، عضوي المكتب السياسي للحزب. بحث عنهما سكرتير الحزب، فقالوا له بأن الرفيقين ذهبا الى مصيف صلاح الدين لإبلاغ احمد الجلبي قرار الحزب، قبل ان تصادق قيادة الحزب عليه.

طار الخبر من شقلاوة الى كل تنظيمات الحزب في الداخل والخارج. قبلت قيادة الحزب بما رفضته الغالبية العظمى من الأعضاء. أصبح الشيوعيون جزءا من مؤتمر صلاح الدين. بلّغ الرفاق في القيادة هيئات الحزب، وطلبت منهم أن ينفذوا القرار قبل أن يناقشوه.

انها المركزية الديمقراطية..

انشغل كل رفاق الحزب اشهرا في المناقشات الحادة، وهم يطالبون القيادة باجابة صريحة على تساؤلات القاعدة الحزبية عن اسباب قبول الحزب دخول المؤتمر؟

لم يأت الجواب الواضح الصريح المقنع..

جاء الرفاق بالرأي القاطع في المؤتمر الوطني الخامس للحزب فوق ارض الوطن.

وكان الرفض..

* * *

١٢- ٢٥ تشرين الأول ١٩٩٣

انتخبوه مندوبا للمؤتمر.. مؤتمر الديمقراطية والتجديد.

الموعد: ١٢ تشرين الأول.

المكان: شقلاوة.

الحضور: مندوبو المنظمات الحزبية في داخل وخارج الوطن. اعضاء اللجنة المركزية. المراقبون. الضيوف من الكوادر القيادية السابقة.

كان عليه ان يسرع في السفر الى كردستان العراق عبر بوابة فيشخابور.. هذه البوابة التي استقبلت وودعت الالاف من الشيوعيين والاكراد والاسلاميين ، قيادات وكوادر، ومواطنين يذهبون ويعودون من الخارج لزيارة الأهل والاصدقاء.

في المؤتمر، جاء دوره في الحديث والتحدث الى رفاق الأمس واليوم..

حديث صريح من القلب الى قلوب رفاق الدرب الطويل.

وقف بثقة يطيل النظر الى هذه الصفوف المنتظمة في القاعة الواسعة، من الشباب والنساء والقدامى من الحزبيين، وقد صمم على ان يكون صريحا..

وقف وقفة الشاهد على جرائم انظمة..

ووقفة المقاوم لتلك الانظمة في العمل السري والعلني.

وقف امام قيادة الحزب، ليكون شاهدا على مساره، في الانتكاسات والمنعطفات..

ووقفة السياسي المراقب للمواقف الصاعدة والنازلة في المنازلات السياسية والمبدئية.

ثم تكلم بصريح العبارة:

ايها الرفاق:

" كانت المدة منذ ان طرحت قيادة الحزب وثائق المؤتمر، خصوصا التقرير السياسي، طويلة ومعقدة. ومن غير المعقول ان تطرح مثل هذه الوثائق قبل اشهر عديدة وقد استجدت ظروف داخلية وتعرّت مواقف سياسية على الصعيدين الاقليمي والدولي، تطلبت وضوحا ورؤى جديدة في اكثر من موقف وتجاه اكثر من قضية مصيرية.

لقد جاءت هذه الوثيقة (التقرير السياسي) مع شديد الأسف كنشرة أخبار مطولة وخلت من التحليل والتشخيص، بل احتوت على مواقف تتكرر وبأسلوب سردي تجاوز في عدد من المواضيع حدود المعقول، والمبالغة، لتبيان (صحة توقعات حزبنا، او صواب سياستنا وموقفنا) تجاه بعض الاحداث السياسية وهي كليشهة قديمة كان من الافضل ان نبتعد عن مثلها من الصياغات.

ان غياب وثيقة تقييمية لمسيرة الحزب بين مؤتمرين (١٩٨٥-١٩٩٣) بل حتى العودة الى نهاية السبعينيات، هو نقص كبير في وثائق المؤتمر الخامس الذي نريده مؤتمرا للتجديد. وقد سبق وان طالبت العديد من منظمات الحزب بمثل هذا التقييم، وكتقليد ناجح في السابق حيث تعتمد في توضيح المواقف وتشخيص الاخطاء والكبوات، بأسلوب نقدي وصريح يصب في مجرى اعادة النظر بمجمل المواقف السياسية والقضايا الفكرية والتنظيمية، وفي ضوئها، يستطيع المؤتمر ان يخرج بوثيقة برنامجية تأخذ بنظر الاعتبار الظروف الذاتية والموضوعية للواقع العراقي والوصول الى صيغ ملموسة لتبيان مهمة الحزب ومهمة كل رفاقه في الظرف الراهن.

وباعتقادي، لو بادرت قيادة الحزب الى نشر هذه الوثيقة التقييمية وقبل فترة معقولة قبل انعقاد مؤتمرنا هذا، لوفرت هذه القيادة على رفاقنا الذين صاغوا التقرير

السياسي، وهم مشكورون على جهودهم الاستثنائية، لوفرتْ الكثير من فقرات التقرير السردية والاستعراضية والمطولة التي اربكت المضامين في المحاور الأساسية، السياسية والتنظيمية، خصوصا، اننا نتحدث عن وجود ازمة على كافة الصعد في حزبنا.

وما دمنا نتحدث عن التقييم وعن هذه الازمة التي يعيشها الحزب، فإني ارى بأن من الاسباب الرئيسية للأزمة، والتي ادت الى خسارة العديد من الرفاق، وبروز ظاهرتي التطير واللامبالاة لدى الكثير من اعضاء الحزب، هي ما يتعلق بازدواجية الموقف في رسم سياسة حزبنا. وللتأكيد على هذه الازدواجية، علينا ان نعود الى القرارات والتوجيهات التي دأبت على اتخاذها نفس القيادة الحزبية ومنذ المؤتمر الوطني الثالث عام ١٩٧٦، والتي انطبعت بصماتها كمواقف متباينة مع شديد الأسف، منها ما يتعلق بموضوعة التحالفات وبالذات مع حزب البعث، ومسألة الكفاح المسلح، ومن ثم الانسحاب الكامل من كردستان بعد شهر آب ١٩٨٨، والموقف من لجنة العمل المشترك في كانون الأول ١٩٩٠، واجتماعات اللجنة التحضيرية في دمشق، وبعدها القرار المتعلق بعدم المشاركة في مؤتمر فيينا، ومن ثم العودة الى المشاركة في مؤتمر صلاح الدين، وغيرها الكثير من المواقف، ونحن نشهد هجرة المئات من الكوادر، وطلب اللجوء السياسي في اكثر من دولة، في وقت كان اللجوء ممنوعا وبقرارات حزبية صارمة.

خلاصة القول ايها الرفاق، ان نفس القيادة التي تتخذ القرار وترسم السياسة الحزبية تعود وتنقض تلك السياسة، بل وتعمل ضد تلك الموضوعات، وبالأخص، اتخاذها المواقف السياسية دون الرجوع الى قواعد الحزب، ونحن نتحدث عن ضرورة توسيع الممارسة الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية. صحيح، ان تغيّر الظروف يفرض تغييرا في اتخاذ المواقف، الا ان التذبذب وفي فترات زمنية قصيرة يدل على الارتباك داخل قيادة الحزب، وتنعكس هذه الحقيقة في تناقضات البيانات والتصريحات الصادرة عن المكتب السياسي، وما تنشره جريدتنا المركزية " طريق الشعب "، وليس كما جاء في الوثيقة.. (بأن حزبنا تمسك بالواقعية السياسية، وبالمرونة في التعامل مع الاحداث، وتجلى ذلك في وثائقه وفي صحافة الحزب.) "

ايها الرفاق:

في التقرير (فقرة ٤٢) نص على ان العامل الاكبر لبقاء النظام هو انتهاجه سياسة ارهابية شرسة قلّ نظيرها في عالم اليوم، الى آخر الفقرة في استعراض عضلات النظام وجبروته وسيطرته على اجهزة الدعاية والاعلام والاستفادة من التناقضات الدولية والاقليمية وعدم وحدة المعارضة العراقية وغيرها من العوامل... ولم يشر التقرير الى دور امريكا والغرب ومصلحتهما في بقاء النظام ، وهو نقص كبير وتجاهل لعامل باعتقادي هو أهم بكثير من عوامل أخرى مذكورة، خصوصا ان هناك عشرات الأدلة تثبت هذه الحقيقة التي تجاوزها التقرير.

لم يذكر التقرير في مجرى الحديث عن التجديد، السبب في غياب دور الحزب في المجال الفكري والنظري وهو يتناول بفقرات مطولة عن الجمود والابتعاد عن الديالكتيك الماركسي الحي وما تعانيه الحركة الشيوعية من تراجع وانهيار البناء الاشتراكي، وكيف يتوجب علينا التأكيد على قيم الاشتراكية وافضلياتها. لماذا لم يساهم الحزب طيلة السنوات الثلاث في نشر الدراسات الجديدة فيما يتعلق بنقد التجربة الاشتراكية المعاصرة؟ فاذا كان السبب هو عدم توفر القدرة والامكانية لدى رفاقنا للقيام بمثل هذه الدراسات، الم يكن من الاجدر ان يعمم الحزب الدراسات المنشورة، وما اكثرها على منظماته لدراستها ومناقشتها من اجل الارتقاء بمستوى الحزب الفكري، كما جاء في الفقرة ١٤٧ من التقرير.

في الفقرة ١٤٩ من الموضوعة المشار اليها، تقول الوثيقة: على الصعيد الفكري، توجه حزبنا لفحص المقولات والمفاهيم النظرية انطلاقا من نبذ الاستنساخ والنقل الآلي للتجارب، الى آخر الفقرة... اتساءل: متى جرى مثل هذا التوجه، واين هو يا ترى، والرفاق لا يعلمون شيئا عن ذلك؟

في الفقرة ١٥١ هناك نص يقول: وليس من شك في اننا حتى الآن لم نفلح في تأسيس نظام متكامل للبحث العلمي بسبب من ظروف الحزب الصعبة وتشتت كوادره وجو الارهاب الذي يعيشه وطننا، مما حال ويحول دون الوصول الى نتائج كبيرة ملموسة... برأيي ان هذا التبرير غير وارد، اذ المفروض ان يتم العمل عن طريق تشكيل لجان اختصاص كفؤة من الرفاق والاصدقاء في هذا المجال، وما اكثرهم في حزبنا.

الرفاق الاعزاء:

على الصعيد التنظيمي:

جاء في الفقرة ١٥٦ ما يلي: ان اشاعة الديمقراطية وتوسيعها في حياة الحزب الداخلية لا يتنافى مع المركزية الديمقراطية التي يتطلبها التنظيم الحزبي، بل ينسجم مع قناعة الحزب بضرورة الحفاظ على هذا المبدأ... ثم تربط الوثيقة بين هذا القول والمادة التي بعدها في معرض التأكيد على تكامل عملية اشاعة الديمقراطية بأنه لابد من ضمان العلنية في الحزب تتناسب وظروف حزب يعيش اوضاعا ارهابية قاسية تفرض عليه سرية تنظيمه... اني اجد عدم وضوح وعدم صراحة في طرح هذا التصور من خلال قراءة الفقرات المعنية بهذا الجانب، بل هناك تناقض وعدم دقّة في تبرير التمسك بالمركزية الديمقراطية. ان المركزية والعلنية وما تفرضه الظروف على الحزب من سرية لا تتعدى ان تكون مترابطة فقط فيما يتعلق باسرار الحزب والتوجهات العامة والتنظيمات السرية في العمل داخل الوطن. اقترح ان تكون الصياغة اكثر دقة لتجنب الوقوع في التناقض ومن اجل ايجاد ربط محكم بين ما نريده من المركزية الديمقراطية واشاعة الديمقراطية بالذات.

من الفقرة ١٥٨ حتى الفقرة ١٦٤: فقرات تتعلق بالروح الديمقراطية والعلنية التي تتناول بها صحافة الحزب ومختلف الشؤون الحزبية دون ان تكون منسجمة بالضرورة مع السياسات الرسمية للحزب... اعتقد ان هذه الفقرات غير دقيقة. هناك العديد من الامثلة التي لا تؤيد هذا القول، منها ايقاف نشرآراء الرفاق حول المؤتمر الوطني الخامس في مجلة الثقافة الجديدة، وعدم نشر مقالات في صحافة الحزب حول بعض القضايا المصيرية ومنها ما يتعلق بالمؤتمر الوطني للمعارضة او حول الحصار الاقتصادي وترسيم الحدود مع الكويت وغيرها. اليجانب عدم ارتياح بعض الرفاق في قيادة الحزب على ما ينشر في الصحافة الديمقراطية والقريبة الينا من انتقادات حتى وان كانت ساخرة وقاسية في بعض الاحيان. فكيف الحال وما ذكره التقرير من نص يقول: ونحن الآن اكثر احتراما وسعة صدر في التعامل مع الرأي المخالف وسعينا ونسعى لضمان حقه بالتبشير بقناعاته في الصحافة الحزبية؟

حول التحالفات الوطنية: لقد اتسم اداء الحزب مع الأسف الشديد في مسألتين هامتين، بالتذبذب وفقدان التوازن الذي انعكس بدوره على سياسة حزبنا وادى الى فقدان ثقة رفاق ومن مختلف المستويات والمنظمات بقيادة الحزب واهتزاز القناعات لدى رفاق آخرين ونحن ما نزال نلمس وقائع ... ونعني بتلك المواقف التي تتعلق بمسألة الانتخابات في كردستان ومسألة مؤتمر صلاح الدين.

ففي الانتخابات، لم يعترف حزبنا فقط بتزويرها، بل ان السيد مسعود البارازاني نفسه أكد على التزوير والخروقات. كان من شروط الحزب، ضرورة اعادتها في فترة اقصاها ستة اشهر، او عدم المشاركة في الوزارة. فماذا كانت النتيجة، الاصرار على اهمال الشروط والقبول بحقيبة وزارية واحدة. يظهر من ذلك، اننا مستعدون لقبول القليل، والقليل جدا، ما دام الهدف هو اثبات وجود او اعطاء المقابل حسن نية!

ان ما حدث في الانتخابات وبعدها، وتجميد نشاطات الجبهة الكردستانية، عاد وتكرر في مؤتمر فيينا، وبالتالي قبلنا المشاركة في مؤتمر صلاح الدين. فقد سبق لنا ان هاجمنا وانتقدنا مؤتمر فيينا وشخوصه باعتباره يعقد تحت خيمة امريكا والغرب. ثم قبلنا نسبة ٣٪ لتمثيل حزبنا في وقت منحت هذه النسبة لأخواننا الآشوريين و٧٪ للتيار الديمقراطي والنسب العالية لدكاكين المعارضة الجديدة. حتى تمثيلنا في اللجنة التنفيذية بشخص الرفيق ابو مخلص، جاء نتيجة اقتراح احد اعضاء اتحاد الديمقراطيين العراقيين في بريطانيا هو عزيز عليان.

لقد برّر الحزب الموقف من القضيتين بالاعتدال وقبول الأمر الواقع ما دام الهدف عدم عزل انفسنا عن (المسيرة)... وقد تناسينا ان الانعزال لا يعني ابدا تحجيم وتقزيم دورنا كحزب جماهيري له تأريخه الطويل ووجود فعلي داخل الوطن وثقل سياسي في اي عملية تتعلق بحاضر المعارضة او مستقبل العراق وباعتراف الاصدقاء والاعداء على حد سواء. وهكذا اثبتنا باعتمادنا هذه السياسة، ابتعادنا عن الجماهير التي تريدنا، وهو ما نريده نحن، ان نكون بين صفوفها لا ان نضع طاقاتنا ونخضع سياساتنا ونسير في ذيل او على هامش العمل السياسي لمعارضة مكتوب عليها الفشل مسبقا وهي تتخبط بين تأثيرات العاملين الاقليمي والدولي.

قد تقول لنا القيادة، ان قرار المشاركة، جاء تنفيذا لرغبة الرفاق في الداخل، فما شأن الرفاق في الخارج الذين عارض اكثر من ٨٠٪ منهم المشاركة وعددهم اضعاف اضعاف الرفاق في الداخل. هل ان رغبة الداخل تسمح للمكتب السياسي ان يرد وبقسوة على رفاق لندن وباريس في رسالة حزبية داخلية ونحن نسعى لتوسيع الديمقراطية في حياة الحزب .. ام ان سياستنا اصبحت تعتمد على المزاجية والتعكز على تكتيك آني دون النظر الى النتائج؟

لذا، بات من الضروري ان يخرج المؤتمر بقرار حاسم، لأن الوقت قد حان للحزب كي يخرج من مؤتمر صلاح الدين لأسباب لم تعد خافية على احد، ومنها عجز هذا المؤتمر للمعارضة في اتخاذ اي موقف ايجابي يعزز من لمّ شمل كل المعارضة، بل تحّول الى جهاز دعائي لعناصر مستفيدة لا علاقة لها بالعمل المعارض الحقيقي ضد النظام. وان نعمل على اعادة الحياة الى الجبهة الكردستانية، وعقد تحالفات ثنائية او اكثر مع الاحزاب الوطنية على أسس واضحة ومبدئية.

الفدرالية والحزب الشيوعي الكردستاني: كان توجهنا لتأسيس الحزب الشيوعي الكردستاني-العراق ورفع شعار الفدرالية، صحيحا، انطلاقا من سياسته في تثبيت حق شعبنا الكردي فهي تقرير مصيره. وكانت سياسته صائبة تجاه القضية الكردية وتطورها حتى باتت الآن تستقطب اهتمام الرأي العام العالمي.

كان لابد ان يقترن هذا الحدث الجديد في تاريخ حزبنا الشيوعي بالشرعية وبنصوص النظام الداخلي. وما دام توجهنا صحيحا، فمن الأولى ان يخرج المؤتمر الوطني الخامس بقرار تأسيس الحزب الشيوعي الكردستاني والتصديق على وثائقه بحيث يتسنى لرفاقنا عقد مؤتمر استثنائي لصياغة ما توصل اليه مؤتمرنا هذا سعيا لتعزيزاللحمة والتنسيق الاكثر تماسكا بين الحزبين.

ايها الرفاق:

بالنسبة للاعلام: هل ان اعلامنا، وخصوصا الجريدة المركزية، اداة توعية وتحريض وتنظيم؟

ان مراجعة نقدية لكل مطبوعاتنا تؤكد غياب هذا الدور. اصبحنا نعتمد في

التعبير عن سياسة حزبنا من خلال تصريحات وتعليقات بعض الشخصيات السياسية المحسوبة علينا، والركض للإدلاء بتصريحات في وسائل الأعلام الأخرى، حتى لو كانت تلك التصريحات تتناقض مع الخط السياسي للحزب، ارضاء لهذه الجهة او تلك.

بات علينا تجاه هذا الواقع، ان نهتم ونطور عملنا الاعلامي، والتفكير الجدي لجعل الجريدة المركزية في المستوى المطلوب، اذ من غير المعقول والمقبول، ان حزبا كبيرا ذا تاريخ نضالي وطني طويل، يضم في صفوفه عددا كبيرا من المبدعين الكتاب والصحفيين والفنانين، يعجز على تطوير جريدة قياسا للصحف الاخرى التي تفتقر الى هذا العدد من المثقفين.

ان هذه المهمة لا تتم الا من خلال اهتمام ورعاية الحزب لتلك الكوادر المجربة والواعدة، وعدم الاستخفاف بها مما يضطرها الى البحث عن مجالات اخرى.

العلاقات الوطنية: نظرا للارتباك الحاصل في علاقاتنا الوطنية وباطراف المعارضة العراقية في هذه الفترة، بسبب غياب صيغ تعاون جبهوي او اتفاقات ثنائية بيننا وبين الاحزاب الوطنية كما كان في السابق، فإن هذا الارتباك انعكس على مجمل سياستنا المتعلقة بموضوعة التحالف ودورنا في حركة المعارضة، وانعكس بدوره على نشاط الرفاق في الخارج، خصوصا ان هناك اكثر من موقف لدى اكثر من رفيق مسؤول او هيئة مسؤولة في قيادات منظمات الحزب في الخارج تجاه موضوعة دخولنا في المؤتمر الوطني الموحد.

ان ما نشهده هذه الايام داخل صفوف المعارضة وحتى داخل المؤتمر الوطني العراقي (موعم)، وانسحاب بعض الاطراف والجهات من عضويته، يبيّنُ لنا إلى اي مدى اصبحنا نصيغ توجهاتنا بحيث نريدها ان تقلل من تورطنا، ان اخطأنا، او اذا اردنا استشراف المستقبل، ان هزّت الاحداث بنيان هذه المؤسسة المعارضة، وكيف سنخرج بتبريرات وتشخيصات تصب في القالب المعروف: " لقد اظهرت الظروف والمواقف صواب سياستنا تجاه هذه القضية..." الى آخر ما في جعبة الحزب من تصويبات لأخطاء سابقة، وهي تنتقي الجمل والعبارات المنمقة كالتي حفلت بها تقاريرنا السياسية وبرامجنا المستقبلية، في السنوات السابقة.

وللتخلص من عواقب كل هذا، ارى ان الوقت ليس متأخرا لتحديد الموقف واتخاذ القرار الصائب في مؤتمر الحزب الخامس، ونشره على نطاق واسع تخلصا من الازدواجية واي تورط نحن في غنى عنه الآن وفي المستقبل، ونزولا عند ارادة الغالبية من اعضاء الحزب، بانهاء العلاقة مع (موعم).

السؤال: كيف نستطيع ان نوفق بين قناعاتنا وبين تنفيذ ما يطلب منا تنفيذه وفي موضوع حساس تكتنفه خلافات مبدئية، كموضوع عضوية الحزب فيه؟ اين هو الموقف الصحيح؟

ايها الرفاق:

ان من العوامل المساعدة التي لعبت دورا أثر على وحد الحزب في السنوات القليلة المنصرمة، واربكت صفوفه، تلك التي تتعلق بالخلافات غير المبدئية، والتصريحات غير المسؤولة لعدد من الرفاق القياديين والكوادر القديمة، واستفحال ظاهرة نشر الرسائل والمذكرات التي تصب في قالب الصراع الفكري، كما كانوا يتحججون به، باعتبارها ظاهرة صحية، وتحويلها الى صراع شخصي استفاد منه اعداؤنا المتربصون بالحزب. ولم تقف هذه الظاهرة عند حدودها، بل راح بعض الرفاق في قيادة الحزب يكيل الشتائم والانتقاص من رفاق آخرين بحجة وجود خلافات او اعتراض على سياسة الحزب، وكأن الحزب ملك هذا الرفيق او ذاك.

ازاء هذه الظاهرة المقيتة، فإن قيادة الحزب لم تتخذ الخطوات الصحيحة للحد منها، او على الأقل، التقليل من نتائجها السيئة. كان المفروض ان تطلع القيادة رفاقها على حقيقة ما يجري - ان كانت هناك خلافات شخصية او سياسية، ليكون الجميع على بينة مما يقال وبكل صراحة، لأن وحدة الحزب فوق اي اعتبار آخر.

ولم يقف الرفاق المعنيون عند هذا، او عند الاختفاء وراء لافتة الخلافات المبدئية، بل تجرأ رفاق من اعضاء اللجنة المركزية على مقاطعة المؤتمر، وغادر آخرون الى خارج الوطن قبل انعقاد المؤتمر بفترةٍ قصيرة، بدلا من الحضور والمساهمة في جلساته، وتحمل مسؤولياتهم باعتبارهم من القياديين الذين ساهموا في رسم سياسة الحزب. كان لغياب وهروب عدد من اعضاء القيادة، مردود سلبي على الرفاق المؤتمرين في هذا الظرف الهام.

انتهى من القاء مداخلته التي استحسنها الرفاق، وصفقوا له طويلا، وترك المنصة الى رفاق يتوقون الى المناقشة وابداء آرائهم في المؤتمر، وبالاخص، هناك عدد كبير من المندوبين الذين يحضرون لأول مرة، مؤتمرا للحزب.

أعلن رئيس الجلسة عن استراحة لمدة نصف ساعة.

كان بصحبة رفيق من السويد يذرعان الساحة الواسعة الملاصقة لقاعة المؤتمر، واذا بسكرتير الحزب يمسك ذراعه، والى جانبه، عبد الرزاق الصافي، العضو المزمن في المكتب السياسي للحزب، وبابتسامته الودية، قال له:

- الا تعتقد يا رفيق بأنك كنت قاسيا علينا؟

رد عليه بابتسامة مماثلة، نابعة من وجدان، بدأ يتفتح اكثر فاكثر:

- كنت قليل الكلام، ملتزما بالوقت، والا، لكنت اتحدث حتى الآن واحرمكم من الاستراحة.

ضحك عبد الرزاق ضحكته المجلجلة، والتي حاول بها اضفاء جو المزح قبل ان يسخن اكثر مما كان عليه في داخل القاعة، ولتخفيف " نقمة " رفاق على الحزب الذي كانت اوراقه خافية على الاغلبية الصامتة لعقود مضت، فقال مؤيدا السكرتير:

- هل نحن فقط نتحمل المسؤولية؟

رد عليه بطيبة قلب :

- نحن مسؤوليتنا كانت تتلخص بتنفيذ سياسة الحزب دون ان تسمحوا لنا بالمناقشة. والآن جاء دورنا في مؤتمر الديمقراطية والتجديد لنفرض الرأي الآخر، ديمقراطيا.

سكت ابو مخلص، وتكلم ابو سعود، قال:

- ولماذا يجلدنا الرفاق؟

نظر في وجه السكرتير مليا، وبصوت اعلى منه اجاب:

- نجلد بعضنا البعض هو الطريق الصحيح لمحو آثار الماضي!

تدخل ابو مخلص قائلا:

- ماذا تقصد؟

اجابه بهدوء هذه المرة:

- محو آثار كلفنا ثمنا باهضا بسبب غياب ظواهر صحية، كابداء الرأي والاستماع الى الرأي الآخر، وممارسة النقد والنقد الذاتي، واحترام رأي الاقلية والسماح لها بالنشر، وحلّ محل هذه الظواهر، تجاهل رأي القاعدة الحزبية، وفرض مبدأ " نفذ ثم ناقش " غير المقبول اصلا، حتى داخل الاحزاب البورجوازية.

بدد جو الحوار الساخن، صوت عال لرفيق يدعو الاعضاء الى دخول القاعة بعد انتهاء فترة الاستراحة.

سنحت له الفرصة ان يتحدث مرة اخرى.

قال امام رفاقه:

ماذا عن الهوية الفكرية للحزب؟

كنت قد اقترحت قبل ايام اثناء مناقشة التقرير السياسي في جانبه التنظيمي حول ضرورة تشكيل ثلاث لجان لدراسة الجوانب الفكرية والنظرية ودراسة ميدانية للاوضاع الاقتصادية-الاجتماعية على ساحة الواقع العراقي، وطالبت بعقد موسعات تناقش فيها ما قد نتوصل اليه في مؤتمرنا هذا. ونظرا لأن العديد من الدراسات في نقد التجربة الاشتراكية المعاصرة ما تزال على قيد البحث لدى العديد من المفكرين الماركسيين والاشتراكيين، فأني ارى انه من السابق لأوانه ان نثبت في وثائقنا اليوم ما قد نضطر الى تصحيحه غدا، او نتخوف من الاشارة وذكر النظرية بسبب ابتعاد البعض من الاحزاب الشيوعية عن الأخذ بها نتيجة فشل التجربة الاشتراكية، فنضطر الى تغيير هويتنا الفكرية بشطب استرشادنا بالنظرية او غمط المفاهيم في التراث اللينيني وغير ذلك من المعطيات في المرحلة الراهنة.

من الصحيح الحديث عن ضرورة اعادة النظر ببعض ما شاخ من النظرية، وهي بالتالي، ليست نظرية جامدة لا تتطور لحاقا بتطور العالم وتقدمه. وقد تكون هناك بعض الاستنتاجات او الموضوعات منها، لم تثبت دقتها في المرحلة الحالية او انها لا تتماشى مع التطور العلمي والتكنولوجي المتسارع. ان اعادة النظر في تلك الموضوعات هو المهم والمطلوب في عمليات التغيير الجارية في الشرق والغرب، انطلاقا

من مقولة ماركس الى انجلز في رسالته: " كم اخطأنا في تقديراتنا واستنتاجاتنا . . ويجب علينا ان نعيد النظر بكل شيء " . لذا أرى ان نستمر في مناقشاتنا حول هويتنا الفكرية بعد انتهاء المؤتمر .

وفي موضوعة المركزية الديمقراطية، فإني اعتقد بأن التخلص من التشويهات العديدة التي لحقت بهذه الموضوعة كمبدأ ضروري ولازم في اطار الحفاظ على بناء الحزب، يقتضي علينا اعتماد صيغ تنظيمية مرنة تساعد على استقلالية منظمات الحزب الى حد معقول، والعمل على اطلاق المبادرة في صياغة برامجها في ضوء البرنامج العام للحزب، وعدم الاعتماد او الارتكاز على الاوامرية غير المشروطة والمفرطة، وعلى التعليمات شبه العسكرية، وان نعمل على التخلص من هذه الاساليب اذا اردنا الابداع من المنظمات في تنفيذ سياسة الحزب .

كما أرى بأن عقد الموسعات الحزبية على صعيد المناطق، وبمشاركة واسعة من الرفاق في المنظمات الحزبية سيساهم الى حد كبير في رسم سياسة الحزب، خصوصا في المنعطفات، على ان تكون هذه الموسعات متقاربة غير متباعدة بالأشهر او السنوات . وهي وسيلة جيدة وكفيلة للحد من المركزية المفرطة التي تخلق الفجوة بين قيادة الحزب وقواعده .

ومن الضروري ايضا ، ان تقتنع القيادة الجديدة للحزب بحق الاقلية في التبشير بآرائها داخل التنظيم الحزبي او في النشر في منابر الحزب العلنية، وبالاخص في جريدته المركزية " طريق الشعب " . وتخصيص نشرة خاصة تتولى تنفيذ هذا التوجه في تأمين عملية تصارع الافكار في اطارها الصحيح .

ايها الرفاق:

ان الغاء شكل المكتب السياسي والاخذ بمبدأ الرقابة المركزية وتشكيل اللجان الاختصاصية، سيساعدان على التقليل من هذه المركزية . اقتراحي ان تتضمن فقرات النظام الداخلي فيما يخص مواد صلاحيات اللجنة المركزية والسكرتارية مثل هذه العلاقة مع منظمات الحزب كافة .

* * *

تواصلت اعمال المؤتمر الخامس في جو ديمقراطي عال، شارك في المداخلات والمناقشات أكثر الرفاق الذين حضروا من خارج الوطن.

في فترات الراحة، واصل المندوبون احاديثهم الجانبية حول الاجواء والآراء والاسماء المؤهلة للترشيح الى قيادة الحزب في هذا المنعطف الهام من حياته، ولضمان مستقبل مسيرته اللاحقة.

كان فخري كريم، كثير وسريع الحركة، يتنقل بين اعضاء المؤتمر للتشاور.. يحاور بعض اعضاء اللجنة المركزية بانفعال تارة، وبحدة في معظم الاوقات، بحيث تجعل الذي يحاوره يكف عن الكلام، ولا يستطيع ان يكمل رأيه في مواضيع يختارها ابو نبيل، مهمة وحساسة، مستفيدا من الاجواء التي تسود المؤتمر، خصوصا أن بعض الجلسات يشوبها التوتر والتشنج.

ظفر به ابو نبيل اثناء استراحة الغذاء.. طلب منه ان يبقى في الحديقة الخلفية للقاعة، وقد بان على وجهه انه يخفي شيئا يود مصارحته به قبل غيره. غاب دقائق، ثم عاد اليه، وقال له:

- ما رأيك بالمؤتمر؟

ادرك بأن وراء سؤال فخري غير المتوقع، ما هو أهم، وان بيت القصيد ليس المؤتمر، بل ما سيتمخض عنه المؤتمر، وما يريده فخري من المؤتمر.

رد على فخري:

اعتقد انه افضل بكثير مما توقعته.

لم يظهر على وجه ابو نبيل، اي اهتمام بما يسمعه، وكانت نظراته تزوغ الى البعد، يختلس من خلالها نظرة خاطفة اليه، ويبدأ بمداعبة الازهار. انتبه الى سكوته المفاجيء، وكأنه دخل في غيبوبة. انه واقف امامه، ولكن فكره بعيد جدا. سأله:

- لماذا تسألني يا فخري؟

فجأة، تركه واسرع الخطى الى الباب الجانبي للقاعة، حين لمح مفيد الجزائري، القادم من براغ يبحث عن احد ما. طلب فخري أن يبقى في الحديقة لحين عودته. هناك أمر مهم يود ان يتحدث به قبل ان تبدأ الجلسة الجديدة للمؤتمر.

كان ابو نبيل قد بدأ مداولاته مع عدد محدود من الرفاق، في محاولة لجس النبض، حول الأسماء التي يراها مؤهلة لتولي المسؤولية في قيادة الحزب، خصوصا انه وقف ضد الاغلبية من اعضاء اللجنة المركزية السابقين في ترشيح انفسهم من جديد. ادرك ان الوقت حان لاقناع البعض من الرفاق القريبين اليه، لمفاتحتهم والاستئناس بآرائهم. كان مفيد وسامي خالد ود. حسان عاكف ولبيد عباوي، من الأسماء المرشحة للدورة الجديدة.

عاد فخري اليه، فوجده يتبختر في ارجاء الحديقة، ومستغرقا بالتفكير، لعله يهتدي الى ما يريده ابو نبيل منه.

لم يكن خافيا على معظم الرفاق في الحزب، ان هناك خلافات وصراعات بين اعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي. فخري، وخلال السنتين الاخيرتين، كان لولب هذه الصراعات، بسبب اختلافه مع عدد كبير منهم حول سياسة التحالفات، وتشبث البعض من اعضاء المكتب السياسي في البقاء داخل المؤتمر الوطني العراقي الموحد، وسفر رفاق قياديين الى خارج الوطن، طلبا للجوء السياسي في اوروبا. يضاف الى ذلك، خلافاته الشخصية التي لم يتوان عن ذكر بعضها في مداخلاته اثناء انعقاد جلسات المؤتمر، وقبل ذلك، في الاجتماعات الاخيرة للجنة المركزية التي هيأت لانعقاده في الوقت المحدد.

كان فخري مرتاحا للقاءاته مع الرفاق الذين توسم فيهم الثبات والعمل الجاد والخبرة الواسعة في المجالين الفكري والتنظيمي، ففاتحه بالأمر وبتلك الاسماء، وهو مطمئن الى ان رفيقه سوف لا يرفض الترشيح. قال لهم، كل عن انفراد، بأن الحاجة ماسة في هذا المؤتمر، الذي سمي بمؤتمر الديمقراطية والتجديد، لاعادة بناء الحزب ديمقراطيا في هذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها، بعد ان تعرض الى عدة انتكاسات منذ اغتيال ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وتصفية قادته على يد انقلابيي ٨ شباط الأسود ١٩٦٣، ومحاولة الاندماج في الاتحاد الاشتراكي العربي الذي سمي بخط آب ١٩٦٤، واخيرا، الخطأ في قبولنا واستمرارنا في جبهة البعث ١٩٧٣-١٩٧٩، والخطأ الماثل امامنا في دخول المؤتمر الوطني العراقي، في الوقت الراهن.

* * *

كان اليوم الآخير لمؤتمر الحزب الذي استمر ١٢ يوما، حاسما. لم يشهد الحزب قبل هذا ، مؤتمرا استغرق مثل هذا الوقت الطويل، كالمؤتمر الثالث ببغداد١٩٧٦ والرابع في جبال كردستان ١٩٨٥.

شقلاوة الجميلة التي احتضنت المؤتمر، تنتظر الولادة الجديدة.

الفقرة الأخيرة في جدول الأعمال، انتخاب القيادة.

المؤتمرون بدأوا باختيار الأسماء التي من المفترض ان تعطي للحزب وجها جديدا.

وجاءت النتيجة، تتويجا لارادة المؤتمرين.

فاز ثلاثة رفاق من تنظيمات الداخل، للمرة الأولى.

انتخب اربعة رفاق من تنظيمات الخارج، للمرة الأولى ايضا.

بقي رفيقان من اعضاء اللجنة المركزية السابقة من الرفاق الذين نسبوا اليها في المؤتمر الرابع؛ د. حسان عاكف (ابو يسار) ولبيد عباوي (ابو رنا).

انتخب رفيقان من اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكردستاني- العراق، حيدر الشيخ علي، وابو سيروان.

انتخب اثنان ايضا من اعضاء المكتب السياسي السابق، حميد مجيد موسى (ابو داود)، وعبد الرزاق الصافي (ابو مخلص).

نسب أول سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكردستاني وفق آلية التعاون والتنسيق، عضوا في المكتب السياسي الجديد وهو عمر الشيخ (ابو فاروق).

اعتذر الرفيق عزيز محمد، (ابو سعود)، السكرتير العام للحزب، عن ترشيح نفسه، بعد ٢٨ عاما من النضال، وفسح المجال لغيره في تولي المسؤولية.

لم يحضر د. كاظم حبيب، عضو المكتب السياسي السابق، المؤتمر، وفضّل البقاء خارج المؤتمر.

لم يرشح فخري كريم، عضو المكتب السياسي السابق، نفسه من جديد، وآثر ان يتفرغ لمشروعه الفكري والثقافي في مؤسسة " المدى " وفي رئاسة تحرير مجلة (النهج) الفكرية، و (المدى) الثقافية.

في اول اجتماع للجنة المركزية الجديدة، لم يبق من اعضاء المكتب السياسي السابق سوى حميد مجيد موسى (ابو داود) وعبد الرزاق الصافي، فانتخب (ابو داود) سكرتيرا للحزب.

وبدأت المسيرة اللاحقة للحزب الشيوعي العراقي في عهده االجديد..

***

كتب للمؤلف

١ - أبي
٢- الخيانة الكبرى
٣ - الصحافة العراقية - ميلادها وتطورها
٤ - قضايا صحفية
٥ - صحافة العراق - تاريخها وكفاح اجيالها
٦ - صحافة الاحزاب
٧ - صحافة تموز وتطور - العراق السياسي
٨ - أعلام في صحافة العراق
٩ - الموسوعة الصحفية العراقية
١٠ - الصحافة اليسارية في العراق
١١ - الوجدان جزء١
١٢ - رفائيل بطي (ذاكرة عراقية)
(اعداد وتحقيق) . الطبعة الاولى
الطبعة الثانية
١٣ - الوجدان (الطبعة الكاملة - جزءان)

الفهرس

الجزء الاول	5
الفصل الأول: الاجتهاد	7
الفصل الثاني: الوعي	73
الفصل الثالث: التجربة	147
الفصل الرابع: المخاض	11
الفصل الخامس: الطريق	213
الجزء الثاني	243
الفصل السادس: الامتحان	245
الفصل السابع: التجديد	289
الفصل الثامن: التحدي	321
الفصل التاسع: الثبات	353

سيرة شخصية تتسع لتصبح وطن جميل مختطف، ومحاصر.

تاريخ العراق في أكثر من نصف قرن، من خلال سيرة شخصية، الأحداث الكبرى، تنعكس على الحياة العائلية، وعلى رفاق الطريق، في الداخل، وفي المنفى، انكسرت أحلام كبيرة، وكان العراق رهينة الخوف والقتل والجوع، والديكتاتورية الطائشة التي لا تجيد إلا القتل والتدمير.

ومع كل ذلك مازالت الأحلام تولد من الرماد.

ISBN:2-84305-792-X
9 782843 057922